سلسلة التاريخ الخرافي

للحضارة المصرية

1

حكاية الهيروغليفية

رحلة الميلاد والموت والبعث



معتز فطين زغلول

حكاية الهيروغليفية

دار حروف منثورة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الكتاب: حكاية الهيروغليفية

المؤلف: د. معتز فطين زغلول

تصنيف الكتاب: تاريخ

تصميم الغلاف: كريم هلال

تنسيق داخلي: أيمن محفوظ

مراجعة لغوية: محمد إمام

رقم الإيداع: ٢٠٢٣/٨٦٤٧م

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٧٧٦٨٦٧٧٠٣

مؤسس الدار

مروان محمد

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook
Fan page: http://facebook.com/herufmansoura
Email: herufmansoura٢٠١١@gmail.com
هاتف جوال: ٠٠٢٠١١١٣٠٠٦٢٩٦ – هاتف جوال: ٠٠٢٠١٠٦٤٠٥٤٩٩٥

سلسلة التاريخ الخرافي للحضارة المصرية

حكاية الهيروغليفية

رحلة الميلاد والموت والبعث

معتز فطين زغلول

إهداء

إلى أبي وأمي

إلى زَوجتي وأَبنائي: فَطين ومَحمود ومَلك.

إِنَّ أَقَلَّ مَنْ يَعرِف عَن مِصْرَ _ وَلنَقُلْها ولا نَخَاف

المصريون!

مُقدمة السّلسِلة

"إن الذين يحاولون استرجاع التاريخ يبدأون بطبيعة الحال بما وقر في ذاكرة الناس وما تناقلوه على مر السنين، على أنهم بخلاف ما سبقوهم لا يكتفون بمجرد ترديد ذكريات الماضي وإبلاغها للناس بل يحاولون أن يسدوا ما فيها من ثغرات ويصححوا ما فيها من أخطاء لا يبتغون من وراء ذلك سوى تحقيق شيئين: الدقة والفهم. وكثيرًا ما يحدث أن تكون نتيجة جهودهم أو حتى أن يكون غرضهم - من استرجاع التاريخ - هو قتل الماضي عن طريق تحليله. وقد يتضح لهم من دراسة الذكريات أنها زائفة ومضللة. وحين يصبح ما انتهوا إليه في هذا الشأن معروفًا للجميع فإن هذا الجزء من الماضي يفقد قوته، لأنهم انتهوا إلى حيث بدأوا. ولهذا السبب فإن العلماء الذين يسترجعون الماضي قد يكون تأثيرهم مدمرًا للغاية، على أن باستطاعتهم في مقابل ذلك أن يأتوا بكثير مما هو جديد، وأن يثيروا الذاكرة الجماعية وينقوها مما قد يكون علق بها من شوائب". [١]

سلسة التاريخ الخرافي للحضارة المصرية ليست تأريخا لمصر وحضارتها منذ النشأة وحتى يومنا هذا، فلست مؤرخًا لا بالفكر و لا بالمهنة و إن كنت غير مجرد تمامًا من الإحساس بالتاريخ، فهذه السلسلة ما هي إلا مجموعة من البديهيات التاريخية التي قمت بوضعها موضع النقد والشك والتساؤل وهذه هي سمة أساسية من سمات الصحوة التي تضع بديهيات تاريخية كثيرة تشكل مرتكز إطارنا الفكري وتصوراتنا لها، وإذا بها حين توضع على مائدة الحوار والتساؤل المنهجي، وتخضع للبحث العقلاني النقدي لا تصمد طويلاً، رغم صمودها في فكر الناس قرونًا، لتكون الصدمة التي تصل بالبعض إلى حد الذهول وعدم التصديق.

هذه السلسلة تطيح بالبديهيات التي ترسخت في أذهان الكثيرين على أنها حقائق مطلقة لا يجوز المساس بها حتى أصبحت إطارًا فكريًا حاكمًا ننطلق منه وننظر إلى الأحداث على هديه وفي ضوئه، وإن خالفته الوقائع كذّبنا الواقع وعدنا إلى بديهيتنا إمامًا مطلقًا له الحاكمية

هذه السلسلة تعد صدمة لنا إذ تكشف لنا ما تعرض له تاريخنا من مؤامرات حكمته واستبدت بالفكر الإنساني. ولمّا كانت الحقيقة هي الطريق إلى الحرية فإن التزييف والتضليل هو الطريق للعبودية والاستعباد.

وإذا كنا عشنا قرونًا أَسري الأوهام والأساطير بحجة البديهيات وعانينا من جراء ذلك الغموض وانتشار الأساطير فقد كنا ضحايا من سلبونا الحقيقة وزيفوا تاريخنا، دون أن

---

[١] برنارد لويس Bernard Lewis - أستاذ فخري بريطاني-أمريكي لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون. وتخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب وتشتهر خصوصًا أعماله حول تاريخ الدولة العثمانية.

يجدوا منا مقاومةً تُذكر اللهم إلا محاولات تظهر على استحياء هنا وهناك ودون أن تجد لها ما يلزمها من مقومات الانتشار بين الناس لمرورهم عليها مرور من يرى غريبًا فيتخطاه دون أن يُلقى حتى السّلام.

لقد عانى تاريخُنا المصري القديم من الأساطير التي ارتدت ثوب الحقيقة وباتت مرجعًا يُستشهَد به وروايات غير محققة أحاطتها هالة القدسية حينا وهالة الأكاديمية أحيانا أخرى.

وصموا هذا الحضارة بالوثنية حينًا وحينًا آخر بأنها حضارة مجهولة المنشأ أقامها زرق البشرة من أطلنتس المفقودة أو ضخام الرؤوس سقطوا علينا من الفضاء أو أُناسٌ بيضٌ مجهولون لا نعرف من أين أتوا؟! ولا إلى أين ارتحلوا؟ ولا كيف انقرضوا فانقطعت الصلة بين الموجودين الآن من شعب هذا الوطن وبينهم؟ لا نعلم متى ظهرت لغتهم للمرة الأولى وكيف ماتت؟ ولماذا لم تستمر؟ لا أحد يعلم!

هذه الرؤية أصبحت تشكل أسطورةً "حقيقيةً" حينًا، بل ومقدمةً أكاديميةً ومنطلقًا للفكر والسلوك حينًا آخر حتى خرجت علينا دائرة المعارف الفلسفية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر وأقرت **"أن" تاريخ مصر القديم في حالة فوضى، يختلط فيه التطور الزمني بالدين والفلسفة، وتغرق جميعها في الغموض والاضطراب"**[٢]

أقول هذه السلسلة ليست تاريخًا لمصر، فثَمَّة مئات من الكتب تناولت هذا التاريخ. وليست الغاية منها تتبع سير الحضارة المصرية في مختلف ميادينها، فهناك عدد لا يُحصى مما سُطِّر في هذا الموضوع. وهي لا ترمي إلى هدف تعليمي أو تثقيفي. ولكنها مجموعة من الكتب غايتها إثارة قضايا معينة في صلب الحضارة المصرية، قضايا أراها شائكةً وتحتاج إلى كثير من الصبر والمداومة في الطرح حتى تنجلي حقيقتها واضحةً وضوح الشمس في السماء.

وينبغي التنبيه إلى أن هذه السلسلة كُتبت على مدى ما يزيد عن الربع قرن، بدءًا من سنة ١٩٩٥م. ومن هنا جاء هذا التنوع في تناول بعض المواضيع، وإثارة الملاحظات التي كانت تعدّل في أثناء قراءاتي، لكن ما يربطها جميعها هدف واحد وغاية واحدة فحين كتبت عن "اللوحة الأسطورة"[٣] مثلا كانت لا تهمني سوى فكرة واحدة تتصل بتفنيد ترجمة كلمة إسرائيل التي وردت في لوحة (مرنبتاح) مستندًا في ذلك لعدة مصادر ولكن مع الاستمرار في البحث والاطلاع استطعت إضافة أدلة أخرى من التاريخ تؤيد الخطأ الذي وقع فيه من ترجم كلمة إسرائيل بهذا الشكل، وإن ذلك يتعارض بالكلية مع تواجد بني إسرائيل في فلسطين في هذه الفترة، وهكذا في عدد آخر من المواضيع وفي تصوري أن هذا هو الأسلوب السّليم لتدوين التاريخ إذا أردنا إعادة كتابته بعد أن شُوِهَ عمدًا وعن سابق قصد وإصرار.

---

[٢]" Egyptians (Philosophie des), "Encyclopedie raisonne des Connstatt, ١٩٦٦, reprint of)١٧٥١ – ١٧٨٠ ed. Paris), ٥ : ٤٣٤.

[٣] أحد مواضيع الكتاب الرابع من هذه السلسلة.

وأنا هنا لا أتّبع منهجًا تاريخًيا محددًا لكتابة التاريخ وإنما كلُّ غايتي هو تفنيد الأساطير التي أحاطت بتاريخ هذا الوطن فأصبح يكتنفه الغموض وتحيط به الرّيبة.
ولعلك ستلاحظ عزيزي القارئ أن الهوامش " الحواشي " جزء لا يتجزأ من المتن نفسه ولا تقل أهمية عنه.
وستلاحظ أن فصول الكتاب منفصلة في الظاهر لكنها متصلة في الحقيقة ففي حين قد يبدو غريبًا أن الكتاب الأول عن اللغة الهيروغليفية والكتاب الثاني عن أسطورة فناء قدماء المصريين الخرافي والثالث عن أسماء مصر المتضاربة والرابع عمّن هم الفراعنة وخرافات خروج بني إسرائيل من مصر إلا أنّك ستلحظ – عندما تفرغ من قراءة السلسلة – أنها أجزاء مترابطة متماسكة ستقودك في النهاية إلى الأسباب التي أدت إلى انتشار الأساطير حول تاريخ قدماء المصريين وكيف أنه ظل ما يقرب من ألفَي عامٍ يُطلق عليه التاريخ الخرافي للحضارة المصرية القديمة.
يقول الشاعر الإغريقي (سيموندس): **"هزمناهم ليس حين غزوناهم بل حين أنسيناهم تاريخهم وحضارتهم"**.

معتز فطين زغلول

نزلة السّمان – الهرم – الجيزة

مُقدمة الكتاب الأول

" نزّهتُه عن أكاذيب الأقاويل الماضية وتحريف المؤرخين بوصف الأمم الخالية وأُخْبِرُ عنه خَبرًا يشهد العقل بصحته وتميل النفس الفاضلة إلى موافقته"[٤]

عندما تقف عاجزًا أمام ظاهرة ما لا تجد لها تفسيرًا فإنك قد تلجأ للخرافات والأساطير محاولاً أن تفسر هذه الظاهرة وهذا ما لجأ إليه المؤرخون الغربيون والعرب عندما أبهرتهم مصر بحضارتها وآثارها والتنوع البيئي في أراضيها فلم يجدوا أمامهم إلا الأساطير الواردة في التوراة والأساطير التي روج لها هيرودوت وبعض كتابات الإغريق واليونان ليفسروا ما استعصى عليهم من ألغاز هذه الحضارة القديمة الضّاربة في جذور التاريخ.

وكانت الرسومات الهيروغليفية تمثل لهم مجموعة من التعاويذ وضعها الأقدمون لتمنع العابثين وسارقي القبور من انتهاك حرمة مقابرهم، نعم صار لسان مصر القديمة مستودعًا لطلاسم ونقوش السّحر والسّحرة بل أصبحت الشاهد الأخرس على تاريخ مصر.

وانجلت الغُمة بعدما استطاع (شامبليون) فك ألغاز الخط الهيروغليفي ولكن للأسف بعد معارك شتى مع المؤسسة الدينية في أوروبا والتي وجدت اكتشافات (شامبليون) تتعارض مع نصوص التوراة وتزعزع العقيدة المسيحية التي توارثتها من تلك النصوص.

تخلص تاريخ مصر من خرافات ارتباطه بالسّحر والشّعوذة ليتصادم مع النصوص الدينية في التوراة ومازال الجدل دائرًا حتى الآن وتسببت التوراة وكتابات المؤرخين بشتى جنسياتهم في تشوهات أصابت التاريخ المصري القديم، وهذا الكتاب جُلُّ اهتمامه هو إلقاء الضوء على هذه التشويهات محاولاً تقويمها قدر الإمكان وإلا تركها عندما تعيينا الحِيلة وتندر المصادر، وإن كُنّا نبادر بإبداء رأينا فيها وما أصابها من عَوار.

ولقد بدأنا هذه السلسلة باللغة التي كان يتحدث بها أجدادنا الأوائل والخط الذي كانوا يكتبون به أَلَا وهو "الهيروغليفية"، كيف مات هذا الخط؟ ومتى مات؟ وهل اندثر؟ ومَن بَعثه للوجود؟ وكيف بُعِثَ؟ وما علاقة هذه النقوش التي تزين جدران المعابد والأهرام وأوراق البردي والمِسلات بالسّحر والطلاسِم؟

فعلى الرغم من أن الكهنة كانوا يهتمون بتدوين كل مظاهر الحياة في مصر واعتنوا بتسجيل كل ما يتعلق بحضارتهم من فكر وفلسفة ودين وطب وفلك ورياضيات وهندسة وموسيقى لكن كل ما تم تسجيله ضاع في ظروف غريبة وبسبب تتابع سريع جدًا لأحداث

---

[٤] أبو عثمان النابلسي الشافعي - تاريخ الفيوم وبلاده – (الطبعة الأولى ، المطبعة الاهلية ، القاهرة ، ١٨٩٨ م) – ص ٣

تاريخية مؤلمة أدت في النهاية إلي احتراق هذه الوثائق حينا، وتجريم التّحدث باللغة المصرية القديمة أو كتابة أي أحداث بها، بل وبتجريم الكهانة مما أدي إلى موتها في انتظار البعث من جديد، بل واستحداث دين جديد كان رمزه الإله (سرابيس) الذي عُدَ نموذجا للدمج بين الآلهة اليونانية والآلهة المصرية، وسنتناول في الجزء الأول من الكتاب كيف ماتت الهيروغليفية ومتى تم بعثها.

وسنرى في هذا الكتاب كيف كانت الحضارة المصرية القديمة تبهر العالم كله؛ غير أن السؤال المطروح كان **"ماذا كانت هذه الحضارة تقول، وما الذي كانت توصي به هذه الحكمة الرمزية؟"** تعددت فرضيات الشرح وتضاربت من الأب (كيرشر) إلى (جوزيف دوجيني) ومن الأسقف (واربوورتون) إلى (بول) – (إيرنست چابلونسكى) والقس (بارتيليمي) كما سنرى بين دفتي هذا الكتاب. وبقي الدرس المصري عصيًا على الفهم. يشده بعضهم في اتجاه السّحر، ويدفعه البعض الثاني ناحية الرمزية، في حين يجذبه الآخرون نحو العقلانية. واستعصى الدرس على الجميع هائمًا على سطح مياه النيل بين الضفتين مستمرًا على حالته الافتراضية.

هذه الحضارة المهيبة مهابة الشمس هي أقرب إلى الأبدية من أي حضارة أخرى، وكان صمتها يسحر الألباب كما يسحرها امتدادها الزمني وأبعادها الهائلة، وأبو الهول الذي كان مدفونًا في رمال الجيزة بقي رمزًا لهذه الأسرار المستعصية على الفهم، أمينًا عليها.

ولقد قسمته إلى أربع رحلات: الرحلة الأولى كانت رحلة الميلاد وكيف نشأت هذه اللغة وكيف انتشرت، أما الرحلة الثانية فكانت رحلة الموت، عن كيفية موت هذه اللغة ولماذا اندثرت، وما الأسباب التي دفعتها لذلك والرحلة الثالثة تناولنا فيها رحلة بعث هذه اللغة وما المحاولات التي قام بها الغرب والشرق ومعهم العرب لكشف أسرار هذه اللغة ومحاولة فك طلاسمها، أما الرحلة الأخيرة خصصناها لإشكالية علاقة الهيروغليفية باللغة العربية وإظهار محاولات المستشرقين لفصل الهيروغليفية عن أصلها المشترك مع العروبية والحديث عن الدور المفصل لأحمد كمال باشا مؤسس علم المصريات وأول مصري ينشر مؤلفات في اللغة المصرية القديمة وخطوطها الثلاثة.

في هذا الجزء من سلسلة **التاريخ الخرافي للحضارة المصرية** ننوه أننا لم نستتر وراء هذا العمل لنصل إلى أي غرض ديني أو قومي أو أي أغراض خفية ولكن كان كل هدفنا هو البحث وراء الحق لإجلائه. كما أننا وضعنا في اعتبارنا أن يكون أحد أهداف السلسلة الرئيسية هو الزود عن تاريخ مصر بلا أغراض أو أهواء سواء أكانت دينية أو قومية فما هي إلا دعوة لتصحيح التاريخ.

في هذه السلسلة من الكتب ردود على أباطيل كثيرة وأراجيف عديدة نادت بها ـ للأسف ـ مراجع ومتون تناولت تاريخنا القديم وترجمت كتاباته، غير أن الهوى أعياها عن واضح الحق وأبعدها عن الصراط المستقيم. وقد يكون بداية لمن يأتي من بعدي من الباحثين فيكملوا ما بدأت، ويسدوا ما في عملي من ثغرات أراها كثيرة، ويزيدوا على ما قدمت حتى تنجلي الصورة وينقشع الضباب. حيث إن التاريخ يكتب بوجهة نظر كاتبه فما يراه

البعض غزوًا يراه الآخر فتحًا ولا أعتقد أن هناك من يستطيع تحرير عقله وقلمه لفتره طويلة، فإن فعل؛ فهو الجهاد الأكبر.
وأود أن أنبه إلى أنه في صفحات غير قليلة من هذا الكتاب وما سيلي من الكتب في هذه السلسلة استعرت نصوصًا كاملةً، بل صفحات كاملة من مؤرخين مصريين وغربيين في القرون الغابرة والوسطي و في القرنين الماضيين و استعنت بكتب كاملة نقلت عنها ما نقلت و لم أحدث فيها إلا تعديلات بسيطة لا يستشعرها القارئ.
ولعلي أقتبس قول أستاذنا الدكتور (حسين مؤنس) حين قال في افتتاحية كتابه سندباد عصري: **" لذا ليس من قبيل افتعال التواضع إذن أن أقول بأن لا فضل لي في وضعه وأزعم أن دوري كان أشبه بدور المخرج الذي لا يكتب القصة ولا يستخلص السيناريو ولا يضع الحوار و لا يصمم الديكور و لا يبنيه و لا يمثل و لا يصور، إنما يستخدم كل ما تضعه حرفة السنيما و صناعتها بين يديه من ممكنات ليجمع ذلك في صورة تتجلي في ذهنه أولاً و قد ينجح في تنفيذ الصورة الذهنية و قد يفشل، و أنا هنا أدعو الله أن أكون من الناجحين بفضله."**

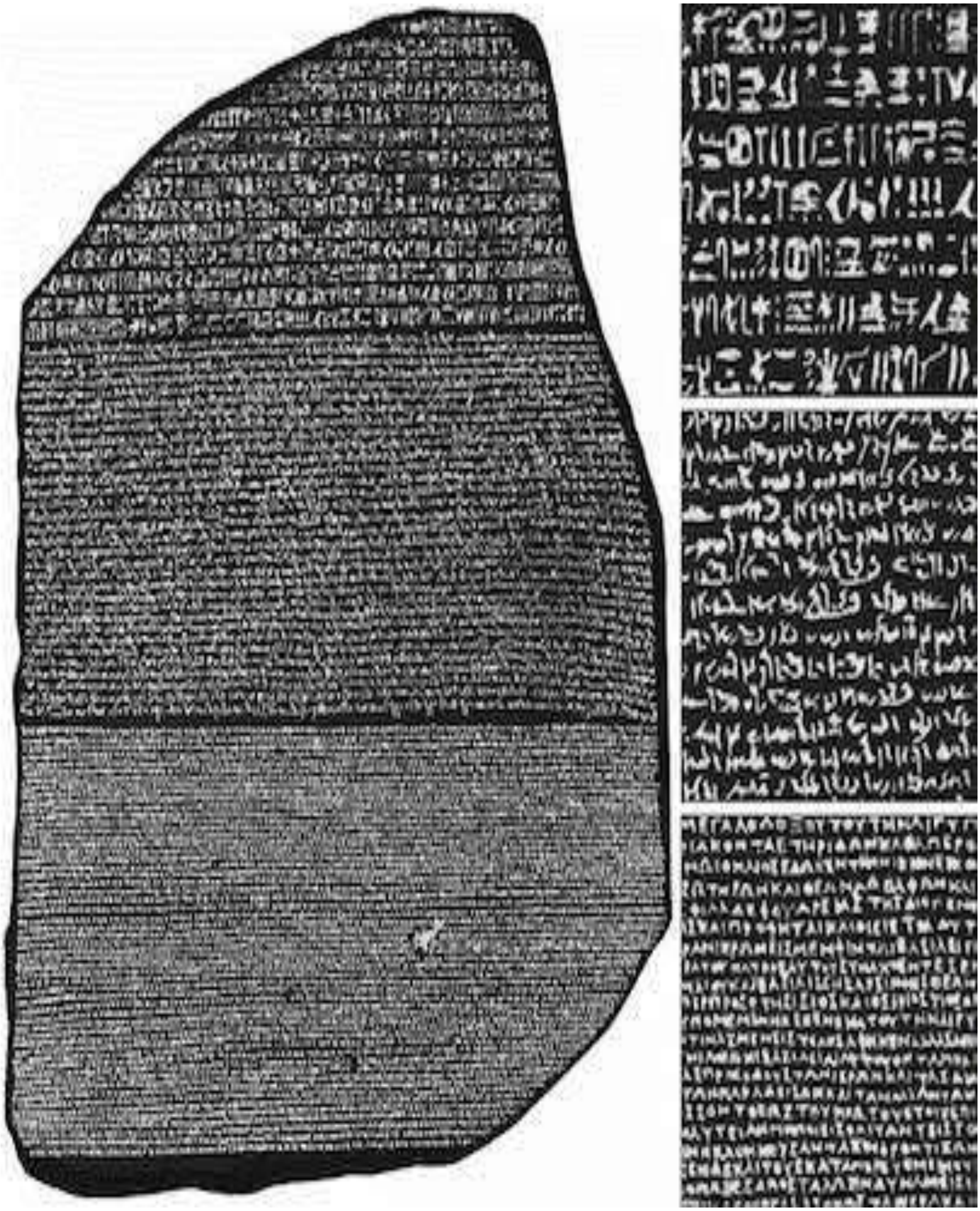
معتز فطين زغلول
نزلة السّمان – الهرم – الجيزة
١٩٩٥

قبل بداية الرحلة "كيف تتحول لغة إلى رموز سحرية"؟



"المشكلة أنهم كتبوا لكننا لم نستطع أن نقرأ ما كتبوا.. ليس لأننا جاهلون بالقراءة.. ولكن لأن اللغة التي كتبوا بها قد اندثرت لأسباب قد تكون سياسية أو دينية أو غير هذا وذاك.."[٥]

[٥] الباحث: أشرف السيد الشربيني - http://histoc-ar.blogspot.com



صورة رقم (١) حجر رشيد[٦]

[٦] قطعة غير منتظمة من البازلت ، بل صحيفة أثرية قدر لها أن تشغل الباحثين بما أحدثت من أثر خطير في تراث العالم القديم عامة ، إذ أفضت إلى كشف السر عن تاريخ وحضارة مصر ، إذ عُثر على كسيرة منه، أُفتُقد جزء من زاويته اليمنى واليسرى من أعلى ، وجزء من زاويته اليمنى من أسفل ، فضلاً عن شرخ في نطاق النص الإغريقي من السطر العشرين . يبلغ طول هذا الحجر ثلاثة أقدام وتسعة قراريط، وعرضه قدمين وأربعة قراريط ونصفا، وسمكه أحد عشر قيراطًا.

يقول البارون (دومنيك فيفيان دينون[٧])"وبقيت هناك مشكلة هي كيف أمكن لحضارة بلغت مثل هذا الكمال في العصور القديمة أن تنحدر إلى وضعها الحالي في نهاية القرن الثامن عشر. لقد دفع مصر إلى الانحدار نفس النفوذ الذي أوقف تقدم أوروبا طيلة قرون، نفس الطغيان الذي تحررت منه فرنسا لتوها: الكهنة. وكما علقت الكنيسة أسرارها في لغة ميتة لتبقى قبضتها على أذهان الناس العاديين، فقد أخفى كهنة مصر القديمة أسرارهم الخفية في رموز الهيروغليفية العويصة التي تغطي جدران المعابد."

و(دينون) يرى تشابهًا واضحًا بين جيزويت[٨] عصره وكهنة مصر القديمة: **"طغاة وضيعون منافقون.. يمتلكون كل العلوم، ويغلفونها في رموز وأسرار حتى يمكن أن يضعوا حاجزًا بينهم وبين الناس، فالملك يخدمه الكهنة، ويشير عليه الكهنة، ويطعمه الكهنة، ويعظه الكهنة"**.

ولكن هل كان الكهنة هم السبب الأوحد لموت الخطوط المصرية القديمة؟ كما ذهب إلى ذلك (دينون) أم أن للقصة وجوها أخرى أكثر قتامة؟

الهيروغليفية الشاهد الأخرس

ربما تملكتني روح أحد سارقي الآثار الأوروبيين في القرن السابع عشر وأنا أنظر إلى مجموعة من تماثيل قدماء المصريين لشخوص قمت بالاستيلاء عليها بعد التنقيب في أرض مصر وأجدني أقف أمامها تنهشني الحيرة فأنا لا أعلم من هؤلاء؟ ولا أعلم متى حكموا؟ أو كيف حكموا؟ ولا أعلم إنجازاتهم، أجدني أنظر إلى هذه النقوش على التماثيل وكأنها طلاسم الغاز أحاجي لا أعلم لها معنى، هل هي نقوش زخرفية تزين التماثيل؟ هل هي لغة ما لم تحل رموزها بعد؟ هل هي طلاسم سحرية؟ كل هذه التساؤلات ربما كانت تُثار في عقلية كل من نهب أثار مصر من الشرق أو الغرب أو من تلقفوها على سبيل الهدية أو من هواة جامعي التحف لأن اللغة التي تحوي إجابة هذه التساؤلات لم تكن مفهومة في القرنين السابع عشر ولا الثامن عشر أو بواكير القرن التاسع عشر، بل لم تكن مفهومة قبل ذلك وتحديدًا منذ منتصف القرن الخامس الميلادي حينما أمر الإمبراطور "جيستينيان Justinian"[٩] في عام ٥٣٠م بتحريم عبادة " إيزيس" وإغلاق

---

[٧] فنان وكاتب مسرحي وعالم آثار ودبلوماسي فرنسي وممثل المجمع المصري بالقاهرة – (٤ يناير ١٧٤٧ - ٢٧ إبريل ١٨٢٥)

[٨] هي واحدة من أهم الرهبانيات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، ومن أكبرها. تأسست على يد القديس أغناطيوس دي لويولا في القرن السادس عشر أيام البابا بولس الثالث في إسبانيا

[٩] الإمبراطور جيستينيان الأول (فلافبوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس) (٤٨٢، ٤٨٣ - ١٤ نوفمبر ٥٦٥) كان إمبراطوراً رومانياً شرقياً (بيزنطياً) حكم منذ أغسطس عام ٥٢٧ حتى وفاته في نوفمبر ٥٦٥. يشتهر بإصلاحه الرمز القانوني المسمى قانون جيستينيان خلال لجنة تريبونيان، والتوسع العسكري للأرض الإمبراطورية أثناء عهده، وزواجه

معبدها في جزيرة "فيله"، لم يستطع أحدٌ فهم النصوص التي تغطي جدران المعابد المصرية، ومن ثم احتفظت هذه المعابد بأسرارها.
وإن كان مُبررًا أن يجهل العالم فك رموز هذه الطلاسم وتلك اللغة فغير مُبرر وغير مفهوم أن يجهل هؤلاء ـــ من تحدثوا بهذه اللغة يومًا وخطوا بها مدوناتهم وتاريخهم ـــ معنى هذه الرموز وإلام تشير؟
" يشير دكتور (طه عبد العليم)[١٠] في مقال له أن (حسين فوزي)[١١] في تأريخه لانقطاع صلة المصريين بتاريخهم العريق ولغتهم المجهولة إلي أن دخول المصريين في المسيحية لم ينته فقط إلي فقد أسرار الكتابة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية، بل إلي فقد معالم التاريخ المصري. وإذا كانت اللغة المصرية بقيت لغة المخاطبة بين المصريين حتى بعد الفتح العربي بزمان طويل[١٢]، فإن كتابتها بحروف يونانية وامتزاجها بغير قليل من الألفاظ اليونانية وبخاصة ما يستعمل منها في طقوس الكنيسة وفي القضاء والإدارة، قطع ما بينها وبين اللغة القديمة قطيعة نهائية. بل وأصبح من الخطر على المصريين، وطلاب العلم علي وجه خاص، أن يضبطوا وفي حيازتهم برديات قديمة. ولقد اكتشف طلبة ذلك الزمان أن زميلاً مصريًا لهم يخبئ لفافات بردية، ولم يتركوا زميلهم الشاب المصري حتى أحرق أمامهم بردياته. ويقول(ساويرس)[١٣] الذي يحكي هذه الحكاية:' لقد أشفقنا عليه؛لأننا مسيحيون نخاف الرب'. ويورد (يوحنا) فم الذهب'[١٤] قصة مماثلة شهد وقائعها في شبابه: **"كبس الشرطة رجلاً يخبئ برديات تحتوي علي أسرار السحر، ومع أنه تمكن من إلقائها في النهر، فقد قُبض عليه، وحُوكم، وأُعدم!"**
وهكذا، فإن التحول إلي المسيحية هو الذي قضي علي مصر القديمة، عقيدةً وقلمًا وتاريخًا وآثارًا، ولم يفعل المصريون المسلمون أكثر من الإجهاز علي مصر القديمة ومعالمها، ثم مطاردة لغة المصريين القديمة[١٥]، حتي جاء زمان أضحي فيه رجال الدين

وشراكته مع الإمبراطورة ثيودورا. يعرف أيضاً باسم «الإمبراطور الروماني الأخير». يعتبر قديساً في الكنيسة الأرثوذكسية، ويحيى في الرابع عشر من نوفمبر. وقد تولى الحكم بعد وفاة عمه الإمبراطور جستين الأول.
[١٠] صحفي وباحث في الاقتصاد السياسي. كان رئيس الهيئة المصرية العامة للاستعلامات منذ ٢٠٠٣، ونائب رئيس مركز الأهرام
[١١] عالم بحار وكاتب مصري برز في أدب الرحلات حصل حسين فوزي علي بكالوريوس الطب، ثم ليسانس العلوم من جامعة السوربون، ودبلوم الدراسات العليا في علم الأحياء المائية من جامعه تولوز. من كتبه سندباد عصري.
[١٢] بل نري أن اللهجة المصرية والتي نتحدث بها اليوم لم تتغير منذ الالاف السنين وإن ضمت لمفرداتها مفردات من لغات أخري ومنها العربية.
[١٣] يقصد ساويرس بن المقفع أسقف قبطي مصري، وكاتب ومؤرخ. كان ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين بالصعيد وهوصاحب كتاب تاريخ البطاركة.
[١٤] يوحنا ذهبي الفم أو يوحنا فم الذهب يوانوس خريسوستوموس، كان بطريرك القسطنطينية واشتهر كقديس ولاهوتي. عُرف باليونانية بـ «ذهبي الفم» لفصاحته، إذ كان تلميذ معلم البلاغة الشهير ليبانيوس. ويُعتبر يوحنا ذهبي الفم أنطاكي الأصل قديسًا لدى جميع الطوائف المسيحية
[١٥] سنري فيما يلي من أجزاء هذا الكتاب عدم دقة هذا القول عند حديثنا عن العلاقة بين المصرية القديمة واللغة العربية.

المسيحي لا يكادون فيه يعرفون من هذه اللغة إلا القليل، يرددونه في بيوت عبادتهم. ويسجل حسين فوزي أنه إذا كان أجدادنا من الأقباط قد حاولوا الإبقاء على لغة المصريين القديمة فلم يكن ذلك ليعيدوها لغة تخاطب، وإنما حرصًا على الطقوس وحفاظًا للكتاب المقدس في ترجمته القبطية القديمة. ثم كان تعريب مصر، الذي وصل الي أن صارت اللغة العربية وسيلة لتعليم اللغة القبطية، كما يظهر من الكتب التي ألفها لهذا الغرض من تبقي من المصريين على عقيدته المسيحية من القرن السادس عشر وما بعده. ولم يكن أمر الفتح العربي مجرد ديانة اعتنقها المصريون رويدًا، أو حتى مجرد لغة حلت شيئًا فشيئًا على اللغة الرسمية السائدة في البلاد وهي اليونانية، ثم انتهت بالتغلب على ما تبقي من اللغة القومية وهي المصرية القديمة "القبطية".

والأمر أن هذا التحول الكامل في حياة مصر، الذي ترتب على تعريب واعتناق غالبية المصريين الإسلام تدريجيًا، قد فصلها فصلاً تامًا عن تاريخها السابق على الفتح الإسلامي. ولكن يستدرك السندباد المصري[16] هنا قائلاً: إنه من الخطأ أن نحمّل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها القديم، لأنها في الواقع كانت نبذت هذا التاريخ منذ تحولت من المعتقدات المصرية القديمة إلي المسيحية في القرون الأولي بعد الميلاد. كما أنه من الخطأ أن نحمل المسلمين المصريين تبعة تخريب المعابد الفرعونية، لأن المسئول الأول عن هذا التخريب كان المصريون المسيحيون. فما إن أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس[17] أمره بإيقاف عبادات المعتقدات السابقة للمسيحية في أنحاء الإمبراطورية في سنة٣٩٥ م، حتى راح المسيحيون المصريون يهدمون أو يخربون تلك المعابد، أو يحيلونها إلى كنائس وبِيَع. وإذا كان المسيحيون المصريون قد احتفظوا بلغتهم القديمة، فإنهم يتحملون تبعة ضياع مفتاح الكتابة المصرية الهيروغليفية الديموطيقية، حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم خمسة عشر قرنًا! فلم يكن ثمة ما يدعو المسيحيين المصريين إلى الاحتفاظ بأسرار الكتابات القديمة وقد يسرت لهم الأحرف اليونانية كتابة لغتهم، التي عرفت منذ ذلك الوقت باسم اللغة القبطية. وليس معني ذلك أن المصريين بعد أن صاروا مسيحيين قد نبذوا كل شيء من تاريخهم السابق على المسيحية- وهو أمر لا يقبله عقل- فلا شك أنهم قد احتفظوا بجانب من تراثهم. فإن الشعب المصري المسيحي، الذي كان يمثل في غالبيته العظمي شعب مصر القديم، قد احتفظ بخصائصه: فضائله وعيوبه، على طول الاحتلال المقدوني والروماني والبيزنطي.

ولكن لغة المصريين تأثرت دون شك باللغة اليونانية السائدة في الهيئات الرسمية، كما تأثرت طقوسه وألحانه الكنسية وطرزه المعمارية وزخرفه بالفن البيزنطي، بعد أن تحول الأباطرة الرومانيون إلى الديانة المسيحية. وحين اعتنق المصريون في غالبيتهم

[16] لقب يطلق على العالم والرحالة والمؤرخ والأديب المصري حسين فوزي.

[17] الإمبراطور ثيوذوسيوس الكبير ثيودوسيوس الأول ٣٤٧ - ٣٩٥م آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة حيث انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين بعد وفاته.

الإسلام، لم يحتفظوا بلغتهم القومية. وأما القلة التي تمسكت بالمسيحية فقد جاهدت في الإبقاء على لغتها القبطية حية حتى قرون متأخرة. ولكن هذه اللغة انتهت، بعد القرن السادس عشر أو السابع عشر، إلى أن تكون لغة الطقوس الكنسية فحسب، بل وآلت إلى أن تكتب بحروف عربية. ويري الباحثون في علم الأجناس أن الجنس المصري لم يتأثر في غالبيته بالاختلاط مع القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح العربي[١٨].

وبرغم ما يقوله- وهو علي صواب- المؤرخ الألماني الكبير (أدولف إرمان) من' أن الشعب الذي سكن مصر القديمة يعيش حتي الآن في السكان الحاليين لهذه البلاد'؛ يري السندباد المصري[١٩] أن الحقيقة الواقعة، وما نراه من إحساس المصريين بعروبتهم، تدل علي انفصام كامل بين مصر الإسلامية وما سبقها[٢٠].

والواقع أن المصري المسلم ينظر إلي الإسلام كأساس لحضارته، ويعتبر العصور السابقة علي الإسلام كأنها تاريخ شعب آخر انتهي أمره! ويعتبر اللغة العربية وما تحمله من ثقافة كأساس لحضارته. والنتيجة العملية لكل هذا هي أن المصريين المسلمين يبدأون تاريخهم الحضاري أو تاريخ مصر بالفتح الإسلامي، بينما يبدأ المصريون المسيحيون تاريخهم الحضاري أو تاريخ مصر بكرازة مرقس الرسول."[٢١]

نتيجة لكل ذلك، انزوت حضارة مصر القديمة، اختفت الآثار المصرية في زوايا الإهمال والنسيان وتعرض جانب كبير منها للسرقة والضياع والفقد والتشوية والغريب أن جانب آخر كبير منها ما زال مختفيًا لم يُكتشف بعد، وظلت النقوش المحفورة على جدران المعابد والمسلات والتي تمتلئ بها أوراق البردي ما هي إلا مجموعة من الطلاسم التي يستخدمها السّحرة لاستحضار الجن وأرواح العالم الآخر واتفقت كل الحضارات على رؤيتها للحضارة المصرية وما خلفته من آثار أن نقوشها طلاسم سحرية وأن آثارها مجموعة من الأوثان.

كتب (جان جاك رينو) وهو نحات فرنسي وصل إلى مصر في عام ١٨٠٥ وقضى أربعين عامًا بها " **أن المصريين كانوا يشعرون بالحيرة من القيمة العالية التي يضفيها الأجانب على قطع قديمة عديمة الجدوى من الحجر والتماثيل. وتوصلوا إلى تفسيراتهم الخاصة لذلك فالبعض قال إن المنقبين من الوثنيين - يقصدون نابشي القبور الأوربيين- الذين يعبدون الآلهة القديمة؛ لأنهم رأوهم يربتون على التماثيل، ولأنهم أحياناً ما يرطبون الحجر بألسنتهم ليحددوا تكوينه، فقيل إنهم يقبلون أصنامهم سرًا، في حين ذكر آخرون ممن حيرهم الجهد والنفقات التي يقدمها الأوربيون ليحصلوا**

---

[١٨] سنناقش هذه النقطة بالتفصيل في الكتاب الثاني من هذه السلسلة وهناك تفصيلات تم إدراجها في هذا الكتاب عند حديثنا عن محاولات التقريب بين المصرية القديمة واللغة العربية.

[١٩] يقصد د حسين فوزي الذي له كتاب يحمل نفس الاسم "سندباد مصري" يحكي جوانب مجهولة من التاريخ المصري وبالأخص تاريخ المصريين وليس التاريخ المعتاد تداوله من تاريخ الحكام والملوك

[٢٠] لعلنا نرى أن السبب في ذلك ما ذهب إليه أرمان وأيده فيه مؤرخنا حسين فوزي ولكني على يقين أن سببه هذه الجذور الأولى التي جمعت بين الآباء المصريين الأوائل وإخوانهم من العرب.

[٢١] د/ طه عبد العليم - كيف انقطعت صلة المصريين بتاريخ مصر – بوابة الأهرام الالكترونية - https://www.ahram.org.eg/Archive/١٨٤/٢٠١٠/٦/١/١٠/٢٢٩١٣.aspx

على شظايا: أن المرمريات[٢٢] القديمة تحوي ذهبًا، وأن المنقبين قد اكتشفوا سر استخراجه[٢٣]".

كان الضباب يلف رؤية المصريين لآثارهم ولمجدهم الغابر بل ورؤية الأوروبيين لمصر القديمة قبل فك ألغاز الهيروغليفية، فقد كانت معرفتهم بمصر تعتمد على الروايات اليونانية الرومانية، والإنجيل والتوراة، وما يراه الزائر من آثار مهملة. فهناك لوحة على واجهة "المتحف المصري" بالقاهرة تخلد ذكرى هيرودوت، و أرانوس، ومانيتون، وهور أبوللو[٢٤]، وهم من الإغريق والمصريين المتأغرقين الذين كتبوا عن مصر القديمة.

وعندما زار(هيرودوت)[٢٥]مصر عام ٤٥٠ ق.م، كان باستطاعته أن يستعلم من الكهنة الذين كانوا يمارسون الخدمة الدينية بالمعابد، ويعرفون الهيروغليفية، فكتب بقدر من المعرفة عن الأسرة الفارسية السابعة والعشرين وعن الأسرة السابقة لها (٦٤٤ ـ ٥٢٥ ق.م)، والأسرة "الأثيوبية" الخامسة والعشرين (٧٤٥ ـ ٦٦٤ ق.م)، ولكن معلوماته عن الحقب الأقدم لهذا التاريخ كانت تفتقر إلى الدقة على نحو شبيه بما كتبه هوميروس[٢٦]، فقد كان الفارق الزمنى بين هيرودوت وعصر بناة الاهرام ألفي عام. وقد كتب كل من الكاهن المصري (مانيتون)، والعالم الإغريقي الموسوعي(إراتوس) أمين مكتبة الإسكندرية، تاريخها باليونانية بعد ما أصبحت مصر تنتمى إلى العالم الهلنستي[٢٧] بعدما ضمها الإسكندر إليه. ولم يتبق من تاريخ مانيتون سوى قائمة بملوك مصر، ولكن علماء المصريات لا زالوا يستخدمون تحديدها المناسب للأسرات الحاكمة.

وخلال العصور الوسطى الأوروبية، جذب الحج والحملات الصليبية والتجارة الأوروبيين إلى مصر. فقد توقف الحجاج بمصر في طريقهم إلى القدس، ليشاهدوا المواقع المصرية التي ارتبطت بيوسف وموسى وعيسى، والقديس مرقص والقديس أنطونيوس، وأُدرجت الأهرامات في مشاهد الحج باعتبارها صوامع يوسف التي قام العبرانيون ببنائها![٢٨]. وعلى الصعيد التجاري، قام جون ساندرسون التاجر الإنجليزي

---

[٢٢] جمع كلمة مرمر وهو الألباستر وهو نوع من الأحجار استعمله القدماء منذ غابر الأزمان في نحت التماثيل وصنع أدوات الزينة.

[٢٣] اغتصاب مصر " كيف جرد الأوربيون مصر من تاريخها" ـ بيتر فرانس - ترجمة محمد مستجير ـ سيفا والانتشار العربي للنشر ـ الطبعة الاولى ـ ص ٣٩.

[٢٤] هو المؤلف المفترض لأطروحة، بعنوان الهيروغليفية، عن الهيروغليفية المصرية، وهي موجودة في ترجمة يونانية، ويعود تاريخها إلى القرن الخامس تقريبًا.

[٢٥] هيرودوت أو هيرودوتس، كان مؤرخا إغريقيًا يونانيًا آسيويًاعاش في القرن الخامس قبل الميلاد. اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدّة زارها حول العالم المعروف آنذاك، وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسية على اليونان.

[٢٦] هوميروس شاعرٌ ملحمي إغريقي أسطوري يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة. ٧٥٠ ق.م

[٢٧] العصر الهلنستي فترة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تذخر بالكثير من مظاهر الحضارة في ذلك الحين. وقد بدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م، واستمرت حوالي ٢٠٠ سنة في اليونان وحوالي ٣٠٠ سنة في الشرق الأوسط.

[٢٨] مجموعة من الأساطير كان يتم الترويج لها وما زالت تردد حتى بين بعض الأكاديميين.

بشحن ستمائة رطل[٢٩] من المومياوات إلى بلاده في أواخر الثمانينات من القرن السادس، السادس، لأنه كان يعتقد بفائدتها في علاج الجروح والرضوض والكدمات![٣٠]
لم تكن اللغة المصرية القديمة معروفة حتى باعتبارها كتابة، فالواقع أن كلمة "الهيروغليفية" المستخدمة لوصف أشرطة من الصور والرموز تعني باليونانية "الحفر المقدس" وليس "الكتابة المقدسة" التي تعني «الهيروغليفية»، وهي كلمة لم تستخدم حتى عام ١٨٠٣م حين تم تفكيك شفرة هذه الرموز على يد (شامبليون) رغم ما صاحب ذلك من معارك عدة حول عمر الحضارة المصرية وتعارضه مع عمر الإنسان على الأرض كما جاء في العهد القديم، وكذلك المعارك التي دارت بين الإنجليز والفرنسيين حول من يجب أن تُنسب إليه سابقة كشف رموز الكتابة المصرية هل هو شامبليون الفرنسي أم العالم البريطاني توماس يانج، أم أن العرب سبقوا الجميع في حل لغز هذه الرموز.
ربما يتبادر إلى ذهن البعض أن الحضارة المصرية القديمة حضارة ملعونة لكني أقول: إن الحضارة المصرية كانت أكثر الحضارات ملاحقة بالحظ السيء، فهذه الحضارة التي كانت تهتم بتسجيل كل شيء كما لم تسجل أي حضارة أخرى، وكان كل ملك يصحب معه الكاتب الخاص به في كل مناسبة ليسجل ما يحدث، ورغم أن كهنة كل أسرة كانت تهتم بنقل كل ما كتبته الأسر السابقة مع إضافة عصرها هي، ورغم أن المصريين القدماء كانوا يسجلون كل ما يتعلق بحضارتهم من فكر وفلسفة ودين وطب وفلك ورياضيات وهندسة وموسيقى، رغم كل ذلك فإن كل ما سُجل في كل هذا التاريخ الطويل فُقِدَ وضاع في ظلمات التاريخ بسبب تتابع سريع جدًا لأحداث مهمة ربما كانت الغزوات المتتابعة في القرون الخمسة الأخيرة قبل الميلاد وما تلاها من انحسار دور الكهنة وتبديل الآلهة المصرية ودمجها بآلهة غريبة عن هذا الشعب وإطلاق أسماء لم يسمعوا عنها من قبل وربما لغروب الديانة الوثنية أمام إشراقة المسيحية، وربما كان التخلي عن اللغة القديمة ونبذها لأنها كانت تذكر المصريين المسيحيين المؤمنين بهذا الإرث الوثني الذي ورثوه طوال آلاف الأعوام وأرادوا وضع حد فاصل بينهم وبينه؛ فتخلوا عن ديانتهم الوثنية وتخلوا عن لغتهم وابتدعوا لغة جديدة أطلقوا عليها القبطية لتواكب مفردات ومصطلحات الديانة الجديدة والتبشير بها.
ومع ذلك يخطئ من يعتقد أن الحضارة قد هوت في جب جهالة العالم الخارجي لها بعد أن اختفي قُرّاء أوراق البردي والمسلات وتجريم الكهانة والتحدث باللسان المصري القديم.
لكن ظلت مصر - الصامتة العظيمة - حية على الدوام!! حية ولكن منقبة.. في التوراة والثقافة اليونانية والسلطة الرومانية ومن خلال الأفلاطونية الجديدة لعصر النهضة وأخيرًا من خلال بعض الطوائف الدينية التي قدست الإلهة إيزيس في الغرب بعد تحوير

---

[٢٩] لك أن تتخيل كم أتلف هؤلاء من مومياوات حتى يحصلوا على ما يعادل ٢٧٠ كيلوجرامًا منها.
[٣٠] دونالد مالكولم ريد – من الفراعنة - ترجمة: رءوف عباس - - نسخة اليكترونية – ص ٤٧

الديانة المصرية القديمة.. ولذا يجب أخذ كل هذه العلامات التي على الطريق في الاعتبار والتي قادت الباحثين وزودتهم بالمعلومات أحيانًا، وضللتهم أحيانًا أخرى طوال الفترة من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر.

اليهود والتوراة والتضليل

ذُكِرَت مِصرُ كثيرًا في التوراة (التي يقرأها المستشرقون وعلماء المصريات والباحثون في الرموز المصرية القديمة في نصها العبري)[٣١] وإن كان ذكرها غالبًا ما كان يجري على أنها العدو الذي يُعذب ويُفسد الشعب المُختار. وقد سجل (جورج بوزنر)[٣٢] عدد ٦٨٠(ستمائة وثمانين) ذكرًا لمصر في التوراة، وفي المقابل لم يظهر اسم إسرائيل ولا مرة واحدة في نص فرعوني[٣٣].

جمعت التوراة الفلسطينيين وبلادهم فلسطين وفرقت في الوقت ذاته بين مصر الفرعونية وشعب التوراة وظلت علاقات الطرفين مضطربة طوال العشرين قرنًا المذكورين في سفري التكوين والخروج. فهل يمكن إغفال الدور الذي لعبته مصر في تاريخ يوسف وفكر موسى وفي تشريعات سليمان أو تضرعات حرميًا؟ وكيف يمكن لعلماء المصريات الغربيين (المسيحيين أو اليهود) عند دراسة مختلف مراحل العائلات الحاكمة في مصر وتاريخ المصريين من خلال جداريات المعابد أو أوراق البردي أو متون الأهرام أو كتاب الموتى أو على المسلات أن يمتنعوا عن محاولات التقريب بين ما وجدوه وبين ما تلته التوراة كما حدث عندما حرفوا كلمة فرعون وحرفوا كلمة يزيرارو على لوح مرنبتاح وقالوا: إن هذه الكلمة تعني إسرائيل وبِناءً على ذلك فمرنبتاح هو فرعون الخروج وأبيه رمسيس الثاني أعظم ملوك مصر هو فرعون التسخير والتعذيب؟!

لقد كان معظم هؤلاء يمسكون المتن المصري القديم بيد وباليد الأخرى يحملون التوراة فهل يُكَذّب هؤلاء التّوراة التي نادت بوثنية هذا الشعب وهذه الحضارة؟!

---

٣١ سنتحدث عن هذا الاسم الذي تم ذكره في القرآن في الجزء الثالث من هذه السلسلة عند معرض حديثنا عن أسماء مصر.

٣٢ جورج بوزنر (بالإنجليزية: George J. Posner) أحد مؤلفي كتاب معجم الحضارة المصرية.

٣٣ ونحن هنا لن ننساق أمام النظريات التي تقول : إن اسم إسرائيل ورد مرة على لوح لمرنبتاح ابن رمسيس الثاني لأن هذا الجدل وهذه النظريات الواهية سنناقشها بالتفصيل في أحد أجزاء هذه السلسلة تحت عنوان لوح الأسطورة.

لعنة الإيجبتومينا[٣٤]! انتشار الإيزيسية في أرجاء العالم الهلنستي وأوروبا القديمة

ورغم كل هذه الأساطير إلا أن الحضارة المصرية لم تمت إلا في مخيلة أبنائها الذين أنشأوها والذين حكموا بوثنيتها أخيرًا، ولكنها لم تك كذلك من وجهة نظر الغرب الذي كان يحبوا في ميله الأول ليصل إلى الحضارة أو كما يحكى أفلاطون في محاوراته (طِيمَاوُس) Timée " **أن سولون[٣٥] لدى زيارته لمصر نزل ضيفًا على كاهن عجوز وقص عليه تاريخ بلاده فقاطعه مضيفه قائلاً: «إنكم يا معشر اليونانيين لازلتم أطفالاً فلا يوجد بعد شيوخ في اليونان...**

- فسأله سولون: ماذا تقصد؟

- فرد عليه الكاهن العجوز: إنكم مازلتم شبابًا في التفكير؛ لأنه لا يوجد لديكم بعد أي تراث قديم بحق ولا أي نظرية أو عقيدة شابت مع الزمن..."[٣٦]

ويذهب يورجس بالتروسايتيس[٣٧] في كتابه البحث عن إيزيس إلى أن هدّ المعابد ومنع إقامة العبادات وتحريم استخدام الكتابة المقدسة قد حوّل هذه الحضارة في نهاية القرن الرابع من مجال دراسة الآثار إلى مجال الروايات والأساطير ورافق هذا التحول لعنة أصابت أوروبا فقد أدّى هذا التحول حسب قوله إلى دعم انتشارها وجعل آلهتها يمنحونها فرصة الأخذ بالثأر ممن قضوا على لسانها، بأنها انتشرت فجأة عبر الإمبراطورية الرومانية كلها، بل وفرضت نفسها بإلحاح على الأفئدة. "فكاليجولا[٣٨] ويومينيسيان "معتنقي الحضارة المصرية" في العلن.

كما شيد كاراكالا[٣٩] "إيزيوم" أول معبد إيزيسى فوق الكويرينالي[٤٠] في روما دامجًا هكذا عبادة الإلهة الكبرى إيزيس مع الديانة الإمبراطورية. ومنذ ذلك الحين أصبح آلهة وادي

---

[٣٤] الإيجيبتومانيا هي الولع المرضي بمصر أو الجنون بمصر

[٣٥] سولون أو صولون، مشرع، شاعر ورجل قانون أثيني، قام بسن مجموعة من القوانين الإصلاحية والتي تعارضت مع نظام الدولة المتبع آنذاك ورغم أن إصلاحاته فشلت فيما بعد إلا أنه يعتبر الممهد لقيام ما تم تسميته لاحقًا بالنظام الأثيني الديمقراطي. عُرف سولون بلقب مؤسس الديمقراطية.

[٣٦] جان لاكتوير – شامبليون حياة من نور – ص ١٦

[٣٧] شاعر كان جورجيس بالتروشايتيس مؤرخًا فنيًا ليتوانيا وناقدًا فنيًا ومؤسسًا لبحوث الفن المقارن. كان ابن الشاعر والدبلوماسي يورجيس بالتروسايتيس. كُتبت معظم أعماله باللغة الفرنسية، رغم أنه أكد دائمًا على أصل ليتوانيا. بعد أن احتل الاتحاد السوفيتي في ليتوانيا عام ١٩٤٥، شغل منصب دبلوماسي في المنفى.

[٣٨] كاليجولا كان الإمبراطور الروماني من ٣٧ إلى ٤١م.

[٣٩] كاراكلا إمبراطور روماني حكم من ٢١١ م وإلى ٢١٧ م. ذو أصول البونيقية ناحية أبيه سيبتيموس سيفيروس و عربية سورية من ناحية أمه جوليا دومنا النبيلة الشهيرة ابنة مدينة حمص في ولاية سوريا الرومانية، التي كانت ذات نفوذ وقوة وسلطة في الإمبراطورية الرومانية

[٤٠] قصر كيرينالي ، هو مبنى تاريخي في روما، إيطاليا، وهو أحد المقرات الرسمية الثلاثة الحالية لرئيس الجمهورية الإيطالية جنبًا إلى جنب مع فيلا روزبيري في نابولي و وهو عقار في ضواحي روما على بعد حوالي ٢٥ كم من وسط المدينة. يقع قصر كيرينالي على هضبة كيرينال وهي أعلى تلال روما السبعة في منطقة تسمى بالعامية مونتي كافالو.

النيل رعاة الفيالق الرومانية من بومبي إلى الدانوب ومن جوايا (فرنسا) إلى الجزر البريطانية وحتى أطراف العالم المتحضر."[٤١]

وإذا كان قد تم اكتشاف آثار عبادات إيزيسية من بلجيكا حتى مدينة ليون وكشف كنز شيلديريك الذي عثر عليه في تورنيه عام، ١٦٥٣ إن أسلاف كلوفيس كانوا يعبدون الآلهة المصرية فإن أهم هذه الآثار تظهر واضحة في باريس والمنطقة المحيطة بها.

ومنذ القرن السادس عشر أشار چيل كوروزيه إلى أن كنيسة سان جيرمان دي بريه[٤٢] شُيدت فوق موقع إيزيوم معبد لإيزيس - وأن ضاحية إيسي الباريسية اسمها تحوير لاسم الإلهة المصرية، وأن ضاحية مولون كان اسمها إزيوس. وباريس ذاتها سميت هكذا بعد أن استوعبت جارتها تلك quasi par Isis..

أما سانت - أمان فهو يذهب إلى أبعد من ذلك؛ إذ كتب في عام ١٦٤٤ يقول: "إن أصل كلمة باريس هو فاريا (ابنة فارعون) إيزيس" - فهل من مزيد؟

وعلى العموم فإن كتاب كبار - كثيرون منهم من رجال الدين الكاثوليك - يؤكدون أن جزيرة لاسيتيه[٤٣] كانت مقرًا لمعبد إيزيس الذي كان يقع بالقرب من الموقع الذي شيدت عليه كاتدرائية نوتردام، كما أن هؤلاء المؤلفين يقرون بأن المسيحية تمد بعض جذورها في الديانة المصرية القديمة. وتذهب كريستين دي بيزان[٤٤] إلى أن الإيحاء بأن إيزيس هي نموذج للعذراء مريم!

لم تتوقف مصر - ومن خلال التوراة ثم الحضارة اليونانية - الرومانية ثم الأفلاطونية الحديثة وبعد ذلك من خلال الإيزيسية عن فرض وجودها على العالم حتى لو كان ذلك في شكل خرافي أو أسطوري. ولكن الحضارة المصرية - وعلى الرغم من ذلك الإلحاح الضاغط لم يبق فيها سوى مصدر هائل للافتراضات. وذلك ابتداء من تاريخ تدمير أعمال مانيتون التي كانت بمثابة الذاكرة الوحيدة المفهومة[٤٥] للقرون التي اختفت وذلك نتيجة حرق مكتبة الاسكندرية أثناء استيلاء قيصر على الإسكندرية عام ٤٧ ق. م وهي

---

[٤١] جان لاكتوير – المرجع السابق ص ٢٢

[٤٢] في وسط باريس الحالية

[٤٣] وهي في قلب باريس على نهر السين

[٤٤] كريستين دي بيزان كانت مؤلفة في أواخر العصور الوسطى ولِدَت بالبندقية وقاومت ما يُعرف باسم كره النساء والأفكار النمطية السائدة في الثقافة المنتشرة في أواخر العصور الوسطى.

[٤٥] رغم ما يُقال من أن المؤرخ المصري "مانيتون" استقى معلوماته من الكتابات الهيروغليفية، فقد كتب هو ذاته باليونانية وجاء تاريخه) مزيجًا من الأسطورة والخيال مما يشير إلى عدم معرفته بتلك الكتابة معرفة وثيقة كاملة ففي عهد بطليموس فيلادلفوس كان مانيتون السمنودي قد سمي كاهنا أعظم للمعابد الوثنية في مصر، وقد كتب من نقوش عن مصر القديمة ، اتبعت - كما يقول - في الكتب المقدسة والحروف المقدسة [التي ابتدعها] (تحت) أول الهرامسة، وتُرجمت بعد الطوفان... بالحروف الهيروغليفية، فلما هيئ العمل في كتب من قبل «أغاثو دايمون» Agathodaemon ابن هرمس (الثاني) ووالد Tat في خزائن معابد مصر أهداها مانيتون إلى الملك بطليموس المذكور فيلادلفوس الثاني، في مؤلفه (كتاب الشعرى) بقوله : إلى الملك بطليموس فيلادلفوس العظيم السلام على سيدي بطليموس من مانيتون الكاهن الأكبر وكاتب محارم مصر المقدسة، المولود في سمنود والقاطن في عين شمس إن من واجبي، أيها الملك العلي أن أتفكر في كل الأمور التي ترغبون مني تأملها . وعليه، وبما أنكم تبحثون في مستقبل العالم، وإطاعة لأمركم، فسأضع بين أيديكم الكتب المقدسة التي درستها ، والتي كتبها هرمس تريسيميجتوس. والسلام عليكم مولاي الملك. هكذا كانت روايته عن ترجمة الكتب التي ألفها هرمس الثاني»، ثم يخبرنا مانيتون عن خمس قبائل مصرية هي التي شكلت الأسر الثلاثين.

المكتبة التي كانت تضم كنوز الثقافة المصرية المحررة باليونانية أو المترجمة عنها وعلى وجه الخصوص الثلاثين جزءًا المكونين لمؤلف "مانيتون[٤٦] " " إجيبتياكا"، وابتداءً من ذلك اليوم الذي تحدى فيه كاتب مصري شجاع المحظورات وحفر في الرابع والعشرين من أغسطس ٣٩٤م آخر الحروف الهيروغليفية على أحد أعمدة معبد فيلة[٤٧].

ماذا كان يمكن للبشرية حتى القرن السابع عشر أن تعرف عن مصر؟ ما عدا ما كانت تقوله لها التوراة - التي كان الكاثوليك يتشككون فيها حينذاك - ويقوله الفلاسفة اليونانيون والرومانيون – لقد كانت معارفهم بالتأكيد زهيدة.

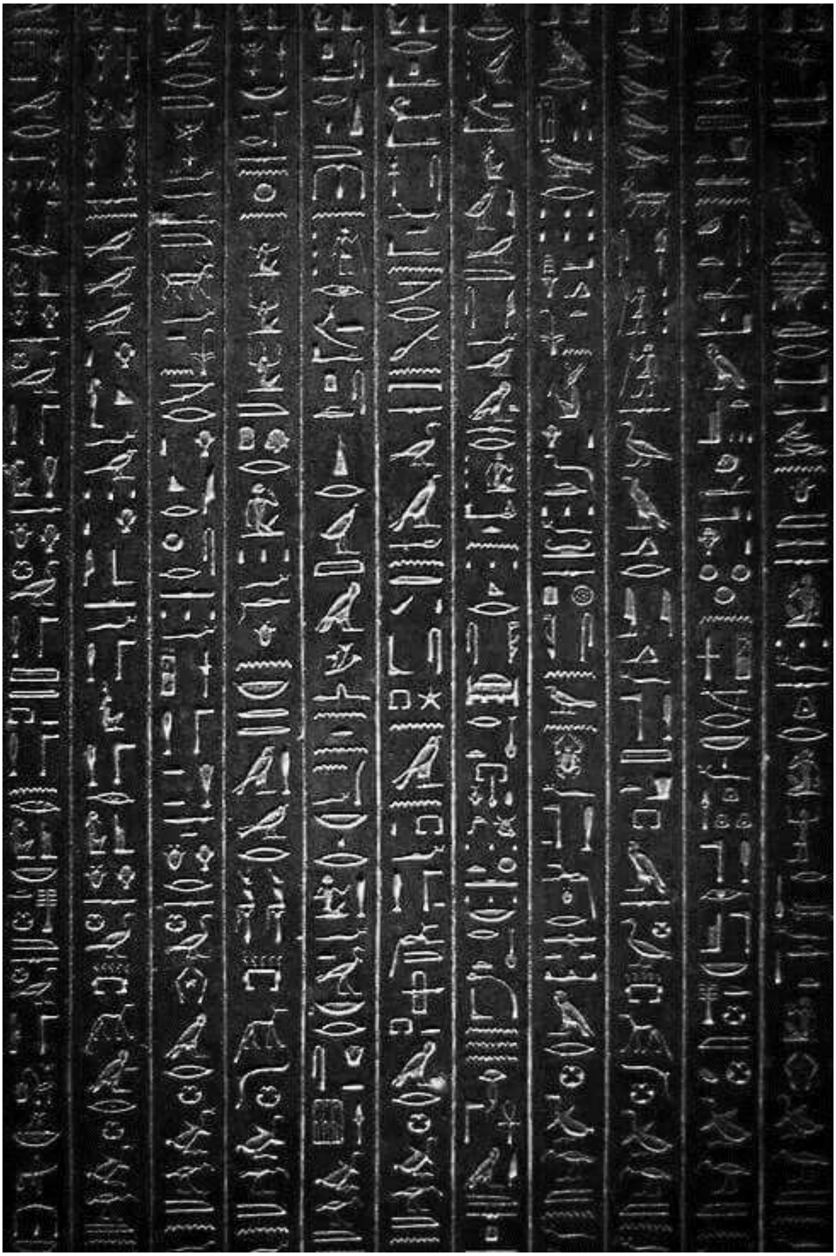
فيما سيلي من هذا الكتاب ستبدأ رحلتنا محاولين الإجابة قدر استطاعتنا على هذه التساؤلات حول اللغة المصرية القديمة والخطوط التي كُتِبَت بها ومنها الخط الهيروغليفي كيف نشأ وكيف تطور؟ وكيف استمر لما يقرب من أربعة آلاف عام وماذا يعني؟ والأهم كيف مات؟ وأخيرًا كيف بُعِثَ من جديد وكيف كان الجهل به سببًا في انزواء الحضارة المصرية بعيدًا عن الأضواء لمدة تقرب من ألف وخمسمائة عام؟ وما المعارك الذي تسبب بها كشف غموضه؟ وكيف فسر لنا عظمة حضارة كنا نجهل عنها أي شيء لفترة استمرت لمئات الأعوام؟ وكيف أن انزواءها هذا كان سببًا لتخلف البشرية.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

[٤٦] كاهن مصري قديم من القرن الثالث قبل الميلاد ومن ضمن ما كتب تاريخ الأسر المصرية الحاكمة في ثلاثين جزءً أسماه إجيبتياكا.

[٤٧] هو تاريخ آخر نص كتب بالخط الهيروغليفي حسب علماء المصريات.

رحلة الميلاد



مدخل: الفرق بين اللغة والكتابة "الخط" الذي تكتب به

جرت العادة أن نقول: إن المصريين القدماء كانوا يتحدثون بالهيروغليفية، وإنهم في عهد الاحتلال الروماني كانوا يتحدثون اللغة القبطية، ناهيك عن الديموطيقية والهيراطيقية في عصور أخرى. وواقع الأمر أنّ ولا واحدة من تلك الأسماء كانت اسمًا للغة المصريين القدماء في يوم من الأيام، وإنما هي مجرد خطوط لكتابة اللغة المصرية القديمة، وبمعنى آخر فقد كانت تعتبر تطورًا لحروف الكتابة الخاصة بلغة المصريين القدماء فقط، فمثلاً الخط الهيروغليفي هو أقدم تلك الخطوط وأقدم نقش معروف كتب بهذا الخط هو مخطوط رسمي يرجع للفترة ما بين عامي ٣٣٠٠ قبل الميلاد و٣٢٠٠ ق.م.

إذا فاللغة المصرية القديمة كانت تكتب بأربعة خطوط أقدمها هو الخط الهيروغليفي ثم تطور عنه الهيراطيقي ثم الديموطيقي وأخيرًا ما يعرف بالخط القبطي.

وعبر المصريون عن لغتهم باسم " رانكيمة " أي لسان مصر (وحرفيًا "فم مصر") و"مدتن كيمة" بمعنى لغة مصر، و "مدت رمثن كيمة" أي لغة أهل مصر[٤٨].

لذا يجب أن نفرق بين اللغة والكتابة، فاللغة شيء والكتابة شيء آخر، فمثلا يجوز أن نكتب اللغة العربية الفصحى بخط لاتيني وتسمى لغة عربية. فاختلاف نمط الخط لا يدل على اختلاف اللغة، كما أن وحدة نمط الخط لا تدل على وحدة اللغة. والأمثلة من التاريخ القديم لدينا واضحة جدًا. فمثلاً العربية الفصحى وهي معروفة لدينا. قد كُتِبَت بعدة أنواع من الكتابات، كتبت بخط الجزم[٤٩] الذي نسميه الخط العربي، وكُتبت بالخط السرياني السطرنجيلي[٥٠] وسميت بالكرشونية[٥١] نسبة إلى قريش والتي كان يتكلمها بنو ربيعة في

---

٤٨ عبدالعزيز صالح - حضارة مصر القديمة - الجزء الاول – ص ١٣

٤٩ هو أحد الخطوط العربية قبل الإسلام. يعتبر خط الجزم أول الخطوط العربية المتطورة من الخطوط النبطية، بناءً على أحد الآراء، كما أن الآراء الأخرى تقول أن خط الجزم جاء من العراق وهو رأي اللغويين العرب وهناك رأي يرى أنه تطور من خط المسند.

٥٠ الخط المفتوح أو الثقيل ويقال له الأسطرنجيلي (بالسريانية: ܐܣܛܪܢܓܠܐ، نسخ حرفي: أسطرنجلا) هو أحد خطوط السريانية الثلاثة، ويعتبر أقدمها إذ عثر على أقدم رقيم بهذا الخط سنة ٦ ميلادية. استخدم هذا الخط حصريًا بكتابة الأناجيل السريانية ولعل أبرز مخطوطة كتبت به هو إنجيل البشيطتا في القرن الثاني الميلادي. يختلف الباحثين في أصل تسمية هذا الخط، فبعضهم يعزيه إلى اللفظة السريانية ܣܛܪܐ ܐܘܢܓܠܝܐ سَطرا إيوَنجليا، أي «خط الإنجيل» بينما يعتقد آخرون بعودته إلى اليونانية στρογγύλη سترونجيلي بمعنى «المدور» نسبة إلى شكله.
قل استعمال هذا الخط بداية من العصور الوسطى ليحل محله كلا من الخط السرياني الشرقي لدى المشارقة السريان والخط السرياني الغربي للمغاربة. غير أنه لا يزال يستعمل في كتابة عناوين الكتب والمجلات فبالإمكان مقارنته بالأشكال الكبيرة بالأبجديتين اليونانية واللاتينية.

٥١ الكرشوني (سريانية: ܓܪܫܘܢܝ گرشوني) هي الكتابة العربية بالحروف السريانية، اشتهرت في القرن السابع بعد الميلاد في كتابة المخطوطات العربية حين كان الخط العربي غير منتشر على نطاق واسع. بالرغم من كون أغلب المخطوطات الكرشوني بالعربية غير أن هناك كذلك كتابات كرشونية بالتركية والمالايامية والفارسية والسوغدية. تطور مصطلح كرشوني حاليًا بحيث أصبح يطلق كذلك على الكتابة السريانية بحروف عربية ولاتينية.

شمال العراق قبل الإسلام، وكتبت بالخط المسند[٥٢]، وكتبها ورقة بن نوفل أيضًا بما سُمي بالخط الآرامي المربع أو الخط العبري[٥٣].

أساطير عن أصل نشأة الهيروغليفية المصرية



اعتقد المصريون أن لغتهم من مصدر إلهي، وتصوروا أنه من المُحال أن يكون هذا الاختراع البديع من عمل البشر، حيث اعتقدوا أن المعبود تحوت هو الذي اخترع لهم الحساب والطب والحكمة وكل العلوم والفنون، وهو الذي وضع الكلمات الهيروغليفية.

وكانوا يرسمونه على صورة إنسان له رأس الطائر حاملاً لوحة بيده اليسرى وقلمًا بيده اليمنى، وكانوا يحترمونه ويناجونه قائلين: **"تعال إلينا يا تحوت يا كاتب، الآلهة العظيمة، ما أجمل صنعتك التي تولد القوة والسعادة، ومن تبع الإله تحوت مخترع الكتابة حفظته العناية"**.[٥٤]

والإله تحوت بالنسبة للمصريين كان في نظرهم أيضًا رب للمعرفة والكتابة وإله الحكمة ورسول العلم ورب السحر وسكرتير الآلهة الذي اخترع الكتابة.

هناك تمثال لرئيس الكهنة أمون المدعو "رمسيس" نخت فيمثله في هيئة كاتب مُتربع وبين ركبتيه ملف يكتب عليه وعلى كتفيه يجلس قرد "تحوت"، يوحي إليه بما يكتبه وبجانب تحوت هناك رية الكتابة. وقد اعتبر المصريون الكتابة مظهر من مظاهر النشاط الإلهي الخلاق، واعتقدوا في القوة الخالقة للكلمة وتصوروا أن إطلاق الاسم على شيء بمثابة خلق له.[٥٥]

---

[٥٢] خط المُسند أو الخط الحميري يسمّيه المستشرقون خط النصب التذكارية هو نظام كتابة قديم تطور في اليمن جنوب الجزيرة العربية، قرابة القرن التاسع - العاشر قبل الميلاد، وهو أحد ضروب الكتابة السامية الجنوبية، وكان نظام الكتابة المستعمل في شبه الجزيرة العربية لوقت طويل، وبحسب أحد الآراء أن خط الجزم اشتقت منه الأبجدية العربية.

[٥٣] هو الشكل الشائع للأبجدية العبرية اليوم، وهو نمط منمق من الخط الآرامي يكتب على أساس رسم مربع. أصوله التي يمكن تتبعها تعود إلى حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد، وهو مشتق من الأبجدية الساكنة الفينيقية عبر الأبجدية الآرامية. الاسم الآخر لهذا الخط هو الكتابة الآشورية (כְּתָב אַשּׁוּרִית كتب آشوريت)، ومقصود حينها الكتابة السائدة في أشورستان أو الكتابة الكلدانية

[٥٤] حسين فهمي حماد – موسوعة الاثار التاريخية – ص٦٨٨.

[٥٥] ولا أجد في ذلك أسطورة من الأساطير ولكنه تحريف طال قصه تعليم الله لآدم الأسماء كلها حيث يقول تعالى: " قول الله تعالى: "عَلَّمَ آدَمَ الأسماء كُلَّهَا" فما أسطورة خلق الكتابة على أيدي تحوت المعبود المصري إلا أن قصة تعليم الله آدم الأسماء كلها بعد تحريفها بواسطة الآباء الأوائل لقدماء المصريين.

إذا فقد شاع بين الآباء الأولين أن الإله تحوت ابتكر الكتابة لجعل المصريين أكثر حصافة ولتقوية ذاكرتهم، جاء ذلك وفقًا للتقاليد المصرية ولكن اختلف الإله رع في ذلك حيث قال: إن نقل الحروف الهيروغليفية للبشرية سيجعلهم يفكرون مليًا في ذاكرتهم وتاريخهم من خلال الوثائق المكتوبة بدلاً من الاعتماد على ذكرياتهم الفعلية التي تنتقل عبر الأجيال. من وجهة نظر رع فإن الكتابة سوف تضعف ذاكرة الناس وحصافتهم. بغض النظر عن وصية رع؛ أعطى تحوت فنون الكتابة لعدد مختار من النُّساخ المصريين. في مصر القديمة كان النُّساخ يحظون باحترام كبير لمعرفتهم ومهاراتهم في استخدام هدية الآلهة هذه وكان هذا الموقف واسطة نقل للحراك الاجتماعي الصاعد[٥٦].

في محاورة فيلبوس (**Philebus**) قال أفلاطون إن مخترع الكتابة هو (تحوت) المصري (هرمس، عند اليونان) رب المعرفة والآداب. وفي (محاورة اقراطيلوس) قال: إن الكنعانيين أخذوا الكتابة عن المصريين ونشروها في اليونان. أما أفلوطين فقد اعتقد أن الكتابة نشأت في مصر بوحي إلهي، ولكن هذه الرموز الهيروغليفية لم تكن لتشرح طبيعة الأشياء فقط، بل لتكشف للمنتسبين (المريدين) العلاقة الفعلية ما بين المادة والفكرة، العقل والروح الحقيقة والفن، بل لتبين حركة الفكر الإلهي.[٥٧]

نشأة النقوش المقدسة (مدو نتر) (الهيروغليفية)

لقد كانت هناك عدة محاولات متعددة من قبل المصري القديم لمعرفة الكتابة وتطورها، ولكن كيف بدأ ذلك؟ ومن أين جاء بالعلامات أو الأحرف التي استخدمها في الكتابة لتعبر عن الشيء الذي يريد أن يعبر عنه؟، هذا بمثابة سؤال يطرح نفسه ويحتاج إلى إجابة.

ففي البداية نود أن ننوه أن المصري القديم كان إنسانًا مفكرًا ومبدعًا، ونحن لا نبالغ في ذلك ولكن هذه هي الحقيقة، فنلاحظ أن المصري القديم قد استمد العلامات المستخدمة في الكتابة من خلال البيئة المحيطة به، فالهيروغليفية هي صور استخدمت كعلامات في الكتابة، يمثل الكثير منها مخلوقات حية أو أدوات أو عناصر معمارية أو أجزاء إلخ..، كل هذه بمثابة علامات استخدمها في الكتابة ليعبر عما يدور في رأسه، فنجد على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

---

٥٦ https://www.worldhistory.org/ - الهيروغليفية المصرية - Priscila Scovilleبواسطة Priscila Scoville، ترجم بواسطة Norah Suhluli - نشرت في ٠٢ ٢٠١٥ July

٥٧ علي فهمي خشيم - العرب والهيروغليفية – ص ١١

	فم إنسان		رجل جالس
	بومة		مدخل منزل

علامات استخدمت في كتابة اللغة المصرية القديمة من البيئة المحيطة

من خلال هذه العلامات نلاحظ أنه عندما أراد المصري القديم أن يعبر عن شيء بعينة قام برسمه ليعبر عنه، فنلاحظ أنه عندما أراد أن يعبر عن البومة رسم علامة البومة.
ولذلك نجد أن المصري القديم استخدم علامات من البيئة المحيطة به وقام بإدراج بعض منها مع علامات أخري ليكون كلمات كاملة.
أما عن تسمية الخط **الهيروغليفي** بهذا الاسم فهو اسم لم يعرفه المصريون القدماء أنفسهم، حيث إن كلمة "هيروغليفي" نفسها ليست كلمة مصرية بل يونانية أطلقها قدماء اليونانيين على النقوش المصرية المكتوبة بشكل الصور، والكلمة في اليونانية **ἱερογλύφος** مكونة من شقين (**هيرو**)؛ وتعني مقدس و(**غلوفوس**) وتعني النقوش، بينما كانت يعرفها المصريون القدماء باسم (**مدو نتر**) وتعني النقش المقدس أو العلامات الروحانية أو كلام الرب[٥٨]، وكانت تنقش علي التماثيل والجداريات الحجرية وغيرها سواء نقش بارز أو نقش غائر أو بكلاهما في بعض الأحيان. فالإغريق عندما وفدوا الي مصر القديمة كل ما فعلوه أنهم ترجموا كلمة (**مدو نتر**) أي الخط المقدس باللغة المصرية القديمة لتصبح هيروغليفية بلغتهم الأم وتحمل نفس المعنى المصري (**الخط المقدس**).
لقد عني المصري القديم بتسجيل كل شيء كتابة من أصغر حدث إلي أعظم ما يمر به، بداية من طريقة معيشته مرورًا بمشاكله والأفكار التي تشغله. كما دوّن بعض النصوص الأدبية لكنها لم تصل إلينا كاملة، أما النصوص الدينية التي كانت منتشرة في المقابر، فهي أكمل شيء وصل إلينا. ولقد اهتم المصري بالكتابة اهتمامًا شديدًا وعمل على تطويرها لتناسب احتياجاته وظروفه.

الهيروغليفية

تشير الكلمة كما أوضحنا سلفًا إلى الكتابة المصرية القديمة التي تُزين جدران كل النُّصب والمنشآت بمصر العريقة، وتمت الاستعانة بها لكتابة النصوص الجدارية بالمعابد والمقابر؛ وإذا كانت تنقش في الحجر، أو ترسم بفرشاة الرسامين، ومع ذلك فقد أُستُعِينَ بها أيضًا في النصوص الخاصة ببعض الأنصاب الصغيرة: لوحات، أو تماثيل، إلخ. خلاف ذلك كانت هناك الهيروغليفية الخطية التي استعان بها الكتبة لتدوين نصوصهم فوق ورق البردى ولا ريب أن أكثر الكتابات عراقة وقدمًا هي التي دُوّنت

٥٨ عبد العزيز صالح – حضارة مصر القديمة وآثارها – الجزء الأول – ص ٢٢٣

فوق "اللوحة نعرمر"[٥٩]، وكذلك تلك التي نقش فوق مقمعة[٦٠] الملك العقرب"، حيث مثل اسم الملك بواسطة شكل هذه الحشرة أما آخر الكتابات بالهيروغليفية فهي قائمة بجزيرة "فيلة، وترجع إلى عام ٣٩٤ ق.م.

وهكذا نرى أن الهيروغليفية قد استمرت سارية على مدى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام. وقد ترجع إلى عصور أكثر قدمًا وتوغلاً. فقد بدأت تتراءي بداية من العصر الثيني[٦١] ولا شك أنها استغرقت مرحلة طويلة للوصول إلى قمة نضوجها وازدهارها. وبصفة مبدئية تبدو الهيروغليفية واضحة البساطة، ومع ذلك فإن ضرورة التعبير عن كم هائل من الكلمات المجردة في إطار لغة دائمة التطور قد جعل هذه الكتابة على درجة فائقة من التعقيد والصعوبة[٦٢].

ونلاحظ أن الرموز الهيروغليفية تمثل أشياء مأخوذة من إطار الطبيعة: البشر وأعمالهم المختلفة، والحيوانات، وأجزاء الجسم البشرية أو الحيوانية، والنبات، والأبنية والأدوات المتباينة، والملابس، وأشياء أخرى مختلفة ومتعددة. وبذلك عند كتابة كلمة "ساق يتم رسم الساق فعلاً. أما كلمة "شمس" (رع) فتعرف بواسطة رسم قرص الشمس، وإذا أراد الكاتب تدوين كلمة ثور فهو بكل بساطة يرسم شكل هذا الحيوان.

وباعتبار أن هذه العلامات تتضمن معنى كاملاً، وبالتالي سُميت "برمز الفكرة". ورموز الفكرة هذه تستطيع خلاف ذلك الإشارة إلى أفعال معينة، وبذا فإن رسم امرأة جالسة القرفصاء، ومن تحتها يخرج رأس طفل صغير يعني ولادة. وإذا مثل رجل واقف أمام حائط ما، فإن ذلك يعني أنه يقوم بعملية البناء.

ومع ذلك فإن رموز الأفكار لا يمكن أن تقوم بمفردها بالتعبير عن كل الكلمات المجردة في اللغة: ولذا استعان المصريون القدماء بعلامات معينة لم يكن الغرض منها توضيح معنى أو مضمون ما، ولكن لمجرد الاستفادة بتأثيرها الصوتي.

فالكتابة الهيروغليفية تتكون من مجموعة من النقوش المستمدة من الحياة اليومية فهي كتابة تصويرية بالإضافة لوجود حروف أبجدية وإن كانت أكثر تعقيدًا من الأبجدية المعروفة الآن في اللغات المنتشرة فالأبجدية في الهيروغليفية تنقسم لثلاثة مجموعات.

- المجموعة الأولى: هي الحروف الأحادية (أي الحروف أحادية الصوت مثل الحروف المعتادة اليوم) العلامات ذات المقطع الواحد. (انظر اللوحة رقم ١)

---

[٥٩] نعرمر هو الملك مينا أو ملوك عصر الأسرات ولوحته عثر عليها العالم البريطاني كويبل في هيراكونبوليس بالقرب من إدفو وهي من حجر الشيست الأخضر. تعتبر لوحة نعرمر من أول اللوحات التاريخية، كتبت ورسمت في عهد الفرعون نعرمر الذي وحد الوجهين المصريين

[٦٠] دبوس قتال

[٦١] عصر الأسرات المُبكر أو العصر الثِّيني (٣٢٠٠ - ٢٧٨٠) يضم الأسرتين اللتين يبدأ بهما التاريخ المُدوَّن لمصر الأسرة الأولى والثانية. بدأت هذه الفترة مع توحيد الملك مينا لمصر العليا والسفلى حيث كانت ثينيس التي تقع بالقرب من "أبيدوس" (العَرَّابة المدفونة، مركز البَلِّينا، محافظة سوهاج) هي أول العواصم المصرية في عهدها الجديد؛ بالإضافة إلى العاصمة الشمالية التي يُنسب إنشاؤها للملك مينا والتي سُميت منف.

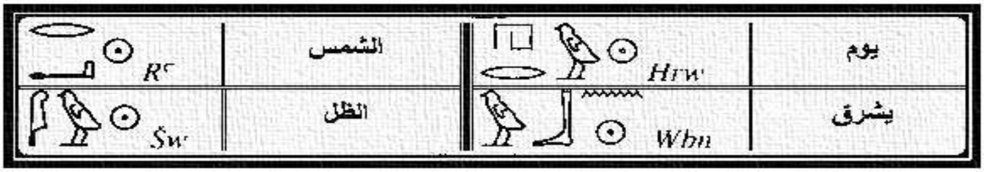
[٦٢] الموسوعة الشاملة للحضارة المصرية – جى راشيه –ص ٥١٣-٥١٤

- المجموعة الثانية: الحروف الثنائية الصوت (وهي عبارة عن رمز أو نقش واحد ولكن ينطق بحرفين معا) العلامات ذات المقطعين. (انظر اللوحة رقم ٢)
- المجموعة الثالثة: الحروف ثلاثية الصوت (وهي عبارة عن نقش أو رمز واحد ولكن يعني ثلاثة) العلامات ذات الثلاثة مقاطع. (انظر اللوحة رقم ٣)
- ثم أخيرا هناك **المخصصات**:

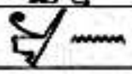
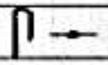
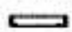
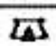
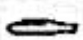
وهي عبارة عن علامة تأتي في نهاية الكلمة ولا تمثل قيمة صوتية ـ أي لا تنطق ـ ولكنها تسهم في تحديد معنى الكلمة.

مثال العلامة الهيروغليفية التالية: ⊙

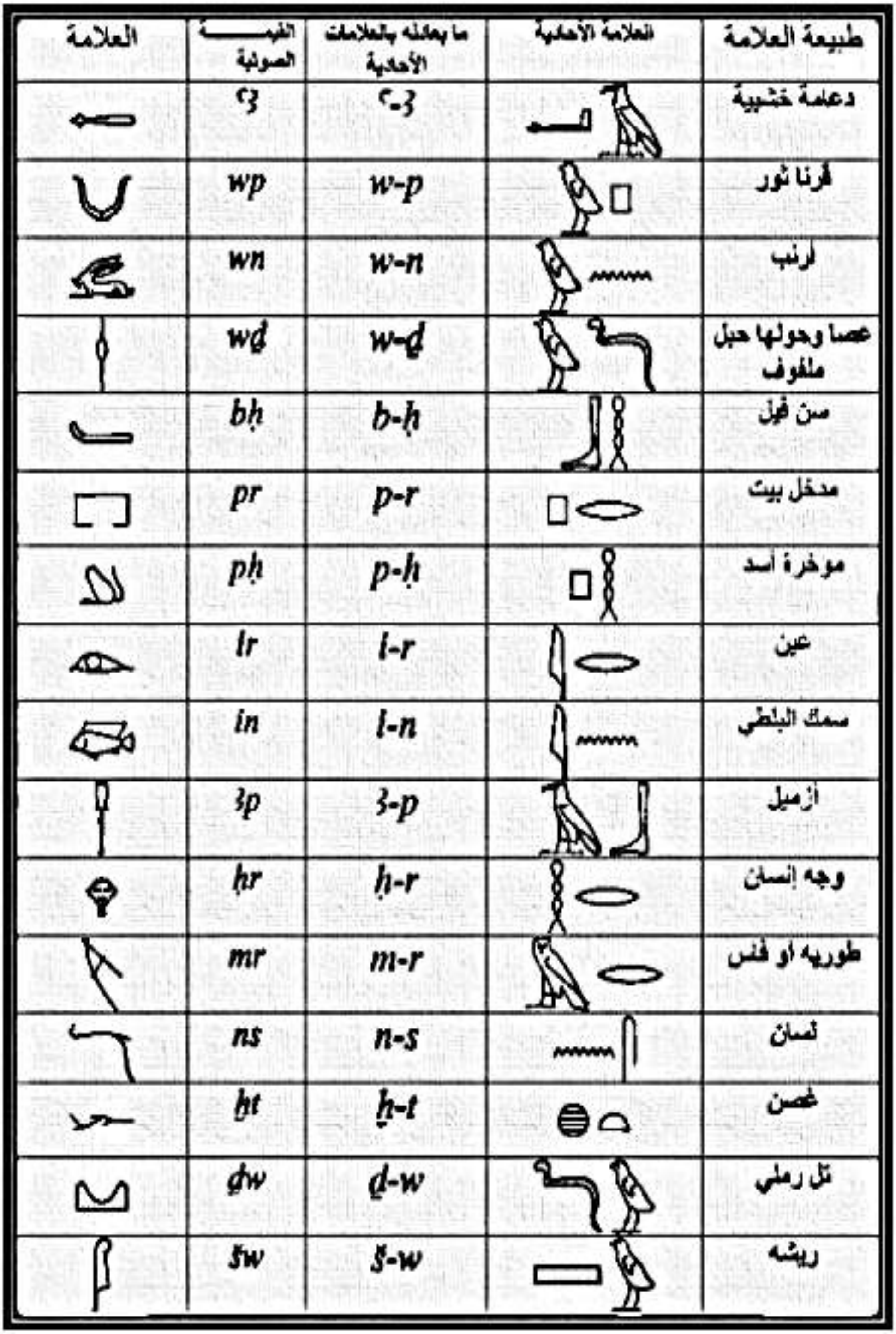
والتي تمثل قرص الشمس، نجد أنها عبارة عن مخصص أضيف لبعض الكلمات الدالة على الشمس واليوم والنهار والضوء والشروق.... إلخ لإعطائها معاني معينة وكلما اختلف المخصص واختلفت العلامات الصوتية اختلف معني الكلمة كما يلي:



يوم	Hrw	الشمس	Rʿ
يشرق	Wbn	الظل	Šw

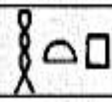
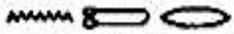
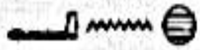
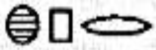
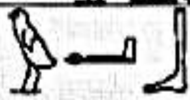
النطق العربي	طبيعة العلامة	القيمة الصوتية - لاتينية	العلامة
أ	طائر العقاب	3	
إ	ورقة نبات	i	
ى	شرطتان أو ورقتا نبات	y	
ع	ذراع اليد	ʿ	
و	فرخ السمان	w	
ب	ساق بالقدم	b	
پ	مقعد	p	
ف	حيه بقرنين	f	
م	بومه	m	
ن	موجه من الماء	n	
ر	فم إنسان	r	
ه	مدخل منزل	h	
ح	حبل مجدول	ḥ	
خ	مشيمة طفل	ḫ	
غ	بطن حيوان ثديي	ẖ	
س	منديل مطوي أو مزلاج	s	
ش	بركة مياه	š	
ق	تل رملي	K	
ك	سله من البوص	k	
ڠ	حمالة زير	g	
ت	رغيف من الخبز	t	
ث	حدوة دواب	ṯ	
د	كف اليد	d	
ج	ثعبان كبير	ḏ	
ل	أسد رابض	l	

العلامات ذات المقطع الواحد



طبيعة العلامة	العلامة الأحادية	ما يعادله بالعلامات الأحادية	القيمة الصوتية	العلامة
دعامة خشبية		ꜥ-ꜣ	ꜥꜣ	
قرنا ثور		w-p	wp	
أرنب		w-n	wn	
عصا وحولها حبل ملفوف		w-ḏ	wḏ	
سن فيل		b-ḥ	bḥ	
مدخل بيت		p-r	pr	
موخرة أسد		p-ḥ	pḥ	
عين		i-r	ir	
سمك البلطي		i-n	in	
أزميل		ꜣ-p	ꜣp	
وجه إنسان		ḥ-r	ḥr	
طوريه او فاس		m-r	mr	
لسان		n-s	ns	
غصن		ḫ-t	ḫt	
تل رملي		ḏ-w	ḏw	
ريشه		š-w	šw	

العلامات ذات 2 مقطع

طبيعة العلامة	التكوين الأحادي	ما يعادله بالعلامات الأحادية	القيمة الصوتية	العلامة
رغيف علي حصيره		ḥ-t-p	ḥtp	
علم		n-ṯ-r	nṯr	
قلب أو قصبه هوائية		N-f-r	Nfr	
شمس مشرقه بين تلين		3-ḫ-t	3ḫt	
رباط نعل		ʿ-n-ḫ	ʿnḫ	
عصا معوجه من الأعلى		ḥ-k-3	ḥk3	
خنفساء		ḫ-p-r	ḫpr	
مجداف		ẖ-r-w	ẖrw	
أذن بقره		s-ḏ-m	sḏm	
قصبه هوائية		s-m-3	sm3	
نجم		d-w-3	dw3	
ساق فوقها قدر يصب منه الماء		W-ʿ-b	Wʿb	
مقدمة أسد		ḥ-3-t	ḥ3t	
يد ممسكه بعصا		N-ḫ-t	Nḫt	

علامات ذات 3 مقاطع

اتجاهات الكتابة:

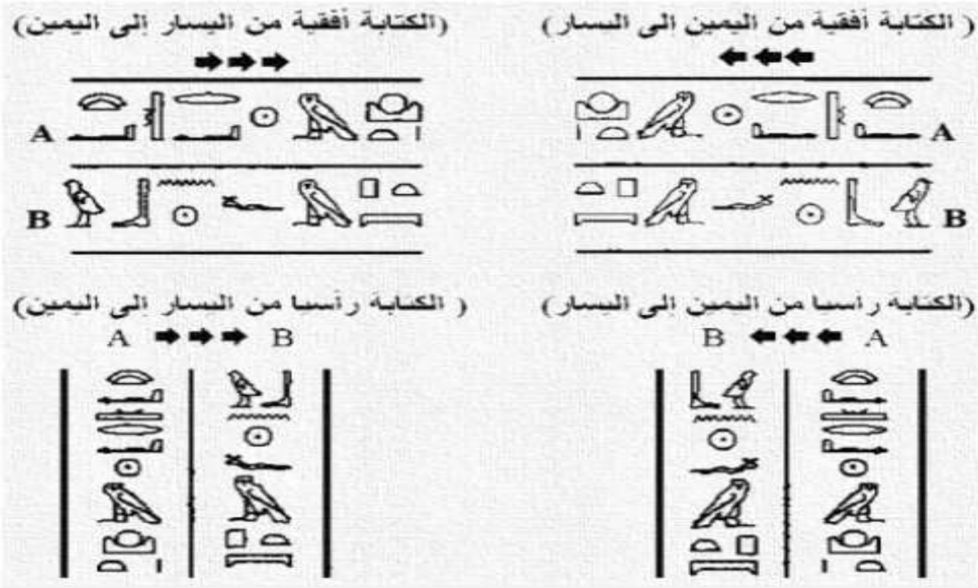
للمقارنة بين النصوص الهيروغليفية المختلفة تبين أن العلامات لم تكن مكتوبة دائمة في نفس الاتجاه وإن كانت في نقش واحد كما يلي:



من خلال هذا الجزء من اللوحة تبين أن العلامات كُتبت في خط أفقي ورأسي من اليمين لليسار والعكس، حيث أنه من الممكن أيضًا لجزء واحد من النص أن يكون مكتوبًا في أعمدة والآخر في صفوف، ومع ذلك الاختلاف كان من الضروري إنشاء التوجه من علامات وأين تبدأ القراءة الأولى. كقاعدة عامة، وعلامات تمثل الأشخاص أو الحيوانات كل نظرة نحو بداية النص.

وبالتالي، إذا كانت علامات في النص عن "نظرة" إلى اليسار، يجب أن يبدأ القراءة من اليسار إلى اليمين، والعكس بالعكس. أيضا كقاعدة لافتات مكتوبة من أعلى إلى أسفل.

ومما سبق تبين أن الهيروغليفية كتبت بأربع طرائق مختلفة، ولذلك فلقد تمت كتابة الخط الهيروغليفي بهذه الطرائق الأربع، سواء أكانت أفقية أو رأسية من اليمين إلى اليسار أو العكس. وهناك حالات أخرى تحتم تغير اتجاهات الكتابة لتتواءم مع اتجاه منظر معين، أما بالنسبة للهيراطيقية والديموطيقية فإنها دائمًا تُكتب من اليمين إلى اليسار وهذه نماذج للكتابة الهيروغليفية:



طريقة الكتابة

الهيراطيقية:

باللغة المصرية القديمة تعني الكتابة المقدسة (بالإغريقية "هيراطيقوس"، كهنوتية مقدسة)، الهيراطيقية تشير إلى تلك الكتابة الموجزة السريعة، المقتطفة من العلامات الهيروغليفية، والتي تعتبر بمثابة إجمال وتلخيص لها، وهي تتيح الفرصة لكتابة سريعة فوق ورق البردي أو الشقفات[٦٣] الفخارية ولقد ظهرت هذه الكتابة منذ العصر الثيني[٦٤]. وخلال الدولة القديمة بدأت تتباين وتختلف عن الهيروغليفية، وأخذت تتطور في استقلال تام عنها، ثم نالها بعض التركيب والتعقيد بسبب الاستعانة بالإيجازات ودمج الحروف بعضها ببعض. وقد بقيت بمثابة الكتابة الدارجة في محيط الكتبة حتى أواخر "الدولة الحديثة" في إطار الحياة المدنية (عقود، تقارير، محاضر قضائية، محاكمات قانونية، حسابات، قوائم أو بيانات......) واستُعِينَ بها أيضًا في مجالي الآداب والعلوم، ومن الكتابة الهيراطيقية تولد نمط جديد، سريع اللمسات، نقشي السمات، استعان به الفنانون عند النقش على أحجار الصحراء أو فوق بعض اللوحات التذكارية. وخلال الدولة القديمة نُظّمَت الكتابة الهيراطيقية في هيئة أعمدة طولية. ولكن بداية من "الدولة الوسطى" ترامت دائمًا في صورة أسطر أفقية تستهل من ناحية اليمين. وخلال الحقبة

---

٦٣ شَقَفَة. [مفرد]: ج شَقَفات وشَقَف: شريحة، قطعة مكسورة من شيء "شقَفة فخّار/ خزف/ بطيخ".

٦٤ عصر الأسرات المُبكر أو العصر الثِّيني (٣٢٠٠ - ٢٧٨٠) يضم الأسرتين اللتين يبدأ بهما التاريخ المُدوَّن لمصر الأسرة الأولى والثانية. بدأت هذه الفترة مع توحيد الملك مينا

المتأخرة تم استبدال الديموطيقية الهيراطيقية. ولكن لم يسر ذلك فيما يتعلق بالنصوص الدينية، وربما استمرت دارجة حتى العصر الروماني، ولكنها أصيبت عندئذ بشيء من التصلب والجمود، وفقدت حيويتها المعهودة وأناقتها السالفة[٦٥].

الديموطيقية:

الديموطيقية في اللهجة اليونانية، تعنى ما يطلق عليه الرومان اللغة الدارجة" ــــ أي "لغة العامة" ـــ " اللغة الشعبية".

خلال القرن السابع قبل الميلاد بدأ ظهور نمط جديد من الكتابة المأخوذة أساسًا من الهيراطيقية. والتي كانت تعبر عن كتابة حديثة أيضا تولدت مما سمي وقتئذ بالمصرية الجديدة ـــ أي اللغة السائدة خلال الدولة الحديثة ــــ، ومثلما فعل هيرودوت أطلق عليها المصريون اسم: الديموطيقية (بالإغريقية demotikos أي "الشعبية"). ولكنها من خلال مراسيم الملوك البطالمة أومئ إليها بعبارة: "الكتابة الخاصة بالمخطوطات".

عمومًا يُلاحظ أن الكتابة الديموطيقية ترتكز أساسًا على مبادئ الكتابة الهيروغليفية. فهي مثلها تستوعب في نطاقها العناصر الصوتية والرمزية نفسها. ومع ذلك فإن أدوات الربط التي تجمع بين جمل قد تكون متباينة عن بعضها البعض، وعبارات الإيجاز، والجمل الزائدة التي لا لزوم لها، وكل ما تتضمنه بنيتها الكلامية، تشكل صعوبة بالغة عند تحليل الكلمات، وتجعل تفسير المخطوطات الديموطيقية وفك رموزها عملاً صعبًا للغاية.

ولكن لاشك أن الفضل يرجع إلى عالم الآثار المصرية الألماني "هنرى بروجش" في تقديم أول بحث عن "قواعد الديموطيقية عام (١٨٥٥م)، وأول دراسة في المفردات الديموطيقية - هيروغليفية (١٨٦٧م)[٦٦].

القبطية:

في بداية الحقبة الإغريقية كانت الكتابة الديموطيقية قد اكتسبت المزيد من الليونة والانسيابية لكي تعبر عن اللغة المصرية. وفي الوقت ذاته كان الكتبة يصرون على الحفاظ على التقاليد والأسس عريقة القدم. ولمصريتهم المتأصلة الجذور كانوا يضمرون البغضاء والكراهية للإغريق... ولذا والحال هكذا لم يحاول المصريون الاستعانة بحروف الهجاء الإغريقية - مضافًا إليها العلامات الحديثة - إلا بعد مرور حوالي خمسة قرون من الاستعمار والسيطرة الإغريقية والرومانية من أجل التعبير عن لغتهم المصرية القديمة.

---

[٦٥] الموسوعة الشاملة للحضارة المصرية – جى راشيه –ص ٥١١-٥١٢

[٦٦] الموسوعة الشاملة للحضارة المصرية – جى راشيه –ص ٢٤٨-٢٤٩

ولكن عند تحول المصريين إلى العقيدة المسيحية عملوا على الانفصام عن الأسس التقليدية البائدة للكتابة لكي يتبعوا الحروف الهجائية الإغريقية التي بدت لهم أكثر سهولة ويسرًا للتعبير عن الديموطيقية، حيث بدت لهم عندئذ بمثابة ماض تستوجب الضرورة الابتعاد عنه. وهكذا وفي القرن الثالث الميلادي ظهرت أولى الكتابات المسيحية ترجمة "العهد الجديد والعهد القديم" إلى اللغة المصرية المكونة من حروف إغريقية، وكتابات القساوسة والنساك القائمين في "طيبة"، وبعض كبار كهنة مصر "الإغريق"، مثل "سان أسينوس". وساد هذا الاتجاه عبر مصر البيزنطية، ثم الإسلامية أيضا، بل نجد في يومنا هذا أن المسيحيين بمصر يكتبون لغتهم الدينية بلهجة منبثقة أساسًا من المصرية القديمة.

ونشأة اللغة القبطية تماثل تمامًا نشأة ما يُعرف بخط الفرانكوارب[٦٧]، الذي استبدل فيه مستخدمو هذا الخط بعض الحروف العربية بأرقام معينة تقابل الحروف الغير موجودة في اللغة اللاتينية مثل (ع، غ، ط، ق، ش، ح، خ، ص)[٦٨] مع استبدال الحروف العربية بمثيلتها في النطق في الحروف اللاتينية فقد كانت خدمات الإنترنت لا تدعم إلا اللغة اللاتينية، فأُجبر العرب على استخدام الحروف اللاتينية والنطق باللغة العربية وهي (لغة الفرانكو) أي أنها تعني كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية (الإنجليزية) كما تنطق وهي لغة دعا إليها القاضي الشهير (ويلمور) وهو مستشرق أجنبي.

الحروف	تستبدل برقم
ق أو الهمزه	2
ص	9
ض	'9
ع	3
غ	'3
ح	7
خ	'7 أو 5
ط	6

ونشأت الكتابة القبطية في العصور ما قبل دخول المسيحية مصر، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر ما قبل المسيحي لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحفي باريس ولندن.

---

[٦٧] لغة الفرانكو آراب هي لغة تجمع بين لغتين (اللغة العربية واللغة اللاتينية) وعرفت بأنها لغة أبجدية غير محددة القواعد مستحدثة ليست قديمة، قد ظهرت منذ سنوات قليلة وتعتبر غير رسمية ويستخدمها البعض للتواصل عبر الدردشة باللغة العربية أو بلهجتها ويتم فيها استبدال بعض الحروف العربية بأرقام معينة.

[٦٨] رأي شخصي



جدول يوضح الحروف المصرية القديمة (الديموطيقية) التي دخلت الأبجدية القبطية وتطورها

اسم الحرف		قبطي Coptic	ديموطيقي demotic	هيراطيقي hieratic	هيروغليفي hieroglyphic	القيمة الصوتية
Shai	شاي	ϣ				š3
Fai	فاي	ϥ				f
Khai	خاي	ϧ				ḫ3
Hori	هوري	ϩ				h
Djandja	جنجا	ϫ				ḏ3
Itshima	تشيما	ϭ				k
Ti	تي	ϯ				ti

جدول يوضح حروف اللغة المصرية القديمة (الديموطيقية) التي دخلت الابجديةالقبطية وتطورها

وكافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو لآخر، دون أن يكون لذلك أي شأن بالمسيحية، وانتهى باستحداث ما نسميه الآن بالخط القبطي الذي كُتِبَ بحروف يونانية بعد إضافة سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقي، تعبر عن أصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي الأحرف السبعة: شاى (ش) وفاى (ف) وخاى (خ) وهورى (هـ) و چنجا (چ) وتشيما (تش) وتى (ت)[٦٩].

ومن ذلك نرى أن اللغة القبطية، وهي لهجة من اللغة المصرية، قد حفظت لنا مكتوبة بحروف يونانية، وتوجد لها أجرومية[٧٠] وقاموس باللغة العربية وباللغة اليونانية وفي أواسط القرن السابع عشر فهم الأب اليسوعي كرشر، أن اللغة القبطية تحفظ في ثناياها اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية، وقد أخذ يقوم ببحوث علمية في هذه اللغة، غير أنه لما أراد أن يرجع باللغة القبطية إلى اللغة المصرية لم يفلح قط، وقد تساءل عن اللغة المصرية هل هي حروف، أو أصوات، أو معان؟ وكيف يمكن قراءتها؟[٧١]

[٦٩] مراد كامل - من ديوقلديانوس إلى دخول العرب - تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الثاني ص ٢٢٦ وما بعدها

[٧٠] مصطلح مأخوذ من اسم صاحب كتاب "متن الاجرومية" لصاحبه أبو عبد الله محمد بن محمد بن آجروم الصنهاجي وهو عالم أمازيغي مسلم - وأصبح المصطلح عالميًا يقصد به القواعد النحوية في أي لغة grammar--grammaire --grammatika

[٧١] سليم حسن – موسوعة مصر القديمة – الجزء الأول – ص ١٢٨



أشكال خطوط اللغة المصرية القديمة

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

رحلة الموت



مدخل: كيف ماتت الهيروغليفية؟

مرت اللغة المصرية القديمة (كتابة) بمراحل احتضار طويلة حتى وافتها المنية عام ٥٠٧م علي يد مراسيم الإمبراطور جستنيان والذي حرم فيه عبادة الإلهة ايزيس (عزة) في عموم أراضي الإمبراطورية الرومانية ويمكننا تعداد مراحل الاحتضار تلك فيما يلي:

١- اختراع ديانة جديدة على أيدي البطالمة المتمصرين " المسخ سرابيس".
٢- تغيير الهوية المصرية على أيدي الرومان واليونان.
٣- الكهنة وأسرارهم وتداعي نفوذهم.
٤- ظهور المسيحية واعتبارها الديانة الرسمية.
٥- تجريم الوثنية وسن قوانين الأباطرة اليونانيين بتجريم الكهانة.

وسنتناول بالتفصيل مراحل الاحتضار.

المسخ سرابيس

عندما تولى بطليموس الأول[٧٢] حكم مصر واستقلاله بها (٣٠٦ ق.م) كانت سياسة بطليموس الخارجية أن ينشئ إمبراطورية بحرية تضم الحوض الشرقي للبحر المتوسط (بحر إيجة) من أجل ذلك لابد من وجود أحوال اقتصادية وافرة الثراء في البلاد ولكى يتحقق ذلك لابد من أن يؤلف بين كلّ من العنصرين المشكلين للمجتمع المصري بعد فتوحات الإسكندر مهما المصريون والإغريق لاسيما انه كان يعرف أن للمصريين ديانة موروثة راسخة القدم وأن الإغريق أحضروا معهم ديانتهم لذلك وجه همه إلى التغلب على النفور الديني.



المعبود سيرابيس بصورته اليونانية

[٧٢] بطليموس الأول سوتير، أو بطليموس المنقذ (٣٦٧ ق.م.-٢٨٣ ق.م.) أحد رفقاء ومؤرخي الإسكندر الأكبر المقدوني الذي أصبح حاكمًا لمصر ضمن الإمبراطورية المقدونية التي أسسها الإسكندر الأكبر، ثم أعلن نفسه فرعونًا لمصر وأسس المملكة البطلمية نحو سنة ٣٠٥/٣٠٤ ق.م. التي حكمت مصر حتى وفاة كليوباترا السابعة سنة ٣٠ ق.م.، وحوّل مصر إلى مملكة هلنستية تنشر الثقافة الإغريقية مركزها مدينة الإسكندرية.



المعبود المصري أوزيريس

كان يتعين أن يكون محور الديانة الجديدة مذهبًا مصريًا يمكن إقناع الإغريق بالإقبال على اعتناقه وذلك لأنه بقدر ما أصاب إيمان الإغريق من ضعف وما ساورهم من شكوك في مقدرة آلهتهم (بعد الحروب البلوبونيزيه[٧٣] وبعدها زعامة مقدونيا) كان المصريون مستمسكين بمعتقداتهم الدينية ويفخرون بها.

وإذا قمنا بالبحث داخل كافة الآلهة المصرية فإننا لا نجد إلها يمكن أن تتوافر فيه هذه الشروط أكثر من أوزير (أوزيريس)[٧٤] فقد كان يحتل مكانًا ساميًا بين المصريين، ومن جهة أخرى يمكن إقناع الإغريق بأنه إلههم "ديونسيوس"[٧٥] فإن مثل هذا الإله كان خير من يصلح لأن تقوم حوله عبادة تجمع بين معتقدات المصريين والإغريق.



المسخ سيرابيس

في ذلك الوقت كان المصريون في مدينة "منف" يعبدون إلهًا يُدعى "أوزيرابيس"، وكانت رغبة "بطليموس الأول" في إدخال عبادة "سرابيس" إلى مصر كفيلة بإقناع الكهنة بأن "سرابيس" لم يكن سوى "أوزيرابيس" ومنذ ذلك الوقت كان "سرابيس" هو التسمية الإغريقية لـ "أوزيرابيس"، واتخذه "بطليموس الأول" إلهًا يتجمع حوله سكان مصر من مصريين وإغريق، وأصبحت الأيمان الرسمية تعقد على النحو التالي: (باسم "سرابيس" و"إيزيس" والآلهة الأخرى).

"ورغم ذلك تدل الآثار في المعابد وأنحاء مصر على أن البدع اليونانية الجديدة انتشرت بشكل محدود، فظل معظم المصريين مرتبطين برموزهم وأربابهم المعروفين منذ القدم، ولم تنتشر المعابد اليونانية وأربابها خارج المدن التي يحتكرها اليونانيون، بل وتفوق ما تسمى وقتها بعبادة إيزيس المصرية على المعبودات الإغريقية حتى وصلت إلى أن يكون لها معابد

---

[٧٣] حرب يونانية قديمة نشبت بين الحلف الديلي بقيادة أثينا ضد الاتحاد البيلوبونيزي بقيادة أسبرطة. - أعادت الحرب البيلوبونيسية تشكيل العالم اليوناني القديم، فقد أصبحت أثينا، المدينة الأقوى في اليونان قبل بداية الحرب، في حالة من الخضوع شبه الكامل، كما أصبحت أسبرطة القوة الرائدة في اليونان.

[٧٤] أوزيريس إله البعث والحساب وهو رئيس محكمة الموتى عند قدماء المصريين، من آلهة التاسوع المقدس الرئيسي في الديانة المصرية القديمة.

[٧٥] ديونيسوس أو باكوس أو باخوس هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة

رسمية في روما غربًا- كما ذكرنا ذلك من قبل - فأصبحت صاحبة أول ديانة منتشرة عالميًا خارج حدود بلدها[٧٦].
وهذا ما أشار إليه العلامة ديورانت، أشهر مؤرخي القرن العشرين، في المجلد الثامن من موسوعته الهائلة (قصة الحضارة) فيقول ما نصه: **"حاول بطليموس الأول أن يوحِّد الدينين (اليوناني والمصري) بقوله: إن سيرابيس وزيوس إلهٌ واحد. وشجَّع البطالمة من بعده أهل البلاد على أن يتخذوه إلهًا يعبدونه، كمعبود مشترك.. ولكن الغلبة في الإسكندرية، بآخر الأمر، لم تكن لهذه الصيغة المصطنعة وإنما كانت للنزعة الصوفية."**
واستمر الحال بعد أن تبادل الرومان واليونانيون احتلال مصر محاولين بشتى الطرق طمس الهوية واللسان المصري القديم.

مصر تغير هويتها!

عَمِدَ الإغريق، ووراؤهم ثقل ثقافي في اليونان، كما غلبتهم نشوة أنهم صاروا قوة عالمية بفضل انتصارات الإسكندر الذي تبني الثقافة الهيلينية؛ لفرض ثقافتهم على العاصمة الجديدة ـــ وهي الإسكندرية حتى في اسمها ـــ وفرضوا ذات الثقافة على المدن التي تكثر فيها الجاليات الأجنبية مثل منف والفيوم.
وحتى المعابد المصرية التي تركوا المصريين يعيدون بناءها أو يرممونها انحصر أكثرها في الوجه القبلي، مثل إدفو وكوم إمبو ودندرة في أسوان والأقصر، ولم يُلحظ اهتمام مماثل للمعابد المصرية في منف وأون والفيوم؛ فصارت المدن طابعها أجنبي (إغريقي) وليس مصريًا- لأول مرة في تاريخها. تتركز فيها التجارة والثروة ومعاهد العلم، حتى أن القادم من الخارج ويتجول في العاصمة والمدن المتأغرقة لا يسمع الحديث في الغالب إلا باللغة اليونانية، ولا يرى إلا ملابسًا يونانية، لمعبودات يونانية إضافة لـ (إيسة) (إيزيس) التي صارت معبودة عالمية والملامح يونانية وخليط من جاليات أخرى، كأنها بلد آخر، وإذا لم يتجول في الريف الواسع ويرى ملايين المصريين ظن نفسه في بلد لم يحمل يومًا اسم كيمت (مصر).
ويرصد نفتالي لويس[٧٧] أن الإغريق تبنوا عبادة مقدسات مصرية أثرت فيهم بقوة، واحتفلوا بأعياد مصرية كرأس السنة المصرية إلا أنهم أعطوها أسماء معبوداتهم الإغريقية أغلب الوقت، فمثلا إيسة سموها ديمتير وهيرا، وأوزير اسموه أبولو وبلوتو، وحتحور بأفروديت، وإن اليونان ظلت- حسب تعبيره - "الأم الروحية" للإغريق، ولم

[٧٦] افتكار البنداري السيد – نكبة توطين الهكسوس النكبة المصرية ج١ - - ص ١٧٧
[٧٧] نفتالي لويس عالم البرديات الأمريكي الذي نشر على نطاق واسع حول مواضيع تتراوح بين صناعة البرديات القديمة إلى الحكومة في مصر الرومانية. كما كتب العديد من التواريخ الاجتماعية البطلمية ومصر الرومانية لجعل بحثه في متناول غير المتخصصين.

يبنوا معابدهم إلا على الطراز اليوناني مع بعض التأثر المصري لاستخدامهم مواد بناء وأساليب محلية، وأقاموا أعيادهم بما يتواكب مع ما يجري في بلاد اليونان، وتبرع أحد مستوطني البهنسا بمبلغ كبير لتقام احتفالات للشبيبة على نمط التي تجري في أنتينوبوليس (مدينة مخصصة للإغريق بالمنيا)، وفي سنة ٢٦٨م (أيام الاحتلال الروماني) وجدت قائمة بأسماء إغريق وإغريق رومان من مستوطني نقراطيس (نقراش)[٧٨] في احتفالات تضمنت أشعار ومباريات ورقصات إغريقية تحت رعاية الإلهين هيراكيليس[٧٩] وديونيسيوس[٨٠]، وفي رسالة من أوريليوس أجانوس مدير معهد التربية يوجه دعوة لشخصيات لحضور ما سماه بالاحتفال بعيد أجدادنا" بمناسبة ذكرى الإله كرونوس" في الفيوم، أي رغم استيطانهم في مصر لأكثر من ٦٠٠ سنة ظلوا إغريق الروح والأسماء واللغة والانتماء، وفي نفس الوقت يدعون أن مصر ملك لهم.
وبذلك صارت مصر كإنسانة وضع على وجهها غصبًا قناعٌ أجنبيٌ حجب ملامحها الحقيقية، واستبعد بقية جسدها خلف التراب والرمال في الأرياف كى لا يُرى منها إلا ذلك الوجه الاصطناعي، ومنذ ذلك الوقت ومصر في الريف الواسع كأنها بلد، وفي المدن بجالياتها الأجنبية وبرابرتها الغزاة كأنها بلد آخر، وتاريخ ذلك العصر لا يسجل من النجوم إلا ما فعله الحاكم اليوناني، والشاعر اليوناني، والفيلسوف اليوناني أو تُقال أحيانا السكندري ولم يسمح ببروز مصريين إلا نادرًا مثل مانيتون لتخصصه في تاريخ مصر- حتى شاع ذلك الظن الساذج بأن المصريين (أو كما يُقال الفراعنة) اختفوا فجأة بحلول الاحتلال اليوناني، كما شاع ذلك التقسيم الساذج أيضًا للتاريخ المصري بأنها مصر الفرعونية، ثم مصر اليونانية، ثم مصر الرومانية، ثم مصر العربية، وهكذا كأن لا شعب أصيل فيها بالملايين من نبع أرضها، من عرقه يعيش ويزدهر اليوناني والروماني والعربي إلخ.[٨١]

الكهنة وأسرارهم وتداعي نفوذهم:

ربما كانت الفقرة الذي كتبها هيرودوت في كتابه عن مصر هي مفتاحنا الذي به نستطيع حل لغز موت الهيروغليفية فهو يقول: **"إن المصريين قد استعملوا نوعين من الكتابة أحدهما يدعى الكتابة المقدسة (يقصد الهيروغليفية) ويختص بها الكهنة والثاني يدعى الكتابة العامية (يقصد الديموطيقية) وهي لغة الشعب"**.

---

[٧٨] هي إحدى القرى التابعة لمركز إيتاي البارود في محافظة البحيرة في جمهورية مصر العربية.

[٧٩] هِرَقل أو هيرقليس أو هيركليس(باليونانية: Ἡρακλῆς) في الميثولوجيا الإغريقية بطل إلهى هو ابن الإله زيوس والبشرية ألكمينى يشتهر بقوته الخارقة

[٨٠] ديونيسوس أو باكوس أو باخوس في الميثولوجيا الإغريقية (وباللغة اليونانية: Διόνυσος or Διώνυσος) هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثولوجيا الإغريقية. وتم إلحاقه بالأوليمبيتين الاثني عشر.

[٨١] افتكار البنداري - نكبة توطين الهكسوس النكبة المصرية – ص ١٦٨

ولعل هذه الفقرة هي ما دفعت البارون دومنيك فيفيان دينون أن يقول مقولته: **"وبقيت هناك مشكلة هي كيف أمكن لحضارة بلغت مثل هذا الكمال في العصور القديمة أن تنحدر إلى وضعها الحالي في نهاية القرن الثامن عشر. لقد دفع مصر إلى الانحدار نفس النفوذ الذي أوقف تقدم أوروبا طيلة قرون، نفس الطغيان الذي تحررت منه فرنسا لتوها: الكهنة. وكما علقت الكنيسة أسرارها في لغة ميتة لتبقى قبضتها على أذهان الناس العاديين، فقد أخفى كهنة مصر القديمة أسرارهم الخفية في رموز الهيروغليفية العويصة التي تغطي جدران المعبد. ورأى دينون تشابهًا واضحًا بين جيزويت عصره وكهنة مصر القديمة: (طغاة وضيعون منافقون.. يمتلكون كل العلوم، ويغلفونها في رموز وأسرار حتى يمكن أن يضعوا حاجزًا بينهم وبين الناس، فالملك يخدمه الكهنة، ويشير عليه الكهنة، ويطعمه الكهنة، ويعظه الكهنة)"**.

فالهيروغليفية كانت سر من أسرار الكهنة وطلسم من طلاسمهم لا يعلمه إلا هم ولا يتعلمه كتابة أو قراءة إلا من يثقون في ولائه لهم، فإذا ما انتهى دور الكهنة وتم إغلاق معابدهم بأمر إمبراطوري فقد ماتت اللغة معهم وأصبحت طلسمًا لا يجد من يفك حروفه، ليصبح بعد مرور الزمن كائنًا خرافيًا يمكن لأي كان أن يطلق عليه ما شاء من الأسماء والصفات، وكان هذا هو حال الهيروغليفية بالإضافة إلى نشوء لغة أخري أخذت تزيح الهيروغليفية ببطء طي النسيان، يقول دكتور سليم حسن في الجزء الخامس عشر من موسعة مصر القديمة: " منذ بداية الأسرة الخامسة والعشرين حتى بداية عهد البطالمة، وهو العصر الذي أصبحت فيه الديموطيقية من حيث اللغة والكتابة هي السائدة في البلاد المصرية بين أفراد الشعب المصري الأصيل لدرجة أن لفظة ديموطيقية أصبحت تطلق على اللغة المصرية بوجه عام كما تشير إلى ذلك المراسيم التي صدرت في عهد البطالة. على أنه كان يستعمل بجانبها اللغة الاغريقية التي كانت لغة الشعب المستعمر وقتئذ طوال مدة حكمهم من أول عهد الإسكندر الأكبر حتى نهاية العهد الروماني.

أما اللغة المصرية القديمة أو الكلام المقدس "مدو نتر" كما عبر عنه المصريون منذ أقدم العهود والتي تكتب بالخط الهيروغليفي فكانت منذ بداية انتشار الديموطيقية أو بعبارة أخرى اللغة العامية آخذة في الانزواء شيئًا فشيئًا في العهد البطلمي وما بعده حتى أصبحت لا تستعمل إلا على جدران المعابد التي كانت لا تزال منتشرة في طول البلاد وعرضها انتشارًا عظيمًا لا يقل عمّا كان عليه في أزهى عصور الدولة المصرية القديمة في أبهى عصورها. ومع ذلك فإن ما كان يظهر منها في صورة مراسيم ملكية وضعها الكهنة عن طيب خاطر بأمر من الملك كان يتبعها ترجمة باللغة الديموطيقية وأخرى باللغة الاغريقية التي كانت وقتئذ من الوجهة القانونية اللغة الرسمية للبلاد[٨٢].

ولما كان الشعب المصري الأصيل متمسكًا بتقاليده القديمة منذ أقدم العهود فإنه استمر في تدوين كل شؤونه باللغة الديموطيقية، ولم يحاول قط تعلم اللغة الإغريقية حتى دخل

---

[٨٢] ولولا هذه الطريقة في إصدار المراسيم في العهد البطلمي بالخطوط الثلاثة الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية لما استطاع شامبليون أو غيره من أعتى الباحثين أن يفك رموز الهيروغليفية.

الإسلام البلاد، ومن أجل ذلك يجد الباحث في تاريخ عصر البطالمة أن مصر كانت تتألف بوجه عام من شعبين منفصلين الواحد منهما عن الآخر من حيث الثقافة والدين والحياة الاجتماعية والتقاليد وحتى اللغة."[٨٣]

ولا أدل على هذه الروح القومية من النص الذي وُجِدَ على حجر رشيد وتعمد الكاتب المصري أن يجعل كتابته بالخط الهيروغليفي في أعلى الحجر، وسجل كتابته الديموطيقية الشعبية في وسطه، وجعل الكتابة الإغريقية في أسفل الحجر، وذلك يعني أن الكاتب المصري حاول بهذه الطريقة أن يُعبر عن قوميته الدفينة ويظهر اعتزازه بلغته القومية فجعل خطيها في المقامين الأول والثاني وجعل خط المحتل في المرتبة الثالثة والأخيرة.

لقد ظلت الصلة منقطعة بين الإغريق من جهة وبين المصريين من جهة أخرى فبالإضافة إلى أن أكبر سبيل للتفاهم بين الشعبين وهي اللغة كانت معدومة بينهما، وذلك لأن الاغريقي كان لا يقدم على تعلم اللغة المصرية لأنه لم يكن في حاجة اليها لأنه السيد وأكثر من ذلك لأنها كانت لغة معقدة صعبة حتى على أهلها.

حيث ساعد الخط الديموطيقي بشكل ما على انزواء الخط الهيروغليفي إلا أن هناك عامل آخر أهم، فاللغة المقدسة التي كان يستعملها الكهنة ورجال الدين عامة في صلواتهم وعباداتهم ومنشوراتهم وفي نقش معابدهم؛ قد دخل عليها عامل جديد قصده رجال الدين وأعني به عامل الغموض والاحتكار، و تفسير ذلك أن الكهنة أرادوا أن يقصروا هذه اللغة على أنفسهم، ومن ثم أخذوا يعبرون عن صلواتهم وشعائرهم برموز تختلف في كثير من الأحيان عن تلك التي كان يستعملها المصريون القدامى في نقش معابدهم وفي شعائرهم لدرجة أن لغة هذا العصر قد أصبحت من الصعوبة بمكان وأن الذي يعرف اللغة المصرية القديمة جدًا لا يفهم منها إلا القليل، وربما كانت قراءته لها خاطئة.

لهذا كان لزامًا علينا أن نوضح العلاقة بين تواجد الخط الهيروغليفي وتواجد الكهنة وديانة مصر القديمة وهي علاقة الكينونة والعدم فوجود الهيروغليفية استمرار لنفوذ الكهنة وسر من أسرار وجودهم، ووجود الكهنة استمرار لتواجد الهيروغليفية حتى وإن ظلت جامدة لم يصيبها التطور.

لم تكن الهيروغليفية الخط المقدس في مواجهة الخط الشعبي الدارج فقط ولا واجهت تعنت الكهنة والاستئثار بها لأنفسهم دون غيرهم من أفراد الشعب ولكنها أيضا واجهت ملوك البطالمة الذين كانوا في ظاهرهم مصريين وفي باطنهم إغريقًا ولا أدل على ذلك من أنه لم يصادفنا حتى الآن ملك من هؤلاء البطالمة كان يعرف اللغة المقدسة (الهيروغليفية) أو حتى لغة الشعب (الديموطيقية) اللهم إذا استثنينا (كليوباترا) التي خُتِمَ بها عهد هؤلاء الأباطرة الإغريق فقد قيل: "إنها كانت تتحدث الديموطيقية"

وبانتهاء عصر البطالمة وتحول مصر من دولة إلى ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية ورغم استمرار الهيروغليفية بعد ذلك لثلاثة قرون أو أربعة نتيجة لاحتضان الدولة

---

[٨٣] سليم حسن – موسوعة مصر القديمة – الجزء ١٥ – ص ٥٥٢ وما بعدها

الرومانية للوثنية بكافة اشكالها سواء أكان في الشرق أو الغرب- واستمرار التواجد الكهنوتي المصري - في الوقت الذي ناصبت العداء للديانة المسيحية الوليدة واضطهاد أتباعها في كل مكان.

يقول دكتور رأفت عبد الحميد في كتابه الدولة والكنيسة عن هذه الفترة: **"ويبدو من المستحيل إعطاء صورة دقيقة عن الديانة الوثنية في الامبراطورية اليونانية وخاصة في تلك القرون الاولى للميلاد..... عبد المصريون الآلهة التي تحمل رؤوس الحيوانات في حياتها وبعد مماتها، وامتلأت المعابد الكبيرة بالعديد من الكهنة حليقي الرؤوس يباشرون الطقوس الدينية في لغة قديمة كانوا هم أنفسهم يفهمونها بصعوبة!"**[٨٤]

في مقابل ذلك كان المسيحيون المصريون يعيشون حياة عزلة بعيدًا عن مواطنيهم – المصريين الوثنيين - أو رعايا المحتل الروماني الوثنيين فالمسيحية التوحيدية (عبادة إله واحد) لم تكن ترضى بحل وسط يمكن استخدامه مع الوثنية متعددة الآلهة فلا هم يشركون في احتفالاتهم الدينية ولا ندواتهم العامة ولا يندمجون بهم، فتعاليم آباء المسيحية الأوائل تقول بفساد الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد.

ويستطرد دكتور (رأفت عبد الحميد): **"فقد بدا اعتزال المسيحي للشئون الدنيوية وكأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومية والإرادة القومية......... ولما كان قد حُرّم على المسيحي أن يتزوج غير المسيحية وعلى المسيحية أن تقترن بغير المسيحي اتُّهم الوثنيون المسيحيين بأنهم بذلك يبذرون الشقاق في المجتمع واتُّهم الدين المسيحي بأنه يعمل على تشتيت الأُسر وخراب البيوت". لقد أدت كل هذه الأفكار الانعزالية إلى توجس الأباطرة خيفة من هذه الديانة ومن أتباعها مما دفع الأباطرة إلى اضطهادهم. ظل هذا التباعد بين المصريين المسيحيين والمصريين الوثنيين بكل ما يمثلوه من دين وثقافة ومعاملات ولغة.**

إلا أن تخلي الإمبراطورية الرومانية عن الوثنية (عبادة الالهة) كديانة رسمية للدولة – وتهديد التواجد الكهنوتي في مصر - لتتجه إلى المسيحية، شهد عدة مراحل كان أشهرها على يد الإمبراطور الروماني قسطنطين ٣١٣م[٨٥] من خلال (مرسوم ميلانو) الذي منح الحرية الدينية لسكان الإمبراطورية الرومانية فمن أراد تعدد الآلهة أهلاً به ومن أراد اتباع المسيحية فأهلاً به دون اضطهاد أو تمييز. ولم يصدر قسطنطين أي مرسوم يُجرّم الوثنية أو يحرمها بل لم يحاول أن يبعث فيها الحياة ولم يتعجل نهايتها أيضا وتنفس الكهنة الصعداء لفترة من الزمن وكُتب لخطهم الهيروغليفي الاستمرار باستمرارهم.

لقد قلل إعلان الحرية العقائدية التامة من شأن الوثنية بصفتها الديانة الرسمية للدولة وتم وضعها على قدم المساواة في مصاف العقائد الأخرى ومن بينها المسيحية، وإن كان

[٨٤] رأفت عبد الحميد – الدولة والكنيسة – الجزء الأول – ص ١٦

[٨٥] قُسْطَنْطِينُ العَظِيمُ ولد في نيشيش، ما يُعرف اليوم بـ نيش بصربيا، كان معروفاً أيضاً بإسم قسطنطين الأول وقسطنطين بن هيلانة. كان الإمبراطور اليوناني الذي حكم من ٣٠٦ م إلى ٣٣٧ م. أبوه قسطنطيوس كلوروس، كان ضابطًا في الجيش الروماني من أصل إيليريوني، وأمه كانت الإمبرطوره هيلانة. أصبح والده القيصر، ونائب الإمبراطور في الغرب.

قسطنطين قد قيّد بعض الطقوس الخاصة مثل تقريب الأضحيات أو تقديمها على الإطلاق ولكن ظلت المعابد الوثنية مفتوحةً للعبادة العامة.
وكما تدرجت الإمبراطورية الرومانية في انتقالها من الوثنية إلى المسيحية تدرجت كذلك في مواقفها من سلطة الكهنة ونفوذهم.

الأباطرة الرومان وكسر شوكة الكهنة:

كان الأباطرة الرومان يرون أن رجال الدين المصريين يمثلون القيادة المنظمة الوحيدة للأهالي. والواقع أن نفوذ الكهنة المصريين تضخم إبان عهود البطالمة الأواخر الذين أعادوا إليهم أكثر امتيازاتهم القديمة وأهمها الإعفاءات المتتالية من الضرائب ومنحهم امتياز الإنتاج في أراضي المعابد وكذلك حق إيواء المعابد للمستجيرين بها.
وقد وضح دور المعبد المصري وزعامة الكهنة في بُعد الروح القومية المصرية ضد الحكم البطلمي. ولابد أن الأباطرة الرومان فطنوا لذلك فعمد الإمبراطور قسطنطين إلى هذا الخطر فعمد إلى تجريد الزعامة الدينية من الأساس المادي لسطوتها، فأصدر أمره إلى واليه "بترونيوس" بالاستيلاء على الجانب الأكبر من أراضي المعابد ونقلها إلى ملكية الدولة واعتبارها جزءًا من أراضي الإمبراطور. ولم يسمح للكهنة إلا بزراعة جزء من الأراضي يكفي لسد حاجة المعبد.
ومن المحتمل أنه أسند شئون الإشراف على حسابات المعابد في مصر كلها إلى سلطة مركزية تمثلت في موظف مالي كبير حمل اسم "الإيديوس لوجوس" (أو: "مدير الحساب الخاص). ذلك أن هذا الموظف ذا الاختصاص المالي الصرف عُرف بلقب الكاهن الأعلى للإسكندرية وسائر مصر، وهو لقب لا يبدو مفهومًا في ضوء إشرافه على شئون المعابد المالية. وقد كان كل معبد مكلفًا بأن يرسل إلى مدير الإقليم الذي يقع فيه تقريرًا سنويًا يضم قائمة بأسماء كهنته وممتلكاته وحساباته.[٨٦]

أنشودة الأحزان الوثنية:

وجاء الإمبراطور ثيودوسيوس[٨٧] الذي كان المسئول الأول عن القضاء على الوثنية القضاء الأخير، حتى تحتل المسيحية التي طال انتظارها المكانة الرسمية كدين

---

[٨٦] الدكتور باسم سمير الشرقاوي - تاريخ مصر القديم من الإسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه
[٨٧] الإمبراطور ثيوذوسيوس الكبير ثيودوسيوس الأول ٣٤٧ - ٣٩٥م آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة حيث انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين بعد وفاته. عُين ثيودوسيوس الأول إمبراطورًا للدولة الرومانية ٣٧٨. تبنى الإمبراطور ثيودوسيوس الأول المسيحية في عام ٣٨٠، وجعل منها دينًا وحيدًا للإمبراطورية في العام ٣٩١.

للإمبراطورية بدلاً من الوثنية، خاصة بعد أن عفا الزمن على القوانين التي كان قسطنطين وأبناؤه قد أصدروها بتحريم الأضحيات للأوثان.
ولم تكن العبادات الخاصة للأرباب هي التي ما زالت. تلقى رواجًا فحسب، بل أيضا التنجيم والسحر، وكان كل من هذه المعتقدات على حدة يشكل خطرًا جسيمًا على المسيحية الوليدة. ولا شك أن مسألة العرافة كانت دافعًا قويًا لثيودوسيوس على إصدار مرسومه الأول ضد الوثنية في ديسمبر ٣٨١، الذي يحرم إجراء الطقوس الوثنية الخاصة بالتنبؤ، وارتياد المعابد من أجل استلهام وحي الأرباب[٨٨].
وكان نص القانون: **"وتقتضي إرادتنا ومشيئتنا، أنه ينبغي على كل فرد من رعايانا حاكمًا أو مواطنًا، عظيم الشأن والمقام أو حقيًرا، ألا يعبد في أية مدينة، أو في أي مكان، صنمًا لا حياة فيه، بذبح ضحية بريئة. وأعلن هذا المرسوم أن تقديم الذبائح والتكهن بالغيب عن طريق أحشاء الضحية (دون أي اعتبار لموضوع البحث) يعتبر خيانة عظمى ضد الدولة ولا تكفير عنها إلا بموت المذنب"**[٨٩].
وكان ثيودوسيوس طوال هذه السنوات الماضية من عهده قد اتخذ خطوات بعيدة نحو إعلاء شأن المسيحية والإجهاز على الوثنية، ووجهت ضرباته هذه المرة إلى المعابد ذاتها، ورغم أن الإمبراطور لم يكن راغبًا في تحطيم دور العبادة الوثنية تمامًا، بل يطمع في تحويلها إلى مرافق عامة، إلا أن الأمور أفلتت من يديه، حيث لعب الرهبان خاصة ورجال الأكليروس[٩٠] الدور الرئيسي في هذه الناحية، وأقدموا بأنفسهم وبحمية بالغة على تدمير كل ما تصل إليه أيديهم من هذه المعابد، وتمثل ذلك بصورة واضحة في مصر وسوريا.

---

[٨٨] رأفت عبد الحميد – المرجع السابق – الجزء الرابع – ص ١٢٥
[٨٩] إدوارد جيبون - (اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) – الجزء الثاني ص ١٠٥
[٩٠] كلمة يونانية المقصود بها أصحاب الرتب الكهنوتية الذين يخدمون شعب الله (المؤمنون) من أساقفة وكهنة وشمامسة وهم يحملون صوت الشعب إلى الله ويحملون سر الله وكلمته إلى الشعب. ولم يظهر هذا النظام إلا في القرن الثالث الميلادي وتتفق الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مع الكنائس الأرثوذكسية في درجات النظام الكهنوتي إلا أن البابا في الكنيسة الكاثوليكية يتمتع بسلطات أعلي من نظيره في الكنيسة الأرثوذكسية.

هدم السيرابيوم[٩١]:

"أما في مصر فكانت الأمور أسوأ من سوريا بكثير، ذلك أن الأسقف السكندري ثيوفيلوس[٩٢]، الذي كان يوصَف بأنه صوت الحكمة ومكمن الشجاعة راح يلح على الإمبراطور ثيودوسيوس كى يسمح له بتحويل معبد الإله ديونيسيوس إلى كنيسة، ومع أن ثيودوسيوس لم يصدر أوامر صريحة بذلك، إلا أنه في الوقت ذاته لم ينبئه برفضه، فاتخذ ثيوفيلوس من ذلك ذريعة ليبدأ حملة شاملة لتدمير المعابد الوثنية الشهيرة في الإسكندرية، وعمد إلى السخرية بالطقوس الوثنية، عندما ألقى إلى عرض الطريق كل ما يخص أسرار الشعائر الديونيسية - نسبة إلى الإله ديونيسيوس- ثم تحول الهجوم بعد ذلك إلى السرابيوم. وكان من الصعب على الوثنيين في المدينة، خاصة فلاسفتهم، إزاء هذه السخرية بالأرباب أن يكظموا غيظهم، ومن ثم اندفعوا في غضبهم لا يلوون على شيء، واحتلوا مبنى السرابيوم، يقود جمعهم الفيلسوف أوليمبيوس Olympius وراحوا من هذه القلعة الوثنية يردون هجمات المسيحيين"[٩٣].



[٩١] السيرابيوم هو اسم يطلق على كل معبد أو هيكل ديني مخصص لعبادة إله الوحدانية سيرابيس، وهي عبادة مقدسة في مصر في العصر الهيلينستي تجمع بين إلهين من آلهة مصر القديمة وهما أوزوريس وأبيس[؟]. كان هناك العديد من دور العبادة لهذه الديانة، وكان يطلق على كل واحدة منها باللاتينية: Serapeum أو بالإغريقية: (Serapeiom Σεραπεῖον). وبُني في عهد بطليموس الثالث (الذي حكم من ٢٤٦ قبل الميلاد-٢٢٢ قبل الميلاد)السرابيوم الأكثر شهر لعبادة الإله «سيرابيس» في مدينة الإسكندرية.

[٩٢] البابا ثيوفيلس (ت. ٤١٢) بطريرك الإسكندرية (الكنيسة القبطية) النيقي رقم ٢٣. تولى الكرازة المرقسية من ٣٨٥ حتى ٤١٢.

حطم وحوّل معابد إلى كنائس، ومنهم متحف مكتبة الإسكندرية والسرابيوم (معبد لعبادة سرابيس وفي الوقت نفسه المكتبة الأخت الصغرى لمكتبة الإسكندرية). شجع عصابات المسيحيين على تدمير المعابد الوثنية (ومعها المكتبات الفلسفية الغنوصية) وعلى قتل الوثنيين رغم إرسال الإمبراطور ثيودوسيوس الأول رسالة إليه تسمح له بتحويل المعابد إلى كنائس ولكن تنهاه بشدة عن قتل الوثنيين.

[٩٣] رأفت عبد الحميد المرجع السابق – الجزء الرابع – ص ١٦٦

وما كان من حاكم مصر إفاجريوس وقائد الحامية العسكرية رومانوس إلا أن تدخل بالحامية الرومانية في المدينة لصالح الأسقف السكندري ثيوفيلوس، كما أن الوثنيين اضطروا أمام أعمال العنف التي تعرضوا لها إلى الهروب من الإسكندرية متفرقين في عديد من مدن مصر، وكان من بينهم النحويان هلاديوس وآمونيوس. هذا بالإضافة إلى أن الوثنيين تملكهم الهلع والرعب مخافة أن يحل بهم غضب الإمبراطور" ولم يلبث أن تحقق صدق حدسهم، حيث جاءت الأوامر الإمبراطورية إلى الإسكندرية بتحطيم كل المعابد الوثنية في المدينة، فصهرت تماثيل الأرباب في غلايات ضخمة، بينما صودرت الأدوات الطقسية كالأواني المقدسة لمصلحة كنيسة الإسكندرية، واحتفظ ثيوفيلوس بتمثال واحد – يقصد تمثال سيرابيس[٩٤] - لأحد الأرباب ليقيمه في أحد الميادين من قبيل "الازدراء والسخرية" بالعبادات الوثنية. وقد أدى هذا بالذات إلى استياء أمونيوس، الذي عبر عن ذلك بقوله "أن ديانة الوثنيين قد أُسيء إليها بصورة فجة بالإبقاء على هذا التمثال.

تحطيم تمثال الإله سيرابيس:

يروي لنا إدوارد جيبون في كتابه (اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) قصة تدمير هذا التمثال: " و كان التمثال الهائل لهذا الإله مكونًا من عدد كبير من ألواح من مختلف المعادن ملتحمة بعضها ببعض، ويلمس من جانبيه جدران المحراب، و كان شكل سيرابيس، ووضعه الجالس، والصولجان الذي كان يحمله في يده اليسرى، كل أولئك كان شديد الشبه بالتماثيل العادية للإله جوبتير، ولكنه كان يفترق عن جوبتير بالسلة أو المكيال الذي وضع فوق رأسه، وبالوحش الرمزي الذي أمسك به في يده اليمنى، وهو رأس وجسم ثعبان يتفرع إلى ثلاثة ذيول، وهذه بدورها تنتهي بثلاثة رؤوس هي رأس كلب ورأس أسد ورأس ذئب، و كأنه يقول في ثقة وتأكيد:" إنه إذا تجرأت يد دنسة على المساس بجلال الإله، فإن السموات والأرض سوف تعود على الفور إلى حالة فوضاها



الاله سيرابيس

[٩٤] إله الوحدانية سيرابيس، وهو يجمع بين إلهين من آلهة مصر القديمة وهما أوزوريس وأبيس ظهر اول ما ظهر في عصر البطالمة.

الأصلية". غير أن جنديًا جريئا ألهبه الحماس وكان مسلحًا ببلطة القتال، فارتقى السلم صاعدًا إلى التمثال، وحتى الجمهور المسيحي نفسه توقع في شيء من القلق ما سوف يحدث نتيجة للصراع، وصوب الجندي ضربة قوية إلى خد سيرابيس، فوقع الخد إلى الأرض، غير أن الرعد ظل صامتًا ولم يضرب الأرض بصواعقه، وظلت السماوات والأرض تسير في نظامها وهدوئها المعتاد[٩٥]، وعاود الجندي الظافر ضرباته وأطاح بالصنم الضخم الذي تحطم قطعًا وجر الجمهور أطراف سيرابيس في طرقات الإسكندرية بصورة شائنة. ثم أحرقوا تمثاله في مدرج المدينة وسط صيحات الجماهير"[٩٦].

حرق مكتبة الإسكندرية:

تدل الوثائق التي في متناولنا حتى الآن على أن قدماء المصريين كانوا أول من فكروا في تدوين أفكارهم وآرائهم على الورق ولا غرابة في ذلك؛ فَهُم الذين اخترعوا صناعته ونشروه في العالم، وتُحَدِّثنا النقوش والكتابات التي وصلت إلينا حتى الآن أن المصريين منذ أقدم عهودهم كانت لهم دُور يحفظون فيها كتاباتهم الخاصة بتاريخ بلادهم وعلومهم الدينية والدنيوية ولا أدل على ذلك من قيام مؤسسة «بيت الحياة» (بر-عنخ) الذي كان يُحفظ فيها كل سجلات البلاد التاريخية والفنية والأدبية والدينية، ويُخيَّل إليَّ أن مؤسسة «بيت الحياة» عند قدماء المصريين كانت تقوم بالوظيفة التي تقوم بها كل من المكتبة و«الميوزيون»؛ فقد كان فيها العلماء الباحثون في كل العلوم المصرية كما كان فيها كل المراجع التي يحتاج إليها أولئك العلماء، وقد سمعنا بوجود مؤسسة «بيت الحياة» منذ أوائل الأسرة الرابعة وقد استمرت موجودة تقام بجوار المعابد حتى نهاية العهد الإغريقي الروماني، ولنا أن نتخيل حجم



[٩٥] وما أشبه هذا المشهد بمشهد عبد الرحمن علي الإعلامي في فيلم فجر الإسلام عندما قام بتحطيم الإله هبل وسط استياء من الكهنة وسفسطتهم وانتظارهم بأن يُنزِل هبل لعناته عليه فبشل يده وهو ما لم يحدث بطبيعة الحال.

[٩٦] إدوارد جيبون المرجع السابق - ص ١٠٣

الفاجعة التي أصابت العالم عامة ومصر خاصة من احتراق مكتبة الاسكندرية التي أنشأها بطليموس الاول وجمع فيها كل مدونات العلوم من المعابد المصرية.
ولنصل لحجم تقريبي لما كانت تضمه مكتبة الاسكندرية من كتب نورد ما ذكره جالينوس في القرن الثالث بعد الميلاد حيث قال: إن البطالمة قد جمعوا سبعمائة ألف مجلد، والمجلد هنا لا بد أن يعني إضمامة، وأقرب تقدير معقول يمكن للعلماء أن يصلوا إليه بالنسبة لحجم مجموعة الإسكندرية يجوز بأن يُقترح فيه النتيجة الآتية: في عهد البطالمة في ختام القرن الثالث قبل الميلاد يجوز أن يبلغ عدد الإضمامات حوالي أربعمائة ألف إضمامة، وفي عهد «يوليوس قيصر» يجوز أن يزداد هذا العدد إلى سبعمائة ألف إضمامة.١٦ يضاف إلى ذلك مئتا ألف إضمامة أُهديت إلى «كليوبترا السابعة» من زوجها «ماركاس أنطونياس» ومن مجموع ذلك نصل إلى أعلى رقم وصل إلينا من الأزمان القديمة وهي تسعمائة ألف إضمامة، وعندما يرغب الإنسان في موازنة هذه الأرقام بما يقابلها من كتب كما نفهم في عهدنا الحاضر لا بد أن نفهم أولًا معنى الكلمة الإغريقية «بيبليا» Biblia وهذه الكلمة التي تستعمل عادة في مصادرنا القديمة تعني فقط إضماماتٍ لا كُتُبًا بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن.
والواقع أن أحسن مدخل لعمل حساب تقريبي لعدد الإضمامات التي يجب أن نحصل عليها لتعادل كتابًا في مجلد واحد هو الحصول عليه من البرديات المصرية من جهة، ومن نقش على حجر من جهة أخرى، وذلك أنه في عام ألف وتسعمائة وستة وضع العالِم الذائع الصيت «فلكن» حوالي أربعين قطعة كبيرة وصغيرة سويًّا لإضمامة واحدة، وقد كانت نتيجة لهذا الدرس الدقيق المفهوم،١٧ الذي وضع سويًّا في قصة متصلة هو أن هذه القطع يمكن أن تصل إلى نحو ست أو ثماني صحائف من مجلد بالحجم الكبير من كتبنا الحالية، وهذه القطع جاءت من تاريخ عن حروب «هانيبال» مع «روما» وقد ضاع في الزمن القديم المتأخر وكان مؤلفه «إسبرتيًّا» إغريقيًّا يُدعَى «سوسيلوس» Sosylus وكان عضوًا في هيئة الموظفين من رجال الأدب في جيش «هانيبال»، والورقة التي أتت منها هذه القصة قد أَرَّخ كتابتها «فلكن» بالقرن الأول قبل الميلاد، ومن حسن الحظ أن عنوان الكتاب قد وُجد على ظهر إحدى القطع وهو الكتاب الرابع (أي الإضمامة الرابعة) من كتاب إضمامات «سوسيلوس» عن أعمال «هانيبال»، ونحن نعلم أنه لا يوجد إلا سبعة كتب من هذا المؤلَّف الذي وضعه «سوسيلوس» عن أعمال «هانيبال» أي إنه كله يحتوي على سبع إضمامات.
ويمكن الإنسان أن يستنتج من كل ما سبق كما يقول «فسترمان» أن متوسط ما تحتويه ست إضمامات من الإضمامات القديمة تعادل على وجه التقريب كتابًا من الحجم الكبير الحديث يحتوي على ثلاثمائة صفحة، فإذا لاقت هذه النظرية قبولًا فيكون لدينا قاعدة عامة يمكن أن نقرن بها مجموع محتويات مكتبة الإسكندرية القديمة بالنسبة للمكتبات الحديثة الآن.

كان بطليموس الأول قد أمر، عام ٢٨٨ ق.م.، بتشييد "الميوزيوم"، أي قصر ربات الفنون، الإلاهات التسع الشقيقات المُلهمات للغناء والشعر والفنون والعلوم والميثولوجيا الإغريقية[٩٧]، وكان يضم جامعة، وأكاديمية علمية، والمكتبة الشهيرة التي كانت تحتوي على سبعمائة ألف مخطوطة[٩٨]. وكان قد طلب من كل البلدان الشهيرة أن ترسل له أعمالا لكافة المؤلفين وأمر بترجمتها إلى اليونانية. كما كان يطلب من البواخر التي تتوقف بميناء الإسكندرية أن تسمح بأن يتم نقل وترجمة ما تحمله من كتب.. فكانت النسخ المنسوخة تعاد إلى البواخر ويتم الاحتفاظ بالأصل في مكتبة الإسكندرية.

وأصبح "الميوزيوم" مركزًا علميًا عالي المستوى، يؤمه كافة العلماء، حيث يجدون كل ما يحتاجون إليه. وكانت عملية ترجمة كل هذه الأعمال إلى اليونانية تمثل عملاً ضخمًا، استحوذ على كافة مثقفي البلد تقريبًا. فقد كان يتعيّن على هؤلاء الأشخاص إتقان لغتهم الأم إضافة إلى إتقان اليونانية. وعند امتلاء المكتبة تم تشييد ملحق لها قرب الميناء. وهذا الملحق امتدت إليه النيران عام ٤٧ ق. م.، عندما قام يوليوس قيصر بحرق أسطول الإسكندرية.

أما مكتبة الاسكندرية القيمة تلك فقد نهبت ودمرت، وبعد انقضاء قرابة العشرين عامًا بدت الرفوف خاوية خالية تثير الأسف والسخط في نفس كل مشاهد لم يطغ على عقله ظلام التعصب الديني، ولقد كان من المستطاع أن يستثنى من تدمير الوثنية ما أنتجته العبقرية القديمة من مؤلفات هلك الكثير منها دون أمل ما في تعويضها، بحيث تبقى لتسلية الأجيال التالية وتعليمها.

خرافة أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية!

ولأننا هنا نحاول على قدر الامكان أن نعيد كتابة التاريخ وفقا للمصادر المعتمدة لكتابته، ووفقا للروايات الصحيحة بعيدًا عن الوضع والتدليس، فكان لزامًا علينا أن نعرض رواية أخرى عن المتسبب في حرق مكتبة الإسكندرية.

لايزال الكثير من الباحثين والمؤرخين يعتقدون بقصة مسؤولية المسلمين عن حرق وتدمير مكتبة الاسكندرية بعد غزوهم المدينة عام ٦٤٢ م بأمر من الخليفة عمر رغم الأدلة الدامغة التي تنفي القصة. وللقصة أصول وقصدية وأخذ ورد وهي مثال رائع لمعرفة كيفية نشوء مثل تلك الخرافات التاريخية وكيف ازدهرت. وصلتنا هذه القصة (قصه حرق مكتبة الإسكندرية) عام ١٦٦٣ م وذلك عندما قام إدوارد بوكيكيه (Edward pococke) أستاذ اللغة العربية بنشر ترجمة إلى اللاتينية لجزأ من التاريخ الشامل لمؤلفه المسيحي – السرياني المعروف بأبن العبري.

---

٩٧ هي مجموعة من الأساطير التي خرجت من معتقدات وقصص وأدب وديانات الحضارة اليونانية (الهيلينية)

٩٨ بدأت مكتبة الاسكندرية بما يقرب من مئتين مجلد

(تقول القصة التي يتبناها بعض رعايا المؤسسة الكنسية في مصر وبعض المستشرقين وبعض الباحثين العرب أن عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ هو من أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية وذلك بناء على وثيقة يستند إليها من يروج لهذه الفرية، وهي بقلم ابن القفطي[٩٩]، في القرن الثالث عشر الميلادي، في كتابه المعنون: " تأريخ الحكماء": "إن الخليفة عمر قد أصدر أوامره للقائد عمرو بن العاص قائلاً: "**فيما يتعلق بالكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها كوقود لتسخين المياه. وقد استغرق حرقها ستة أشهر كاملة"**). (أ. د. زينب عبد العزيز - أستاذة الحضارة الفرنسية – مقال بعنوان "حرق مكتبة الإسكندرية القديمة: تعقيب على القمص أنجيلوس جرجس[١٠٠]").

ولتصحيح الأمر فان أول من أشار إلى هذه القصة هو المؤرخ الإسلامي عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر سنة ١٢٠٠م، في كتابه (الإفادة والاعتبار)، المدوّن بخط اليد، ذكر في ص ٢٨، من الجزء الثاني للكتاب: (..**كانت مسقوفة – يقصد مكتبة الاسكندرية -والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذي ذكره أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم الذي بناه الإسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه**)،والغريب أن البغدادي قد أورد هذه الرواية دون سند ولا أصل، وتلقفها منه بعد ذلك (ابن القفطي) في كتابه (تاريخ الحكماء).

ليأتي بعد ذلك المؤرخ (أبو الفرج ابن العبري) أو(بار هيريوس)[١٠١]، ونقلها عن ابن القفطي بعد عقود من الزمن حيث ذكر أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر، جاء إليه أحد وجهاء الإسكندرية يدعى يوحنا الأجرومي يطلب منه أخذ المخطوطات من مكتبة الإسكندرية، لينقلها إلى القسطنطينية، كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في الأمر، ليرد عليه الخليفة بالرد الذي أوردناه سلفًا.

---

[٩٩] جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القِفْطِي مؤرخ وطبيب عربي - ١١٧٢ - ١٢٤٨، قفط، مصر

[١٠٠] نص المقال للقمص إنجليوس جرجس على هذا الرابط:
https://mkalatk.com/article/١١٠٥٩٥-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪B٩٪D٨٪B٥٪D٨٪B١-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٢٪D٨٪A٨٪D٨٪B٧٪D٩٪٨٩-٢١-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٣٪D٩٪٨٢٪D٨٪A٨٪D٨٪A٧٪D٨٪B٧-%D٩٪٨٤٪D٩٪٨٥-%D٩٪٨A%D٨٪AD%D٨٪B١٪D٩٪٨٢٪D٩٪٨٨٪D٨٪A٧-%D٩٪٨٥٪D٩٪٨٣٪D٨٪AA%D٨٪A٨٪D٨٪A٩-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٥٪D٨٪B٣٪D٩٪٨٣٪D٩٪٨٦٪D٨٪AF%D٨٪B١٪D٩٪٨A%D٨٪A٩

[١٠١] غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي والمعروف بـ ابن العبري، ويعرف في أوروبا باسمه اللاتيني "Bar-Hebraeus" - هو لاهوتي وفيلسوف وعالم سرياني ولد ٦٢٣ هـ الموافق ١٢٢٦ م في مدينة ملطية، ولقب بابن العبري لأن جده أو والده قدم من قرية (عبري) الواقعة قرب نهر الفرات، بينما يذهب البعض للاعتقاد بأنه عبراني (يهودي) الأصل، ولكن ابن العبري نفسه ينفي ذلك في بيت شعر يقول (بعد تعريبه): إذا كان ربنا (المسيح) سمي نفسه سامريًا فلا غضاضة عليك إذا دعوك بابن العبري لأن مصدر هذه التسمية نهر الفرات.

أما المؤرخون المصريون المسيحيون فقد عفو أنفسهم من تناول هذه الرواية من قريب أو بعيد، فالمؤرخ المسيحي (يوحنا النقيوسي)[١٠٢] كان أحد شهود العيان على الفتح الإسلامي لمصر لم يقل أي شيء عن قصة الحرق، وهو لم يكن بأي حال من الأحوال من المتعاطفين مع المسلمين، بل كان قاسيًا في كتاباته عليهم، ولم يتحدّثَ باقي المؤرخين المسيحيين منذ أوائل الوجود الإسلامي في مصر حتى عصر سلاطين المماليك (ساويرس ابن المقفع) عن هذا الخبر.

أما عن مؤرخي الغرب ومفكريه فقد فنّد الطبيب والمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه (تاريخ العرب) هذا الزعم بكلام واضح بيّن، وذلك في الفصل الرابع، العرب في مصر، ص ٢٢٥ من الكتاب، نذكره كما هو: **(وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم، فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمنًا طويلاً؟ وهذه القصة دُحضت في زماننا فلا نرى أن نعود في البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن المسيحيين هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدّموا بها التماثيل ولم يبق منها ما يُحرق)**، انتهى كلام لوبون.

أما ويل ديورانت، صاحب (قصة الفلسفة)، يذكر في مؤلفه الضخم المكوَّن من ٤٢ مجلد (قصة الحضارة)، في المجلد ١٣، فصل الإسلام في الغرب، ص ٢٦٣، كلامًا مفصلاً نشير إليه دون زيادة أو نقصان: **(وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطوري في أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير: أحرقها لأن ما فيها كله يحتوي كتابًا واحدًا هو القرآن، ويضيف بار هيريوس أن عُمرَ أمر بالكتب فوُزعت على حمامات المدينة البالغ عددها ٤٠٠٠ حمام لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بملفات البردي والرق ٦ أشهر، ومن نقط الضعف في هذه القصة**

١- أن جزءًا كبيرًا من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون في عهد البطرق ثيوفيلوس.
٢- وأن ما بقي فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضًا أدّى إلى ضياع معظمه قبل عام ٢٤٢م.
٣- لم يشر أي من المؤرخين المسيحيين بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم في ٥٠٠ عام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو (أوتيكيوس) كبير أساقفة الإسكندرية في عام ٩٣٣م قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير، ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة)، انتهى كلام ويل ديورانت[١٠٣].

---

[١٠٢] يوحنا النقيوسي كان أسقفا من القرن السابع الميلادي لابراشية مدينة نقيوس في جنوب شرق الدلتا ويعتبر التاريخ الذي كتبه من المصادر الهامة عن أحداث دخول العرب لمصر حيث أنه عاش قريبًا من تلك الفترة ولأنها تعتبر الرواية القبطية المقابلة للمصادر التاريخية الإسلامية.

[١٠٣] صالح الأهاوش - هل حقا أمر عمر بن الخطاب بحرق مكتبة الإسكندرية؟! – مقال – مدونات الجزيرة – بتاريخ ٢٠١٩/٢/٢٦

أما الفونس دان (A. Dain) في كتابه المُعنوّن "المخطوطات" (١٩٨٠): "**يُقال عادة أن جنود الخليفة عمر بن الخطاب أحرقوا معبد السرابيوم وما كان يضمه من مكتبة شهيرة في هذه المدينة. وقد صدّقت تلك المقولة أنا شخصيًا، إلا أنه يجب عليَّ أن أعترف بخطئي، عندما تبيّنت الأمر وجدت أن من قام فعلاً بحرق مكتبة الإسكندرية هم مسيحيو الأسقف ثيوفيلوس. وهنا لا بد من توضيح أنه كان بالإسكندرية مكتبتين: مكتبة البروكيون[١٠٤]، وكانت في وسط المدينة، وقد هدمها أورليان[١٠٥] سنة ٢٧٣ حينما استولى على المدينة، ومكتبة السرابيوم، التي هدمها الأسقف ثيوفيلوس عام١٣٩١**".

ويقول القس أوروز، مؤلف "كتب ضد الوثنيين" عام ٤١٧،: " **أنه عند مروره بالإسكندرية رأى "دواليب الكتب التي أفرغها رجالنا من محتوياتها" (الكتاب السادس، الفصل الخامس عشر) " وهذه الملاحظة سابقة على الفتح الإسلامي الذي حدث في منتصف القرن السابع" (صفحة ١٨٩)**.."[١٠٦].

وقد أورد المؤرخ إدوارد جيبون: "**أن من حرق مكتبة الإسكندرية هو الأسقف ثيوفيلوس، العدو اللدود للسلام والفضيلة، ذلك الجرئ الشرير ذو الأيادي الملطخة بالدماء والذهب على التوالي، وهادم السرابيوم**" (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها – ج ٢ - الفصل ٢٨ – ص ١٠١).

في عام ١٧٣١ وجه المستشرق الفرنسي الأب (اسيبيو رينادو) سهام النقد لتلك القصة ولاحظ في كتابه تاريخ بطرياركية الإسكندرية المنشور في نفس السنة: أن هذه القصة تبدو غير موثوق بها.

أما ألفريد بتلر[١٠٧] فقد استقصى أمر مكتبة الإسكندرية، وأحاط به بشكل محايد ورائع في نفس الوقت، ورأى أن أختم الحديث عن مكتبة الإسكندرية بشهادته، فيقول: ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجملنا فيما يلي أدلة حجتنا، فإن قصدنا حقيقة أن نعرف أمر مكتبة الإسكندرية، ومقدار نصيب قصة إحراق العرب لها من الصحة أو الكذب، وقد بينّا فيما سلف الأمور الآتية:

١- إن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة.
٢- إننا فحصنا القصة، وحللنا ما جاء فيها، فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل.

---

[١٠٤] نسبة إلى حي البروكيون وهو الحي الذي يقع به معظم القصور ويمكن تسميته بالحي الملكي حيث كان يشمل المنطقة الواقعة بين البحر وبين ما يقع من الشارع الكانوبي بين ميدان الهيبتاستاديوم وميدان الجمنازيوم، وكان هذا الحي يضم جميع القصور الملكية ومراسي السفن ومعبد الأرسينيوم ثم المسرح والمكتبة والمعابد والمقابر الملكية وغيرها.

[١٠٥] لوقيوس دومِتيوس أورليانوس Lucius Domitius Aurelianus ٢١٥ : ٢٧٥يُعرف بالإنجليزية: Aurelian، امبراطور روماني (٢٧٠-٢٧٥)، كان الثاني من عدة "أباطرة-جنود" باهري النجاح ساعدوا الإمبراطورية الرومانية على استعادة قوتها في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع.

[١٠٦] أ. د. زينب عبد العزيز - أستاذة الحضارة الفرنسية – مقال بعنوان (حرق مكتبة الإسكندرية القديمة: تعقيب على القمص أنجيلوس جرجس)

[١٠٧] ألفريد جوشوا بتلر مؤرخ بريطاني، درس بأكسفورد وحصل على زمالة كلية براسينوز عام ١٨٧٧ ودرجة الدكتوراه عام ١٩٠٢. اهتم بالتاريخ المصري وكتب فيه عدة مؤلفات تنوعت ما بين العصر القبطي إلى العصور الوسطى.

٣- إن الرجل الذي تذكر القصة على أنه محورها وأكبر عامل فيها، وهو حنا فيلبوتس النحوي الأجرومي، الذي طلب الهدية من عمرو بن العاص، فيقول بتلر: "إنه كان يكتب ومات عام ٥٤٠ للميلاد، أي قبل الغزو بأكثر من مائة عام"

٤- إن القصة قد تشير إلى إحدى المكتبتين: الأولى مكتبة المتحف، وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي أحدثه قيصر - دقلديانوس - وإن لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن ٤٠٠ عام قبل الفتح الإسلامي، وأما الثانية وهي مكتبة السرابيوم فإما أن تكون قد نُقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ للميلاد، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت قبل الفتح الإسلامي، فتكون على أي حال اختفت قبل الفتح العربي بقرنين ونصف قرن.

٥- إن كُتاب القرنين الخامس والسادس وما قبلهما، لا يذكرون شيئًا عن وجودها، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع الميلادي.

٦- إن هذه المكتبة لو كانت باقية عند عقد (المقوقس) الصلح مع العرب على تسليم الإسكندرية، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب، وقد أبيح ذلك في شرط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب في المدينة، وقدر ذلك أحد عشر شهرًا.

٧- لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت، أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة، لما أغفل ذلك كل من كان من أهل العلم قريب العهد من الفتح مثل - حنا النقيوسي - وهو من كان يتمنى أن يجد شيئًا يقدح به في العرب والمسلمين، ولما مر على ذلك بغير أن يكتب عنه حرفًا واحدًا، ولا يمكن أن يبقى شك في الأمر بعد ذلك، فإن الأدلة القاطعة تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن رواية أبي الفرج العبري، صاحب القصة التي يتهم فيها العرب، لا تعدوا أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس في التاريخ.

ثم يختم بتلر كلامه قائلاً: إن العرب لم تدخل الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بعد أحد عشر شهرًا، وقد ذكر عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم، وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحًا، ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم، وما كان يصعب على أحد أن يقتني هذه الكتب قبل أن تقع الإسكندرية نهائيًا في أيدي العرب.


بردية من القرن الخامس للأسقف

ولقد تعاقب أجيال من المؤرخين الغربيين لتحليل ونقض ما تبقى من هذه القصة منهم فيكتور شاوفين ١٩١١، هيجونيو غريفيني ١٩٢٣ وباول كازانوفا. وتم التأكيد على تناقضات القصة والوقائع غير ممكنه الحدوث فكتب تلك الحقبة كانت تكتب على الرق (Vellum) وهو جلود مدبوغه ومعالجه للكتابة لا يشتعل، إضافة لذلك فلكي نبقي مراجل الماء المغلي في أربعة آلاف حمام ولمده ستة أشهر لاحتجنا إلى حوالي ١٤ مليون كتاب! كما أن يوحنا النحوي والذي توسل إلى عمرو بن العاص، حسب القصة، للإبقاء على المكتبة فالأغلب أنه لم يعاصر الغزو العربي لمصر بل يرجح بأنه مات في القرن الذي سبق الغزو، وهناك أدل' على أن المكتبة قد دمرت قبل ذلك بفتره طويلة.
ومن الغريب أن دائرة المعارف البريطانية أوردت مثل هذا الافتراء في الطبعة الحادية عشرة، ثم تم حذفه من دائرة المعارف البريطانية في الطبعة الرابعة عشرة، بعد أن تأكد المحققون من عدم صدق هذا الخبر، واكتفت الموسوعة ويا للغرابة ورغم كل الشواهد والقرائن التاريخية بقولها إن ظروف تدمير المكتبة تبقى غامضة!

بردية من القرن الخامس للأسقف ثيوفيلوس يقف فوق معبد السرابيوم الذي أمر بحرقه وهدمه:

"هناك بردية من القرن الخامس تصور الأسقف ثيوفيلوس وهو يقف أعلى معبد السرابيوم ومكتبة الإسكندرية التي أحرقها! والصورة تمثله وهو ممسك بنسخة من الكتاب المقدس، ويقف منتصرًا على ما دمره، ويُرى الإله سيرابيس داخل المعبد. ويوجد هذا الرسم على هامش حولية مسيحية كتبت في الإسكندرية في القرن الخامس الميلادي." [١٠٨]

(إلا أن تدوين القصة وفي وقت متأخر جدًا عن تاريخ الحدث يبقى أهم وأخطر ما وجه أليها ــ أي القصة ـــ من نقد فابن العبري وهو المصدر الذي اعتمد عليه المؤرخون الغربيون كان قد عاش ما بين عامي ١٢٢٦ ــ ١٢٨٩ واعتمد ابن العبري على عبد اللطيف البغدادي الذي كان قد زار مصر عام ١٢٠٣ وفي أثناء عرضه لأخبار رحلته إلى مصر يذكر قصة المكتبة وحرقها ويورد ابن القفطي تاريخ بعض الشخصيات

[١٠٨] أ. د. زينب عبد العزيز - أستاذة الحضارة الفرنسية – مقال بعنوان (حرق مكتبة الإسكندرية القديمة: تعقيب على القمص أنجيلوس جرجس)

الفكرية المميزة ومنها يوحنا النحوي والذي ينسب إليه قصة حرق مكتبة الإسكندرية ويذكر ابن القفطي في نهاية سرده لهذه القصة: لقد أخبروني عن عدد الحمامات التي تم تجهيزها بالكتب ولكني نسيت العدد ولكنهم يقولون أن الكتب ظلت تستخدم لمدة ستة أشهر فتمعن وانظر لهذه المعجزة. إلا أن ابن العبري وحين نسخ القصة قام بحذف الملاحظة الأخيرة كما أضاف عدد الحمامات من مصادر أخرى كانت قد أحصت الحمامات ولكن ليس في سياق القصة نفسها.

لكي نقبل قصه تدمير مكتبة الإسكندرية على يد العرب يجب علينا أن نفسر كيف أن حدثًا دراماتيكيا مثل هذا قد غاب ذكره ليس في المصادر الإسلامية المعاصرة للحدث وحدها بل في مصادر الكنيسة القبطية أو غيرها من الكنائس المسيحية وأغفلت حتى المصادر البيزنطية أو اليهودية ذكر هذه الحدث أو أي جهة كانت ترى في المكتبة صرحًا بتلك الأهمية.

إلا أن تلك القصة لاتزال تعيش حتى اليوم بل يعاد سردها على الرغم من تلك الاعتراضات وما بقاؤها إلا دليل عن قدرة الأساطير على العيش في ذاكرة البشر، إلا أن الأساطير لا تأتي من فراغ، بل تكون للإجابة عن تساؤلات البشر أو أنها تخدم غرضًا وهدفًا معينًا ومالناإلا أن نتساءل عن الغرض والهدف من هذه الأسطورة)[١٠٩].

يقدم بعض المسلمين هذه القصة كدليل على نيات الغرب الهادفة للتشويه والنيل من الإسلام والمسلمين ولتسويد صفحة الإسلام الناصعة وخصوصًا اسم الخليفة عمر بن الخطاب باعتباره بربريًا همجيًا لاهم له إلا تدمير المكتبات وحرق الكتب.إلا أن مثل هذا الرأي والذي يتبناه جمهور الكتاب والمؤرخين العرب يبقى متحيزًا ورد غير علمي، بل أعلامي موجه ضد الغرب.

والحقيقة التي يرغب المسلمين تناسيها هي أن مصادر القصة عدا ابن العبري كانت إسلامية أساسًا وأن علماء الغرب هم الذين قاموا ويقومون بتفنيد الأسطورة.

ومن الغريب أن يورد ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي قصه مشابهة لقصة حرق مكتبة الإسكندرية ولكن هذه المرة يكون مكان المكتبة بلاد فارس وبأمر من عمر بن الخطاب أيضا دون أن يذكر لنا مصدر هذه الرواية. إن تكرار هذه القصة يقود إلى الاعتقاد بأن القصة كلها لم تكن سوى فولكلور شعبي متداول لا أساس له من الصحة.

ولكن إذا كان مؤرخو الغرب هم من قاموا بتفنيد ودحض تلك القصة الأسطورية فلماذا قام مسلمون بتأليفها؟

(قدم الجواب على هذه السؤال المؤرخ باول كازانوفا (Paul Casanova) فيلاحظ أنه حين أُشير إلى تلك القصة وبشكل ضمني في بداية القرن الثالث عشر فلابد بأن

---

[١٠٩] برنارد لويس-"قصة تدمير العرب لمكتبة الاسكندرية: تشريح الأسطورة - ترجمة: عمر جاسم عن كتاب: What Happened to the Ancient Library of Alexandria? Edited by Mostafa El-Abbadi and Omnia Mounir Fathallah, With a Preface by Ismail Serageldin. LEIDEN • BOSTON ٢٠٠٨. THE ARAB DESTRUCTION OF THE LIBRARY OF ALEXANDRIA: ANATOMY OF A MYTH, Bernard Lewis. pp. ٢١٣-٢١٧

القصة كانت متداولة منذ بضعه عقود وفي أواخر القرن الثاني عشر وفي زمن صلاح الدين الأيوبي بالتحديد والذي أُشتهر ليس فقط بانتصاراته على الصليبين بل وقد يكون ذلك الأكثر أهميه لدى عموم المسلمين هو سحقه للدولة الفاطمية بمذهبها الإسماعيلي والذي اعتبر تهديدًا لوحده الدولة الإسلامية وكان عبد للطيف البغدادي من المعجبين بصلاح الدين الايوبي وقام بزيارته في القدس، أما ابن القفطي فقد كان تابعًا لصلاح الدين الأيوبي وعينه قاضيًا.
من أهم المهام التي تكفل صلاح الدين بإنجازها كان تدمير البنى التحتية التي تروج وتؤسس للمذهب الإسماعيلي لذا كان تدمير المكتبات والكتب التي مثلت مصدرًا لنشر المذهب الإسماعيلي خطوة مبررة لإنهاء وجود مذهب مهرطق. إلا أن تدمير الكتب والمكتبات، وإن حوت كتبًا خطيرة، لابد وأنه كان سيثير ردود فعل غير مستحبة لدى جمهور العلماء لذا كان والحالة هذه لابد من إيجاد سابقة يتم القياس والاعتماد عليها لتبرر مثل ذلك العمل بل وستبرر فيما بعد سحق كل من يجرؤ على القيام بالترويج للفكر الاسماعيلي أو أي فكر يناهض السياسية العامة ومذهب الدولة. من هنا كان لابد من إيجاد سند تاريخي وسابقة تنسب لشخصية تعود الناس أن ينظروا اليها على أنها مصدر للعدل والاحترام، وليس هناك أفضل من تصرفات وسنه الخليفة العادل عمر بن الخطاب. لذا فحين أحرق صلاح الدين كتب الهرطقة فهو لم يفعل سوى أن نفذ وطبق سنة عمر بن الخطاب ويكون قد اقترف عملاً بطوليًا لا عملاً بربريًا. وهكذا تم تجنيد، ـــ وكما عرفنا أبطال صدر الإسلام، لخلق روايات وأحاديث تساعد في تمرير وتبرير سياسات معاصره)[١١٠].
ورغم وجاهة تفسير كازانوفا إلا أنه يتصادم مع روايات المؤرخين العرب المعاصرين لسقوط الدولة الفاطمية وشروق شمس الدولة الأيوبية على مصر (فعماد الدين الأصفهاني، ابن أبي طي، ابن شداد، ابن الأثير، ابن خلكان، ابن الفرات، ابن خلدون، المقريزي، ابن تغر بردي) مؤرّخون وثّقوا تلك الفترة، واتفقوا جميعًا على أن صلاح الدين وجد مجموعة كتب هائلة، من بين كنوز أخرى في قصر الخلافة الفاطمي، لكنهم اختلفوا على حجمها، أو طرق التخلّص منها على نطاق واسع. ابن الطوير صاحب كتاب "نزهة المقلتين في أخبار الدولتين"، وهو مسؤول فاطمي سابق، عاصر صلاح الدين وعمل معه، قدّم أقدم وصف موجود لمجموعة الكتب التي وجدها صلاح الدين، وأُخذت عنه روايات متفرقة في معظم المصادر اللاحقة، لكنه لم يذكر مصير كتب الفاطميين، رغم أنه شهد فترة الانتقال من الحكم الفاطمي إلى الأيوبي، وخدم الإدارتين

[١١٠] https://omarjasim.org/٢٠١٣/٠٩/١٣/%D٩٪٨٢٪D٨٪B٥٪D٨٪A٩-%D٨٪AA%D٨٪AF%D٩٪٨٥٪D٩٪٨A%D٨٪B١-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪B٩٪D٨٪B١٪D٨٪A٨-%D٩٪٨٤٪D٩٪٨٥٪D٩٪٨٣٪D٨%AA%D٨٪A٨٪D٨٪A٩-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٧٪D٨٪B٣٪D٩٪٨٣٪D٩٪٨٦٪D٨٪AF%D٨٪B١٪D٩٪٨A%D٨٪A٩-/%D٨٪AA%D٨٪B٤٪D٨٪B١

الأيوبية والفاطمية. أما أقرب المؤلفين لفترة الانتقال من الدولة الفاطمية إلى الأيوبية فكان عماد الدين الأصفهاني، سكرتير صلاح الدين الخاص، وأحد كبار مستشاريه والمتحدثين باسمه، فيشير إلى أنه حصل على كتب من تلك المجموعات عام ١١٧٦م، وذلك بحسب روايات مفصّلة، نقلها عنه المؤرخ أبو شامة المقدسي (تـ. ١٢٦٧م) في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية". ما ذكره الأصفهاني حقيقة، يدعم التأكيد على أن صلاح الدين قد باع الكتب في وقت استغرق عشر سنوات تقريبًا، وفقًا لأبو شامة، وكانت تلك الكتب تُعرض للبيع مرّتين أسبوعيًا، خلال ست سنوات على الأقل، بعد استيلاء صلاح الدين على الحكم. كذلك ينقل أبو شامة عن ثاني أقرب هؤلاء المؤرخين زمنيًا إلى تلك الفترة، وهو المؤرّخ الشيعي ابن أبي طي، الذي تحدّث عن أن القاضي الفاضل، حصل على أغلب تلك الكتب. وكذلك نقل عنه تقي الدين المقريزي في تاريخه.

هذه الروايات تقوّض نظرية التخلّص المباشر بالجملة أو التدمير العمدي للكتب الفاطمية، بمجرد سقوطها في أيدي الأيوبيين. وفقًا للمصادر، فإن الاحتمالات التالية تفسّر مصير تلك الكتب:

١- بيعت العديد من تلك الكتب، بحسب عماد الدين الأصبهاني، وابن خلكان.

٢- عبد الرحيم البيساني المعروف بـالقاضي الفاضل، الذي كان مسؤولاً رفيع المستوى في نهاية العصر الفاطمي ووزيرًا في عهد صلاح الدين، أخذ من تلك الكتب ما يستطيع، ثم باع صلاح الدين أو وهب ما تبقى منها، ثم تمّ استرجاع الجزء الذي تمّ التخلص منه لاحقًا وبيع للجمهور، بحسب ابن أبي طي.

٣- بيعت كل الكتب، بحسب ابن الأثير.

٤- وهب صلاح الدين كلّ كتب وكنوز الفاطميين واستبقى جزءًا منها لنفسه، بحسب القاضي بن شداد.

٥- نقل بعضها إلى دمشق (محمّلة على ٨ جمال)، وبيعت بعضها، ووُهبت أخرى للمهتمّين بها، بحسب ابن الفرات.

٦- سمح صلاح الدين للقاضي الفاضل بأخذ كل ما يلزمه ويريده منها، ولم يعرف مصير بقيتها، بحسب ابن خلكان، والمقريزي، وابن تغري بردي.

من تلك الروايات، جمع ابن الفرات أقرب الأحداث التاريخيّة، وأكثرها قربا لزمن وقوعها، في سبعينيات القرن الثاني عشر، عن سلفه أبو شامة المقدسي، الذي ربط بين روايات شهود العيان ليخرج بتصوّر لسياسات صلاح الدين المبكرة. أحد هؤلاء الشهود هو أمير يدعى شمس الخلافة، وكان والده يعيش في ظلّ حكم الفاطميين، ونقل رواياته عن تلك الفترة إلى ابنه. ونقلت روايات شمس الخلافة إلى كلّ من أبي شامة وابن الفرات، عن طريق الشيعي الحلبي ابن أبي طي، إلى جانب مصادر مصريّة أخرى. فابن أبي طي، هذا الرجل الشيعي المذهب، الحلبي الموطن، كان بعيدًا عن مصر والصراع السنّي الشيعي فيها، وبالتالي جعل ذلك روايته للأحداث تحظى باستقلاليّة ومصداقيّة أكبر، وهو

إذا انحاز فيفترض أنه سينحاز ضدّ صلاح الدين، باعتبار مذهبه، ولكن في الواقع ذكر أن القاضي الفاضل حصل على جزء كبير من الكتب الفاطمية، وهي رواية متواترة في كتب أيوبيّة ومملوكيّة، وهي الرواية التي تدعم عدم تبييت صلاح الدين لنيّة تدمير الكتب الفاطميّة)[١١١].

ويظل السؤال فاذا كان مؤرخو الغرب هم من قام بتفنيد ودحض تلك القصة الأسطورية فلماذا قام مسلمون بتأليفها؟؟ والاجابة بالتأكيد ستكون لدي البغدادي أول من ذكر قصة حرق العرب لمكتبة الاسكندرية فممن تلقف البغدادي هذه الخرافة هل من أحد المؤرخين المصريين المعاصرين له أم سمعها كرواية عابرة يتداولها الناس فيما بينهم، ورغم بعدها عن الحقيقة لماذا أوردها في كتابه بدون سند؟ واكتفي بالكلمة الشائعة (يُقال)!

وأضم صوتي لصوت جوستاف لوبون أحد أكبر مؤرخي الغرب معلقًا على هذه القصة فيقول: "وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم، فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت القصة على بعض العلماء زمنًا؟ وهذه القصة دُحضت في زماننا، فلا نرى أن نعود إلى الحديث عنها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن المسيحيين هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل، ولم يبق منها ما يحرق، وأما ما نجى منها وهو قليل، فقد نقل إلى مكتبات آسيا الصغرى وأوروبا ليحكه الرهبان، بعد أن ندر وجود الرقوق وارتفعت أثمانها، ويبدلوا بما فيها من كتب المؤلفين اليونان والرومان مواعظهم الدينية، ولولا العرب لضاع أكثر الكتب الرائعة القديمة، التي زعم أنها حفظت في أروقة الأدباء باعتناء"[١١٢].

ومن كل ما سبق نخلص أن هذه الرواية كاذبة، وأنها موضوعة في القرن الذي كتبت فيه، ولم تتَّصِل بالأزمنة السابقة لها بسند صحيح، ونري أن الذين دحضوا وأبرأوا عمر من تَبِعَتها، كان معظمهم مِن مؤرخي الأوروبيين الذين لا يُتَّهمون بالتشيع للمسلمين، وكانوا جميعًا من الثقات الذين يُؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع، ثم قدمنا صورة للبردية التي تؤكد قيام ثيوفيلوس وأتباعه بحرق مكتبة الإسكندرية.

وإن كان لي أخيرًا أن أستشهد بمقولة حق كتبها اسكندر صيفي[١١٣] في كتابه "المنارة التاريخية في مصر الوثنية و المسيحية" **حتى نختم حديثنا عمّن أحرق مكتبة الاسكندرية: " وعند نهب معبد سيرابيس تشتت السبعمائة ألف كتاب التي كانت فيه لأن المؤرخ الإسباني أوروسيوس الذي زار الاسكندرية بالعهد التالي لم يجد فيه لهذه**

---

[١١١] محمد حسين الشيخ - التاريخ ليس أنيقاً كالأساطير: فهل حقّاً دمّر صلاح الدين أكثر من مليون كتاب للفاطميين؟ https://raseef٢٢.net/article/١٧٦٨٦٧-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%AA%D٨%A٧%D٨%B١%D٩%٨A%D٨%AE-%D٩%٨٤%D٩%٨A%D٨%B٣-%D٨%A٣%D٩%٨٦%D٩%٨A%D٩%٨٢%D٨%A٧%D٩%٨B-%D٩%٨٣%D٩%٨٥%D٨%A٧-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٣%D٨%B٣%D٨%A٧%D٨%B٧%D٩%٨A%D٨%B١-%D٩%٨١%D٩%٨٧%D٩%٨٤-%D٨%AD%D٩%٨٢

[١١٢] جوستاف لوبون – حضارة العرب – ص ٢١٣-٤٨١

[١١٣] مؤرخ مصري

الكتب أثرًا سوى الخزانات الخاوية، وهنا يجبرنا الإنصاف أن نقول بأن: كل اضطهاد ديني هو ممقوت أكان من وثنيين أم مسيحيين لا سيما وأنه يصيب أحرار الناس أكثر من سواهم فإن الذين اضطهدهم أسقف الإسكندرية كانوا من علماء ذاك الزمان حنفاء، وأحدهم أولمبيوس كاهن معبد سيرابيس كان مع كبر سنه ومقامه رجلاً وديعًا حليمًا عاقلاً مسموع الكلمة لا عيب فيه كأفضل شهداء المسيحيين ومثلهم حر الأفكار. لا بل إن الفرق بين الاضطهادين هو بعيد جدًا لأن الوثني كان عن سياسة واقتصاد فقط. أما المسيحي فكان عن غلو بدين أساسه الرحمة والوداعة سليم دواعي الصدر لا باسطًا أذىً ولا مانعًا خيرًا ولا قائلاً هجرًا." انتهى كلام إسكندر صيفي[١١٤].

ثيودوسيوس ورصاصة الرحمة:

وبعد هذا الاضطهاد، لم يبق للوثنيين معابد ولا مدارس يأوون إليها لا بالإسكندرية ولا بمصر السفلى أو مصر العليا. فانسحب البعض منهم إلى أطراف القرى والمدن وفتحوا هناك مدارسهم لتعليم الكتابة القديمة، بعد أن تحوَّلت معابدهم لكنائس بعدما طُمست نقوشها وصورها بالطين استمر ذلك لبضع سنين.

حتى إذا ما جاء عام ٣٩١ أدرك ثيودوسيوس ومستشاروه الكنسيون، أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية للوثنية، فأعلنها حربًا ضروسًا على الوثنية. ففي الرابع والعشرين من فبراير ٣٩١ أصدر ثيودوسيوس مرسومًا عامًا يقضي بإغلاق جميع المعابد في كافة أنحاء الإمبراطورية وتحريم الأضحيات تحريما تامًا، ثم لم يلبث أن تلا ذلك في الثامن من نوفمبر ٣٩٢ بمرسوم عام جديد نص على تدمير عدد من أشهر المعابد الوثنية في الإمبراطورية، ومنع إحراق البخور أمام الأرباب في المعابد أو في البيوت، ولعن العرافة والتنجيم، وفرضت الغرامات المالية الباهظة على كل من يحاول التردد على المعابد التي أغلقت أو المزارات المقدسة، ووصلت إلى حد مصادرة الأملاك الخاصة من المباني أو الأراضي التي تجرى فيها ممارسة مثل تلك الطقوس، واعتبرت الديانة القديمة وطقوسها، كما جاء في المرسوم، محض خزعبلات وثنية وعد كل من يخالف نص هذين المرسومين، خارجًا على الإمبراطور والعقيدة، معرضًا نفسه لتهمة الخيانة العظمى ضد الدولة حتى جاز لأحد المؤرخين أن يدعو هذا المرسوم الأخير بأنشودة الأحزان الوثنية.

هكذا غدت المسيحية على عهد ثيودوسيوس بمقتضى هذين المرسومين دين الدولة الرسمي، بعد أن ظلت ثلاثة أرباع القرن الرابع ديانة شرعية إلى جوار العقائد الأخرى في الإمبراطورية الرومانية وولاياتها التي منها مصر، منذ رفع قسطنطين وليكينيوس عن كواهل رعاياها عبء الاضطهاد الوثني، ذلك أنه منذ عام ٣١٣ وحتى عام ٣٩١ لم

[١١٤] إسكندر صيفي - - المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية – ص ١٦١- - ط ١٩٢٤

يصدر أحد من الأباطرة مرسوًما عامًا باضطهاد الوثنية، إلا عندما أقدم ثيودوسيوس على اتخاذ هذه الخطوة.
وعلى أواخر القرن الرابع وصل اضطهاد الوثنيين إلى ذروته، فقد تم هدم معظم المعابد، كما قد تم حرق وهدم باقي المكتبات الخاصة، وتمت محاربة العلوم والرياضيات والفلسفة وتم إغلاق المدارس الفكرية ليبدأ عصر اضمحلال رهيب في مدينة اشتهر صيتها عبر العالم القديم كمنارة للعلم والتقدم. فممن عملوا في مكتبتها الشهيرة ونهل من دررها لمدة عشرين عامًا، المؤرخ سترابون وغيره.
وإذا كانت كفة الأقدار الآن قد مالت لصالح المسيحية، إلا أن هذا لا يعني أن الوثنية وكهنتها، قد استسلموا دفعة واحدة. فالفلاحون في ريف الإمبراطورية كانوا أشد الناس تعلقًا بهذه الديانة القديمة، ففي أطراف مصر، فإن الطقوس السرية بما فيها الأضحيات، ظلت تمارس على الأقل حتى القرن السابع الميلادي، ومن ثم فقد انقضى وقت طويل قبل أن تدخل هذه المراسيم الإمبراطورية التي صدرت عامى ٣٩١، ٣٩٢ حيز التنفيذ الجدي.
وإذا كانت الوثنية قد واجهت معارك شرسة مع المسيحية في الاسكندرية "فلدينا روايات عن الأقاليم يدل على أن الأمر فيها كان مماثلاً لما حدث في الاسكندرية، فها هو شنودة قديس الأقباط الكبير يشيد بأنه دمر معبد أتريب بجوار ديره، وأن ذلك الصنيع كان قدوة للآخرين، وفي مرة أخرى توسل إليه الوثنيون ضارعين أن يبقي على معبدهم، غير أنه طاردهم وأباح كل شيء في المعبد للنهب، ثم حمل إلى ديره منه غنيمة ثمينة من أوان وتماثيل مقدسة وأسفار، حتى إذا استعاد الكهنة شجاعتهم وراحوا يقاضونه على نهبه معابدهم ماجت المدينة في اليوم المحدد بجمهور غفير من المسيحيين، فغدا من المستحيل الاستمرار في الدعوى.
وفي مكان آخر نلقي ما نجده في بقاع العالم أجمع حيث الأقلية هدف لمقت السواد الأعظم؛ فقد شاع بين المسيحيين أن كهنة أحد الآلهة، ويدعى كوتوس، يسرقون أطفالهم ويذبحونهم، ثم ينثرون دماءهم على المذبح ويصنعون من أمعائهم أوتارًا لقيثاراتهم. وعلى ذلك فقد دمر القديس مكاريوس التكوي معبدهم، وأحرق بنفس النار الإله كوتوس وكاهنه الأكبر هوميروس، وقد تنصر في اليوم نفسه كثير من الوثنيين، والبعض لاذ بالفرار فاحتل المسيحيون ديارهم.
هكذا انتهت الوثنية تلك النهاية المحزنة؛ وقد كان الخوف الذي ساور آخر أتباعها على حياتهم هو الذي أتى بهم إلى الكفر بها، ومنذ ذلك الوقت أقفرت المعابد؛ وقد استحالت إلى كنائس أو تُرِكَت خربة، وبهذا فقد أصبح يظن أن هذه البقاع المهجورة تسكنها الأشباح، وإنا لنسمع عن أحد المعابد أنه يسكنه شيطان شرير يدعى بس، وقد رآه الكثيرون يتواثب في المعبد ويتخذ كل ما يمكن من الأشكال، وكان يخرج أحيانًا فيضرب المارة فيصبحون عميًا أو عجزة أو صُمًا أو بُكمًا، غير أن القديس موسى عرف كيف

يخضعه، وهكذا غدت آلهة الديانة القديمة أشباحًا في الديانة الجديدة، بل لقد أصبح لفظ (انتر) الذي كان يدل على الآلهة من قبل، يعني في لغة المسيحيين الأرواح الشريرة.

هيباتيا شهيدة العلم:


هيباتيا

وكانت جريمة مقتل هيباتيا بنت ثيون الكسندروس، أحد رائدات علم الفلك، والرياضيات، والفلسفة، والميكانيكا، كان لوالدها عالم الرياضيات تأثير كبير عليها، فقد نشأت منذ نعومة أظفارها في بيئة علمية بحتة، وسط العلماء والفلاسفة، وعاشت بين المؤلفات والمراجع العلمية، التي كانت تزخر بها مكتبة الإسكندرية، والتي كان يترأسها والدها في ذلك الوقت، باعتباره آخر رؤساء مكتبة الإسكندرية "السيزاريوم"[١١٥]، فتدثرت بالعلم، ولم تعتنق دينًا سواه.

ولأنها لم تؤمن بالمسيحية وظلت على عقيدتها الوثنية وكان بعض المؤرخين يؤكدون أنها ترهبنت في محراب العلم ولم تتزوج، إلا أنها وجدت من يكرهها ويحرض على قتلها، بسبب التفاف جمهور المثقفين حولها الذي سبب إحراجا للكنيسة، وكان راعيها في ذلك الوقت الأسقف "كيرلس الأول"، والذي أدرك خطورتها على المجتمع المسيحي في المدينة، خاصة وأن بعض تلاميذها الملتفون حولها كانوا من المسيحيين، ومنهم حاكم المدينة "أوريستوس" الذي كان مقربًا إليها، والذي كان في صراع سياسي معه حول السيطرة على المدينة، فنصب نفسه عدوًا لها، واتهمها بالزندقة والإلحاد، وأمر بقتلها.

ودون أن تحصل على فرصة للدفاع عن نفسها، قبضت عليها جماعة من أبناء الكنيسة، وجردوها من ملابسها، وسحلت في شوارع الإسكندرية، وسُلخ لحمها عن عظامها

[١١٥] معبد القيصريون أو معبد القيصرون أو معبد سيزاريوم يعتبر آخر معابد العصر البطلمي وأول معابد الرومان في الإسكندرية، أي أنه حلقة الانتقال من التراث المعماري البطلمي إلى التراث المعماري الروماني.

باستخدام أصداف البحر كوسيلة لتعذيبها، وأخيرًا حُرق ما تبقى من أشلائها، في مشهد دموي عنيف، يثير الرهبة والذعر.

الكهنة وموت الكتابة المصرية القديمة:

لا ينكر أحد أن هناك الكثير من قدماء المصريين قد دخلوا إلى المسيحية[١١٦] برغبتهم الحرة ولكن في نفس الوقت لا يمكن الإنكار أن البعض الآخر قد فُرضت عليها المسيحية بالقوة والعنف والعدوان في القرنين الرابع والخامس، وتم طرد الوثنيين إلى أطراف القرى والمدن، وكان هناك سفك للدماء على نطاق واسع، لعل أبرز ضحاياه الفيلسوفة اليونانية هيباتيا كما أوضحنا سلفًا. كما تم تدمير العديد من المعابد وتحويل بعضها إلى كنائس وطمس العديد من النقوش على واجهات المعابد التي تحمل رسومات الآلهة

[١١٦] عن هذه النقطة تحديدًا نلاحظ خلافًا في أعداد المصريين الذين آمنوا بالمسيحية واعتنقوها دينا يقول جمال حمدان في كتابه شخصية مصر المجلد الرابع ص ٥١٠:٥١١ "فليس معروفًا بالطبع إلى أي حد بالضبط انتشرت اليهودية ثم المسيحية في مصر قبل أن يرثهما الإسلام إلى أن ساد تمامًا ، ولكن المؤكد أنه كان انتشارًا جزئيًا ظلت تتنازعه دائمًا - وأحيانا بتفوق - بقايا الديانة الفرعونية القديمة ، فمصر ما قبل المسيحية لا يمكن في مجموعها أن تكون أكثر من عشر يهودية بالكاد ، حيث نجد مثلاً أن عدد اليهود بها في منتصف القرن الأول الميلادي كان مليونًا على الأكثر - هذا تقدير مقدح يهودي حديث هو جريتز، بينما كانت نسبة اليهود ثلث السكان في مركز ثقلها الاسكندرية وذلك أيضا في أوج انتشارها أيام البطالمة.

أما عن مصر القبطية فالتقديرات تتضارب بشدة، فعند غربال أن أكثر المصريين قد أصبحوا عند منتصف القرن الرابع مسيحيين". وعلى العكس ينص جيليون - دانجلار على أن الأقباط لم يكونوا يمثلون سوى "كسر" محدود من نسل المصريين القدماء وفيما بين النقيضين يشير توماس أرنولد إلى أن المسيحية لم تكن منتشرة انتشارا هاما إلا في المدن فحسب، ولعل الأرجح أن مصر بصفة تقريبية كانت ربع إلى ثلث إلى نصف مسيحية، والبقية وثنية الفرعونية.

معنى هذا أن الأغلبية ظلت حتى قدوم الإسلام على الديانة المصرية القديمة أي الوثنية، ولم يتبع المسيحية إلا الأقلية العددية نسبيًا، والواقع أنه كما تأخر تحول أغلبية المصريين إلى الإسلام نفسه بضعة قرون، فإن تحولها من قبل إلى المسيحية تأخر هو الأخر عدة قرون، لاسيما وأن الاضطهاد الروماني الوثني في البداية ثم الهرطقي بعد ذلك أخر وأعاق العملية كثيرًا.

لذلك فحين أتي الإسلام لم يكن قد اتبع المسيحية إلا أقلية الشعب المصري بينما بقيت الأغلبية على وثنيتها الفرعونية، تماما مثلما كان وضع اليهودية من قبل حين دخلت المسيحية ولكن على مستوى أعلى نسبياً ونسبة أكبر عدديًا في الحالة الأخيرة.

من هنا فكما أن مصر إنما تحولت عمليًا من الوثنية إلى المسيحية رأسًا أكثر منها من اليهودية إلى المسيحية، فكذلك يمكن القول إنها تحولت من الوثنية إلى الاسلام بأكثر مما تحولات أو بقدر ما تحولت من المسيحية إلى الاسلام. وفي الحالتين فلعل التحول أقرب إذن إلى القفزة منه إلى التدرج، أو هو يجمع بينهما بنسب متفاوتة.

ومهما يكن الأمر، فلقد كانت اليهودية كما هو معروف ديانة قبلية - عنصرية مقصورة على أصحابها بمحض إرادتهم أو مفهومهم، بينما جاءت المسيحية بدورها إقليمية - جغرافية بحكم الظروف الخاصة لنسختها المصرية وهي القبطية، وبهذا كانت الاثنتان بمثابة مرحلة تمهيدية أو انتقالية بين الوثنية والإسلام. وبهذا أيضا كان الإسلام أول دين شامل أو عميم في مصر، رغم أنه لم يحقق هذه السيادة الكلية إلا على مدى قرون.

والمثير بعد هذا في قصة تتابع الأديان الثلاثة في مصر أن القبطية، بعد أن تحولت إلى أقلية هامشية للغاية في موطنها نفسه، انتقلت إلى مناطق هامشية خارجها وانتشرت بها انتشارًا محسوسًا مثل الحبشة، ووجه الإثارة أن هذا، مع الفارق التوحيد بالطبع، يشبه قصة البوذية التي نشأت أصلاً في الهند ولكنها لم تلبث أن هجرتها كلية تقريبًا وهاجرت إلى الصين حيث انتشرت وتوطنت وفي سيلون (سرى لانكا) حيث تبقت، بينما تحولت الهند نفسها إلى الهندو سية.

القديمة، وتم تدمير المكتبة التي ضمت تراث مصر عبر مئات السنين. بل لقد تم تحويل العديد من كهنة المعابد الوثنية إلى رهبان وكهنة في الديانة الجديدة.
لقد طالعنا فيما سبق كيف أن الكهنة المصريون ظلوا على إخلاصهم لآلهتهم القديمة وقد تطلب هذا من أقطاب المسيحية الأوائل جهودًا جبارة للقضاء على عبادة الحيوانات في مصر وتهديم معابدها وتشهد جدران المعابد المصرية على المحاولات التي بذلت لمحو صور الآلهة المصرية. وبالرغم من سياسة الرومان في التسامح الديني إلا أنهم قلموا أظافر الكهنة المصريين واستولوا على كثير من أملاك المعابد المصرية ونقلوا إدارة أراضي تلك المعابد إلى يد بعض موظفي الدولة وأصبح الكثير من المعابد المصرية يعتمد على إعانات الدولة الرومانية لها فضمن الرومان بذلك عدم تمرد الكهنة واحتياجهم الدائم لهم، كما أنه بعدما كانت الوظائف الكهنوتية قبل عصر البطالمة وراثية وكانت لبعض هذه الوظائف موارد تدر على شاغليها دخلاً منتظمًا، قام ملوك البطالمة ببيع مناصب الكهنة ذات الموارد لمن يرغب من المصريين وغالبًا ما كان يشغل هذه المناصب من يحصل على رضا هؤلاء الملوك.
لذلك كان من اليسير بعد صدور مرسوم ٣٩١ للإمبراطور ثيودوسيوس التخلص نهائيًا وبصورة يسيرة من الوثنيين بقيادة الكهنة.
إن تعقيد الكتابة الهيروغليفية وبطء تطورها يعودا، بدرجة معينة، إلى كونها امتياز للكهنة الذين احتكروا المعرفة ولم يهمهم انتشارها، بل بالعكس أحاطوا الكتابة بهالة دينية سرية وادعوا أنها موهوبة لهم من إله الحكمة تحوت [١١٧]. ولأن الكتابة وعلومها بل وكل العلوم التي عرفتها مصر القديمة كانت قاصرة على الكهنة من دون غيرهم من البشر، يعلمها الكاهن الكبير للصغير والصغير لمن يأتي بعده وهكذا، هنا لجأ الكهنة إلى طريقة يحفظون بها علومهم لمن خلفهم من الكهنة حتى لا تندثر بموتهم، فاخترعوا الرموز والطلاسم والشفرات والأرقام لتسجيل تلك العلوم التي علموها بطبيعة الحال للكهنة الصغار، ومع مرور الأيام واندثار طبقة الكهنة باندثار الوثنية والأوامر الامبراطورية بهدم المعابد وتجريم الكهانة كما أوضحنا سابقًا، مات الخط الهيروغليفي وذهب مع الكهنة وديانتهم وعلومهم السابقة في متاهات التاريخ.



"لقد احتفظ الكهنة بسر تعاليمهم الدينية إلى درجة جعلتنا نعجب مما ورد في بعض النصوص المنقوشة فوق المعابد الدينية ولم ندرك لها معنى إلا بعد أن قرأنا ما يقصد بها منقوشًا على معابد العصور المتأخرة، فمثلاً كل من يزور المعبد الصغير في مدينة هابو لا يستطيع أن يفسر لماذا سمي منذ أول العصور باسم "المكان المقدس لآلهة

[١١٧] نعيم فرج - موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم – دار الفكر -

الأبدية" ولم ندرك فحوى هذه العبارة إلا من نص يرجع إلى العصر اليوناني ظهر منه أن الكهنة كانوا قد اعتبروا هذا المكان بمثابة الجبانة التي يرقد فيها أولى الآلهة المصريين"[118].

لقد كانت علوم المصريين القدماء إذن وقفًا على الكهنة في المعابد وما ألحق بها من بيوت الحياة – الكتاتيب أو المدارس -، ومع اضمحلال الدولة القوية والأسر المصرية القديمة التي أرست دعائم تلك الحضارات وشروق شمس دين جديد – المسيحية – حاول المتطرفون من أتباعه بكل طرق الترهيب القضاء على الوثنية وأتباعها من الكهنة ورعاياهم ماتت الكتابة وذابت مع موتها تلك العلوم والتي كانت حكرًا على العلماء، وبعيدة عن متناول أيدي العوام؟

الكاهن الأخير:

إننا لنقرأ بشيء من التأثر النبوءة الحزينة التي يتردد صداها:" **سيأتي زمان يبدو فيه أن المصريين عبدوا الآلهة بتقوى وحماس دون جدوى ؛ ذلك لأن الإله سيعود من الأرض إلى السماء، وسوف تظل مصر مهجورة، ولن يعود البلد الذي كان مقر الديانة ومأوى الإله، أيا مصر، يا مصر، إنه لن يبقى من عقائدك غير قصص وروايات لن تصدقها الأجيال المقبلة، ولن تبقى غير كلمات على الحجر تحكي أعمال تقواك**" [119].

ولعلى أتخيل الآن الكاهن الأخير حليق الرأس والذقن والشارب وهو يرتدي ثيابه ناصعة البياض يقف أمام معبده ربما لينتظر نفس المصير الذي لاقته هيباتيا على يد المؤمنين المسيحيين وربما ألقى نظرة أخيرة على أوراق البردي التي خطها بيده ودون فيها كل أسرار العلوم الذي توارثها من آلاف السنين وربما تضمنت إحداها ماهية الخط الهيروغليفي وما هو منطوق حروفه، وربما أصابها ما أصاب سبعمائة ألف كتاب في مكتبة الإسكندرية من حرق قضى عليها وعلى ما تحتويه من علم ومعرفة وعلوم.

هكذا ماتت الهيروغليفية وماتت معها علوم الحضارة المصرية القديمة أصابتها الشيخوخة برحيل آخر ملك مصري وطني وتلقت الطعنة الأخيرة بموت آخر كاهن مصري كان يحمل مفاتيحها. كما ماتت بسبب الاضطهاد الذي عاناه الوثنيون على يد المسيحيين وإن كان لي أن أستشهد بقول أ. د/ زينب عبد العزيز بعبارة وردت في مقال لها (وفى مطلع القرن الثالث كف تعليم اللغة الهيروغليفية في مصر واختفى علم التحنيط. ونرى بكل وضوح وأسف، ما نطالعه في موسوعة ويكيبيديا: " **إن دخول المسيحية مدينة الإسكندرية قد محى ذاكرة مصر تماما**"!)[120] نعم تم محو ذاكرة مصر تماما وتم

---

[118] أودلف أرمان - ديانة مصر القديمة – ص ١٣٦

[119] ادولف ارمان – ديانة مصر القديمة – ص ٤٨٨ وما بعدها

[120] أ. د. زينب عبد العزيز - أستاذة الحضارة الفرنسية – مقال بعنوان (حرق مكتبة الإسكندرية القديمة: تعقيب على القمص إنجيلوس جرجس)

نبذ لغتها لغة الوثنية والوثنيين والتمسك بخط جديد هو الخط اليوناني مضافًا إليه بضعة حروف من الديموطيقية ليكتبوا به لغتهم القديمة وأطلقوا عليه اللغة والخط القبطي.
لكن هل كان سبب موت الهيروغليفية هو اندثار طبقة الكهنة بالقضاء على الوثنية؟ أم حريق مكتبة الإسكندرية الذي دمر كل تراثها الذي كتب بخطها المقدس، وأن ضياع هذه الكتب والمخطوطات التي كانت بها فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التي لا يجوز التفريط فيها؟ هل كانت الاضطرابات التي أصابت الإمبراطورية الرومانية يدا في الموضوع؟ أم أن آباء المسيحية الأوائل أرادوا أن يقطعوا كل صلة لهم بالحقبة الوثنية والتعويض عما عانوه من اضطهاد من الاباطرة الرومان الوثنيين؟
لعلي أجد في مقولة المفتش في دار المعارف المصرية محمود درويش في كتابه المعنون باسم **"صور من حضارة مصر القديمة "** حيث كان المنهج المقرر على طلاب الصف الثاني الإعدادي في حينه[١٢١] خير إجابة على هذه الأسئلة المشروعة يقول محمود درويش: " عندما احتل الرومان مصر حكموها بيد من حديد، وأصبح الحاكم الروماني مسيطرًا على الجيش وجميع الشئون المالية والقضائية، وساد البلاد جو من الرعب والارهاب، وابتلى الناس بشيء من الجوع و نقص من الأموال والأنفس والثمرات".
وحينما فقدت البلاد استقلالها في هذا العهد ووَلِيَ المستعمر أمرها أخذت حضارتها القديمة تنهار وتضعف شيئا فشيئا. ويظهر هذا الانهيار فيما يأتي:
إهمال تعليم الشعب: شجع الرومان إنشاء المنتديات التي تهتم بالألعاب الرياضية والآداب اليونانية، وكان لا يدخلها إلا أبناء الطبقة الارستقراطية الغنية، أما الشعب المصري فكان محرومًا من الثروة والعلم معًا.
انحلال اللغة المصرية: حلت حروف اللغة اليونانية في هذا العهد محل الكتابة المصرية القديمة واستعملت تلك الحروف في كتابة نصوص اللغة القبطية وأخذ المصريون ينسون كل شيء عن كتاباتهم القديمة.
القضاء على التقاليد الدينية: أصبح كبير الكهان في ذلك العهد من الرومان، وفرض على الكهنة المصريين إطاعة أمره، وقد حرمت المعابد من الأراضي التابعة لها، وقضى بذلك على ما بقي للحضارة المصرية من التقاليد الدينية.
يخبرنا محمود درويش بأسلوب بسيط أن الرومان قاموا بالقضاء على مظاهر الوطنية المصرية والتقاليد الدينية، وحرمان المصريين من دخول الجيش والانتظام في صفوفه،أما اللغة القومية بخطوطها الثلاثة فتم استبدالها بخط غريب هو الخط اليوناني مع استعارة بضعة حروف من الخط الديموطيقي ليكتب به المصريون لغتهم.
ولعل آخر نقش بالهيروغليفية تم اكتشافه حتى الآن نقش لكاهن يدعى اسمت- أخوم ويرجع ذلك إلى القرن الرابع الميلادي (٣٩٤ م.). تم تحويل المعبد إلى كنيسة مسيحية وتم تدمير العديد من نقوش المعبد.

---

[١٢١] محمود درويش – مفتش بوزارة المعارف – خريج معهد الآثار ومدرسة الدراسات العليا بالسوربون – صاحب كتاب صور من حضارة مصر القديمة – طبعة ١٩٥٤ الناشر مكتبة النهضة المصرية.

ومنذ ذلك الحين لم يعد في استطاعة أحد فهم النصوص الطقسية والتي كانت تغطى جدران المعابد المصرية.

يقول إسكندر صيفي في كتابه المنارة التاريخية في مصر الوثنية و المسيحية عن هذه الفترة [١٢٢]"**إلا أن المعابد التي من بناء الإغريق قد انمحى أثرها ومعابد الصعيد التي عليها المعول بتاريخ مصر لم يتجدد شيء منها نظرًا لفقر الكهنة أولاً، وثانيًا لظهور ضعف بيقين الجمهور القديم حتى أن القضاة أصبحوا لا يقيمون حكم العقائد المصرية، وعدا ذلك لانتشار المسيحية مع ما فيها من اليقين بالبعث ويوم الحساب المطابق للدين القديم. أما الكهنة فكانوا لا يزالون يفتخرون بعلومهم ويحافظون على تقاليدهم وشرائعهم فكان كل منهم يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب المختص بوظيفته من وصايا الإله طوط[١٢٣] وهو مركور[١٢٤] اليونان وعطارد العرب .... ولكنلاعلى الرغم من ذلك نراهم بهذا الزمان - يقصد الكهنة الوثنيين - قد أصبحوا يلتمسون عذرًا لعبادتهم الأصنام والبهائم بأنها بظاهرها الحسي أكثر تأثيرًا على عقول العامة وأما الباطن منها فسره في صدور العلماء وهو أن الألوهية لخالق غير منظور وغير محسوس وهذا عين ما نقله عنهم أفلاطون بعد ما أتي هليوبوليس[١٢٥] لدرس علومهم وما هيأ الأفكار لقبول المذهب الناصري – يقصد الديانة المسيحية - أولاً ثم إلى مسخه مصريًا.**"

واسكندر الصيفي يروي كيف بدأ يتوارى دين مصر القديمة وكيف أن الكهنة احترفوا تبرير استمرار الديانة الوثنية حتى ذلك الوقت بأمور ماورائية لا يعرف أسبابها إلا هم. وقد أدى تحول المصريين إلى المسيحية في القرنين الرابع والخامس للميلاد إلى حدوث قطيعة كاملة مع الديانات الوثنية القديمة، والملوك الآلهة والكتابة الهيروغليفية. وقام المسيحيون بطمس النقوش والصور الدينية القديمة على جدران المعابد الوثنية، وحولوها إلى كنائس .وهكذا انتهت معرفة الهيروغليفية و الديموطيقية بنهاية الكهنة القدامى، وماتت معهم[١٢٦] كما ماتت لدي الشعب الذي اعتنق ديانة أخري ولغة أخري.

تحول بعض المعابد إلى أديرة!

رغم تركز المعارك بين آباء المسيحية وبين الوثنيين والأريوسيين[١٢٧] في الإسكندرية وما ترتب عليها من أحداث وضحناها فيما سبق وأنه لم يحدث في بقية المدن الأخرى والتي كانت تعج بالمعابد الوثنية التي استمرت شعائرها قائمة حتى بعد تلك الفترة.

---

[١٢٢] إسكندر صيفي - المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية ص ١٠١ - ط ١٩٢٤

[١٢٣] يقصد الاله توت إله الحكمة عند قدماء المصريين

[١٢٤] هو إله رئيسي في الديانة والأساطير الرومانية وهو لإله الحامي للتجار والتجارة عند قدماء الرومان

[١٢٥] عين شمس الحالية بمحافظة القاهرة

[١٢٦] دونالد مالكولم ريد – من الفراعنة - ترجمة: رءوف عباس - - نسخة اليكترونية – ص ٤٦

[١٢٧] هم الطائفة الأريوسية التي لا تعترف بألوهية المسيح بن مريم، ولكنهم يعتقدون أنه انسان، ومنهم من يقول إنه مخلوق وفقط.

"ولا يمنع من ذلك أن المسيحيين قد اتخذوا من تلك المعابد مراكز رهبانية خاصة لممارسة شعائرهم الدينية بجوارها أو بداخلها فتحولت معابد عديدة في طيبة والواحات و البر الغربي والفيوم إلي مراكز دينية رهبانية، على سبيل المثال معبد (دير الحجر) في واحة الداخلة، عثر بداخله علي بازيليكا[١٢٨] مسيحية متكاملة من القرن السادس، وخلفها مساكن بالطوب اللبن للرهبان، ولم يشوه المعبد من الداخل أو يخرب. أيضا معبد (دير المدينة) والذي استغل كمركز رهباني في القرنيين الخامس والسادس الميلاديين، أحيط بصور من الطوب اللبن، وداخل المعبد تحول الفناء الغربي والشرقي إلى حجرات رهبانية تشبه القلايات[١٢٩]، وعلي بوابة المعبد نحت بارز كبير يمثل صورة القديس أو ملاك على هيئة فارس يستقبل الرهبان.
أيضا مثال آخر أكثر غرابة في (معبد فيلة)[١٣٠]، وداخل المعبد الخاص بالإلهة (عزة)[١٣١]، نجد حنية[١٣٢] ومذبحا من الجرانيت دليلاً على إقامة الشعائر الدينية داخل المعبد ولم تحدث تشوهات خاصة بالصور الفرعونية في المعبد.
إن الأمثلة كثيرة على ذلك ومتعددة، الأمر الذي يذهب بنا إلى ضرورة تحديد العلاقة بين المعبد المصري والأديرة، وأن تلك الدراسة سوف يواكبها بالضرورة تحديدا أكثر عمقا وبدون تحيز لدور العقيدة المصرية أو اليونانية (الوثنية) في تطور القومية المسيحية المصرية في مصر"[١٣٣].

---

[١٢٨] اشتُقت كلمة بازيليك Basilica اللاتينية من كلمة basilike stoa اليونانية، ومعناها «رواق ملكي معمّد» أو «قاعة الملك للمحاكمة». استخدم التعبير للدلالة على الصالات التجارية وقاعات المحاكم ثم الكنائس المسيحية أيضًا البازيليكا هي نوع من المباني، عادة ما تكون كنيسة، مستطيلة بشكل نموذجي مع صحن مركزي وممرات، عادة مع منصة مرتفعة قليلاً وحنية في أحد الطرفين أو كلاهما. في أوروبا والأمريكتين، يعد الطراز المعماري الأكثر شيوعًا للكنائس على الرغم من أن خطة البناء هذه أصبحت أقل هيمنة في المباني الجديدة منذ القرن العشرين. اليوم كثيرًا ما يستخدم مصطلح بازيليكا للإشارة إلى أي مبنى كنسي كبير مزخرف، خاصة الكاثوليكية الرومانية والشرقية الأرثوذكسية، حتى لو لم يتبع هذا الأسلوب بدقة.

[١٢٩] القلاية هي مسكن الراهب في الدير وتتكون عادة من حجرتين، الخارجية للمعيشة مثل عمل اليد والأكل والضيافة وغير ذلك.

[١٣٠] كان معبد فيلة على جزيرة فيلة وهي جزيرة في منتصف نهر النيل وهي إحدى الحصون الأقوى على طول حدود مصر الجنوبية، وتفصل النيل إلى قناتين معاكستين في أسوان، وانتقل من مكانه الأصلي على جزيرة فيلة وتم تجميعه على جزيرة أجيليكا، وذلك في أعقاب بناء السد العالي.

[١٣١] بقصد ايزيس- إيزيس هي إلهة رئيسة في الديانة المصرية القديمة والتي انتشرت عبادتها في العالم اليوناني الروماني. ذُكرت إيزيس لأول مرة في المملكة المصرية القديمة (٢٦٨٦-٢١٨١ ق.م) كإحدى الشخصيات الرئيسة في أسطورة أوزوريس، إذ قامت بإحياء زوجها الملك الإلهي المذبوح أوزوريس، كما أنجبت وريثه حورس وقامت بحمايته. كان يُعتقد أن إيزيس ترشد الموتى إلى الحياة الآخرة

[١٣٢] الحنية في فن العمارة هي تجويف نصف دائري مغطى بقبو نصف كروي أو شبه قبة

[١٣٣] محمد عبد الفتاح السيد - المصريون والمسيحية حتى الفتح العربي – ص ٢٣٢

الأنبا شنودة "رئيس المتوحدين" ولغز جديد حول اللغة المصرية القديمة:

يشير مراد كامل في كتابه حضارة مصر في العصر القبطي "وكان النزاع في أولى صوره، نزاع بين دينين: المسيحية والوثنية. ولكن ما إن نمت المسيحية في مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصري كله تقريبًا، وظل الحكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان في نفس الوقت صراعًا بين شعب وحاكميه، أو بين أبناء وطن ومستعمريه. وهكذا تركز الشعور القومي وتوحد. وأخذ أقباط مصر يتمسكون بقوميتهم كراهة في كل ما هو أجنبي عنهم، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التي قادها الأنبا شنودة (القرن الرابع الميلادي) لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة، ورفض أدبيات اليونان وثقافاتهم."[١٣٤]

" ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطي. فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه. وكانت كتاباته عملية صالحة للاستعمال المباشر. وكان كثير الإنتاج مالكا لناصية اللغة. وقد خلّف لنا في جهاده الديني والقومي الطويل تراثا أدبيًا ضخمًا باللهجة الصعيدية التي لم يكتب أو يخطب إلا بها".[١٣٥]

ويؤيد ما أورده مراد كامل دكتور عكاشة الدالي[١٣٦] في كتابه (علم المصريات الألفية المفقودة مصر القديمة في الكتابات العربية في العصر الوسيط) ومن المهم إدراك خطأ المقولة الشائعة بموت الاهتمام بتاريخ مصر القديمة مع دخول المسيحية والإسلام إلى مصر، وهي المقولة التي اكتسبت صفة المسلمات نتيجة كثرة ترديدها عند جل العلماء في الغرب والشرق على السواء.

وليس أدل على ولع أهل مصر بدراسة الهيروغليفية حتى بعد ثبات أركان المسيحية في مصر من تلك الإشارة التي وردت في نصوص نجع حمادي القبطية الغنوصية حيث ينصح هرمس تلميذه بأن يكتب ما يتعلمه من الحكمة على "لوح من الفيروز بالحروف الهيروغليفية ."ويبدو أن هذا الاهتمام أصبح مدعاة للقلق لدى آباء الكنيسة، إذ نجد الراهب القبطي المشهور شنودة يصدر تحذيرًا شديد اللهجة ضد دراسة الكتابة الهيروغليفية (منتصف القرن الخامس الميلادي) وهذا الاهتمام بين عامة الأقباط بكتابات جدودهم يأتي بالرغم من موقف الكنيسة المصرية آنذاك الذي كان ينظر بعين الريبة إلى حضارة مصر القديمة باعتبارها حضارة وثنية.

---

١٣٤ مراد كامل حضارة مصر في العصر القبطي – دار العالم العربي القاهرة – ص ٢٩ -٢٠١ -٢١٣-٢١٤

١٣٥ مراد كامل حضارة مصر في العصر القبطي – دار العالم العربي القاهرة – ص -٢١٣-٢١٤

١٣٦ عالم آثار مصري. حصل على درجة الدكتوراه في عام ٢٠٠٣ من معهد الآثار، بجامعة لندن في التراث الثقافي بأطروحة رائدة ركزت على تاريخ علم الآثار في الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى بحثًا عن جذور علم المصريات بين العلماء العرب في العصور الوسطى الذين اهتموا بدراسة الثقافة والبيئة المصرية مما أدى إلى استكشافهم للهيروغليفية ومحاولة الكشف عن أسرارها وذلك بفترة طويلة قبل شامبليون.

ولقد حاولت جاهدًا الوصل لحل هذه المعضلة الخاصة بـ "الأنبا شنودة" عند مراد كامل وعند عكاشة الدالي؟! فهل كان الأنبا شنودة من أنصار اللغة القبطية كما يراه مراد كامل أم كان من المنهاضين للهيروغليفية كما يراه عكاشة الدالي خاصة لتقارب الفترة التي استشهد بها الطرفان والتي عاش فيها "الأنبا شنودة أو الراهب شنودة" فهي "القرن الرابع الميلادي" عند مراد كامل وهي "منتصف القرن الخامس" عند عكاشة الدالي كيف نقضي على هذا التعارض؟

بالتأكيد كلا الكاتبين يشيران إلى نفس الشخص وهو "القديس العظيم الأنبا شنودة رئيس المتوحدين الذي ولد حوالي عام ٣٣٣ في مدينة أخميم ولقد توفي الأنبا شنودة ٤٥١م؛ أي أنه عاش حوالي ١١٨ عامًا تقريبًا".[١٣٧]

إذا ما الذي أوجد هذا التعارض؟ كيف يكون الأنبا شنودة مناهضًا للهيروغليفية المصرية القديمة كما يزعم عكاشة الدالي وفي نفس الوقت يكون غيورًا على اللغة القبطية التي هي في نظر الكثيرين الامتداد الطبيعي للغة – الخط – الهيروغليفية أو الطور الأخير لها كما يراه مراد كامل؟!

والإجابة بسيطة، حيث أشار إليها مراد كامل في نفس الكتاب المشار إليه سابقًا فتطالعنا هذه الفقرة عندما نصل الي الصفحة ١٢٣ " **وقد كان نشاطه محصورًا في محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبي وبدع الموالد**".

وهذا الكلام لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع قال به عكاشة الدالي " **ويبدو أن هذا الاهتمام أصبح مدعاة للقلق لدى آباء الكنيسة، إذ نجد الراهب القبطي المشهور شنودة يصدر تحذيرًا شديد اللهجة ضد دراسة الكتابة الهيروغليفية**". فالقديس الأنبا شنودة كان ينأى برعيته عن كل مظاهر الوثنية ومن مظاهر هذه الوثنية – في اعتقاد المسيحيين الأوائل – هذه اللغة وهذا الخط الذي كان يتحدث به ويخط به الوثنيون وهي إجراءات – راها- في صحيح الإيمان، فالقديس يبتعد عن كل مظاهر الشرك ولا يستطيع مخلوق أن يدينه هو أو رعيته على غيرته على دينه بل ندعوا لهم بالثبات وإخلاص الإيمان بالله.

وإن ظهر لنا جليًا تخلي الآباء الأوائل عن لغتهم ولسانهم الوثني من أجل لغة جديدة كان يتحدث بها المحتل لأنها لغة الدين الجديد سنراهم كذلك يتحولون عن هذه اللغة المبتكرة الجديدة ليتحدثوا بلسان عربي فصيح من أجل دينهم الجديد وأي لوم على هذا الشعب

---

[١٣٧] ماجد كامل مقال بعنوان القديس العظيم الانبا شنودة وديره الأثري بأخميم.
https://coptic-treasures.com/article/%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٢٪D٨٪AF%D٩٪٨A%D٨٪B٣-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪B٩٪D٨٪B٨٪D٩٪٨A%D٩٪٨٥-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٦٪D٨٪A٨٪D٨٪A٧-%D٨٪B٤٪D٩٪٨٦٪D٩٪٨٨٪D٨٪AF%D٨٪A٩-%D٩٪٨٨٪D٨٪AF%D٩٪٨A%D٨٪B١٪D٩٪٨٧-/%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٣٪D٨٪AB

لموقفه هذا ومحاولة مقارنته بالفرس الذين لم يتخلوا عن لسانهم رغم إسلامهم هو من قبيل الجدل العقيم لأن على ما يبدوا أن هناك علاقة ما بين هذا اللسان العربي وبين هذا الشعب سنتناولها بالتفصيل في حينها.
فمراد كامل يري قومية الأنبا شنودة الجلية في تنقيته اللغة القبطية مما علق بها من بعض الشوائب اليونانية والتحدث بالقبطية فقط دون استخدام أي ألفاظ يونانية ورغم نبل مقصد المسيحيين الأوائل ومقصد مراد كامل إلا أن هذا المقصد – النبيل حقًا وصدقًا - لن يقف حائلاً بيني وبين أن أطرح سؤالي" كيف تكون اللغة القبطية هي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور اللغة المصرية القديمة وهي قد استعارت كل حروف اللغة اليونانية وأضافت إليها سبعة أحرف فقط من الخط الديموطيقي بل غيرت اتجاه الكتابة من اليمين لليسار الذي كان متبعًا في الخطوط المصرية القديمة ليصير من اليسار لليمين ليواكب المتبع في اللغة اليونانية ورغم أن علم اللغات يقول كقاعدة ليس المهم الخط الذي تكتب به اللغة ولكن المهم أن نطق هذه اللغة يظل كما هو دون تحريف أو تبديل فهل التزم الخط القبطي بهذه القاعدة هذا ما سنحاول الاجابة عليه في الفقرات التالية".
أما مقولة عكاشة الدالة "**ومن المهم إدراك خطأ المقولة الشائعة بموت الاهتمام بتاريخ مصر القديمة مع دخول المسيحية والإسلام إلى مصر، وهي المقولة التي اكتسبت صفة المسلمات نتيجة كثرة ترديدها عند جل العلماء في الغرب والشرق على السواء**"، فسنتناولها بالتفنيد فيما بعد.

خرافة اللغة القبطية:

إذا كان الخط الهيروغليفي كأقدم الخطوط المصرية القديمة قد مات ومات معه بالتبعية الخط الهيراطيقي بانتهاء عصر الكهنة وهزيمة الوثنية أمام المسيحية إلا أن الديموطيقية لغة الشعب والمراسلات والدواوين استمرت فترة أخرى من الزمن تزاحم ما تعارف عليه بعد ذلك بالقبطية التي قالوا عنها أنها "المرحلة الأخيرة لتطور الخطوط المصرية القديمة"
فهل القبطية كانت المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل تطور الخط الهيروغليفي أم أنها لغة وخط دخيل على اللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفي؟ وإن كان لي أن أزيد بل كانت اللغة التي فرضها المحتل على الشعب المصري؟
يقول سمير فوزي جرجس في موسوعة تراث القبط في جزئها الأول: " بمجيء الإغريق (غزو الإسكندر لمصر كان في عام ٣٣٢ ق م) وتشييد الدولة البطلمية وانتشار المسيحية في البلاد أثناء الحكم الروماني البيزنطي، صارت الديموطيقية عاجزة عن استيعاب المصطلحات الدينية الجديدة بما اشتملت عليه من تعبيرات ومعان كثيرة لم تكن موجودة من قبل. وإزاء اعتناق المصريين الدين الجديد بمصطلحاته وروحانياته الجديدة، تبنوا الكتابة الإغريقية وأخذوا في ترجمة نصوصهم وكتاباتهم ونقلها إلى الحروف اليونانية

التي أضافوا إليها سبعة من أحرف الديموطيقية للتعبير عن الأصوات المصرية التي لم تكن موجودة في اليونانية (الأحرف السبعة الأخيرة من حروف الهجاء القبطية) هنا نرى بجلاء أن تمسك المصريين بديانتهم المسيحية الجديدة قد حدد أولوية تقييمهم للأمور، المحافظة على كتابتهم الأصلية أم التخلي عنها من أجل استيعاب الدين الجديد بروحانيته ومصطلحاته الغزيرة، لقد جاء تحديد الأفضلية في الاختيار لصالح العقيدة الجديدة التي صارت تحتل المركز الأول لديهم."[١٣٨]-ولا نستطيع إلقاء اللوم عليهم-.

ولنا وقفة هنا لتحليل هذا الكلام فسمير فوزي جرجس يقول قبل هذه الفقرة ما نصه " اللغة القبطية التي مازالت تستخدم حتى الآن في القداس الإلهي وفي العديد من طقوس كنيسة الإسكندرية، هي في واقع الأمر الطور الرابع والأخير من أطوار كتابة اللغة المصرية القديمة، أما الأطوار السابقة فهي الهيروغليفية والهيراطيقية ثم الديموطيقية، كانت الهيروغليفية بمثابة الخط المقدس الذي يستعمل قبل كل شيء للأغراض الدينية في المعابد والمقابر و في كتابة البرديات أيضًا، أما الهيراطيقية فهي مبسطة نسبية وكانت تستخدم عادة في المكاتبات الرسمية والخدمات الدينية أيضًا، أما الديموطيقية فهي صورة شعبية عامية مبسطة للغاية"[١٣٩].

كيف تكون اللغة القبطية "الطور الرابع والأخير من أطوار كتابة اللغة المصرية القديمة" حسب سمير فوزي جرجس إذا كان قد استطرد في الفقرة التالية لذلك قائلاً: " صارت الديموطيقية عاجزة عن استيعاب المصطلحات الدينية الجديدة بما اشتملت عليه من تعبيرات ومعان كثيرة لم تكن موجودة من قبل. وإزاء اعتناق المصريين الدين الجديد بمصطلحاته وروحانياته الجديدة، تبنوا الكتابة الإغريقية وأخذوا في ترجمة نصوصهم وكتاباتهم ونقلها إلى الحروف اليونانية التي أضافوا إليها سبعة من أحرف الديموطيقية للتعبير عن الأصوات المصرية التي لم تكن موجودة في اليونانية (الأحرف السبعة الأخيرة من حروف الهجاء القبطية)"

ويقول تبريرًا لهذا التحول الدراماتيكي: " هنا نرى بجلاء أن تمسك المصريين بديانتهم المسيحية الجديدة قد حدد أولوية تقييمهم للأمور، المحافظة على كتابتهم الأصلية أم التخلي عنها من أجل استيعاب الدين الجديد بروحانيته ومصطلحاته الغزيرة، لقد جاء تحديد الأفضلية في الاختيار لصالح العقيدة الجديدة التي صارت تحتل المركز الأول لديهم". وما أورده دكتور باسم سمير الشرقاوي في كتابه **"تاريخ مصر القديم من الإسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص" ــ ص ٣١٥ يؤيد ما ذهب إليه سمير فوزي جرجس " وفي الكتب القبطية المترجمة عن اليونانية، ازدادت حصيلة المفردات اليونانية الدخيلة عنها مما كان في الكتب الأخرى. وكان طبيعيًا، بعد ذلك، أن يقوم مترجمو الكتاب المقدس إلى القبطية ليس فقط بتبني الأبجدية اليونانية، إنما أيضًا**

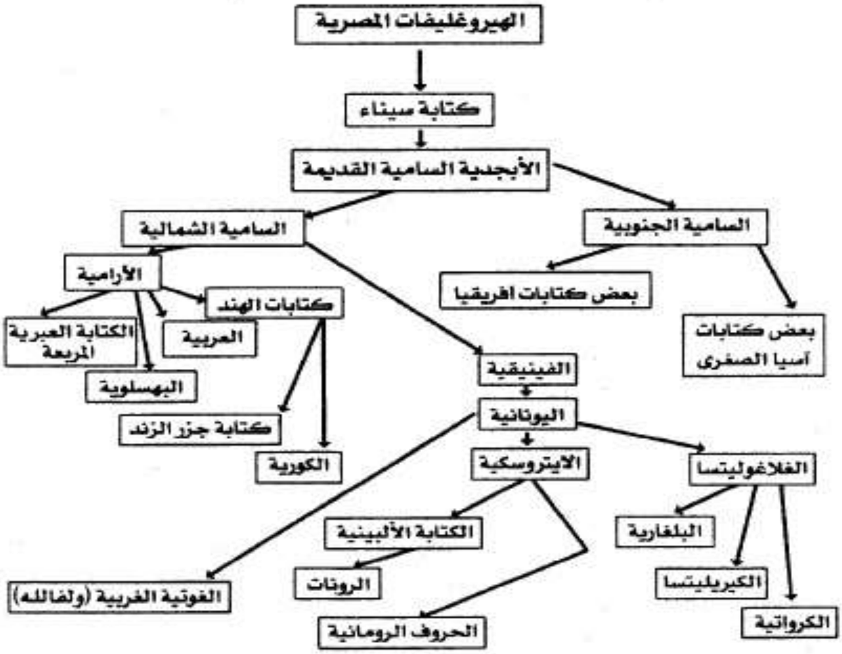
---

[١٣٨] سمير فوزي جرجس - موسوعة تراث القبط الجزء الأول ــ ص ٣١ - طباعة دار القديس يوحنا الحبيب للطباعة والنشر

[١٣٩] سمير فوزي جرجس الموقع السابق ــ ص ٣١

بإكمال تلك العملية بالاعتماد بوفرة على المعجم المحلي بالإضافة إلى العديد من الاستعارات والاقتباسات من اليونانية (بلغت في مجملها حوالي ٢٠٠٠ كلمة؛ نقلاً. M. Krause, LA III)، ٧٣١، بخلاف غيرها من اللغات القديمة كالعبرية، مثل كلمات: NoMoc ناموس" (أي شريعة)، " CABBATONسبت"، " qaPICAIOC فريسيون"،...إلخ. كما أن المفردات اليونانية لأي نص قبطي؛ كبيرة على نحو ذي مغزى. ويرجع ذلك إما لكسل المترجم، أو لتفضيله الكلمة اليونانية، أو نفوره من الكلمة المصرية القديمة، خصوصًا عند ترجمة بعض العبارات اللاهوتية، لاعتقاد المسيحيين -في ذلك الوقت- أن الأشياء المقدسة تتدنس إذا أعطيت مسميات وثنية"

ثم يستطرد سمير فوزي جرجس قائلاً: " ولو توسعنا قليلاً في مجال التأصيل والتحقيق وتابعنا بحثنا هذا إلى أغوار أعمق، فسوف يدهشنا أن نتبين حقيقة هامة، وهي أنه في قيام المصريين بهذا الاقتباس اللازم (تبني حروف الهجاء الإغريقية لكتابتهم)، فيتبين أنهم قد استردوا فقط جزءًا يسيرًا من الدين الثقافي الضخم الذي يدين به لهم اليونانيون، إن كتابة الفراعنة القديمة كانت من أهم دوافع اختراع حروف الهجاء الفينيقية، التي هي بدورها أصل الكتابة اليونانية القديمة، وقد يتضح لنا الأمر جليلاً بإلقاء نظرة عابرة على شجرة اختراع الكتابات المختلفة وتطورها التي وضعها العلامة الكبير بروفسور Hering" (إ. هيرنج).



تطور الأبجديات من الهيروغليفات المصرية حتى الحروف الرومانية

ويفسر لنا مجدي عياد يوسف في كتابه (مدخل إلى اللغة القبطية واليونانية) هذا الفضل الذي للهيروغليفية على اليونانية بقوله: " والحقيقة أننا وإن كنا قد أخذنا الأبجدية اليونانية إلا أن اليونانيين كانوا قد سبقوا وأخذوها من الفينيقيين، والفينيقيون كانوا قد أخذوا حروفهم من اللغة المصرية عن طريق الاسكندرية إذ أن الفينيقيين قد عملوا بالملاحة و كانوا ينتقلون بالسفن من ميناء إلى ميناء بسبب التجارة وغيرها، فلما لاحظوا الكتابة المصرية في الإسكندرية أعجبتهم فنقلوها وبسطوها ولما وصلوا في أسفارهم إلى جزر البحر الأبيض المتوسط مثل جزيرة كريت نقلوا إليها الكتابة الفينيقية ثم انتقلت الكتابة من جزيرة كريت إلى بلاد اليونان، واليونانيون بدورهم قد بسطوها نوعًا ما، ومن بلاد اليونان انتقلت الكتابة إلى شعوب أوروبا القديمة، ومن بلاد اليونان أيضًا أخذت مصر الأبجدية اليونانية"[١٤٠]!.

أما سليم سليمان الفيومي في كتابه (مختصر تاريخ الأمة القبطية في عصر الوثنية و المسيحية) فيذكر طريقة أخرى عن الأصل الهيروغليفي للأبجدية اليونانية: "احتل الهكسوس (الملوك الرعاة)" أرض مصر في عهد الأسرة الخامسة عشرة وتعلموا الخط الديموطيقي الدارج ولما طردوا من مصر سنة ١٧٠٣ ق. م توجهوا الي فينيقية فنقلوه معهم وعلموه للفينيقيين أو الكنعانيين والآشوريين والعبرانيين (اليهود) والكوفيين

١٤٠ مجدي عياد يوسف - مدخل الى اللغة القبطية واليونانية ص ٢١ -

والحجازيين والعرب ثم اليونانيين ومنهم أخذت أوروبا خطها"[١٤١]. وهو نفس الرأي الذي قال به سمير فوزي جرجس حول أن الهيروغليفية هي أم اللغات السامية وكذلك مجدي يوسف عياد.

ولا أعلم من أين استقى سليم سليمان الفيومي هذه المعلومات فمن ناحية فالخط الديموطيقي ظهر في أواخر الأسرة الخامسة والعشرين وأوائل الأسرة السادسة والعشرين، يقول أنطون ذكري في كتابه "مفتاح اللغة المصرية القديمة": ظهر في أواخر الأسرة ٢٥ ولاسيما في عهد الأسرة ٢٦ في جميع أنحاء القطر المصري لغة جديدة تختلف عن اللغة المصرية القديمة وسميت بالديموطيقية (وهذه كلمة يونانية معناها شعبي نسبة للشعب) و تعرف بلغتهم (موت رم ن كيمى) أي (لسان أهل مصر) وصارت هذه اللغة المتداولة في الأمة واقتصرت اللغة المصرية القديمة على الأمور الدينية"[١٤٢].

وهذا ما يؤكده عبد الحليم نور الدين عند حديثه عن الخط الديموطيقي وتاريخ نشأته (..... الذي ظهر منذ القرن الثامن قبل الميلاد واستمر حتى القرن الخامس الميلادي)[١٤٣].

وإذا كان علماء اللغة قد قاموا ببناء العديد من أشجار اللغة لتوضيح العلاقة بين اللغات المختلفة ومن بينهم (إ. هيرنج) وشجرته (شجرة الأسرة بالنسبة للأبجدية اللاتينية) التي أوردها سمير فوزي جرجس للتدليل على العلاقة بين اللغة المصرية القديمة وأنها هي اللغة المصدر للغة اليونانية إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون اجتهادًا من (هيرنج) (فالحق أن كثيرًا من اللغويين يعتقدون أن قضية وحدة اللغات الحديثة أو تنوعها هو أمر يستعصى تمامًا على الحل)[١٤٤]

(والحقيقة فإن اللوحة غير كاملة وهى تضرب بعيدًا جدًا، في طموحها نحو التبسيط " وخاصة في موضوع التسلسل "الفينيقي – اليوناني – الأيتروسكي[١٤٥]" ومع كل هذا فإنها تسمح بالتوصل إلى تصور واضح عن تلك الروابط التي تبدو لنا جديدة بمقدار ما هي مثيرة للدهشة)[١٤٦].

فلا يجوز أن نقيم التاريخ على أسس من التصورات والفرضيات التي مازالت طي البحث لنعتبرها قرائن تاريخية نعضد بها ما نقوم بتأريخه. إذ يمكننا بدورنا أن نورد شجرة لغة عن أصل اللغات في العالم كما تصورها ميريت رولين ١٩٤٤م توضح العلاقات بين اللغات القديمة مستخدمًا اقتراح داروين بأن تُبنى على أساس الشجرة الوراثية للأجناس البشرية وذلك بعد تعديل طفيف يتعلق بالمدى المحتمل لتواريخ

---

١٤١ سليم سليمان -- مختصر تاريخ الأمة القبطية في عصر الوثنية والمسيحية – ص ٣٨، ص ٣٩ - المطبعة المصرية الأهلية بالقاهرة طبعة ١٩١٤

١٤٢ أنطوان ذكري – مفتاح اللغة المصرية القديمة – ص ١١٧ – الطبعة الأولي ١٩٩٧ مكتبة مدبولي

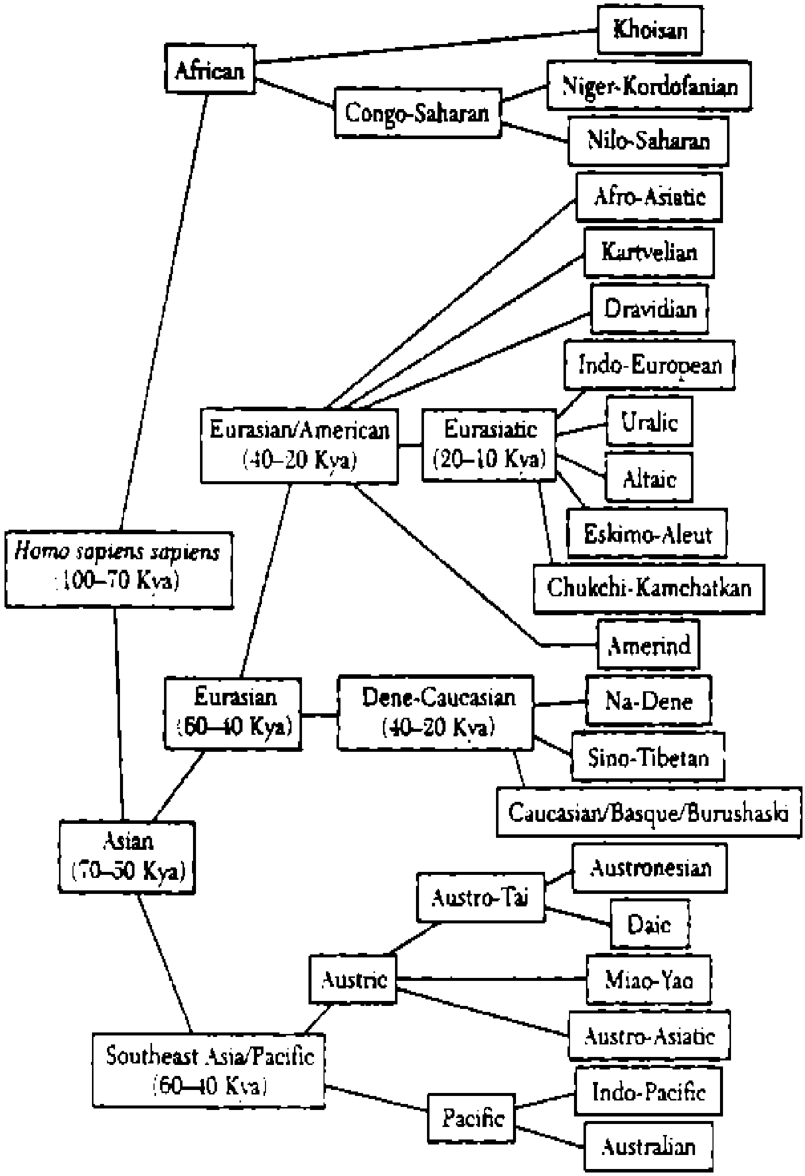
١٤٣ عبد الحليم نور الدين – اللغة المصرية القديمة – ص ٣٩

١٤٤ لويجي لوقا كافيللي – الجينات والشعوب واللغات – ص ١٥٠

١٤٥ الحضارة الإتروسكانية كانت حضارة في إيطاليا القديمة - نشأت ثقافة واضحة الإتروسكانية في إيطاليا نحو ٩٠٠ قبل الميلاد،

١٤٦ أرنست دوبلهوفر – رموز ومعجزات – ص ٤٨

التشعب الأولى لهذه اللغات دون أن تظهر صلة واضحة ما بين الهيروغليفية واليونانية[١٤٧].



أما الدكتور نبيل صبري إسحاق في كتابه " **اللغة المصرية القبطية نشأتها وأسباب أفولها - جهود إحياءها من القرن ١٩ - النطق الكيرلسى والخلاف**" فلا يرى غضاضة في تبديل اتجاه الكتابة واستخدام خط مختلف عوضًا عن الخط الوطني بل يبرر أنه تم

[١٤٧] لويجي لوقا كافيللي – الجينات والشعوب واللغات – ص ٢٣٣

تحوير الأحرف السبعة التي تم استعارتها من الديموطيقية لتتوافق والشكل العام للحروف اليونانية! بل لا مانع من الاستغناء عن ظاهرة العلامات ذات الصوتين وذات الثلاثة أصوات! حيث يقول: **"ويجب التأكيد على أن التحول من الديموطيقية إلى القبطية لم يكن مجرد استخدام الأبجدية اليونانية التي تحوي حروف حركة، بالإضافة إلى سبعة حروف أساسية منتقاة من علامات الكتابة الديموطيقية تم تحوير نقشها لتكون متناسقة مع شكل الحروف اليونانية، ولكن نرى أيضًا كتابة القبطية من اليسار إلى اليمين مثل اليونانية واختفاء ظاهرة العلامات ذات الصوتين، وذات الثلاثة أصوات، و"المخصصات" ودخول مفردات يونانية" ص٢٧**

ويبرر هذا التحول أو التخلي بقوله:

١ـ صعوبة الديموطيقية كانت السبب الأساسي في التحول إلى الكتابة باليونانية، وساعد على ذلك انتشار التعليم باللغة اليونانية. وأن ما تم كان اختيار مصري صميم، وليس كما يعزيه بعض المفكرين إلى قهر لغوي وثقافي يوناني.

٢ـ التحول إلى المرحلة الأخيرة للغة المصرية، المعروفة بالقبطية سبق دخول المسيحية مصر بحوالي مائتي عام، وعليه كان حادث سواء دخلت المسيحية مصر أو لم تدخل.

ثم يستطرد لتوضيح مكانة اللغة اليونانية عالميًا ومحليًا وأنه لا غضاضة من أن يتم كتابة اللغة المصرية القديمة بالخط اليوناني مضافًا إليه بضع علامات من الديموطيقية لأن اليونانية كانت اللغة العالمية لهذا الزمان:

وقد استمرت اليونانية كلغة تحدث اليونانيين والمصريين المتعلمين، وفي الأمور الإدارية والتجارة، وأيضًا في الكتابات المسيحية، بما في ذلك أسفار العهد الجديد ومؤلفات آباء الكنيسة الأوليين، في مصر في الثلاثة قرون الميلادية الأولى، وبعدها. وباختصار شديد كان وضع اليونانية كلغة عالمية قد تثبت لما يقرب من ألف سنة ومن السهولة مقارنة مكانتها بمكانة اللغة الإنجليزية في زماننا الحالي.

ظل انتشار المسيحية في مصر خارج المدن الكبيرة، بطيئًا حتى تم تقنين وتعميم الحروف اليونانية وسبعة حروف من المصرية الديموطيقية في كتابة اللغة المصرية بالأبجدية ال "إغروديموطيقية" الجديدة التي عرفت فيما بعد بالقبطية

يذكر بروفسير شور رجوعا إلى المؤرخ (يوسابيوس Eusebius) أن البطريرك (ديونيسيوس Dionysius) ((٢٤٧ـ٢٦٤ م) هو الذي عمل على التحول من الاستخدام اللغوي اليوناني إلى المصري المحلي مما جعل شخصية الكنيسة القبطية تتميز عن الكنيسة اليونانية. وأعقب ذلك تأكيد هذه الشخصية بتاريخ السنة القبطية بعام تولي الإمبراطور الروماني دقلديانوس الحكم (٢٨٤ م) لتظل ذكرى دائمة للشهداء المصريين المسيحيين، (الوطنيين)، الذين قتلوا في عهد ذلك الطاغية.

أخذ وضع اليونانية يضعف نسبيًا مع انتشار المسيحية بين عامة الشعب المصري وتحرك الدور الثقافي من الجيمنازيا اليونانية[١٤٨] إلى الأديرة المسيحية، خاصة بعد أن قام الأنبا شنودة المعروف برئيس المتوحدين (٣٤٦-٤٦٥) بمجهودات هائلة للنهوض باللغة والتراث القبطي ليحل محل التراث اليوناني - ولقد أشرنا الى هذا الدور المحمود سابقًا - وبالرغم من ذلك، وما سببه مجمع خلقيدونية ٤٨١ من خلافات وصلت إلى حد اضطهاد المسيحيين البيزنطيين للمسيحيين الوطنيين المتمسكين بعقيدتهم لم تختف اليونانية بل ظل المتعلمون من المصريين الأقباط يدرسوها كلغة ثانية حتى بعد دخول العرب مصر بفترة طويلة. من ناحية أخرى كان لتواجد اليونانية والمصرية معا لمئات السنوات، ثم انتشار المسيحية في بداية الأمر بين متكلمي اليونانية في مصر، تأثير متبادل بين اللغتين وإن كان تأثير اليونانية على المصرية القبطية أقوى من تأثير المصرية على اليونانية، حسب رأي معظم المؤرخين، خاصة بالنسبة للمفردات.

يذهب دكتور نبيل صبري إسحاق إلى أن تعداد من دخلوا للمسيحية من المصريين خارج المدن لم يكن كبيرًا وأن هذا العدد أصبح في ازدياد بعد ظهور بدعة القبطية وأن البطريرك ديونيسيوس[١٤٩] قاد التحول من الاستخدام اللغوي اليوناني إلى المصري المحلي مما جعل شخصية الكنيسة القبطية تتميز عن الكنيسة اليونانية!

"أما عن نسبة أتباع الديانة المصرية وأتباع المسيحية، فنقتبس عن د. جمال حمدان قوله: "أما عن مصر القبطية، فالتقديرات تتضارب بشدة؛ فعند (غربال)[١٥٠] أن أكثر المصريين قد أصبحوا عند منتصف القرن الرابع مسيحيين. وعلى العكس يرى (جيليون دنجلار)[١٥١] أن الأقباط لم يكونوا يمثلون سوى (كسر) محدود من نسل المصريين القدماء. وفيما بين النقيضين يشير (توماس أرنولد)[١٥٢] إلى أن المسيحية لم تكن منتشرة انتشارًا هامًا إلا في المدن فحسب، والأرجح أن مصر - بصفة تقريبية - كانت ربع إلى ثلث إلى نصف مسيحية، والبقية وثنية فرعونية"[١٥٣].

"هذا الفصل المؤلم من تاريخ تطور الفكرة القومية في مصر، رأينا أن نعالجه كما هو، وأن نواجه الماضي لنسحقه لا ليسحقنا أو نُسحق به. ومهما يكن، فقد كان الصراع بين

[١٤٨] يقصد الصالات الرياضية اليونانية.

[١٤٩] يعتبر **ديونيسيوس** «أحد أعظم شخصيات التاريخ الكنسي»، لقبه القديس أثناسيوس «معلم الكنيسة الجامعة» كما دُعي «ديونيسيوس الكبير» بسبب ما عاناه من ضيقات محتملاً ذلك في شجاعة وثبات، ولغيرته على الكنيسة وهو بطريرك الكرازة المرقسية الرابع عشر

[١٥٠] يقصد محمد شفيق غربال مؤرخ مصري. عمل أستاذا في جامعة القاهرة ويعد أول مصري تولى منصب كرسي أساتذة في قسم التاريخ في كلية الآداب. عمل في عدد من الوزارات. قام بإنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالإضافة للمتحف المصري. كان عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (منذ عام ١٩٥٧ وحتى وفاته) والمجمع العلمي المصري.

[١٥١] كاتب فرنسي

[١٥٢] مؤرخ بريطاني

[١٥٣] أحمد عاشور، صبحي السيد عاشور - الوطن الأم دراسة في الثقافة المصرية – ص ١١٩ وما بعدها

فكرة وفكرة، ومن ثم لا يمكن قبول آراء مفكري كنيسة الإسكندرية الذين حاولوا تصوير القضية على أنها صراع بين المصريين والهيلينيين[١٥٤]، وأن هؤلاء الكفرة كانوا يسمون هيلينيين. إلا أن هذا يخالف الحقيقة؛ فالأستاذ ماسبرو[١٥٥] يلاحظ أن هذه التسمية غير دقيقة لأنها كانت تعني الديانة والطقوس المصرية القديمة. وكما يذكر (زكريا الشارح)، فإن معظم الحزب المدافع عن المسيحية كان من الأجانب؛ فهناك آريوس[١٥٦] (وهو ليبي الأصل)، وكليمنت[١٥٧] (وهو أثيني المولد)، وسينيسيوس[١٥٨] (وهو ليبي الأصل أيضًا)، دون أن يمنع ذلك وجود عدد لا يحصى من قيادات ومفكري المسيحية، يرجعون لأصل مصري. وعلى الجانب المقابل، يظهر الحزب الوطني (كما سموا أنفسهم أو المدافعون عن الديانات القديمة، يظهر هذا الحزب منتميًا إلى الطبقة المتأغرقة. لدينا أولاً (حور أبوللون) الذي ترجع عائلته إلى أصول ليبية، وقد ترك مؤلفات باللغة اليونانية ومؤلفات أخرى في فقه اللغة الهيروغليفية، وهي دراسات تضعه في درجة منظر لهذه اللغة الأخيرة، وكان وفيًا لديانات مصر القديمة وفاءً حصريًا، مناهضًا للمسيحية، وكان والده عالمًا بطقوس الكهانة المصرية، وفنون التحنيط طبقًا للعقيدة الأوزيرية[١٥٩].

وإن كان لي أن أطرح سؤلاً بديهيًا أعتقدأ انه سيتبادر لأذهان الكثيرين كيف يكون محو حروف اللغة الأم (الديموطيقية) واستبدالها بحروف لغة أخرى (اليونانية) يُعَدُ تطورا للغة الأم حتى وإن احتفظت اللغة بنفس اللغة المنطوقة كما هي لم تتغير؟ رغم أن ذلك

---

[١٥٤] وهي مستمدة من كلمة هِلين وهي الاسم العرقي الذي يطلقه اليونانيون على أنفسهم بجدهم الأسطوري هيلين Hellen وببلادهم التي عرفت باسم بلاد هيلاس Hellas وتمتد الحضارة الهيلينية منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادى وفى هذه الحقبة أصبحت الثقافة الاغريقية ملكًا مشتركًا بين جميع بلدان البحر المتوسط وكانت اليونانية لغة العلم في ذلك الوقت والهلنستية هي ثقافة مركبة من عناصر يونانية وشرقية حمل فيها الإغريقيون إلى الشرق الفلسفة ولقح فيها الشرقيون حضارة اليونان بروحانية الشرق ونظمه وعلمه .

[١٥٥] جاستون ماسبرو عالم فرنسي من أشهر علماء المصريات قام ماسبيرو بنشاط كبير لمواجهة السرقات التي كانت تحدث للآثار المصرية القديمة، وقام بمساعدة العالم المصري أحمد كمال بك بنقل المئات من الموميات والآثار المنهوبة إلى المتحف المصري بالقاهرة، وأستطاع أن يسن قانونًا جديدًا صدر عام ١٩١٢م ينص على أن لا يسمح للأشخاص بالتنقيب ويقتصر التنقيب فقط على البعثات العلمية بعد الموافقة على مشروعها، ولم يصبح من حق الحفارين الحصول على نصف ما يعثرون عليه لكنهم يحصلون فقط على القطع التي لها مثيل مكرر بمتحف القاهرة، ولا يمنح القائم على الحفائر تأشيرة خروج من مصر إلا في حالة تركه الموقع الأثري في صورة مُرضية، مما أثار عليه غيظ وحقد المهربون الأجانب وتجار الآثار، كما فرض مقابل لمشاهدة المناطق الآثرية لمواجهة النفقات التي يحتاجها للتنقيب وأعمال الصيانة.

[١٥٦] قسيس وزاهد وكاهن مسيحي في الإسكندرية بمصر من أصل بربري. اشتهر آريوس بتبنّيه لمجموعة من التعاليم التي تدور حول الطبيعة اللاهوتية في المسيحية، التي أكّد فيها على تفرّد الآب، وتبعية المسيح للآب، ومعارضته لما أصبح سائدًا حول طبيعة يسوع، فأصبح الموضوع الرئيس الذي نوقش في مجمع نيقية الأول الذي عقده الإمبراطور قسطنطين العظيم سنة ٣٢٥م.

[١٥٧] إكليمندس الإسكندري اسمه الكامل تيتوس فلافيوس إكليمندس، هو واحد من أبرز معلمي مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، ولد في أثينا في منتصف القرن الثاني الميلادي وتوفي بين عامي ٢١١ و٢١٥. أبرز ما ميز تعاليمه هو ربطه وتوحيده بين الفلسفة اليونانية واللاهوت المسيحي، فكانت كل كتاباته بشكل عام موجهة للعالم الهيليني والثقافة اليونانية.

[١٥٨] أسقف يوناني لمدينة بطولمايس في بنتابوليس (المدن الخمسة) الليبية القديمة بعد ٤١٠.وقد وُلِد في أسرة ثرية تدعي انتسابها لسلالة ملوك أسبرطة، في بلاغراي (البيضاء حالياً)

[١٥٩] أحمد عاشور، صبحي السيد عاشور – المرجع السابق ص ١٢٠ وما بعدها

لا يخرج بنا عن قواعد علم اللغات فمادام النطق كما هو لم يتغير لا يضيرنا بأي خط نكتب هذا المنطوق، فالعربية تظل هي اللغة العربية حتى إن كتبناها بالأحرف اللاتينية أو الفرانكوارب مثلا. فهل هذا ما حدث للغة المصرية القديمة عندما تطورت لتحل محلها القبطية كتابة ونطقا؟

حاولت أن أجد الإجابة عند من كتبوا عن الخطوط المصرية القديمة ولكن معظمها كان يحمل نفس العبارة (القبطية هي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الخطوط واللغة المصرية القديمة) ولعل أنطون زكري حاول أن يلقى بعض الضوء عن هذا التشابه بين القبطية واللغة المصرية القديمة حيث يقول: (إن اللغة القبطية هي نفس اللغة الهيروغليفية إلا أنها تختلف عنها شكلاً. فاللغة المصرية القديمة مأخوذة صورها من الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك كما تقدم أما اللغة القبطية فمأخوذة حروفها من اليونانية الديموطيقية ولكن لفظ الكلمات فيها واحد وإليك أمثلة ذلك في جدول صفحة ١٢٣وأن الذي دفع المصريين إلى استعمال اللغة القبطية السهولة الكبرى التي أدخلتها اللغة اليونانية الشهيرة في ذلك العصر بين الطبقة المتعلمة في وادي النيل)[١٦٠].

ولقد انتقلت إلى صفحة ١٢٣ يحدوني الأمل في إيجاد العلاقة بين النطق في الهيروغليفية ومثيله في القبطية ما دام الشكل قد تغير وفق أنطوان ذكري، ولكن للأسف كان الاختلاف البين فكلمة (إنسان) العربية النطق والخط سنكتبها هكذا إذا أردنا استخدام الحروف اللاتينية (ensan) هنا يتوافق النطق بين العربية واللاتينية ولكن إذا كتبناها(human) أو (man) أو (person) فإننا نكون كتبنا الكلمة باللغة اللاتينية وبالخط اللاتيني وهذا ما نجده تمامًا في الصفحة التي تركها لنا أنطون زكري لتكون مثالاً على التطابق أو التقارب بين الهيروغليفية من حيث النطق وإن اختلف شكل الكتابة ما بين هذه وتلك.

وجاءت الكلمة الأولى في جدول أنطون ذكري مبشرة بكل خير فكلمة (حر) الهيروغليفية أصبحت (هرا) بالقبطية **ولأن القبطية أزالت حرف (الحاء) الهيروغليفي من أبجديتها** تحولت (حر) إلى (هرا) **ولأن القبطية اعتمدت الحروف الصوتية التى لم تعرفها الهيروغليفية** حسب زعم علماء المصريات نتيجة لاستخدامها اليونانية وهي من اللغات اللاتينية التي تعتمد الحروف الصوتية تحولت (حر) إلى (هرا)!

لنترك الكلمة الثانية والثالثة في الجدول ولنتوقف قليلاً أمام الكلمة الرابعة (بت) أصبحت بالقبطية (ف)، كلمة (خاترو) أصبحت (شائول) عبارة (ر زبا) أصبحت (إ ث ف)، كلمة (أنف) أصبحت (بوت) وساترك لك عزيزي القارئ أن تكمل الجدول وتكتشف الفروق أو التماثل بنفسك.

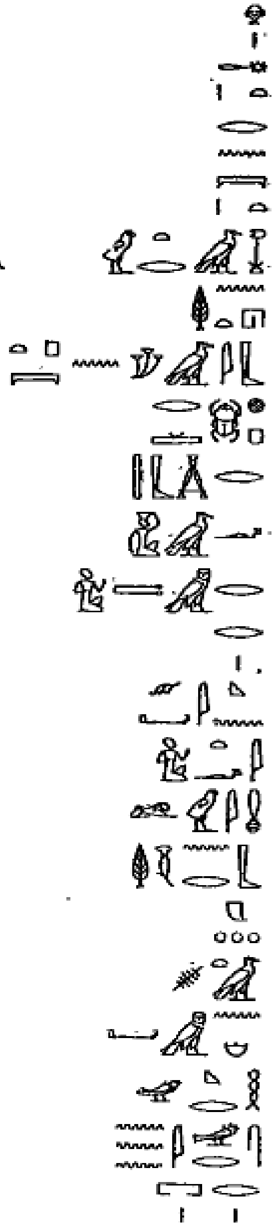
نعم لست متخصصًا في علم اللغات ولكن هل نحتاج أن نكون متخصصين حتى نلاحظ عمق الهوة بين الهيروغليفية والقبطية من حيث النطق؟

فكيف تكون الكتابة القبطية هي مرحلة من مراحل تطور الهيروغليفية وهي استبدلت بالخط الديموطيقي الشعبي الأسهل من بين الخطوط الثلاثة خط غريب عنها هو خط

[١٦٠] أنطوان ذكري – المرجع السابق – ص ١٢٢

الغازي المحتل الذي ذاق على يديه المصريون المسيحيون شتى ألوان العذاب لا لشيء إلا لأنها اللغة التي توافق العقيدة الجديدة (المسيحية) من غازي محتل يدين بنفس الديانة. وأصبحت القبطية تكتب مثل اللغات اللاتينية من اليسار لليمين أما الهيروغليفية فكانت تكتب من اليمين لليسار والعكس ومن الأعلى للأسفل والعكس حسب اتجاه الحروف كما أشرنا سابقًا. وتم إلغاء بعض الحروف من الهيروغليفية مثل العين والحاء وتم الاستعانة بالأحرف الصوتية رغم أن الهيروغليفية كل حروفها من الصوامت هل يمكننا ببعض من أعمال الفكر أن نقول أن القبطية هي الطور الأخير للكتابة الهيروغليفية؟

اللفظ الهيروغليفي	الكتابة الهيروغليفية	الكتابة القبطية	اللفظ القبطي البحيري	الترجمة العربية	الترجمة الانكليزية
حر		ϩⲣⲁ'	هرا	وجه	face
خت		ϧⲏⲧ	خيت	بطن.صدر	Body
رن		ⲣⲁⲛ	ران	اسم	Name
بت		ⲫⲉ	ف	سماء	Heaven
خاترو		ϣⲁⲟⲟⲩⲗ	شاتول	نمس	chneumon
نهت		ⲛⲟⲩϩⲉ	نوه	شجرة الجميز	Sycamore
بيان بت		ⲃⲉⲛⲓⲡⲉ	بنى ب	حديد	Iron
خبر		ϣⲱⲡⲓ	شو بى	كان	to be
رزبا (دبا)		ⲉⲟⲃⲉ	إشف	بدلا من	Instead of
فا		ϥⲁⲓ	فاى	حمل	to carry
رمت		ⲣⲱⲙⲓ	رومى	رجل	Man
را		ⲣⲱ	رو	فم	Mouth
قنى		ⲕⲟⲩⲛ	كون	حضن	Bosom
اتف		ⲉⲓⲱⲧ	يوت	اب	Father
ماو		ⲙⲟⲩⲓ	موى	أسد	Lion
بنر		ⲃⲉⲛⲛⲉ	بن ن	نخلة	Date palm
حمت		ϩⲟⲙⲧ	همت	نحاس	Copper
أت		ⲱϯ	وت	ظهر	Back
نحم		ⲛⲟϩⲉⲙ	نوهم	خلص	to deliver
حقر		ϩⲕⲟ	حكو	جاع	to hunger
سورى		ⲥⲱ	سو	شرب	to drink
رابر		ⲉⲣⲫⲉⲓ	إرفى	معبد (بربة)	temple



وسأقتبس رد افتكار البنداري السيد في كتابها " نكبة الهكسوس" على نفس هذا السؤال المطروح حيث تقول: **"وهذه أكبر لطمة لثقافة مصر بعد لطمة بل طعنة فتح مؤسسات الدولة للأجانب وتشغيلهم فيها في نهاية الدولة الحديثة، فإن محو الحروف المصرية ولزق حروف يونانية محلها هو ستارة ثقيلة نزلت بين المصريين ولغتهم وحضارتهم، وعمت عيونهم عن حقيقتهم وقيمتهم، فكانت نكبة أشد من نكبة إعلان المحتل أن اليونانية هي لغة الدولة، لأن اليونانية في النهاية كانت محبوسة بين الأجانب والموظفين".**

"وليس مقبولاً أن يُبَرر لهذا بصعوبة الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية؛ فالخط الديموطيقي كان منتشرًا وصالحًا للكتابة بالفعل، وحتى إن كان به صعوبة فسهل تبسيطه من وحي الحروف المصرية نفسها، كما فعل الأجداد بتبسيط الخط الهيروغليفي إلى الهيراطيقي، أما محو الخطوط المصرية جميعها واللهث وراء خط أجنبي، وفوق هذا هو خط الاحتلال، فإنما هو تفريط لا يقل عن التفريط في الأرض، وبعض العزاء يكون في أن بداية التفريط لم تكن مصرية خالصة، بل خرج من مستوطنين أجانب رأوا الحروف اليونانية أسهل لهم من تعلم الحروف المصرية، وبعضهم صدره معبأ بالكراهة للحضارة المصرية التي وصفوها بالوثنية بعد تشبع بعض القلوب بما في التوراة من تحقير للمصريين وحضارتهم، فلم يأبه المترجمون للتوراة والإنجيل بحفظ خطوط اللغة التي تحفظ وصل المصريين بها."[١٦١]

"وهناك أمر آخر لا يختلف عليه عاقلان.. ألا وهو أن من يعرف القبطية سوف يتمكن بداهة من حل شفرة اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية. وهذا القول البديهي يكذبه العقلاء وعلماء المصريات، فلم تحل شفرة المصرية القديمة إلا عن طريق حجر رشيد وبالاستعانة بالمنطوق الصوتي للغة العبرية وهي من اللغات السامية أي من عائلة لغات اللسان العربي، وليس بالاستعانة بأي أثر من آثار اللغة القبطية، مما يدل على أن القبطية ليست تطورًا طبيعيا للغة المصرية..!!" [١٦٢]وهذا ما سنذكره بالتفصيل فيما سيلي.

ورغم أن شامبليون كان عالمًا باللغة القبطية وكوّن معجمًا للغة القبطية إلا أن هذه اللغة لم تساعده إلا قليلاً في فك رموز الهيروغليفية ولو كانت القبطية هي الطور الأخير للهيروغليفية لاستطاع شامبليون من الربط بينهما وحل ألغاز هذه الطلاسم، ولكنه استغرق عشرين عامًا في فك رموزها، وهو ما يقودنا مباشرة إلى التصديق بعدم ارتباط الهيروغليفية والقبطية كتابة وهو المعلوم للجميع وعدم ارتباطهما كذلك نطقًا.

---

[١٦١] افتكار البنداري السيد – نكبة توطين الهكسوس الجزء الاول ص ١٩٦ وما بعدها
[١٦٢] جمال الدين الشرقاوي – لغز اللغة القبطية – دراسة تأصليه تاريخية - ص ٣٧

ولا أدل على ذلك من محاولات الراهب اليسوعي الألماني أثناسيوس كيرشر (١٦٠١- ١٦٨٠) الذي حاول فك رموز اللغة الهيروغليفية عن طريق الربط بين اللغة القبطية واللغة الهيروغليفية؛ إذ كتب كتابًا في عام ١٦٣٦ حاول فيه أن يثبت هذه العلاقة غير أن جهوده لم يكتب لها النجاح، فقد التزم جانب الغموض الباطني، فكتب كتابًا من ثلاث آلاف صفحة ليبرهن على ما يزعمه من أن الهيروغليفية كانت سابقة في تعبيرها عن المسيحية. وتحمل صفحة عنوان كتابه "أوديب المصري" Oedipus Aegptiacus رسمًا للمؤلف يصوره يسعى لمعرفة سر أبى الهول المصري الذي بدا في شكله الأنثوي المجنح أقرب ما يكون إلى الطابع الإغريقي لا المصري (انظر الشكل المقابل) ورغم ثبوت خطأ ما ذكره أثناسيوس كيرشر بالنسبة للهيروغليفية واعتقاده في جنيات البحر، والغرفين (حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد)، ومركزية الأرض، فقد كان له فضل إرساء دعائم الدراسات القبطية في أوروبا.



أثناسيوس كرشر يسعى لمعرفة سر أبى الهول المصري الذي بدا في شكله الأنثوي المجنح

وسنستمر في تكرار السؤال الذي طرحناه من قبل، هل كانت القبطية هي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الخطوط المصرية القديمة أم أن تلك أكذوبة من الأكاذيب المدسوسة في تاريخ المحروسة وكان هذا الخط قد فرضه المستعمر اليوناني على أهل مصر عنوه وأجبرهم على استعماله بديلاً عن الخط الديموطيقي الهيراطيقي ومن قبلهم الهيروغليفي؟ أم أن أهل المحروسة أنفسهم قد نبذوا هذه الخطوط كما نبذوا آلهتهم ومعابدهم وكهنتهم؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب علينا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلي اصطناع هذه اللغة وظهورها للوجود حينها سنستطيع بكل هدوء أن نصل للإجابة على كل هذه الاسئلة بعيدا عن اصطناع التاريخ وتزييفه وتعمد بتر بعض الأحداث عن سياقها، واصطناع أحداث جديدة عارية من كل منطق وفاقدة لكل دليل وشاهد إذ لابد لنا من وقفة جادة نعيد فيها قراءة التاريخ من جديد قراءة صحيحة واعية لبناء ثقافة التطور والمواجهة.

أسباب اصطناع اللغة القبطية:

خلصنا في الفقرات السابقة أن اللغة القبطية لم تحفظ لمصر تاريخها أو ثقافتها لأنها لم تكن امتدادًا أو تطورًا طبيعيًا للغة شعبها. وإلا لأمكن للراهب أثناسيوس كيرشر كما رأينا في الفقرات السابقة إثبات أن اللغة القبطية التي تستعمل في ممارسة طقوس كنيسة مصر الأرثوذكسية، هي لغة تحفظ في ثناياها اللغة المصرية القديمة ولكنها تُكتب بحروف يونانية، وأخذ يقوم بناءً على هذا الظن ببحوث علمية في هذه اللغة محاولاً أن يرجع بها إلى اللغة المصرية القديمة فلم يفلح قط...!!، بل وتساءل عن اللغة المصرية القديمة: هل هي حروف أو أصوات أو معان؟ وكيف يمكن قراءتها ؟[١٦٣] أي أن تفسير الكتابات المصرية القديمة كان سرًا غامضًا حتى على هؤلاء الذين كانوا على معرفة تامة باللغة القبطية، وبدون اكتشاف حجر رشيد وفك رموزه كان التاريخ المصري القديم سيظل مدفونًا تحت غطاء الجهل باللغة المصرية القديمة[١٦٤]. ذلك أننا لم نجد أثرًا واحدًا سواء أكان حجرًا أم بردية - مكتوبا فيه بالمصرية القديمة وترجمته باللغة القبطية. لقد وجدنا الكثير من الوثائق الكنسية القبطية وأمامها ترجماتها باليونانية واللاتينية، ثم وجدنا الكثير أيضًا من الوثائق الكنسية القبطية وأمامها ترجماتها باللغة العربية إبان الفترة الإسلامية الأولى بينما لم نجد مثل ذلك الأمر بين القبطية والمصرية القديمة بصور كتاباتها الثلاث..!![١٦٥]

فإذا لم تكن اللغة القبطية قد تم اصطناعها للحفاظ على التراث المصري القديم الضارب في القدم لخمسة آلاف عام فلأي سبب تم اصطناعها؟

يقول عاطف هلال ردًا على ذلك: "**هناك فترة طويلة مريرة عاش فيها الشعب المصري القديم. بدأت تلك الفترة بغزو الفرس لمصر عام ٥٢٥ ق.م. إلى عام ٣٣١ ق.م. تخللها خمسون عاما من التحرر، ثم فتح الإسكندر الأكبر مصر في نفس العام (عام ٣٣١ ق.م.)، وبدأ بذلك العهد البطلمي الذي انتهى بانتحار كليوباترا عام ٣٠ ق.م، فأصبحت مصر تحت الحكم الروماني حتى عام ٣٩٥ م. ثم تحت الحكم البيزنطي إلى أن دخلها الإسلام عام ٦٤١ ميلادية.**

ولا يذكر التاريخ المصري في تلك الفترة الطويلة المريرة التي امتدت لأكثر من ألف ومئة عام أن حاكما حكمها كان يتحدث لغة شعب مصر أو حاول تعلمها، ماعدا الملكة كليوباترا التي كانت تتحدث اللغة الديموطيقية بطلاقة، فقد كانت اللغة اليونانية هي لغة البلاد الرسمية طوال تلك الفترة ماعدا فترة الاحتلال الفارسي إلى أن فتح الله على مصر بالإسلام. وقد تمت محاولات مستمرة خلال تلك الفترة التي امتدت لأكثر من ألف

[١٦٣] سليم حسن - موسوعة مصر القديمة - جـ ١ - ص ١٢٦

[١٦٤] عاطف هلال - التاريخ السياسي والديني للغة القبطية

[١٦٥] جمال الدين الشرقاوي – المرجع السابق – ص ٣٧،٣٨

عام لفرض ما ارتبط بتلك اللغة اليونانية من ثقافة هيلينية على الشعب المصري القديم، ولم يتقبلها الشعب المصري الأصيل وحافظ على تقاليده وثقافته.
وتميزت فترة الاحتلال الروماني البيزنطي بالاستنزاف الوحشي لموارد مصر الزراعية مع فرض مزيد من القهر والإذلال لشعبها، وكان لابد مع تمسك المصري القديم بلغته وتقاليده وعزوفه عن تعلم اللغة اليونانية أن يصنع المحتل لغة وسيطة سهلة عليه، من أجل فرض مزيد من سيطرته ولتسهيل تسخيره للأهالي واستنزاف مواردهم، وذلك لصعوبة تعلمه لغة الشعب ولهجاته، فبدأ المحتل بمحاولات لكتابة بعض اللهجات المصرية المحلية بالأبجدية اليونانية. وقد أجمع الكثيرون من مؤرخي تلك الفترة على وجود مثل تلك المحاولات لكتابة بعض هذه اللهجات بالأبجدية اليونانية ترجع تاريخها لنهاية القرن الأول الميلادي، أطلق عليها المؤرخون اسم " النموذج الأولى للغة القبطية" أو اللغة البروتوقبطية Proto-Coptic.
كما أجمع المؤرخون على أن لغة بعض المجتمعات النصرانية التي بدأت تظهر لأول مرة في مصر في القرن الثالث الميلادي لم تكن سوى اللغة اليونانية. أي أن تلك المجتمعات الناشئة لم تفكر في تعلم لغة الشعب المصري تقربًا منه أو حبًا له ولمصلحته، كما لم تفكر في بذل أي محاولات لتطوير البروتوقبطية، كما لا يوجد أي دليل تاريخي على وجود جمهور نصراني ملحوظ وله قيمة حتى منتصف القرن الثالث الميلادي، وبقي العنصر النصراني في مصر ممثلاً في أقلية ضعيفة حتى بداية القرن الرابع الميلادي، وقد نشأ هذا العنصر في مصر متصلاً بالثقافة الهيلينية أي بالفكر والثقافة اليونانية ومتأثرًا بها. [١٦٦]
ونذكر أيضًا أنه حين جاء القديس مرقص إلى مدينة الإسكندرية قادمًا من روما في الخمسينيات من القرن الأول الميلادي، كانت دعوته إلى الدين النصراني قاصرة على يهود الإسكندرية الذين يتحدثون اللغة اليونانية، وقد كانت في بدايتها محظورة على الأمميين Gentile أي على غير اليهود، إلى أن قتله واحد من يهود الإسكندرية عام ٦٨ ميلادية.
كما نذكر أيضًا أنه حتى انعقاد المجلس أو المجمع الخلقدونى Council of Chalcedon في عام ٤٥١ ميلادية كانت لغة الكنيسة في مصر هي اللغة اليونانية، وهذا المجلس هو رابع مجلس مسكوني انعقد في مدينة خلقدون في آسيا الصغرى، وتعتبر قراراته أساسًا للعقيدة النصرانية. ويعتبر هذا المجمع من أهم المجامع، إذ نجم عنه انشقاق أدى إلى ابتعاد الكنائس الشرقية (المصرية والأرمنية والسريانية) عن الاتفاق مع الكنيستين الرومانية والبيزنطية. (ويسمى البعض أتباع الكنيسة المصرية الأرثوذكس باللاخلقدونيين، والبعض بأسماء أخرى مثل الأقباط الأرثوذكس أو الأرثوذكس المصريين أو اليعاقبة أو المرقصيين).

---

[١٦٦] (المصدر: Gustav Brady/ Evidence of Christianity in Egypt during the Roman Period/ Paris١٩٤٠).

مؤدى ما سبق، يمكننا القول بأن الدعوة إلى الدين النصراني، لم ترتبط في بداياتها الأولى بلغة أهل مصر القديمة وحتى عام ٤٥١ ميلادية، كما لم ترتبط بشعب مصر باعتباره من الأمميين. وكان يعنى هذا بالنسبة للنصارى الجدد انغلاق دعوتهم على اليهود فقط وعلى من يتحدثون اللغة اليونانية. فكان لابد لنشر دعوتهم على نطاق أوسع وإمكان التبشير بها بين المصريين، اللجوء إلى النموذج اللغوي البروتوقبطى الذي اصطنعه المحتل الروماني لجعل الكتاب المقدس متاحا للمصريين بلغة قريبة من لهجاتهم المحلية. ذلك لأن النصارى الجدد وجدوا نفس الصعوبة التي وجدها المحتل الروماني والبيزنطي في تعلم اللغة المصرية القديمة، فبدأ منذ ذلك الوقت ارتباط جزء من تاريخ تطور تلك اللغة الوسيطة المصطنعة بنشاط الدعوة إلى الدين النصراني.

وقد ساعد المناخ الاجتماعي الذي كان يعيشه المصريون على تقبل تلك الدعوة، فقد كان المصريون يعيشون ظلمًا لا حدود له وقهرًا وفقرًا تحت الاحتلال الروماني والبيزنطي لم يعيشوه من قبل، فأنتج هذا المناخ الظالم الكريه فراغًا روحيًا جعلهم على استعداد لتقبل الدين الجديد إحياءً لعقيدتهم القديمة في البعث والحياة بعد الموت، كما أغراهم على تقبل الدين الجديد ما وجدوه أيضًا من تشابه في عقيدة الثالوث النصراني بالثالوث المصري الشهير أوزوريس وإيزيس وحورس.

وكان الصراع مستمرًا بين فرق النصارى الجدد في مدينة الإسكندرية من جهة، وبينهم وبين الوثنيين والجالية اليهودية وطائفة الأسينيين **Essenism**[١٦٧] الذين عُرفوا باسم "الانطوائيين" من جهة أخرى. فملأ هذا الصراع مدينة الإسكندرية في هذا الوقت بالعجب والغرائب وتناقضات العقائد والمذاهب للفرق الدينية الغامضة التي تستلهم عقيدتها من تعاليم موروثة عن آلهة اليونان وآلهة مصر القديمة وفلسفات أفلاطون وفيثاغورس، بحيث يمكن القول أن سكان مدينة الإسكندرية في هذا الوقت كانوا خليطًا غريبًا متصارعًا من مختلف الديانات والمذاهب، كان أغلبه من الغرباء على شعب مصر، واستمر هذا الوضع مشتعلاً إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الأول الدين النصراني عام ٣١٣ ميلادية فبدأ عصر جديد للتسامح الديني، انتهت عنده موجة الاضطهاد الديني للنصارى ولغيرهم في أنحاء الإمبراطورية، ثم ما لبثت أن تحولت مستعمرات الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك من اقطاعيات إلى أسقفيات ومطرانيات ومنها كانت الأسقفية المصرية **Diocese of Aegypten**، وأصبح الدين النصراني هو الدين الرسمي للإمبراطورية فبدأ عصر جديد لمدينة الإسكندرية.

ومع منتصف القرن الرابع الميلادي أصبحت الكنيسة المصرية أكثر تنظيمًا، وبدأ النصارى الجدد في تطوير النموذج اللغوي البروتوقبطى الذي اصطنعه المحتل الروماني والبيزنطي، بأن زاد نشاطهم في تسجيل اللهجات العامية المصرية على

---

[١٦٧] وهم جماعة من الجماعات اليهودية التي ازدهرت في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد. وكانت هذه الجماعة تكون إحدى المدارس الثلاث الرئيسية للفكر اليهودي في زمن المسيح (مع الفريسيين والصدوقيين).

اختلاف مناطقها بالأبجدية اليونانية للمساعدة في تنصير المصريين. إلى أن تم إعلان استقلال الكنيسة المصرية عن كنيسة القسطنطينية عام ٤٥١ ميلادية بعد احتدام الجدل والنزاع بين الكنيستين حول طبيعة المسيح في اجتماع المجلس الخلقدونى الذي أشرنا إليه من قبل، وكان من نتائج هذا النزاع أن ألغت كنيسة الإسكندرية استخدام اللغة اليونانية في طقوسها وشعائرها واستخدمت بدلاً منها اللغة البروتوقبطية، التي تم تطويرها بعد ذلك إلى ما يسمى باللغة القبطية. وكان من نتائج هذا الاجتماع أيضا هو ما حدث من انقسام لنصارى مصر إلى قسمين، قسم يعتقد في الثالوث المقدس بطبيعة واحدة Monophysitism إلَهيه للمسيح عليه السلام وأن مريم ـ عليها السلام ـ هي والدة المسيح الإلَه (طائفة المونوفيسين) ويتبع كنيسة الإسكندرية المستقلة، وقسم آخر يعتقد بأن للمسيح عليه السلام طبيعتان متحدتان Dyophysitism، إحداهما إلهية والأخرى إنسانية ويتمسك باللغة اليونانية كلغة لطقوسه الدينية، ويتبع البطاركة البيزنطيين (بيزنطة مدينة في تركيا، أنشأها الإمبراطور قسطنطين الأول مكان مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة لإمبراطوريته، والتي أصبحت بعد ذلك معروفة بإسم "استانبول" في عام ١٤٥٣م تحت الحكم العثماني).

وتقول دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ١١) أن القسم الآخر التابع للبطاركة البيزنطيين كانت له الغلبة والغالبية في مدينة الإسكندرية في ذلك الوقت، فبدأ عصر جديد من الاضطهاد مارسه هذا القسم بعنف على القسم الذي يعتقد في الثالوث المقدس ذي الطبيعة الواحدة الإلهية. وبلغ هذا الاضطهاد قمته أثناء حكم الإمبراطور جيستينيان (٥٢٧-٥٦٥م) Justinian الذي كان يعتقد بالطبيعتين، وكانت ثيودورا Theodora زوجته تشاركه الحكم الإمبراطوري حتى مماتها عام ٥٤٨ م، وتحولت من عقيدة الطبيعتين (عقيدة زوجها) إلى عقيدة الطبيعة الواحدة، وتظاهرت بحماية أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة المعتدلين والدفاع عنهم بغرض تمكين زوجها الإمبراطور بطريقة غير مباشرة من السيطرة على الفتنة والصراع الدموي بين أصحاب العقيدتين. وكانت ثيودورا تكن لمدينة الإسكندرية بغضًا مقيتًا إلى الدرجة التي أمرت فيها بإضرام الحرائق في أنحاء المدينة عدة مرات. كما كان يُعرف عنها قبل تحولها الظاهري تأييدها المطلق وتعصبها المتشدد للبطاركة البيزنطيين ضد فريق المونوفيسيتزم القائل بالطبيعة الواحدة للثالوث المقدس.

وفرض هذا الاضطهاد والتعنت ضد الفريق القائل بالطبيعة الواحدة الثلاثية العزلة عليه، مما جعله يلجأ إلى كتابة اللاهوت والطقوس الدينية بلغة مختلفة عن اللغة اليونانية، فكانت هي اللغة القبطية المصطنعة بعد تطويرها[١٦٨]، ونذكر لمجرد عرض الآراء في شأن نشأة اللغة القبطية أن المؤرخ توماس لامبدين Thomas O. Lambdin قد تجنب في كتابه بعنوان "مقدمة للصعيدية القبطية" Introduction

١٦٨ وكنت أري من وجهة نظر شخصية أن ذلك تم بدافع من الوطنية المصرية للتمييز بين الكنيسة القبطية وكنيسة الإسكندرية.

to Sahidic Coptic (الناشر: Mercer University Press ١٩٨٣) التعرض لتقرير أصل النشأة الأولى للغة القبطية وقال: " لا أحد يعرف على وجه الدقة هل تم استخدام الأبجدية اليونانية لكتابة اللهجات المصرية المحلية عن طريق المبشرين بالدين النصراني أولاً، أم أنهم أي المبشرين استغلوا حقيقة وجود هذا النظام في كتابة اللهجات المصرية فطوروه بما عُرف بعد ذلك باللغة القبطية لجعل الكتاب المقدس متاحا لدى المصريين. ولكنه عاد فأشار في كتابه إلى وجود بعض الأدلة على محاولات أولية ترجع للقرن الثاني الميلادي لنسخ بعض اللهجات المصرية بطريقة مختزلة باستخدام الأبجدية اليونانية، وأطلق مؤرخو اليونان والغرب على تلك المحاولات لفظ "البروتوقبطية".

ويقول المؤرخ الأثري جونسون في كتابه "النظام المنطوق للغة الديموطيقية" The Demotic Verbal System أنه لاحظ بعد فحصه لكثير من البرديات المكتوبة باللغة الديموطيقية، أن هناك فرقًا واضحًا وكبيرًا بين اللغة الديموطيقية وبين اللغة القبطية، فلم تكن اللغة القبطية نقلاً أو نسخًا للكتابات الديموطيقية بأبجدية يونانية، ولكنها كانت نسخًا مختزلاً لبعض ما ينطقه المصريون من لهجات مختلفة تأثرت كثيرًا بلهجات ولغات أجنبية انتقلت إليهم عبر التاريخ الاستعماري الطويل وكنتيجة لاختلاطهم المتكرر بموجات الهجرة السامية المختلفة. وقال:" إن العوامل الاجتماعية والاستعمارية ورغبة المحتل في تسخير المصريين هي التي خلقت الاحتياج لاصطناع تلك اللغة القبطية نظًرا لصعوبة تعلم اللغة الديموطيقية عليه وعلى الغرباء الجدد من النصارى، وأنه رغم اصطناع هذه اللغة الجديدة، إلا أن المصريين احتفظوا بلغتهم الديموطيقية وكانت هي لغة الكتابة عندهم، واستمرت كلغة منطوقة عند طبقة المحافظين وعند الطبقة البيروقراطية المصرية حتى الفتح العربي الإسلامي. ويستمر جونسون بالقول إن اللغة الديموطيقية احتفظت بنقائها وأصالتها إلى حد كبير في صعيد مصر، حيث لم يختلط أهله كثيرا بلغة وثقافة الغرباء والمحتلين، في حين أن لغة أهالي الوجه البحري الدارجة كان يغلب عليها كثرة استخدام الكلمات اليونانية".

ويقول الدكتور بولس عياد عياد وهو أستاذ في قسم دراسة المجتمعات البشرية بجامعة كولورادو: **"إن اللغة القبطية لم تُصنع لتكون لغة واحدة منطوقة للشعب المصري القديم. فقد اتضح من دراسة المخطوطات والنقوش القديمة أن اللغة القبطية كانت نَسخًا مختزلاً للهجتين رئيسيتين من لهجات الشعب المصري القديم مكتوبًا بالأبجدية اليونانية، الأولى هي اللهجة الصعيدية الدارجة Sahidic Dialect والثانية هي لهجة الوجه البحري الدارجة Boheiric Dialect. وكانت لهجة الوجه البحري هي اللهجة الدارجة لسكان مدينة الإسكندرية ومدن الدلتا ووادي النطرون. وتم بتلك اللهجة كتابة تراتيل وأناشيد الكنيسة المصرية التي مازالت تتردد حتى اليوم كطقوس في الكنيسة المصرية ماعدا ترتيلة hymn واحدة. أما لهجة أهالي الصعيد فقد انقسمت بعد ذلك في اللغة القبطية المصطنعة إلى لهجة صعيدية دارجة من مدينة**

البهنسة (بمحافظة بنى سويف الحالية) وحتى مدينة أسيوط، وإلى لهجة فيومية دارجة Faiyumic لأهالي الفيوم، وإلى لهجة أخميمية دارجة لأهالي أخميم، ثم حلت اللهجة الصعيدية الدارجة محل اللهجة الأخيرة بعد ذلك".

أي أنه يمكن القول في النهاية أن اللغة القبطية كانت نسخًا ومسخًا مختزلاً بالأبجدية اليونانية للهجتين دارجتين أساسيتين للشعب المصري القديم، وأن مدينة الإسكندرية قد فرضت بأغلبية سكانها الناطقين باللغة اليونانية على آباء الكنيسة المصرية ولوقت طويل أن يسجلوا باللغة اليونانية كل ما كتبوه عن اللاهوت وأمور الدين، وأن يمارسوا طقوسهم كذلك باللغة اليونانية، إلى أن تم نسخ كل ذلك إلى اللهجات المصرية الدارجة بما يسمى باللغة القبطية بأبجديتها اليونانية مع إضافة سبعة أحرف صوتية من اللغة الديموطيقية.

"أي أن اللغة القبطية وبهذا الشكل الذي أوضحناه من قبل، قد تم اصطناعها خصيصا في البداية لتحقيق مصالح المحتل الروماني وأغراضه الاستعمارية، ثم استغلها بعد ذلك المبشرون بالدين الجديد وطوروها كوسيلة اتصال بالشعب المصري تحقيقا لمصلحتهم في نشر الدعوة. بما يعنى أن هذه اللغة لم تصطنع خصيصًا من أجل مصر أو من أجل الحفاظ على تراثها القديم أو على ثقافة وحضارة أهلها منذ فجر التاريخ، ولم تنشأ تلك اللغة امتدادًا أو تطورًا طبيعيًا للغة مصر القديمة المكتوبة على أوراق البردي والمحفورة على المسلات وكتل الحجارة. وكان دليلنا على ذلك ما سبق الإشارة إليه بأن المصريين قد انتظروا زمنًا طويلاً حتى تم اكتشاف حجر رشيد عام ١٧٩٩ م عن طريق الصدفة البحتة، ثم جاء شامبليون عام ١٨٢٢ م وفك رموز اللغة المصرية القديمة، فكان هو صاحب الفضل في كشف تاريخ الشعب المصري القديم وثقافته وحضارته"[١٦٩].

الاحتكام الى علم اللغة:

أوردنا فيما سبق معظم الآراء عن هذه اللغة المسماة بالقبطية ورأينا أننا أمام فريقين: فريق يري أن اللغة القبطية هي مرحلة التطور الأخيرة للخط الهيروغليفي حيث قام أهل البلد من المصريين بابتكاره لتسهيل المعاملات مع المحتل اليوناني وليحل محل الخط الديموطيقي، وليساير الديانة الجديدة ويعبر عن مصطلحاتها الروحية والدينية، وفريق آخر يرى آن اللغة القبطية قد فرضت من المحتل اليوناني لتحل محل الخطوط المصرية المقدسة، وأنه لا صلة بين هذه اللغة المصطنعة واللغة الأم التي كان يتحدث بها المصريون وكل فريق له أسباب قومية أحيانا ودينية أحيانا اخري بل وأخيرًا أسباب استعمارية.

---

[١٦٩] " ثم جاء شامبليون عام ١٨٢٢ م وفك رموز اللغة المصرية القديمة، فكان هو صاحب الفضل في كشف تاريخ الشعب المصري القديم وثقافته وحضارته "ولنا عند هذه المقولة وقفة رغم تأييدنا لبعض ما جاء فيها.

لكننا نقول أنه لا مجال للشك في أن ذلك كان الفصل الأخير من مراحل التخلي التدريجي بين المصريين القدماء وبين لغتهم الام التي ظلت لسانهم لآلاف السنين لم يستطع أن يفرض عليهم غيرها لا احتلال الهكسوس ولا الفرس ولا حتى الآشوريين ولا حتى اليونانيون أو الإغريق، وكل ما قدمناه سابقًا كان مقدمة لإجابة هذا السؤال كيف اندثرت اللغة المصرية القديمة بخطوطها الثلاث وهل الخط الرابع والأخير هو امتداد لها!

نعم يمكننا القول الآن بتخلي المصريين عن لسانهم وكتاباتهم وديانتهم التي وصمها بالوثنية سقط كل هؤلاء ونشأت لغة جديدة وخط جديد خليط من اللهجة المصرية القديمة واللغة اليونانية التبشيرية لتواكب الديانة الجديدة. ويؤكد هذا الكلام دكتور باسم سمير الشرقاوي في كتابه "تاريخ مصر القديم من الاسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص" ص ٣١٦ فيقول: " **ومع أن المحاولات الأولى للكتابة بالحروف القبطية، وكذلك الوثائق المعروفة باسم النصوص القبطية القديمة ((Coptic، قد تمت كلها بمعرفة الجماعات الوثنية the Paganism بمصر (خاصة خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين)؛ إلا أن الفضل في تثبيت "الألفباء" القبطية في الوضع الذي تعرف به حاليًا وتطبيع نظام هجاء الكلمات، وتطويع القواعد والأساليب، لابد وأن يعزى إلى الكنيسة المسيحية في مصر، كجزء من برنامجها التبشيري في حبرية (فترة رئاسة) البطريرك الثاني عشر، البابا "ديميتر(يوس)" السكندري-Demetrius El-Skandari (-١٨٩ - ٢٣٢م)، وخلفائه.**"

ولإثبات ذلك لجأنا إلى علم اللغات (فالتكوين الأساسي للغة هو الكلمة وليس الحرف الأبجدي) فالحروف - الأبجدية ظهرت ضمن أطوار الكتابة وذلك بجعل لكل صوت صورة وشكلاً خاصًا به، أما الكلمة فهي قائمة ما دام الإنسان، فالإنسان منذ أن خُلق وهو يتكلم ويتحدث دون أن يعرف الحرف الأبجدي ولكن ابتدع ذلك وصنع تلك الحروف فقد قام بتقسيم الكلمة إلى مقاطع صوتية وأتخذ لكل صوت منها شكلًا خاصًا به واسم له مثال ذلك " أ، ب، ت، ث" "ABCD" وسمى هذه الحروف (الف - باء - تاء - ثاء) (ايه بى سى دي) وطبعا كل حرف يعبر عن صوت يدل عليه في القراءة ويعبر عنه في الكتابة. وهذا الشكل الأبجدي ليس القاعدة لأن اللفظ الصوتي هو القاعدة وهذا يحدث في تناقل وترجمة الأسماء مثل "أسوان Aswan"، بمعنى أنه يمكن استخدام أي أبجدية للتعبير عن اللغة وإدراك المعنى منها لكن العكس لا يمكن حدوثه بمعنى أنه لا يجوز قراءة كلمة مكتوبة بلغة ما إلا بذات اللفظ في هذه اللغة فكلمة " Night " لا يجوز نطقها "ليل"، ولو أن المعنى واحد ذلك لكون الرسم أو الكتابة مقصود به صوت واحد وهو "نايت" ولو يعنى المعنى المراد فهو مختص بالصوت فقط وعلى التفضيل يمكننا كتابة "ليل" باستخدام الأبجدية الإنجليزية " Lail"، أو باستخدام أي أبجدية نريد أو حتى استحداث أبجدية أخرى لكن الشيء الغير مسموح به هو استبدال الألفاظ لأنه إذا ما حدث ذلك يترتب عليه استبدال اللغة ككل.)[١٧٠].

[١٧٠] حمدي عبد الرازق - العقيدة والبرهان في التاريخ -

وعن هذه النقطة تحديدًا "استبدال الالفاظ" تقول نعيمة محمد ماهر[١٧١] في رسالتها المقدمة لنيل درجة الماجستير في الآثار المصرية بكلية الآثار جامعة الفيوم بعنوان: "الأدوات[١٧٢] اليونانية في اللغة القبطية" بعد أن أوضحت لنا لماذا فرضت الحروف اليونانية نفسها على الخط القبطي: " **من المعروف أن حروف وكلمات اللغة اليونانية تفرض نفسها بصورة لا يمكن تجاهلها في اللغة القبطية، حيث تم تطوير اللغة القبطية من خلال تبني الأبجدية اليونانية في القرون الأولى لقبل الميلاد** " ثم بدأت تحدثنا عن التداخل بين اللغتين فتقول: "**حيث تميل اللغات بشكل كبير إلى الاستعارة من اللغات المجاورة لها واللغة القبطية بالمثل استعارت الكثير من كلمات اللغة اليونانية، وقد قدر نسبة الكلمات اليونانية في اللغة القبطية بحوالي ٤٠%، وقد يكون البعض دخل اللغة في مرحلة الترجمة، ولكن بعد ذلك كان ظهورهم في النص ثنائي اللغة مقبولاً؛ وعلى هذا النحو اتخذت كظاهرة توضح التأثير الهيكلي من اليونانية إلى القبطية، ويكون للغة اليونانية دورًا هامًا في إلقاء الضوء على اللغة القبطية.**

وتزداد عدد المفردات المستعارة (أسماء أو أفعال أو حروف) في النصوص القبطية المترجمة عن اليونانية عما هو في النصوص الأخرى بسبب التداخل الكبير بين اليونانية والقبطية في المعاملات اليومية للمصريين، حتى إنه، يصعب في بعض الأحيان تحديد النص إذا كان قبطيًا أو يونانيًا، مثل: الحسابات والقوائم والإيصالات وبعض النصوص القصيرة، كذلك تحتوي على قدر كبير من الأدوات للربط بين الجمل مأخوذ عن اللغة اليونانية مثل: أدوات العطف والفصل وأدوات الاستدراك والشرط والتأكيد.. وغيرها من الأدوات، حيث لعبت هذه الأدوات دورا في تحقيق الترابط والتوازن بين الجمل وبعضها، أو بين عناصر الجملة الواحدة، وذلك مع ضمان الاختلاف في المعنى والاستخدام والموقع في الجملة."

---

[١٧١] تحت إشراف الأستاذ الدكتور ماهر أحمد عيسى: أستاذ اللغة المصرية القديمة بكلبة الآثار جامعة الفيوم، مشرفًا ورئيساً، الأستاذ الدكتور المساعد مجدي علي إسماعيل: أستاذ اللغة اليونانية وعلم البردي والنقوش المساعد بكلية الآداب، جامعة المنصورة، مشرفًا مشاركًا

[١٧٢] "الأدوات أو المفردات أو حروف المعاني، هي مصطلحات عربية تضم حروفًا وأفعالاً وأسماء جميعها يؤدي وظيفة دلالية أو نحوية، وأكثر هذه الأدوات لا يُفهم معناها إلا من خلال السياق اللغوي العام". تعد الأدوات عناصر أو وسائل نحوية ليس لها معنى مستقل خاص بها، لأنها ليست شيئًا أكثر من وسائل، وظيفتها التعبير عن العلاقات الداخلية بين أجزاء الجملة، حيث إن الأدوات جميعها لا تدل على معان معجمية، ولكنها تدل على معنى وظيفي عام هو التعليق، ثم تختص كل طائفة منها تحت هذا العنوان العام بوظيفة خاصة، كالنفي والتأكيد والشرط، حيث تكون الأداة "هي العنصر الرابط بين أجزاء الجملة كلها"، وهي في وفائها بهذا المعنى ذات افتقار متأصل إلى الضمائم، إذ لا يكتمل معناها إلا بها، فلا يفيد حرف الجر إلا مع المجرور، ولا العطف إلا مع المعطوف، ولا تحذف الجملة وتبقى الأداة بعدها إلا مع القرينة التي يمكن بها فهم المراد، فتحل القرينة في إيضاح معنى الأداة محل الجملة، ولا بيئة للأدوات خارج السياق، فمعنى الأداة هو استعمالها، ومن هنا النحاة يعددون المعاني المختلفة للأداة الواحدة، حيث يختلف المعنى باختلاف التركيب الذي وجدت فيه الأداة ويرتبط معنى الأداة بالسياق الذي ترد فيه".

وبعد أن عرضت العديد من الأمثلة عن بعض نصوص العهد الجديد اليوناني خلصت إلى نتيجة مفادها " **يلخص البحث بعد الدراسة والتحليل والمقارنة والتطبيق على نصوص العهد الجديد اليوناني، يظهر بوضوح أن اللغة القبطية هي جزء لا يتجزأ من اللغة المصرية القديمة وامتداد لها، وإن كان هذا الامتداد قد فرض تغيرات قواعدية إلا أنه لم يفصل كلتيهما عن الأخرى، بل ثبت مدى مرونة اللغة المصرية.**

استخدام الأدوات اليونانية كان واضحًا في اللغة القبطية، وظيفة هذه الأدوات اليونانية القبطية قد تتغير، ففي بعض الأحيان توظف في الجملة على أنها رابطة وفي جملة أخرى على أنها ظرف.

مدى مرونة الأدوات اليونانية في الجمع بينها وبين الأدوات ذات الأصل المصري دون التأثر بها أو التغير في معناها أو في موقعها الأصلي، وبما أن النص القبطي مترجم عن النص اليوناني الذي لا يحتوي على أدوات ذات أصل مصري فباستخدامه هذه الأدوات جنب الأداة اليونانية يدل على أن المصري القديم يفضل استخدام أدواته للربط جنب الأداة اليونانية التي تتخذ في هذه الحالة من الترجمة كشكل فقط لوجودها في النص الأصلي.

وهي نتيجة أراها غريبة فإذا كانت المصرية القديمة بخطها المصري المزعوم تمتلك كل هذه المرونة فلماذا لم تحتفظ بأبجديتها وألفاظها وتضيف إليها الألفاظ الجديدة الخاصة بالمصطلحات التبشيرية التي تحتاجها الديانة المسيحية؟ وسأقتبس من بحث نعمة محمد ماهر قولها "**حيث تميل اللغات بشكل كبير إلى الاستعارة من اللغات المجاورة لها**"

وهكذا نرى أن اللغة هي الصوت أو الألفاظ الصوتية فقط أما الكتابة فهي التعبير عن هذه الأصوات والألفاظ ليس إلا.

(كما أن اللغة سجينة أصواتها ومهما حدث من احتكاك وتفاعل فإن اللغة ستظل في مدار هذه الأصوات ولم تخرج عنها ولن تخرج بمعنى أن هذه الأصوات هي التي تتحكم في تكوين وتشكيل الألفاظ والكلمات في اللغة ولابد من إدراك هذه الأصوات ومعرفتها معرفة تامة لكي يحدث إضافة صوت ليس فيها أو نسيان صوت أصيل فيها)[١٧٣].

فهل التزمت اللغة القبطية باعتبارها الطور الأخير للكتابة المصرية بالقواعد السابقة ألم يتم إزالة حروف كالحاء والعين والغين من اللغة المصرية القديمة؟ بل فرض "**تغيرات قواعدية**" كما قالت بذلك نعمة محمد ماهر كما سأترك لك عزيزي القارئ أن تعود لجدول أنطون ذكري ولك الحكم.

وهذه الحالة من التخلي لم تحدث في مصر المحروسة فقط فالسوريون الأقدمون تحولوا من الآرامين إلى السريان بعد اعتناقهم للدين المسيحي، لأن الاسم الشعبي القديم صار عندهم عيبًا يدل على الكفر وتحولت اللغة الآرامية إلى اللغة السريانية[١٧٤].

---

١٧٣ حمدي عبد الرازق – المرجع السابق

١٧٤ أنس أحمد الشامي لحياة الثقافية الأدبية في سورية في العصر الروماني - بحث لنيل درجة الماجستير في تاريخ الشرق القديم -

ولعل مراد كامل في كتابه "**حضارة مصر في العصر القبطي**" وبعد حديثه عن اللهجات القبطية يقول في ص ٦٨ وما بعدها: "ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية ما يأتي:

١- أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية.
٢- دخلت عليها مفردات وتعبيرات يونانية، وبخاصة في العصر المسيحي.
٣- أبدلت بعض الحروف في الكلمات وبخاصة الحروف السائلة "ل م ن ر"، كأن يقال "لس"، بدلا من " نس"، أي لسان، كما دخـــل القلب على بعض الكلمات مثل "أتبي"، بدلا من "بت"، أي سماء.
٤- كتبت القبطية بالحروف الصامتة والمتحركة ولم يعرف الخط القديم إلا الحروف الصامتة.
٥- حملت لذا القبطية كلمات لم نعثر عليها في المصرية القديمة.
٦- وأهملت القبطية كلمات. مصرية قديمة."[١٧٥]

تقول أنا رويز في كتابها (روح مصر القديمة) "وفيما بين سنة ١٠٠وسنة ٦٤٠ الميلاديتين، ظهرت لغة جديدة في مصر. تطورت بوجه خاص واكتسبت شعبية حوالي سنة ٣٠٠ ميلادية. وتكونت هذه اللغة الجديدة من الأبجدية اليونانية، مع ست علامات إضافية، تمثل الأصوات المصرية المشتقة من الديموطيقية، غابت عن الأبجدية اليونانية، وعرفت هذه اللغة باسم (القبطية)"[١٧٦].

ويقول أرنست دوبلهوفر (Ernest Doblhofer) في كتابه (رموز ومعجزات): " والكتابة القبطية التي تمثل صورة من صور اليونانية قد استعارت، كما هو معروف بالنسبة لنا حاليًا بعض رموز الديموطيقية"

أما سليمان عبدالرحمن محمد الذييب في كتابه "الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية" فيقول ردًا على أستاذنا عبدالحليم نور الدين في تبريره لتحول المصريين إلى القبطية وترك الديموطيقية: " **أشار نور الدين، ١٩٩٨م، ص١١، إلى أن كتابة المصري بحروف يونانية بقوله: "إن المصري اضطر لأسباب عملية تتمثل في وجود اليونانيين الغزاة لأن يبحث عن خط يسهل له وسيلة التفاهم معهم، فاختار الأبجدية اليونانية..."، لكنني أرى أن السبب لا يعود إلى ما ذكر نور الدين أعلاه، وإنما يكمن الأمر بكل بساطة إلى القوة الثقافية التي كانت تتمتع بها اليونانية آنذاك، فضلاً عن هيمنتها على نواحي الحياة العامة، إذ لو كان مقصود المصري إيجاد وسيلة يتفاهم بها مع اليوناني الحاكم لاستخدم اليونانية دون الحاجة لهذا الخلط، تماما كما هو حادث في يومنا الحاضر من كثرة المفردات والألفاظ والمصطلحات التي دخلت على لغات الشعوب المختلفة ثقافيًا وحضاريًا، مثل العربية الحديثة التي تأثرت كثيرًا باللغات الأجنبية القوية، نحو الإنجليزية والفرنسية. ورغم أن البعض قد يأخذ برأي نور الدين**

---

[١٧٥] مراد كامل "حضارة مصر في العصر القبطي" ص ٦٨

[١٧٦] أنا رويز - روح مصر القديمة- ص ٢٨٦

إذا أخذ في الحسبان اللهجة المغاربية المحكية (تونس والجزائر والمغرب)، التي يصعب اعتبارها عربية خالصة؛ فالتأثير اللغوي الفرنسي والإسباني فيها لا يمكن إغفاله، لكننا نرى أن الحالين مختلفان، إذ إنها في الأولى لها علاقة بالخط والكتابة، في حين أنها في الثانية مرتبطة باللغة."

ويؤيد هذا الرأي عبده صموئيل فارس في كتابه **"إسهامات الأقباط في الحضارة الإنسانية"**[١٧٧] **حيث يقول: "تبنت اللغة القبطية الحروف اليونانية دون غيرها في كتابة القبطية لعدة أسباب: هي لأنها لغة المحتل ـ كانت مصر تحت الحكم الإغريقي ــ وحتى يمكن التفاهم معه، جذور اللغة اليونانية القديمة والقبطية متقاربة، استقبلت مصر مار مرقص البشير وكانت لغته الأصلية اليونانية وترك إنجيله باللغة اليونانية، اهتمام بطليموس (٣٣٢ ق. م) بنشر اللغة اليونانية والثقافة الهيلينية من أجل سهولة فرض سيطرته على البلد، كانت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في الدواوين والمؤسسات الإدارية مثل مدرسة الإسكندرية والمكتبة والمتحف، وكانت اللغة اليونانية شائعة في الإمبراطورية الشرقية.**

وإن كان سليمان عبد الرحمن محمد الذييب قد جعل ما لليونانية من قوة ثقافية دفعت المصريين دفعًا للتحدث بلغة مصطنعة غريبة عنهم فإنني أختلف معه بدوري، فإن الأمية التي أصابت المصريين كانت المحرك الأساسي في هذا التحول.

انتشار الأمية أم تجريف اللغة الوطنية:

كان لزامًا أن أعود إلى مقولة المفتش في دار المعارف المصرية[١٧٨] محمود درويش في كتابه المعنون باسم "**صور من حضارة مصر القديمة** " الذي حدثنا فيه عن أسباب تدهور اللغة المصرية القديمة حيث عدد هذه الأسباب فيما يلي:

انحلال اللغة المصرية: حلت حروف اللغة اليونانية في هذا العهد محل الكتابة المصرية القديمة واستعملت تلك الحروف في كتابة نصوص اللغة القبطية وأخذ المصريون ينسون كل شيء عن كتاباتهم القديمة.

إهمال تعليم الشعب: شجع الرومان إنشاء المنتديات التي تهتم بالألعاب الرياضية والآداب اليونانية، وكان لا يدخلها إلا أبناء الطبقة الأرستقراطية الغنية، أما الشعب المصري فكان محرومًا من الثروة والعلم معًا.

"إذا بدأنا حديثنا عن التعليم في الريف المصري تحت حكم الرومان لوجدنا أن الأمية كانت متفشية بين كثير من المزارعين والحرفيين من المصريين، والدليل على ذلك أننا نجد في الوثائق البردية المنشورة ما يزيد على ستمائة وثيقة يقوم فيها شخص أو كاتب متخصص بكتابة الوثيقة نيابة عن الطرف الذي يهمه الأمر، لأن الأخير حسب

---

[١٧٧] ا عبده صموئيل فارس في كتابه "إسهامات الأقباط في الحضارة الإنسانية - لقاهرة: نشره بواسطة صفصفاه (٢٠١٥)، ١٨

[١٧٨] وزارة التربية والتعليم حاليًا

قول الكاتب لا يعرف القراءة. ومن بين أصحاب الوثائق الستمائة المذكورة نجد ثلاثة فقط من سكان عواصم الأقاليم بينما البقية من الأغلبية الساحقة من أهل القرى. وقد كان هؤلاء الأميون من أهل القرى من مهن مختلفة فمنهم بالإضافة إلى المزارعين - كهنة ورؤساء قرى ومديري ضياع ومحاربون قدماء سرحوا من الجيش ولم تفلح ست وعشرون سنة من الخدمة في الجيش في التغلب على أميتهم. ومن المفارقات العجيبة التي كشفت عنها الوثائق البردية أن كاتب قرية وصلنا أرشيف كامل من أوراقه يصل عدد وثائقه إلى ١٢٧ وثيقة ونشره عالمان ألماني وأمريكي هما **Hagadorn, Youtie** عام ١٩٦٩ كان لا يعرف القراءة والكتابة، وهذا الكاتب المقصود هو بيتاوس **Petaus** صاحب هذا الأرشيف السالف الذكر، والذي كتبت عنه مقالة بعنوان (الكاتب الذي لم يكن يعرف الكتابة **Le scribe qui ne savait pas crire**، في مجلة **Chronique d' Egypte** (العدد ٤١ سنة ١٩٩٩، ص ١٢٧-١٩٣). وحين نتحدث عن هؤلاء الأميين في تلك الوثائق فإن الأمية المقصودة لنا لم تكن في كل الأحوال مقصودة على إطلاقها بمعنى أنه لا يعرف القراءة والكتابة على الإطلاق، بل المقصود بالأمية هنا هو عدم معرفة اللغة اليونانية (اللغة الرسمية لدواوين الحكومة)، ولكن من الممكن أن يكون هؤلاء الأشخاص الذين نعتوا بتلك الصفة – أو بعضا منهم يعرفون الكتابة المصرية المحلية وخصوصا الكهنة من بينهم. ومما يؤكد ذلك الترجيح - في بعض الحالات على الأقل- أنه ذكر صراحة في عقد بيع منزل من عام ٥٥ م. حيث يذكر أحد الموقعين ما يلي " كتب فلان نيابة عنه لأنه يجهل الكتابة اليونانية ولكنه يكتب بالكتابة المصرية"!

وهناك بعض الأشخاص يذكرون في الوثائق على أنهم "يكتبون ببطء بمعنى أنهم يستطيعون بالكاد أن ينقشوا توقيعهم وليس أكثر من ذلك في تقليد رديء للحروف اليونانية، ومع كل ذلك يمكن أن نفترض أنه كان هناك قرويون على مستوى أفضل من ذلك وأن بعضهم كان يستطيع أن يقرأ الأدب الإغريقي ويقدره - وهو افتراض، تؤكده بعض شذرات من أعمال الكتاب الإغريق التي عثر عليها في أطلال بعض القرى. وذلك العدد الصغير من أثرياء القرويين الذين كانوا يسعون لأن يعتلوا بأقدامهم سلم الارتقاء إلى وضع أسمى في الحياة الاجتماعية كانوا يميلون إلى تقليد حياة الطبقة الأرقى من سكان عواصم الأقاليم مما كان يدفعهم إلى تعليم أولادهم التعلم الإغريقي."لقد كان الجو العام الذي يسود القرى المصرية في العصر الروماني هو جو الأمية وأن القلة المثقفة كان يحيط بها خضم من الأمية. ومنذ العصر الفرعوني كانت معرفة الكتابة حكرًا على الكتبة تقريبًا، وهي فئة تحظى باحترام وتقدير عميق وكانوا من الكتبة المحترفين ذوي المهارة العالية، وقد استمر هذا الاتجاه التقليدي في القرى المصرية حتى العصر الروماني بل وحتى بعده، وينص في بعض العقود على أن معظم عقود وأوراق القرويين كان يكتبها الكتبة وفي الشوارع، وكان المستوى التعليمي لهؤلاء الكتبة يتفاوت من شخص (كاتب) لأخر ولكن أغلبهم يعطينا الانطباع

بأنهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة فقط ولم يكونوا على درجة عالية من الثقافة. فقد كان هؤلاء الكتبة يصوغون في الغالب صيغا نمطية مكررة تتكرر في كثير من العقود بل وحتى ـ وهو أمر يبعث على الدهشة ـ في الخطابات الشخصية."[١٧٩]

إذن فانت أُمي إذا كنت تجهل لغة المحتل رغم كونك كاتبًا أو كاهنًا بلغتك القومية "الهيروغليفية أو الديموطيقية" وحتى تترقى وتتصل إلى المراتب العليا في الدولة كان لزامًا عليك أن تتعلم لغة المحتل!

يقول هـ. آيدرس بل[١٨٠] في كتابه "مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح الاسلامي" **"وبالرغم من انتشار الأمية، وخاصة بين النساء، فإن التعليم لم يكن مقصورًا بأي حال على الصفوة من الأثرياء، فقد أدركت قيمته وسعت في طلبه تلك الطبقة المتوسطة التي بذل الرومان قصارى جهدهم في سبيل بنائها. كان التعليم يبدأ بالقراءة والكتابة، أولاً الحروف الأبجدية، فالمقاطع المكونة من حرفين، فالمكونة من ثلاثة، ثم المكونة من أكثر من ذلك، وبعدئذ الكلمات الكاملة التي تكتب عادة مقطعًا مقطعًا"**.

أما مصطفى العبادي في كتابه "مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي" فيقول:

" ما من شك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للبلاد منذ بداية العصر البطلمي، ولكن لغة هذا العصر كانت لغة يونانية متطورة بحكم اختلاطها باللهجات واللغات المحيطة المختلفة. فهذه اللغة كانت لغة الحديث بين الإغريق وسائر الجاليات الاجنبية التي تأغرقت تمامًا في هذا العصر وبها كانت تصدر الأوامر الملكية والقوانين العامة. وكانت فوق ذلك لغة الثقافة والفكر، كتب بها الكتاب والشعراء.

وقد أقر الرومان هذا الوضع كما هو، وبقيت اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية تصدر بها كافة القرارات والقوانين والأوامر، حتى بيانات الإمبراطور وخطاباته التي كانت تكتب أصلاً باللاتينية كانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها في الإسكندرية. ولهذا فإن عدد الكتابات اللاتينية من مصر في العصر الروماني قليل جدًا ويكاد يقتصر على شئون الجيش الروماني. أما المصريون فكان على كثير منهم أن يتقن اللغة اليونانية حتى يستطيع أن يتولى الأعمال الإدارية في الحكومة، ولكن أكثرهم في القرى والريف استمر يتحدث في الحياة اليومية باللغة المصرية التي كان التعبير الكتابي لها الخط الديموطيقي الذي استخدمت فيه حروف منحدرة من الحروف الهيروغليفية والتي لم يكن بها حروف متحركة ما يقيد حرية اللغة ويمنعها من تقبل الألفاظ الجديدة فظلت جامدة لا تساير التطور. لهذا كانت الديموطيقية أمرًا عسيرًا حتى على المصرين"

وتقول آمال محمد الروبي في كتابها " مظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعيًا واقتصاديًا وإداريًا" ص ٤٧ وما بعدها: **"ولم يقتصر التعليم اليوناني على الأسر اليونانية الثرية فحسب بل امتد ليشمل كل من أدرك قيمته وأهميته في المجتمع. أما الغالبية العظمى من المصريين فلم يكن لهم حاجة إليه لذلك كانت الأمية فيهم**

[١٧٩] محمد السيد محمد عبد الغني - لمحات من تاريخ مصر تحت الحكم الروماني – ص ٢٦٢،٢٦١،٢٦٠

[١٨٠] أستاذ شرف علم البردي بجامعة أكسفورد

متفشية وبينهم منتشرة، وكان الحقل هو مدرسة الطفل الأولى وجامعته الأخيرة وليس من هذا أن اللغة والثقافة المصرية الفرعونية قد أسدل عليها الستار ولكنها كانت كالنبع تحت القشرة اليونانية فلم يستطع الاحتلال اليوناني أو الروماني أن يغير من لغة المصريين وخاصة أهل الريف منهم فظلت كما هي وكُتِبَت هذه اللغة المصرية بالخط الديموطيقي الذي استحدثت فيه حروف منحدرة من حروف الكتابة الهيروغليفية. إلا أن هذه الكتابة كانت في طريقها إلى التجمد بسبب خلوها من الحروف المتحركة"

رأينا كيف حدثنا هـ. آيدرس بل عن التعليم بالنسبة للجالية المحتلة لمصر ولم يتطرق للتعليم بالنسبة للشعب المغلوب على أمره ولا إلى اللغة التي كان يتحدث بها وما موقفهم من الكتابة والقراءة وربما تدارك مصطفي العبادي ذلك ووجد أن اللغة المصرية لغة جامدة فلا تستطيع أن تساير حداثة وطلاقة اللغة اليونانية لذلك استعملها المصريون وتعلموها للتوظيف وللتثقيف ولأنها سهلة التعلم وليست عسيرة كما هو شأن الخط الديموطيقي ولا أعلم كيف للغة عاشت لما يربو على أربعة آلاف عام أن تتسم بالجمود وكيف تحدث بها أهلها وحدثوا بها غيرهم من الأمم والشعوب إذا كانت تتصف بهذا الجمود المزعوم؟!

أما آمال محمد الروبي فإنها ترى أمية فئة كبيرة جدًا من الشعب لصعوبة الخط الديموطيقي الذي يخلو من الحروف المتحركة والغريب أنها استخدمت مفردة "استحدثت" عند توضيحها لأصل الخط الديموطيقي ألا وهو الخط الهيروغليفي فكيف تقوم اللغة بتحديث نفسها وفي ذات الوقت تتسم بالجمود؟

ورغم أنها ترى أن الفصول التعليمية كانت منتشرة للمحتل ورعيته بلغته وكان ذلك ليس قاصرًا على اليونان فقط وإنما امتد ليشمل (كل من أدرك قيمته وأهميته في المجتمع!) أما الفصول التعليمية للمصريين لتعلم لغتهم الأم فكانت الحقول دون أن تشير من قريب أو بعيد هي وغيرها أن هذا وأد للغة وهدم لها.

لم يحدثنا أي من هؤلاء المتخصصين في مجالهم عن الحرب الدروس التي شنها المحتل بداية من البطالمة المتأغرقين ونهاية باليونانيين لإزاحة اللسان المصري واستبداله بلسان أجنبي لا يألفه الشعب ولا يعلم مفرداته.

فعندما احتل البطالمة مصر، اتخذوا إجراءات أزاحت اللغة المصرية عن عرشها كلغة رسمية للبلاد لأول مرة في تاريخها، فأعلنوا اليونانية لغة رسمية للمعاملات، وهي لغة العلم في المعاهد.

وساهم الفرق بين اللغتين، وقلة المصريين العالمين باليونانية في الفصل الطويل بين معظم المصريين والأجانب طوال الاحتلالين اليوناني والروماني، أما المصريون الذين تعلموا اليونانية فهم من يلحقون بأعمال حكومية، أو يعملون في خدمات بالمزارع والتجارة، أو المجموعة النادرة التي شقت لها طريقا في الإسكندرية لما بدأ الاحتلال اليوناني يشيخ ولكن ظلت على كل حال اللغة المصرية هي لغة المصريين في حياتهم،

وفي نفس الوقت، فرغم اعتبار اليونانية هي اللغة الرسمية، إلا أن الحكومة تصدر المراسيم الهامة باللغتين المصرية واليونانية مثلما رأينا على حجر رشيد الذي يعود لذلك الزمن.
وبلا شك أن الأمية ــ فيما يخص الجهل بكتابة وقراءة اللغة المصرية ــ زادت في زمن الاحتلال اليوناني، ففيما سبق كان المصريون أو حتى المستمصرين الناطقين باللغة المصرية هم من يتولون الوظائف الحكومية التي تتطلب القراءة والكتابة باللغة المصرية، أما في الاحتلال اليوناني حل الإغريق محل المصريين في معظم الوظائف، وحتى المصري الذي يحصل على وظيفة يضطر للكتابة باليونانية.
وفيما يخص الثقافة عمومًا، تحولت دولة الاحتلال البطلمي لمركز إشعاع بفضل مكتبة الإسكندرية التي جمعت لها أكبر وأندر عدد من الكتب في العالم، وأصبحت الإسكندرية محط أنظار كل مطالب علم على مستوى رفيع، بعد أن كانت تحظى بهذه المكانة منف وطيبة وأون في أزمنة الحكم المصري.
ولكن على ما في مكتبة الإسكندرية من شهرة في تطوير العلوم، إلا أنها كانت نكبة ثقافية من ناحية أخرى بالنسبة لحضارة مصر، لأنه يعتقد أن الإغريق جمعوا وثائقَ وكتبًا مصرية هامة مما تحتفظ بها المعابد والمنشآت الرسمية من أنحاء مصر، وضموها إلى مكتبة الإسكندرية لاستكشاف أسرار مصر ولترجمتها ونقلها إلى اليونانية، فأبعدوها عن يد المصريين في المدن البعيدة عن الإسكندرية، وقل انتفاع المصريين بها، وقلت قدرتهم على تطويرها، فيما كانت مشاعًا لأجناس الأرض بالإسكندرية.
وهذه الثروة الكبيرة احترقت في حريق مكتبة الإسكندرية في عصر كليوباترا، وهو ما ضيع الأصول المصرية في الكثير من العلوم والفنون التي تم نسبتها لحضارات أخرى بعد ذلك، وبهذا يصح القول إن مكتبة الإسكندرية لم تكن مكسبًا حقيقيًا إلا للإغريق والأجانب"[١٨١]

وأخيرًا!

يقول المفكر المصري سلامة موسى أنه تعرف على المفكر المصري كامل غبريال باشا سنة ١٩٣٥ الذي درس اللغة القبطية واللغة المصرية القديمة. وكان يشجعني على دراستهما "ومازلتُ أذكر الأثر النفسي في صديقي كامل غبريال باشا، فإنه لتعلقه بلغة المصريين القدماء صدّ عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية طردتْ الديانة المصرية القومية. وكان كثيرًا ما يعقد المُقارنات بين عقائد الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)

[١٨١] افتكار البنداري ــ المرجع السابق ــ ص ١٧٥ وما بعدها

وبين عقائد المصريين القدماء، ليقنعني بأفضلية الثانية على الأولى من حيث الأخلاق السامية والقيم البشرية العالية" [١٨٢]

أفول القبطية:

إذا كنا في الفقرات السابقة قد أوضحنا أن القبطية لغة دخيلة فرضها المستعمر اليوناني على المصريين ليبشرهم بالدين الجديد – المسيحية - وإن احتفظ في نفس الوقت باللغة اليونانية كلغة رسمية لمصر المحتلة.

وتطرقنا إلى أن مسيحيي مصر قد استخدموا هذه اللغة الدخيلة للتعبير عن قوميتهم المصرية الأصيلة واعتبروها لغتهم المشتقة من اللغة الأم – الديموطيقية – لاحتوائها على أحرف أبجدية سبعة تم اقتباسها من اللغة الأم وعلى الرغم من أن هذا كان فخًا قد يكون نصبه اليونان والرومان عن قصد أوبغير قصد وقع فيه مسيحيو مصر المتسمين بالتسامح والمتمتعون بالقومية والغيورين على وطنهم.

ولقد عزز الوقوع في هذا الفخ "القوة الثقافية التي كانت تتمتع بها اليونانية آنذاك، فضلاً عن هيمنتها على نواحي الحياة العامة، إذ لو كان مقصود المصري إيجاد وسيلة يتفاهم بها مع اليوناني الحاكم لاستخدم اليونانية دون الحاجة لهذا الخلط، تماما كما هو حادث في يومنا الحاضر من كثرة المفردات والألفاظ والمصطلحات التي دخلت على لغات الشعوب المختلفة ثقافيًا وحضاريًا، مثل العربية الحديثة التي تأثرت كثيرة باللغات الأجنبية القوية، نحو الإنجليزية والفرنسية." [١٨٣]

وإن كان المحتل قد حاول التدرج في فرض القبطية على المصريين حتى قبل ظهور المسيحية وذلك في القرون الثلاثة الأخيرة من عصر ما قبل الميلاد[١٨٤] إلا أنها أخذت مكانتها في المؤسسات الدينة المصرية القديمة وخاصة الكنيسة المصرية التي انشقت عن كنيسة الإسكندرية لأسباب ليس هذا الكتاب ولا موضوعه مجالاً لذكرها، واعتبرت الحديث باليونانية لغة المحتل خروجًا على القومية المصرية، أقول أخذت القبطية مكانة مميزة في المؤسسة الدينية في القرن الثالث الميلادي كلغة تبشيرية بعدما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية لليونان والرومان.

إن المحاولات الأولى للكتابة القبطية وكذلك أيضًا الوثائق المعروفة باسم "النصوص القبطية القديمة" قد تمت بواسطة المصريين القدماء إلا أن الفضل في تثبيت الأبجدية المصرية القبطية في الوضع الذي تعرف به حاليًا وتطبيع نظام هجاء الكلمات كان

---

[١٨٢] سلامة موسى - مجلة الكاتب المصري – يوليو ١٩٤٧ – مقال بعنوان: فلسفة للحياة وديانة للضمير

[١٨٣] سليمان عبد الرحمن محمد الذييب - الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية – ص ٨٣

[١٨٤] أقدم ما عثر عليه مكتوبًا بالخط القبطي هي بردية هايدلبرج ٤١٤ التي ترجع إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد. وتشتمل على قائمة لمفردات قبطية بحروف يونانية مع ما يقابلها في المعنى باللغة اليونانية.

بواسطة الكنيسة المصرية في عهد البابا ديمتريوس البطريرك الثاني عشر ١٨٩ - ٢٣٢ م وخلفائه.

ففي البداية كان الإنجيل يُقرأ باليونانية ثم يُترجم شفهيًا ولم يمكن كتابته بالديموطيقية بسبب احتوائها على الكثير من الرموز والمشتقات.

ولما زادت الحاجة إلى ترجمة مصرية مكتوبة للإنجيل استخدمت الأبجدية اليونانية لهذا الغرض مع إضافة بعض الحروف المصرية الديموطيقية هما ϣ ϥ ϧ ϩ ϫ ϭ ϯ وهي الكتابة التي تعرف بالقبطية. ومع انتشار ترجمة الإنجيل بين الناس انتشرت معه الكتابة القبطية وعم استخدامها.

ومن بين أشهر المخطوطات القبطية التي ترجع إلى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلاديين مخطوطات نجع حمادي الغنوصية.

فالقبطية أبجدية دخيلة كانت خطًا استخدمه المحتل للتبشير بالديانة المسيحية لا أكثر ولا أقل وقد استخدمته المؤسسة الدينية المسيحية لترجمة الإنجيل من الأبجدية (الخط) اليوناني إلى الأبجدية (الخط) القبطي الذي هو ذاته الخط اليوناني مضافًا إليه سبعة أحرف ديموطيقية (تعود للأبجدية المصرية القديمة) أما القول بأن القبطية لغة أصيلة وهي لغة قدماء المصريين وأن أبجديتها اليونانية المضاف إليها سبعة أحرف ديموطيقية كانت لمواكبة تطور اللغة المصرية هو قول تم الرد عليه سابقًا ونضيف كيف يحتاج شعب إلى أن يعبر عن لغته بحروف يونانية.. ولم يستطع أن يعبر عن لغته بحروف من ابتكاره أو بحروفه الأصلية رغم أنه قديمًا كتب نقوش عديدة كثيرة وتخاطب بهذه النقوش مع العالم المحيط به بل إن كتاب الموتى بكل ما فيه لم تقف الأبجدية المصرية القديمة عن مجاراة مفرداته وكذلك أناشيد إخناتون.

وكيف في بلدان عدة لا يتحدثون العربية ودينهم الإسلام كباكستان وإيران وأفغانستان وماليزيا ونيجيريا والبوسنة والعشرات من البلاد التي دينها الاسلام وكتابها القرآن العربي ولكنهم لا يتحدثون العربية ولا يزعمون أن لغتهم لا تواكب القرآن الكريم فيجب تطويرها وكتابة أحرفها بالعربية!

وأنا لا أنكر هنا أن القبطية (لهجة) من اللهجات المصرية القديمة كتبت بأحرف يونانية وأدت مع الوقت إلى محو الكثير من أحرف الهيروغليفية بل الكثير من كلمات اللسان المصري القديم (اللغة المصرية القديمة) وأضيف إليها الكثير من المصطلحات لتواكب الديانة المسيحية ولكنى لا أنكر أيضًا أن هذه اللهجة وهذا الخط القبطي قد ساعد بطريقة مباشرة في الدفع بالخط الهيروغليفي إلى زوايا النسيان ولو كان الخط القبطي واللهجة القبطية امتدادًا للهيروغليفية كما يزعم أغلبهم لما كانت لنا حاجة لحجر رشيد وفك رموزه وكان كل عالم في القبطية هو عالم بالضرورة للخطوط الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية وكان كل متحدث باللسان القبطي عالما بما يعنيه اللسان المصري القديم الذي تم التعبير عنه كتابة بالخطوط الثلاثة الأصيلة (الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية) ولكن واقع الحال يكذب كل ذلك.

وتأكيدًا لهذا الكلام أنقل ما كتبه وافي علي عبد الواحد[١٨٥] في كتابه اللغة والمجتمع إذ يقول: **" وإلى مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئونها ترجع كذلك أهم الأسباب في نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل، وفي هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضا تامًا. فأهم العوامل التي تدعو إلى نشأة كلمات في اللغة ترجع إلى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعي جديد: نظام حديث في الشئون الاجتماعية - كدين جديد - أو الاقتصادية أو غيرها؛ نظرية جديدة علمية أو فلسفية؛ مخترع مادي جديد... وهلم جرا. وأهم العوامل التي تؤدي إلى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامها** -كانقراض كل كلمات العبادة الوثنية التي كان يتعبد بها قدماء المصريين-. **ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية التي انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها."**

وفي معرض حديثه عن تأثر اللغة بلغة أخري يقول: **" وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثر هي الناحية المتعلقة بالمفردات. ففي هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات، ويكثر اقتباسها بعضها من بعض. وقد تذهب بعض اللغات بعيدة في هذا السبيل، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسمًا كبيرًا منها عن غيرها ...... وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل في الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين، ويكون انتقالها إيذانًا بقرب زوال اللغة التي انتقلت إليها واندماجها في اللغة التي انتقلت منها، وإيذانًا في الوقت نفسه بأن حضارة الشعب الذي انتقلت إليه هذه الأمور قد أخذت تتلاشي في حضارة الشعب الذي انتقلت منه.**

ولهذا تخضع في الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية في اللغة التي اقتبستها ولمقومات هذه اللغة؛ فينالها كثير من التحريف في أصواتها وطريقة نطقها، وتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة" اليس هذا ما حدث بين القبطية واليونانية!

---

[١٨٥] علي عبد الواحد وافي (١٣١٩ هـ / ١٩٠١م - ١٤١٢ هـ /١٩٩١م)، كاتب ورائد من رواد علم الاجتماع العربي، مصري الجنسية. ولد في أم درمان بالسودان حيث كان والده مدرسًا في المدارس الأميرية ثم في كلية غوردون. عند عودة الأسرة إلى مصر، دخل مدرسة ابتدائية ثم تعلّم في الأزهر، فحفظ القرآن الكريم وطائفة من المتون العلمية التي تلقى شرحها على والده، وتخرج في دار العلوم العليا عام ١٩٢٥م.كان أول فرقته، فأوفدته وزارة المعارف آنذاك في بعثتها إلى جامعة السوربون في باريس، حيث درس الفلسفة وعلم الاجتماع، فقضى بها نحو ست سنوات، فحصل على البكالوريوس عام ١٩٢٨م وكان عنوان الرسالة «نظرية اجتماعية في الرق»، ثم درجة الدكتوراه في علم الاجتماع من الجامعة نفسها تحت إشراف الأستاذ «فوكونيه» أستاذ علم الاجتماع، عام ١٩٣١م وكان عنوان الرسالة «الفرق بين رق الرجل ورق المرأة».

عمل مدرسًا لعلم النفس والتربية والاجتماع في الأزهر وجامعة القاهرة، والعديد من الجامعات العربية: كجامعة أم درمان بالسودان، وجامعة قسنطينة بالجزائر، وجامعة محمد الخامس بالرباط، وجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

تقلّد مناصب أكاديمية عديدة، منها عميد كلية التربية بالأزهر، وعميد كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة أم درمان، وجامعة القاهرة. انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وبالمجمع الدولي لعلم الاجتماع، وبالمجالس القومية المتخصصة، وبالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. وقد منح جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٨٩م.

كان من الطبيعي لخط مثل الخط القبطي -واللهجة المعبر عنها- ونظرا لظروف نشأته أن يأفل نجمه بعد انتهاء الغرض منه فالفتح العربي لمصر أو الغزو العربي لمصر – كما يحلو للبعض تسميته وذلك لغرض في نفس يعقوب – أدى إلى انحسار هذا الخط واللسان الذي كان يتحدث به وأصبح قاصرًا على المؤسسة الدينية المسيحية فقط.

ف "**يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعي وراء الغلبة والسيطرة. وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال. فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدمًا في ذلك وسائل القسوة والعنف، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره. وتارة ترجح كفة أحدها كذلك، ولكنه يمهل الآخر، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه، ويعمل على خضد شوكته شيئًا فشيئًا حتى يتم له النصر. وأحيانًا تتكافأ قواها أو تكاد فتظل الحرب بينهما سجالاً ويظل كل منهما في أثنائها محتفظًا بشخصيته ومميزاته**[١٨٦]".

و "**قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة... أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهله ؛ فتشتبك اللغتان في صراع ينتهي إلى إحدى نتيجتين: فأحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم ؛ وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معًا جنبًا إلى جنب**."[١٨٧]

ولقد اشترط وافي على عبد الواحد عدة شروط لانتصار لغة على أخري " **أن يكون الشعب الغالب أرقي من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته، وأشد منه بأسًا وأوسع نفوذًا. ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده في بلاد الشعب المغلوب، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين.**

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. فقد نجم عن فتوح الرومان في وسط أوروبا وشرقيها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطي Albes Centrales والإليريا llyrie؛ مع أن الرومان المغيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين.

وقد نجم عن فتوح العرب في آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية[١٨٨] والكوشيتية[١٨٩]؛ فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية، وفي مصر

---

[١٨٦] وافي علي عبد الواحد - اللغة والمجتمع – ص ٩٥

[١٨٧] وافي علي عبد الواحد – المرجع السابق – ص ٩٦

[١٨٨] لغة السكان الاصليين للشمال الإفريقي

[١٨٩] لغة طائفة من السكان الاصليين لشرق إفريقيا من خط الاستواء تقريبًا حتى الحدود الجنوبية لمصر.

والسودان وشمال أفريقيا وفي جزء كبير من قسمها الشرقي المتاخم لبلاد الحبشة ؛ مع أن الجالية العربية في هذه البلاد كان عددها أقل من السكان الأصليين."[١٩٠]
وإذا كان لي أن أختلف مع أستاذنا الدكتور وافي علي عبد الواحد في أن اللغة العربية تغلبت على اللغة المصرية القديمة وتحول المصريون إلى العربية لأن "**الشعب الغالب- يقصد العرب الفاتحين - أرقي من الشعب المغلوب – يقصد المصريين القدماء -في حضارته وثقافته وآداب لغته، وأشد منه بأسًا وأوسع نفوذًا. ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده في بلاد الشعب المغلوب، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب**"، واتفق معه كل الاتفاق في قوله "**وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين."**
وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في الجزء الأخير من هذا الكتاب. ذلك أن الصلة التي كانت تربط مصر بالعرب هي صِلة قديمة منذ عهد قدماء المصريين. وكان يسكن مصر وقت الفتح العربي جاليات كبيرة من العرب عاشت مع إخوانهم المصريين وكأنهم شعب واحد بل سنرى أن هناك أصلاً مشتركًا بين الآباء الأوائل لكل من المصريين القدماء والعرب وهو رأي يؤيده الكثير من علماء الغرب ويتبناه العديد من العلماء العرب على رأسهم العلامة جمال حمدان[١٩١].

كيف ماتت القبطية:

كان لابد لنا حتى نصل إلى الحقيقة حول هذه النقطة المحورية في بحثنا أن نعقد العديد من المقارنات والمقابلات بين روايات ثلاث هي مصدرنا لهذه الإشكالية الروايات المسيحية التي تمت بواسطة المؤرخين المسيحيين والروايات الإسلامية التي تمت بواسطة المؤرخين المسلمين ثم ما أورده مؤرخي الغرب عن هذه الإشكالية.

روايات المؤرخين المسيحيين:

يخبرنا يعقوب نخلة روفيلة في كتابه "تاريخ الأمة القبطية" ص ٥٧ عند حديثه عن فترة ولاية عمرو بن العاص لمصر زمن الخلفاء الراشدين: " "ورتب الدواوين فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابية والحسابية وكانت كلها تجرى **باللغة القبطية** ....."

[١٩٠] وافي علي عبد الواحد – المرجع السابق – ص ٩٨:١٠٠
[١٩١] جمال حمدان، أحد أعلام الجغرافيا المصريين. اسمه بالكامل جمال محمود صالح حمدان، ولد في قرية ناي بمحافظة القليوبية. تعتبر دراسته "شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان" إحدى أهم الدراسات الجغرافية عن مصر حيث مزج "حمدان" في دراسته بين الجغرافية والتاريخ والسياسة وعلوم طبيعية وإنسانية وتطبيقية أخرى.

ثم يستطرد يعقوب نخلة روفيلة في ص ٦٧ وص ٦٨ عند حديثه عن انتهاء ولاية عبد العزيز بن مروان والي مصر وانتقال الولاية لأخيه عبد الله بن عبد الملك: "........ وكان كريها للنصارى فاشتد عليهم وعمل على نزع الكتابة في الدواوين من أيديهم ونقلها إلى **اللغة العربية** بعد أن كانت إلى ذلك الوقت **بالقبطية** والقائم بها وسائر الأعمال الإدارية والحسابية هم الأقباط تحت مباشرة رئيس منهم يسمى أنيتاس أو أثناس........ ولما رأى القبط أن هذا التغيير يعود عليهم بالضرر العظيم ولكيلا يفقدوا مركزًا مهمًا كهذا في الحكومة عولوا باجتهاد على تعلم **اللغة العربية** فنالوا مبتغاهم وأتقنوا فن الكتبة والحساب بها وتفننوا فيهما وجعلوا لحساباتهم قواعد وروابط مخصوصة. ونقلت أيضًا أسماء البلاد إلى العربية فتحرفت عن أصلها كما ترى. "

ويؤيد هذا الرأي عزيز سوريال عطية[١٩٢] في كتابه المعنون "تاريخ المسيحية الشرقية" ص ٢٨،٢٧ مع طرحه لسؤال محوري حيث قال: "والسؤال الذي يطرح نفسه: **هل انتهت اللغة القبطية كلغة تمامًا ؟**

ويجيب الأكاديمي عزيز سوريال: "**إن هذا السؤال قابل للأخذ والعطاء، فإلى جانب استخدام القبطية في الطقوس الكنسية، هناك إشارات إلى أن بعض القرى النائية في صعيد مصر لا تزال تحتفظ باللسان القبطي) في أحاديثها اليومية، ومن ناحية أخرى فإن القول بأن اللغة القبطية لا تزال لغة حية يعد ضربًا من التجاوز بل والخطأ، على أن الشرع المؤكد هو أن اللغة القبطية قد تركت بصماتها على اللغة العربية الدارجة وذلك من ناحيتين: الأولى من حيث وجود بعض الكلمات العربية التي لا يفهمها إلا أهل مصر ؛ والثانية من حيث طبيعة الأجرومية التي تحكم العامية العربية في مصر التي كان الأقباط القدامى يستخدمونها في كتاباتهم. وفي الوقت الحاضر هناك نشاط واضح لمدارس الأحد، تحت إشراف الكنيسة القبطية، لتعليم هذه اللغة للشباب كي يتفهموا الطقوس الدينية التي تتلى في مختلف الكنائس بالقبطية. ولقد أقبل الكثيرون على تعلم هذه اللغة في حماس واضح.**"

أما بيشوي فخري فيقول في بحثه الذي عنوانه "**تاريخ اللغة القبطية**" محدثًا عن العوامل التي أدت إلى اضمحلال اللغة القبطية: "لم تختف اللغة القبطية من مصر فور دخول العرب مصر عام ٦٤١م، وإنما امتدت لقرون تالية، ملتصقة لا باللسان المصري فقط، بل وممتزجة بشخصيته ومعلنة هويته، مؤثرة حتى في لغته العامية التي تداولها في معاملاته اليومية، فقد احتوت العامية في مفرداتها أكثر من (٦٠٠٠) ست آلاف لفظة قبطية! ولم يقتصر التأثير من القبطية للعامية في المفردات فقط، بل في نحو الكلام، وبعض تعبيراته، لكن عوامل كثيرة قاسية لم يحتملها لسان، أدت لضعف اللغة القبطية عند ونطقه الأقباط ومنها:

---

١٩٢ عزيز سوريال عطية أحد مؤسسي جامعة الإسكندرية كان يعمل أستاذاً لتاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ بآداب الإسكندرية حتى أوائل الخمسينات كما شغل منصب مدير معهد الدراسات القبطية بالقاهرة ثم ارتحل من مصر، في ظروف خاصة، فقضى بقية عمره بأوروبا وأمريكا، وتولى التدريس بكُبريات الجامعات الغربية حتى وفاته.

١- قرار تعريب الدواوين: أصدر والى مصر عبد الله بن عبد الملك سنة ٧٠٦م قرار بتعريب الدواوين والتعامل الرسمي في الوظائف. فكان على القبطي إما أن يترك وظيفته وإما يترك لغته القبطية.
٢- في سنة ٨٤٩م صدر منشور من الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١ م.) يدعو فيه أن يتعلم اليهود والنصارى اللغة العربية، وأمر بقطع لسان كل من يتكلم القبطية، وفي هذا الوقت ظهر وضع ستائر حول المذبح أثناء التقديس، ووضع طواحين خارج الكنيسة يتم تشغيلها لتخفي ضوضائها أصوات المصلين ولكن الشعب المصري استمر يتكلم باللغة القبطية فيما بينهم. نقرأ في عصره تحذير من توظيف اليهود والنصارى في الوظائف ومن تعليهم اللغة العربية، لأنهم على غير المتوقع تعلموها للاحتفاظ بوظائفهم!
٣- اضمحلال المؤسسات الرهبانية فبعدما كانت الأديرة مزدهرة وعامرة بالرهبان في أوائل الفتح العربي، تدهور حالها بتعرضها لاضطهادات مريرة، وفرض السلطات الضرائب على سكانها، مما أدى إلى هجر الرهبان لأديرتهم وانخفاض عددهم، وعلى سبيل المثال، فرضت السلطات في سنة ٧١٠ م على الرهبان القبط - بهدف حصر تسديدهم الضرائب - أن تكوى أيديهم بالنار، وكل من ضبط خلوا من هذه العلامة قطعت يده.
وفي سنة ٧٢٢ م ضرب الرهبان حتى الموت وقطعت رؤوسهم لخلو أيديهم من علامة الكي، كما خربت الكنائس وسلبت محتوياتها وفي فترة تالية ألزم القبط جميعاً بأن يحملوا على أيديهم علامة الكي هذه... ومن سيرة البابا خائيل الأول (٧٤٣-٧٦٧م) نقرأ أنه كان يخاطب الخليفة مروان بخطاب قبطي ومعه ترجمة عربية فكان الحديث بينهما من خلال ترجمان.
٤- إدخال اللغة العربية إلى الكنيسة: اضطر البابا غبريال بن تريك البطريرك السبعين (١١٣١-١١٤٦ م) عندما وجد أن الغالبية من الشعب لم تعد تفهم اللغة القبطية، فقد أصدر أوامره بقراءة الأناجيل والعظات الكنسية وغيرها من القراءات باللغة العربية بعد قراءتها بالقبطية، حتى يتسنى لجمهور المصلين فهم ما يسمعونه.
ثم جاءت أخبار متفرقة، في عصور تالية تفيد بوجود اللغة القبطية على نطاق ضيق ولكنها موجودة"
أما دكتور باسم سمير الشرقاوي فيضيف عوامل أخرى أدت إلى اضمحلال اللغة القبطية في كتابه "تاريخ مصر القديم من الإسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص" ص ٣١٣ حيث يقول تحت عنوان **تزايد عدد الذين اعتنقوا الإسلام من المصريين:** "بدخول العرب مصر اعتنق كثير من المصريين الإسلام، وأبدوا اهتمامًا بالغًا بدراسة لغة القرآن الكريم "اللغة العربية"، وتركوا بالتبعية القبطية."

أما جاك تاجر[193] في كتابه "**أقباط ومسلمون**" فيقول تحت عنوان "اضمحلال اللغة القبطية": " **إن تاريخ اللغة القبطية ما هو إلا صورة لتاريخ الأقباط أنفسهم، احتفظ الشعب القبطي بلغته في أثناء الحكم اليوناني الروماني وتجاهل لغة المحتل، ولكنه اهتم منذ الساعات الأولى من احتلال العرب لمصر بدراسة اللغة العربية، نعم أنه درسها بدافع المصلحة الشخصية بدليل أنه عندما كان يترك المحتل العربي الإدارة بين أيدي سكان البلاد الأصليين الذين خدموا الحكومة البيزنطية لم يفكر قط هؤلاء الموظفون بدراسة لغة القرآن، بل اهتموا بإبعاد الكلمات اليونانية من لغتهم، فاختفت الأسماء اليونانية للأماكن ومراكز المديريات فيما عدا الأماكن التي أسسها اليونانيون»، وحلت محلها أسماء قبطية قديمة، ثم كان الكتاب المقدس يُقرأ باللغة اليونانية ويُشرح باللغة القبطية ولما هزم اليونانيون لم يعد يُقرأ إلا باللغة القبطية فقط، وأصبحت الكتابة بالقبطية بعد أن ظلت باليونانية حتى القرن السادس، وكذلك أخذت اللغة القبطية تتقدم وتزدهر. ولكن هذا التقدم كان ظاهريًّا، والواقع أن انشقاق كالسيدونيا قد ألغى الأسباب التي أدت إلى نهوض اللغة القبطية، ونلاحظ فعلاً أن اللغة القبطية وآدابها ازدهرت ازدهارًا عظيمًا فيما بين مجمعين نيقيا وكالسيدونيا؛ أي فيما بين القرنين الرابع والخامس، ولكن لم تلبث العبقرية أن خمدت جذوتها فلم تنتج مؤلفات جديدة، وظلت اللغة اليونانية اللغة الرسمية التي كان يتعلمها الأقباط الطموحون، وظلت أيضًا لغة الدين والتعليم والتجارة، وكان المصري يستطيع أن يجهل اللغة القبطية دون اليونانية. نعم إن طبقة الفلاحين العديدة ظلت تتكلم القبطية، كما اضطرت المسيحية أن تستخدم هذه اللغة لتنشر تعاليمها بينهم ولكن لما فقدت اللغة القبطية ميزتها كلغة الثقافة، لجأت إلى اليونانية واستعارت عددًا كبيرًا من المصطلحات التي احتفظت بها حتى الآن، وفضلا عن ذلك، لم تكن اللغة القبطية في يوم من الأيام لغة الإدارة والمصالح، فالموظفون الذين حلوا محل اليونانيين بعد دخول العرب، كانوا يكتبون باليونانية على الرغم من كونهم أقباطًا، وعندما أمر عبد الله بن عبد الملك في عام ٨٧هـ «٧٠٦م»، أن تكون اللغة العربية لغة الدواوين لم يحتج الأقباط على ذلك، بل أسرعوا إلى تعلم لغة المنتصرين.**

وما من شك أن هذا الأمر أقلق الموظفين الذين كانوا يعملون باللغة اليونانية ولكن نعرف اليوم، بفضل أوراق البردي التي اكتشفت حديثًا، أن الحاكم العربي عجز عن تطبيق هذا الأمر إثر إصداره؛ إذ وجدنا أوراقًا مكتوبة كلها باليونانية حتى عام ١٦٤هـ «٧٨٠م» بينما وجدنا أوراقًا محررة باليونانية والعربية في آن واحد. لهذا السبب قد يصعب علينا أن نعرف تفاصيل تطور اللغة القبطية عن طريق المستندات الرسمية،

[193] جاك تاجِر هو كاتب ومترجم و مؤرخ، من الروم الكاثوليك بمصر، سوري الأصل. هو جاك بن فليب تاجر. مولده ووفاته بالقاهرة. توفي بعد أن زلت قدماه وهو في قطار المترو بين القاهرة ومصر الجديدة، فسقط قتيلاً تحت عجلات القطار.

ويجب أن نرجع إلى الوثائق الشخصية للوصول إلى معرفة حياة هذه اللغة واضمحلالها التدريجي."[١٩٤]

ثم يستطرد ليجيب لنا عن سؤال لماذا اتجهت اللغة القبطية لطريق الزوال: " **كانت مصر في القرن السابع الميلادي تتكلم اللغة القبطية، وما إن حل القرن الثاني عشر حتى أصبحت كلها تتحدث باللغة العربية، فاستطاع العرب أن يجعلوا رعاياهم يهملون لغتهم القديمة ويستعملون بدلها لغة أخرى، الأمر الذي عجز عن تحقيقه من قبلهم اليونانيون والرومانيون ومن بعدهم الأتراك.**

وهناك عاملان أساسيان عجلا بزوال اللغة القبطية من الحياة العامة، أولهما: إسراع الموظفين النصارى إلى تعلم اللغة العربية لكي يحتفظوا بوظائفهم، وثانيهما: ازدياد عدد الذين احتضنوا الإسلام وتركوا حال دخولهم الدين الجديد لغة أجدادهم. وقد عجلت أسباب أخرى زوال اللغة القبطية، ذلك أن العرب لم يكتفوا بفتح مصر بل أرادوا احتلالها واستعمارها، فامتزج المستعمرون بالأسر المصرية وشجعوا هذه الأسر على التكلم بلغتهم، أضف إلى ذلك أن اعتناق الإسلام يحتم دراسة القرآن وبالتالي اللغة العربية، ثم أخذ عدد رجال الدين الذين حافظوا على التقاليد واللغة يتضاءل بسرعة، أما الأديرة التي ازدهرت في أوائل الفتح، فما لبثت أن هجرها الرهبان حين بدأت السلطات تفرض الضرائب على نزلائها، وبعد فترة قصيرة تعلم القساوسة اللغة العربية حتى يستطيع أن يفهم رعاياهم تعاليمهم، ولما كان مستواهم العقلي آخذ في الهبوط، فقد تركوا دراسة القبطية عندما اقتنعوا بعدم فائدتها العملية.

وكما نرى فهناك إجماع من المؤرخين والكتاب وعلماء القبطية أن القبطية قد انزوت لتصبح لغة وخط خاص بالكنيسة المصرية دون عامة الشعب لأسباب عدة كما أوضحنا في السطور السابقة.

روايات المؤرخين المسلمين:

يقول د/ حسين مؤنس في كتاب **"تاريخ الحضارة المصرية –المجلد الثاني- تحت عنوان تاريخ مصر من الفتح الاسلامي إلى أن دخلها الفاطميون":"خلاصة ما لدينا من أخبار مصر في شتى المراجع عن هذه الاشكالية يعود في الأصل إلى أصل واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين**[١٩٥]**، بل صنع في مكان واحد هو الفسطاط، وفي فترة محددة هي النصف الأول من القرن الثالث الهجري. ومن رجال هذه المدرسة من هو ضعيف مشكوك في أخباره ك(عبد الله بن لهيعة توفى ١٧٤ / ٧٩٠) الذي سخر منه**

[١٩٤] جاك تاجر في كتابه "أقباط ومسلمون" – ٢٤٥-٢٤٦

[١٩٥] يقصد عبدالله بن عبد الحكم وعبدالله بن وهب وعبدالله بن مسلمة وعثمان بن صالح ويحيى بن بكير وسعيد بن عفير واهمهم جميعا عثمان بن صالح فان كتاب فتوح مصر والمغرب والاندلس يدور على روايته تقريبًا وعبدالله بن عبد الحكم يروي عنه فقرة بعد فقرة.

معاصروه وسموه أبا خريطة، ولا يشفع لأخباره أنه ينسب بعضها الى أبي الأسود النضر بن عبد الجبار (توفى ٢١٩/٨٣٤)، وفيهم الحجة الثبت كالليث بن سعد، وجلهم من المصريين مولدا وموطنا، حتى غير المصريين منهم كالواقدي أتوا الى مصر ليأخذوا الأخبار عن شيوخها. [١٩٦].

فلا فائدة والحالة هذه من الاجتهاد في المقارنة ومقابلة الروايات بعضها على بعض: فإن الخطوط العريضة، وهي التي تهمنا هنا، واحدة عند الجميع. بل إن جل أخبار الفتح الواردة عند البلاذري منسوبة إلى محمد بن سعد كاتب الواقدي، وهذا أخذها عن أستاذه، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن المدرسة المصرية التي ذكرناها، وأخباره شديدة الشبه بأخبارها. وكذلك أخبار الطبري ترجع أحيانا إلى محمد بن سعد وأحيانا أخرى الى يونس بن عبد الأعلى (توفى ٢٦٤ / ٨٧٧) وهو من شيوخ المدرسة المصرية، وهو جد أبي سعيد بن يونس المؤرخ المصري المعروف.

فاذا تركنا هذه الناحية جانبًا، وعدنا إلى تحول المصريين من القبطية إلى العربية وفق كتابات المؤرخين المسلمين، **"وجدنا أمور المصريين تجرى في مجراها العادي بعد الفتح مباشرة، وكأنما لم تتغير الأحوال ولم يذهب زمان ويقبل زمان، وتبدو البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح في هدوء يستوقف النظر، ربما كان ذلك نتيجة لما عاناه المصريون من متاعب وقلاقل خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، فلما تخلصوا أخيرا من شقاء البيزنطيين مالوا الى الدعة والسكون كأنهم يستجمون. ثم إن العرب خلال هذه السنوات الأولى كانوا في شغل بشئونهم وفتوحهم، فقد كانت الدنيا قد تفتحت أمامهم من كل وجه، فمضت جيوشهم تفتح شرقًا وغربًا، وأقبلت خلف الجيوش جماعات من مهاجرة العرب تستقر في البلاد المفتوحة. ففي خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخ الإسلام انتشر عشرات الألوف**[١٩٧] **من العرب المهاجرين في العراق وفارس ومصر والمغرب والأندلس، وكانت الأرض واسعة وفى رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين، وكان الجانب الأكبر من أراضي هذه النواحي قد ضيعه الإهمال، وكان في حاجة إلى نظام عادل يطمئن إليه الناس وإلى أيد عاملة. فأما الاستقرار فقد أتى به الفتح الإسلامي، وأما الأيدي العاملة فجماعات العرب المهاجرة التي أشرنا اليها. وهنا نجد عرب اليمن يقومون بالجانب الأكبر من ذلك العمل، وإذا كان عرب الشمال ـ وفى مقدمتهم قريش ـ قد حملوا عبء الفتوح واشتغلوا بالسياسة والإدارة، فإن عرب اليمن عرفوا كيف يجنون الثمرات، فقد كانوا شعبًا ميالاً إلى الاستقرار له عهد بعيد بالزراعة وما يتصل بها من أعمال الحضارة.**

---

[١٩٦] تاريخ الحضارة المصرية المجلد الثاني العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي – د/ حسين مؤنس تاريخ مصر من الفتح الاسلامي إلى أن دخلها الفاطميون – ص ٣٢٣

[١٩٧] وهو عدد قليل جدا بالنسبة لتعداد المصريين في هذا الوقت والذي قدره بن خلدون في مقدمته بحوالي ستة ملايين نفس وسنتناول هذه الإشكالية بشيء من التفصيل في كتابنا الثاني الذي يختص بالحديث عن جذور وأصول قدماء المصريين من البدء وحتى الآن.

فبعد فتح العراق مباشرة نجد بطون لخم تزحف شرقًا وتستقر في نواحيه، وتسرع إليها جماعات أزد اليمن، فيكثر عددها حتى غلبت على أرض السواد، ثم زحفت فروع منها غربا فعمرت غرب إيران ثم امتدت إلى خراسان، وشيئًا فشيئًا أصبحت هذه النواحي وكأنها مستعمرة يمنية عقدت زعامتها بلواء أزد اليمن، وكانوا أكثر القبائل عددًا. أما العمال وجندهم فكانت غالبيتهم من القيسية. وبدأ التنافس بين الجانبين، ثم انتهى إلى صراع دموي انتهى بإضعاف جانب العرب في فارس وخراسان. فبينما ساد العرب هذا الجناح الشرقي من دولة الإسلام في منتصف خلافة هشام بن عبد الملك حتى بدأت اللغة العربية تحل محل الإيرانية، نجد هذه الأخيرة تعود إلى مكانها في نهاية العصر الأموي، ثم انتهت سيادة العرب واللغة العربية بمجيء العباسيين وتفضيلهم الخراسانيين على العرب. وبدأت الفارسية تغلب على ألسنة العرب الباقين هناك حتى نسى الكثير منهم لغته وأخذ يتكلم الفارسية. وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا في مصر، لولا أن الظروف هنا اختلفت عنها هناك، ولم تبلغ القيسية في مصر مبلغا يمكنها من منافسة الكلبية، فخلا الميدان تقريبًا لهذه الأخيرة، فسارت في طريقها محتفظة بقوتها وهيبة العروبة والعرب أمام السكان، وتمكنت من نشر العربية والاسلام، كما فعلت في المغرب والأندلس.

كان معظم رجال الجيش العربي الفاتح من عرب اليمن. نستنتج ذلك من أسماء القبائل التي نزلت الفسطاط واتخذت بها خططًا ــ أي أحياءــ فاذا استثنينا نفرًا من قريش، وكان عددهم قليلاً، وجدنا أنفسنا أمام أغلبية يمنية تستوقف النظر: مهرة، تجيب، لخم، جذام، بنو بحر، غافق، حضرموت، يحصب، معافر، سبا ـ بنو وائل، مذحج، غطيف، بَلِي،خولان، الصدف، وغير هؤلاء كثير. ولا شك أنه كان بين هؤلاء كثيرون من عرب جنوبي فلسطين وسيناء وشرقي الدلتا وصحراء مصر الشرقية، فمن انتسب منهم إلى قبيلة من هذه فقد انضم إليها، وإلا اندرج تحت جماعة عامة كانت تضم أفناء من القبائل، سميت أهل الراية. وكانت هناك أيضًا جماعات قيسية قليلة، ونفر من العرب الذين كانوا يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون الحمراء، وتفر قليل من بقايا فرس اليمن الذين استعربوا وكانوا يسمون الفارسيين وعلى طول العصر الأموي كان تيار الهجرة العربية نحو مصر مستمرًا، ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من اليمن. وقد بلغ من أمر اليمنية أن من ولى مصر من القيسيين كانوا يحرصون على أن يتقووا باستقدام قبائل قيسية إلى مصر: حدث ذلك في أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن رفاعة وولاية عبيد الله بن الحبحاب على الخراج، فكثرت جماعات القيسية بمصر، ولكنها لم تنزل الفسطاط، وإنما شرقي الدلتا: حوالي بلبيس أولاً ثم امتدت شمالاً وجنوبًا حتى عمرت ما عرف بالحوف الشرقي، ونزلت كذلك في غربي الدلتا، فيما يعرف الآن باسم البحيرة فعرف بالحوف الغربي. أي أن كتلة كل جذم من جذمى العرب الكبيرين نزلت في ناحية غير ما نزلته الأخرى، وربما كان هذا هو السبب

في أنه لم يقع بمصر هذا الصراع الدموي بين قحطان وعدنان الذي قضى على سلطان العرب في فارس وخراسان وكاد يقضى عليه في الأندلس.

وقد حرم عمر بن الخطاب على جنـــد العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف إلى مطلب آخر من مطالب الحياة، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب عامة، لأن التحريم على الجند ضروري وطبيعي، أما على عامة العرب فغير معقول أو ممكن. وينبغي أن تذكر أن العرب لم يكونوا جميعًا جندًا مدونين، فكيف يحرم عمر العمل على عربي عادي هاجر بنفسه وأهله إلى بلد كمصر ليرتزق ويعيش؟ من الطبيعي أن تكون قد وجدت في مصر وغيرها جماعات عربية مدنية، وهذه هي التي اشتغلت بالزرع والضرع وشئون المعاش دون أن يكون في ذلك مخالفة لأمر عمر، وهذه الجماعات يصعب إحصاؤها، وهي التي انبثت من أول الأمر بين الأهلين في كل ناحية واختلطت بهم، وهي صاحبة الفضل الأكبر في تعريب ألسنة الناس[198] وتحويلهم إلى الإسلام، لأن الجندي العربي ظل منفصلاً بنفسه في معسكراته، وأشهرها الفسطاط، ولذلك لم تتح له الفرصة للاتصال بالناس، ومن هنا فإن دوره في التعريب وإدخال الناس في الإسلام قليل.

وسواء بحثنا في العراق أو في مصر أو الأندلس، فإننا نجد الغالبية العظمى من هؤلاء الذين انبثوا بين الناس كانوا من عرب اليمن أول الأمر، ثم لما غلب الأنصار على أمرهم في معترك السياسة العربية، وانتزع المهاجرون الأمر منهم، ترك الأنصار ميدان السياسة وانصرفوا إلى مطالب العيش، والأنصار يعدون في جملة اليمنية. وكلما انهزم فريق من العرب في ذلك المعترك انصرف أفراده إلى طلب العيش في الأمصار أو الزراعة في الأرياف. ولهذا فقد كانت السياسة تلقى في ميدان الحياة العامة بفريق من العرب بعد فريق، وهذه الجماعات المنهزمة هي التي حققت للإسلام والعربية نصرهما الحقيقي في بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس، ومن أفرادها تكونت معظم الجماعات التي اشتغلت بالعلم والدرس في مركز الدولة والأمصار.

ولهذا فمن الخطأ أن ُيقال أن العرب بدأوا يتخلون عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالي من أيام هشام بن عبد الملك مثلاً، لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية طبيعية بدأت منذ البداية. وجدير بنا أن تلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبتهم أو اعتزازهم بها، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربي، وتزاوجوا معهم وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية، فأولاد

---

[198] وهنا أجدني في حيرة فكيف لجماعة لا تتعدي عشرات الآلاف أن تؤثر في لغة أمة يقدر تعدادها على أقل تقدير بستة ملايين نفس وكيف انتهى إلى أن الخلافات العربية العربية في فارس هي التي أدت لتراجع التعريب في فارس ولأن ذلك لم يحدث شبيه له في مصر فقد صارت الأمور في مجراها الطبيعي وتم بحمد الله تعريب مصر بدون أي مشاكل تذكر!

وهو مذهب أرى غرابته فكان الأولى أن نبحث في الأصول المشتركة بين العربية والمصرية القديمة ولهجاتها المختلفة في بحري والصعيد من جهة وبين الأصول المشتركة بين الفارسية والعربية وهل كان لوجود أصل مشترك بين المصرية والعربية هو الدافع لهذه البساطة والسهولة التي تحول بها المصريون من لغتهم الأم إلي لغة مقاربة لهم هي العربية على العكس تمامًا لما تم في فارس؟

العرب عرب، ومن ثم فان أعداد العرب في النواحي كانت في زيادة، وكانت لهم امتيازات معنوية ومادية بحكم الدين والأصل واللغة، وهذه الامتيازات كانت مما حبب إلى الناس الانتساب إليهم، ودخول الإسلام واتخاذ أسماء عربية، بل اصطناع أنساب عربية.

من هنا كان من العسير تتبع حركة الإسلام والتعريب، لا في مصر وحدها بل في الأنحاء الأخرى للدولة الإسلامية، فهي عملية طبيعية بدأت منذ البداية وسارت سيرًا لم يتنبه إليه أحد، وتعرضت هنا وهناك لظروف أعانت عليها أو عطلتها حينا ما، ولكنها مضت في طريقها. ففي فارس مثلاً نجد الإسلام ينتشر بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية، وفى الأندلس سار الاستعراب بأسرع مما سار الإسلام، وفى مصر سار الأمران جنبا إلى جنب لأسباب تتعلق بحالة المسيحية واللغات التي كان الناس يتكلمون بها في مصر عندما دخلها العرب.

فأما فيما يتصل بالمسيحية، فقد كان اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغًا عرض أصول العقيدة النصرانية للإبهام والغموض في نظر الناس. ولم تكن العقيدة المسيحية حينذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد، وكانت المجامع الدينية تسعى نحو التحديد وتعمل على التقرير، ولكن شئون المجامع شابتها أهواء الأشخاص وعصبيات النواحي، وأفسد أمرها تدخل الأباطرة لأغراض سياسية حينًا وشخصية حينًا. وكانت مصر من بين بلاد الدولة البيزنطية، قد اتجهت في تفسير معضلات العقيدة النصرانية اتجاهًا واحدًا حرص البطاركة والقساوسة والرهبان على الاستمساك به من أول الصراع إلى نهايته وهو القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح، وقد كسب رأي المصريين أنصارًا كثيرين في الشام وآسية الصغرى بل في القسطنطينية نفسها، واستطاع بطاركة عظام من أمثال ديوسقوروس وكيرلس الاسكندري أن يكسبوا انتصارات كبرى في المجامع الدينية، واستيقظت القومية المصرية أثناء هذا الصراع حتى أصبحت المونوفيزية - وهى القول بالطبيعة الواحدة - مظهرًا من مظاهر القومية المصرية.

وقد تنبهت الدولة البيزنطية إلى هذه الناحية، وبذلت أقصى جهدها حتى انتصرت على رأى المصريين في خلقيدونية، مجمع الذي يسمى في كتب التاريخ القبطي بمجمع اللصوص. ومن تاريخ ذلك المجمع انفصل المصريون انفصالاً روحيًا تامًا عن كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما أيضًا، وأخذت الدولة البيزنطية تستعمل مع المصريين أقسى وسائل الاضطهاد لصرفهم عن عقيدتهم دون جدوى. فلما غزا الفرس مصر نفر المصريون أول الأمر بسبب ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة، ولكنهم أحسوا لأول مرة بفضائل الانفصال بكنيستهم عن تلك الدولة

منهم البيزنطية التي لم يعرفوا في أيامها إلا المتاعب والاضطهاد. فلما خرج الفرس وعاد البيزنطيون عادت معهم الاضطهادات والمتاعب وندبت الدولة ذلك الأسقف المتعصب قيرس أسقف فازيس ليقضى على مقاومة المصريين ويهدم كنائسهم.

وقد كانت نتيجة هذا الصراع الطويل وما تخلله من تبلبل الأفكار بسبب المذاهب الكثيرة التي اقترحتها الدولة رغبة منها في التقريب بين المذاهب المختلفة، واجتهاد رجال الدولة في فرض هذه الآراء، كانت نتيجة ذلك كله أن ضعف أمر المسيحية في مصر ضعفًا شديدًا، وتبلبلت أفكار الناس، بحيث لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل، حتى ذهب بعض مؤرخي النصرانية إلى أن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية، وقال ليفيفر[١٩٩]: "إن المسيحية لم تغير أو تنل شيئًا من روح الجنس المصري، ولم تصل إلى التأثير في الحياة الخاصة للأفراد، ولم تتحول الأرواح تحولاً صادقًا إلى المسيحية ". وقال جاستون فييت[٢٠٠]:
"إن الشيء الذي لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الدينية. إن نصرانية الأقباط اقتصرت على منازعات عقيدية مع البيزنطيين، وإننا لنلحظ عندهم منذ زمن مبكر معارضة تقوم على كبرياء، بل ربما استطعنا أن نقول إننا نلمح عندهم شعورًا قوميًا سلبيًا. وقد ظهرت الروح القومية المصرية بأجلي مظهرها بعد مجمع خلقيدونية. وكان هذا من الوضوح بحيث يحق لنا أن نتساءل إذا كان تعصب الأقباط للمونوفيزية في حقيقته كراهة للسلطان البيزنطي قبل أن يكون اقتناعًا بعقيدة"
وهذه الأقوال كلها لا تقوم على فهم صحيح للنفس المصرية، وتتجاهل حقيقة حال النصرانية خلال القرن السادس وأوائل السابع الميلاديين. فالواقع أن العقيدة المسيحية نفسها كانت إلى ذلك الحين في طور التكون، وكان الأساقفة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تحديد أصولها، أما الرجل العادي فكان في حيرة من أمره، لم يستقر بعد على شيء واضح فيما يتصل بأصول دينه، وكانت آثار الوثنية باقية ما تزال تختلط بمفهوم المسيحية عند معظم العوام. وقد أثبتنا في دراستنا لفتح العرب للأندلس أن نواحي كثيرة من شبه الجزيرة الأيبيرية كانت لا تزال على الوثنية، وينطبق هذا على مصر، فمن المغالاة أن نقول أن أهل القطر جميعا الذين عاشوا في أوائل القرن السابع كانوا مسيحيين، أو أن المسيحيين منهم عارفون بأصول العقيدة وشريعتها، بل كانت مراكز المسيحية المعروفة في مصر، مثل الإسكندرية وبابليون ونقيوس، في خلاف بعضها مع بعض.
وكان الرأي السائد عند زعماء الأقباط قريبًا جدًا من الإسلام ورأيه في السيد المسيح عليه السلام، ولم يكن من العسير لهذا أن يتحول الكثيرون منهم إلى الإسلام دون جهد كبير، خاصة وأن الإسلام دين سهل لا تعقيد فيه، واقتناع الناس به لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل طويلين، وهو بالنسبة لمسيحيي مصر والشام وغيرهم في ذلك الحين كان مخرجًا مريحًا من متاهة المذاهب المتضاربة ومشاكل الطبيعة الواحدة والطبيعتين، حتى أن بعض المسيحيين لم يروا في الإسلام حينذاك إلا مذهبًا جديدًا من مذاهب

---

[١٩٩] غاسبار يفبفر هو راهب فرنسي، ولد في ١٧ يونيو ١٨٨٠ في ليل في فرنسا، وتوفي في ١٦ أبريل ١٩٦٦ في بروج في بلجيكا.
[٢٠٠] غاستون فييت أو غاستون فييت - ، مستشرق فرنسي، كان مدير متحف الآثار سنة ١٨٨٧، ومديرا لدار الآثار العربية في القاهرة، وانتخب عضوًا في المجمع اللغوي في القاهرة، وأستاذًا شرفي في الكوليج دو فرانس في باريس.

المسيحية، فالانتقال مما كانوا عليه إلى الإسلام لم يكن في نظر الكثيرين منهم خروجًا من دين إلى دين، فإذا أضفنا إلى ذلك ما أصاب كنائس الأقباط من هدم، ورجال دينهم من اضطهاد وتشريد على أيدى البيزنطيين، بحيث أصبحت الكثير من الأنحاء بلا كنائس ولا قساوسة، تصورنا سهولة انتقالهم الى الدين الجديد.
ثم إن الدخول في الاسلام ينقل المصري أو المغربي أو الإسباني إلى مرتبة الحكام وأصحاب الدولة، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومغارم كثيرة، ويجعلهم ينجون من المعاملة الخاصة التي كان بعض العمال يختصون بها الذميين. وقد أشار المقريزي إشارة غير مقصودة إلى العلاقة بين انتشار العرب في الأرياف وانتشار الإسلام فيها، قال: " ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد سنة مئة من تاريخ الهجرة، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسًا بالحوف الشرقي، فلما كانت المائة الثانية من تاريخ الهجرة ؛ كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها"
وربما بدا غريبًا أن نقول إن مراكز تجمع الجند العربي، في الفسطاط والاسكندرية والجيزة مثلاً، لم تكن بذات أثر كبير في انتشار الإسلام في البلاد، ولكن هذا هو الواقع، لأن هذه المراكز ظلت مراكز عربية صرفة ينزلها نفر من المصريين، ولكنهم لا يتصلون فيها بالعرب هذا الاتصال الذي يؤدى إلى التفاهم وانتقال الآراء والعقائد، فقد كانت الفسطاط مثلاً معسكرًا لا ينزله أهل البلاد، ويعيش فيه العرب في أحياء كل حي منها خاص بقبيلة من العرب، وهذه الأحياء هي التي تسمى الخطط، وفى الإسكندرية عاش الجندي العربي في مساكن خاصة به عرفت باسم الأخائذ، وكذلك حول العرب موضع الجيزة الذي اختطوه إلى حصن، و قسموه خططًا تشبه خطط الفسطاط، وقد ظلت هذه المعسكرات مقفلة على من فيها زمنًا طويلاً، فلم تكن بذات أثر في انتشار الإسلام، إنما كانت ذات أثر في انتشار العربية وثقافتها، فقد كانت مراكز عربية صرفة، ونشأت في الفسطاط بصفة خاصة مدارس علمية وفقهية كان لها أبعد الأثر في تعريب ألسن الناس، وفي جعل مصر مركزًا من مراكز الثقافة العربية الرئيسية.
وانتشرت العربية جنبًا إلى جنب مع انتشار الاسلام، وقد ساعدها على الانتشار أن المصريين في ذلك الحين لم تكن لهم لغة واحدة يتفاهمون بها في كل مكان، فقد كانت اللغة القبطية حينذاك في دور التكون. كانت كلغات أوربا مثلاً خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين: بقايا لهجات لاتينية منحطة تعرف بلاتينية العصور المتأخرة Le bas latin لا نحو لها ولا ضوابط، أغارت عليها لغات الجرمان في كل ناحية، واختلطت هذه بتلك وبدأت تنشأ لهجات في النواحي، ثم أخذت اللهجات تتقارب حتى نشأت اللغة المحلية، سواء أكانت فرنسية أو إسبانية أو جرمانية. ولم تكن لهذه اللغة القبطية صورة ثابتة بعض الشيء إلا في بعض الكنائس وفيما كتبه بعض قساوستها. ثم إنها، حتى في هذه الدوائر القليلة، تأثرت تأثرًا عظيمًا باللغة الإغريقية، بل فضل بعض كتاب مصر أن يكتبوا بالإغريقية.

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالإغريقية أي أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا في الكتابة ولا في الكلام.
ثم دخلت اللغة العربية لغة كاملة غنية قادرة على التعبير عن كل شيء، ولها كتابة ثابتة معروفة، ثم هي لغة الإسلام والقرآن والحكام، فلا غرابة في أنها غلبت غيرها دون مشقة وأخذت تغلب على ألسنة أهل الوادي. وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على المغرب والأندلس أيضًا. وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في مصر دفعة واحدة، وانما نحن بسطنا الأسباب التي مهدت الطريق أمامها، أما انتشارها نفسه فعملية بطيئة تمت على مر السنين. وإذا نحن قرأنا كتابًا مثل "القضاة والولاة" للكندي استطعنا أن نتتبع بعض خطوات هذا الانتشار، وذلك من خلال عشرات الحكايات التي يوردها الكندي في أخبار القضاة. ولكننا نفهم من كلام الرحالة أن اللغة العربية لم تسد ألسنة أهل مصر جميعًا. حتى القرن السادس الهجري، فعلى بن سعيد مثلا يشكو من أن الناس في مصر لا يفهمون "السانه المعرب" تمام الفهم، بل إن الشربيني صاحب "هز القحوف" يقول: إن الفلاحين في بعض الأنحاء كانوا يتكلمون في أيامه بلهجات خاصة بهم.
وجدير بنا أن نشير الى أمرين كان لهما عظيم الأثر في انتشار الإسلام واللغة العربية في مصر: الأول قرار عبد الملك مروان بن سنة ٨٧/٧٠٦ بتعريب الدواوين، فقد كانت نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط ممن كانوا يتولون الوظائف – إلى الدخول في الإسلام وتعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم. نعم إن قرار عبد الملك لم يطبق بحذافيره، وظل كثير من الأقباط يتولون الوظائف العامة، ولكن معرفة العربية كانت شرطًا لازمًا لاحتفاظهم بهذه الوظائف. والأمر الثاني هو قرار المعتصم بإسقاط العرب من الدواوين وقطع أعطياتهم أثناء ولاية كيدر نصر بن عبد الله فيما بين سنتي ٢١٦ و ٢١٩ / ٨٣١ ـ ٨٣٤، فقد أصبح العرب بذلك رعية، شأنهم وشأن الأقباط سواء ؛ وزالت الحواجز بين الجانبين، وأصبحا قلبًا واحدًا على الدولة وأتراكها.
ويبدو أن اندماج العرب في الحياة العامة بمصر كان حينذاك قد قطع شوطًا بعيدًا، لأن هذا القرار لم يكن له رد فعل عنيف بين العرب، فبينما كنا نتوقع أن ينكره عرب مصر على بكرة أبيهم، لا نلحظ إلا استنكار نفر من لخم وجذام لم يزد عددهم على خمسمائة، قضى الوالي على مقاومتهم وانتهى كل شيء. وقد استنتج من شواهد القبور أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان، فكانوا يحرصون على أن يكتبوا على شاهد القبر – إلى جانب اسم الميت... القبيلة التي ينتسب إليها، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجري، وأصبح الناس ينسبون إلى أقاليمهم.
وعلى أي الأحوال نستطيع القول بأن اللغة القبطية فقدت أهميتها تمامًا خلال القرن الرابع الهجري، فإننا نجد كُتاب الأقباط ـ مثل سعيد بن البطريق وساويرس الأشموني ـ يكتبون بالعربية، وكانت كتاباتهم موجهة إلى الأقباط، فلو كانت القبطية جرت على لسانهم لكتبوا بها، أما وقد كتبوا بالعربية، فذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد

أصبحت لغة الناس أقباطًا وغير أقباط. وذلك أكثر تطباقًا على لغة الكتابة، ولا ينفى أن الكثيرين من أهل الأنحاء ظلوا يتخاطبون بالقبطية، ولكنها كانت في طريقها إلى الزوال، حتى لم يبق منها في مطالع العصر الحديث إلا بقايا قليلة في دوائر ضيقة.

ولنلاحظ ـ إلى جانب ذلك ـ أن هذه العملية تمت في مصر دون إرهاق أو ضغط، بل لم تتم نتيجة لسياسة خاصة للدولة الاسلامية، فان الدولة لم تكن لها سياسة معينة في نشر الإسلام أو اللغة. وكان ذلك من حسن الحظ، فمن اختار الإسلام؛ اختاره طائعًا عن اقتناع، وتعلم العربية من تعلمها من تلقاء نفسه بدافع من مصالحه. بل إن المتتبع لأخبار مصر، خلال القرن الأول الذي تلا الفتح، يلاحظ وكأنما كانت سياسة الحكام دافعة إلى إحياء المسيحية المصرية، فقد قطع العرب صلة مصر بالدولة البيزنطية فتنفس المونوفيزيون الصعداء، وأقبلوا يرمون ما وهي من أمور عقيدتهم وكنائسها، وتركهم العرب ينظمون شئونهم الدينية كيف شاءوا:ينتخبون البطرك الذي يريدون ويعيدون بناء الكنائس المتهدمة، بل يبنون كنائس جديدة، ويزيلون الأسماء الإغريقية عن قراهم ونواحيهم ليحلوا محلها أسماء قبطية.

ومعظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية إلى الآن إنما بنيت أيام الأمويين، مثل كنيسة أبي مقار وكنيسة القديس مرقص بالإسكندرية ومار جرجس والكنيسة الحمراء المعروفة بأبي مينا وما إليها، بل كان كبار الفقهاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة يرضون عن ذلك ويقولون إنه "من عمارة البلاد". ولم تطبق على أقباط مصر القيود الخاصة باللباس والركوب والمباني والكنائس ـ التي نسبها نفر من الفقهاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ إلا في مناسبات قليلة، و لا نكاد نجد واليًا متشددًا في هذه الناحية إلا أعقبه ولد متسامح رحب الصدر يعيد أمر الأقباط إلى ما كانوا عليه. فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه في مصر في سلام حتى نهاية العصر الفاطمي بل بعده، فإذا كان قد أصابهم بعد ذلك حيف فقد أصاب المسلمين مثله، وكان الرعايا جميعًا مع حكامهم في بلاء منذ القرن السادس الهجري، مسلمين وغير مسلمين.

لهذا لا ينبغي أن نقف طويلًا عند ما يحصيه بعض المستشرقين من ثورات الأقباط على حكام المسلمين. ولو أننا أحصينا ثورات المسلمين أنفسهم على حكامهم لوجدناها أكثر وأبعد مدى، خاصة وأن هذه الثورات لم تشتد وتأخذ هيئة جديرة بالملاحظة إلا في عصر بني العباس. وأسباب هذه الثورات كلها مالية، وهي جزء من المتاعب المالية التي ارتبكت الدولة العباسية فيها. ويكفى أن نذكر أن أكبر هذه الثورات كانت في سنة ٢١٦/٨٣١ أيام المأمون ـ وهى الثورة التي أزعجت المأمون وجاءت به إلى مصر ليتلافى أمرها ـ فلم تكن هذه الثورة التي عمت الوجه البحري كله ثورة أقباط، بل شارك فيها العرب أيضا.

وخلاصة القول إن علاقة المصريون بالقبطية قد انتهت بانتهاء القرن الرابع الهجري وإن كان ذلك لا يمنع من تحدث بعض أبناء الوجه القبلي بها كلهجة خاصة بهم ولكن

لوقت قصير ثم غابت عن الوجود بين عامة الناس وظل استعمالها ضمن المؤسسة الدينية في مصر حتى القرن الحادي عشر الميلادي.

روايات المستشرقين وعلماء الغرب:

في كتابه "حجر رشيد" يحدثنا سير أرنست ألفريد والس بيدج عن كيف اندثرت اللغة القبطية: " **وقد استخدم الفاتحون العرب اللغة القبطية في مستنداتهم الرسمية لمدة قرن ونصف القرن عقب فتح مصر على يد عمرو بن العاص القائد الكبير التابع للخليفة عمر سنة ٦٤١ الميلادية، لكن بزيادة سيطرة العرب على البلد احتلت اللغة العربية مكانها. تم طرد الأقباط من الوظائف الحكومية في القرن الثامن الميلادي، وآنذاك اضطهدهم العرب وعاملوهم بقسوة، فارتدت أعداد كبيرة منهم في مصر والنوبة والسودان واعتنقت الإسلام واتخذت العربية لغة لها. وسرعان ما كف الناس عن استخدام اللغة القبطية، وعلى الرغم من استمرار الأقباط في كتابة الصلوات باللغة القبطية في كتب الطقوس الدينية، إلا أن القساوسة يقرؤنها من الترجمة العربية التي كانت وما زالت تدون بجوار النصوص القبطية جنباً إلى جنب. ويمكننا القول أن معرفة الكتابة الهيروغليفية اندثرت تمامًا. مع نهاية القرن الثالث الميلادي وأن اللغة المصرية أو القبطية. أصبحت لغة ميتة مع نهاية القرن الثاني عشر للميلاد.**"[٢٠١]

الخلاصة:

تكونت مصر العربية خلال القرون الأربعة أو الخمسة الأولى للهجرة تحت تأثير ثلاثة متغيرات كبرى هي:

١- هجرات القبائل العربية المتتابعة والممتدة والمكثفة.
٢- دخول الغالبية العظمى من المصريين القبط في الدين الإسلامي.
٣- تحول سكان مصر كلهم مسلمين ومسيحيين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية.

ومع ذلك، فإنه على الرغم من أن ثمة اتفاقًا بين بعض الباحثين على أن هناك صحوة حدثت للغة القبطية بعد مجيء العرب استمرت حوالي قرنين من الزمان - وفي تقدير آخر أنها انتهت عام ٢١٥ هـ[٢٠٢] - إلا أن تراجع اللغة القبطية بدأ يتم على مراحل. وعلى سبيل المثال: ففي المرحلة التي تقع بين الفتح العربي وبين صدور مرسوم تعريب

---

[٢٠١] سير أرنست ألفريد والس بيدج - حجر رشيد – ص ٢٠١

[٢٠٢] مراد كامل - القبط في ركي الحضارة العالمية – ص ٢٦ ، انظر أيضا أحمد مختار عمر تاريخ اللغة العربية في مصر – ص ٧٩-٨٠.

الدواوين (٨٧هـ - ٧٠٦ م) تبادلت اللغتان القبطية والعربية المفردات وأثرت كل منهما في الأخرى، وكان ميزان القوى بينهما متعادلاً.[٢٠٣]

وفي المرحلة التي بدأت تكسب فيها اللغة العربية الأرض نهائيًا من القبطية لم تختف هذه اللغة بكيفية مباغتة. ولكن الصراع بين اللغتين شهد بعض التطورات، منها:

١- إن اللغة القبطية بدأت تنسحب إلى الأديرة، حيث عكف الرهبان على دراستها ونسخ الكتب التي كتبت بالخط القبطي. أما الكنيسة فقد تمسكت بها في خدمة القداس كما أنها كانت تلقن لتلاميذ الكتاتيب الملحقة بالكنائس.

٢- إن كثيرين من القبط الذين كانوا يجهلون اللغة العربية كانوا يكتبونها بحروف قبطية حتى يسهل عليهم نطقها. ومع تقدم العربية كانت القبطية تكتب بحروف عربية وتوجد من هذه الكتابات مجلدات بالمتحف القبطي.

٣- عندما بدأت ترجمة الكتب القبطية إلى العربية كانت صفحة الكتاب تقسم إلى شهرين أحدهما للنص القبطي والآخر للترجمة العربية المقابلة.

٤- كان انتشار العربية في دلتا مصر أسرع منه في الصعيد وإلى هذا يشير المقريزي - وهو شاهد من القرن الخامس عشر- فقد جاء في الخطط: اعلم أن ناحية أدرنكة هي من قرى النصارى الصعايدة، ونصاراها أهل علم في دينهم وتفاسيرهم في اللسان القبطي، ونساء الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية.

٥- ويقدر بعض الباحثين أنه في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بدأت تظهر مؤلفات باللغة العربية لمؤلفين أقباط لم تعرف لهم مؤلفات بغير العربية. وإن منهم ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين وسعيد بن بطريق البطريرك الملكاني. على أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى قضية أثارت جدلاً غير قليل بين الباحثين وهي: متى كفت اللغة القبطية عن أن تكون لغة تخاطب بين أهل مصر خاصة بين من بقي من قبط مصر على ديانته؟ لدينا هنا مجموعتان من الآراء وذلك بغض النظر عما يمكن أن يكون هناك من اختلافات داخل كل مجموعة على حدة:

فيذهب أصحاب المجموعة الأولى إلى أن القبطية ظلت لغة الحديث حتى القرن الثالث عشر الميلادي في رأي وحتى القرن السادس عشر في رأي آخر، وإلى القرن السابع عشر في رأي ثالث.

ويميل أصحاب المجموعة الثانية إلى اعتبار أن القبطية كانت قد أشرفت على الزوال فيما بين القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد وأنها اختفت كلغة تخاطب في دائرة زمنية تقع بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

هنا لا بد من ملاحظة ما هو معروف لدارس نشأة لغة من اللغات وحياتها. إن اختفاء هذه اللغة لا يتم بكيفية مباغتة. فتظل هذه اللغة مستخدمة كلغة تخاطب على الأقل في

---

[٢٠٣] أحمد مختار عمر تاريخ اللغة العربية في مصر – ص ٣٠

جهة هنا أو مكان هناك دون أن يغير هذا الأمر من واقع أن اللغة التي حلت محلها قد أصبحت هي اللغة الوطنية السائدة.

ولعل تحول المصريين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية قبل انقضاء القرن الرابع الهجري لتصبح العربية لغة المصريين كلهم مسلمين ومسيحيين كان مبعث دهشة بعض الباحثين لأنه إذا كان الغزاة الجدد (العرب) قد استدرجوا رعاياهم إلى نسيان لغتهم القديمة وتبني لغة أخرى، فإن هذا ما لم يفعله الإغريق ولا الرومان، ولم ينجزه الأتراك فيها بعد.

وربما كان أساس هذه الملاحظة أن المجتمع المصري تعرض لهجرات وغزوات أجنبية شتى. لكن المصريين لم يتخلوا عن لغتهم. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن تحول المصريين إلى الإسلام كانت له سابقة في تحولهم إلى المسيحية وكان الإنجيل قد جاءهم مكتوبًا باليونانية. ومن ناحية ثالثة كان العرب قد فتحوا بلادًا غير مصر، ودخل سكانها الإسلام، لكنهم لم يغيروا مع ذلك لغتهم.

وفي تقديرنا إن وجه الصعوبة في تفسير هذه الظاهرة يرجع إلى عدد من الاعتبارات في مقدمتها:

١- إن تاريخ مصر الاجتماعي - وهو التاريخ الذي لم يكتب بكيفية متكاملة - هو وحده الذي يمكن أن يقدم التفسير الأكثر موضوعية لعملية حلول اللغة العربية محل اللغة القبطية. - وهذا ما نأمل حدوثه من المتخصصين في هذا المجال-.

٢- إن دراسة نشأة أي لغة من اللغات وتطورها واختفائها يرتبط في العادة بمعطيات علم الاجتماع اللغوي والانثروبولوجيا الثقافية فضلاً عن علوم أخرى منها علم الآثار. ومع التسليم بالتطور الكبير الذي في هذه العلوم فسوف يظل مع ذلك عدد من الفروض التي تبحث عن حلول.

وإذا كانت بعض الدول قد تحولت إلى العربية كمصر والشام ودول المغرب العربي وليبيا وامتنعت دول أخري عن هذا التحول كفارس ودول الغرب الآسيوي التي دخلت في الإسلام كباكستان وأفغانستان والهند وغيرها من الدول ألا يجعلنا ذلك نمعن النظر والتدقيق كثيرًا في هذه الإشكالية ألا يعني ذلك أن هذه اللهجات (المصرية القديمة والسورية القديمة والعراقية القديمة) كانت من أصل واحد مع اللهجة العربية وكل هذه اللهجات تندرج تحت لغة واحدة تشعبت منها هذه اللهجات لذلك كان يسيرًا تحول هذه الشعوب للغة العربية بعد الفتح الإسلامي لها؟ وأليس غريبًا ألا نتحدث العربية بلهجة واحدة وإنما نتحدثها بلهجات عدة كاللهجة المصرية ولهجة أهل الشام ولهجة أهل العراق ولهجة أهل الخليج والمغرب العربي ولهجة السودان ولهجة اليمن وعمان؟

وهذا يدفعني للقول: إن اللغة العربية لم تكن غريبة على مصر حين جاء الإسلام إليها فقد كان لها هناك تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل ظهور الإسلام، وربما قبل ظهور المسيحية أيضًا، حين كانت وفود القبائل العربية تقصد مصر إما للتجارة وإما للاستقرار.

وقد أشار المؤرخون اليونانيون بما فيهم استرابو[٢٠٤] (٦٦ ق.م) وبلينيوس[٢٠٥] (٧٠ م) إلى أن عدد العرب في عهدهم قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين نهر النيل في أعلى الصعيد. وكان لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر الأحمر والنيل. وقد وصف استرابو كذلك مدينة ققط Koptox بأنها مدينة واقعة تحت حكم العرب، وصرح بأن نصف سكانها يتكونون من أولئك العرب. وذكر هيرودوت أن الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل كانت مأهولة بقبائل عربية.

إذا هل كان العرب يعيشون في كانتونات[٢٠٦] منعزلين عن المصريين أو جيتوهات[٢٠٧] كما كان يعيش اليهود؟ وهل لم يكن بينهم أي تبادل مهما كان نوعه؟

المنطق يقودنا إلى إجابة واضحة بل كانوا مندمجين. فبلينيوس قال: إن نصف مدينة قفط كان من العرب فالجزء الثاني بطبيعة الحال كان من المصريين وبالتأكيد حدث تبادل في الثقافات والكلمات والألفاظ فمصر ليست كما صورها لنا البعض كانت جزيرة منعزلة عما يحيط بها من عرب في كل اتجاه منذ أدم العصور وحتى الآن.

وخلاصة القول أن اللغة العربية كانت تستخدم في مصر في فترة ما قبل الإسلام بين أبناء الجاليات العربية وعلى ألسنة التجار العرب وأن تبادلاً حدث بين اللغتين المصرية والعربية، أدى إلى ترك آثار من كلا الجانبين على الآخر ولكن دون أن يفقد أي منهما شخصيته.

وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل في الجزء الأخير من هذا الكتاب.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

---

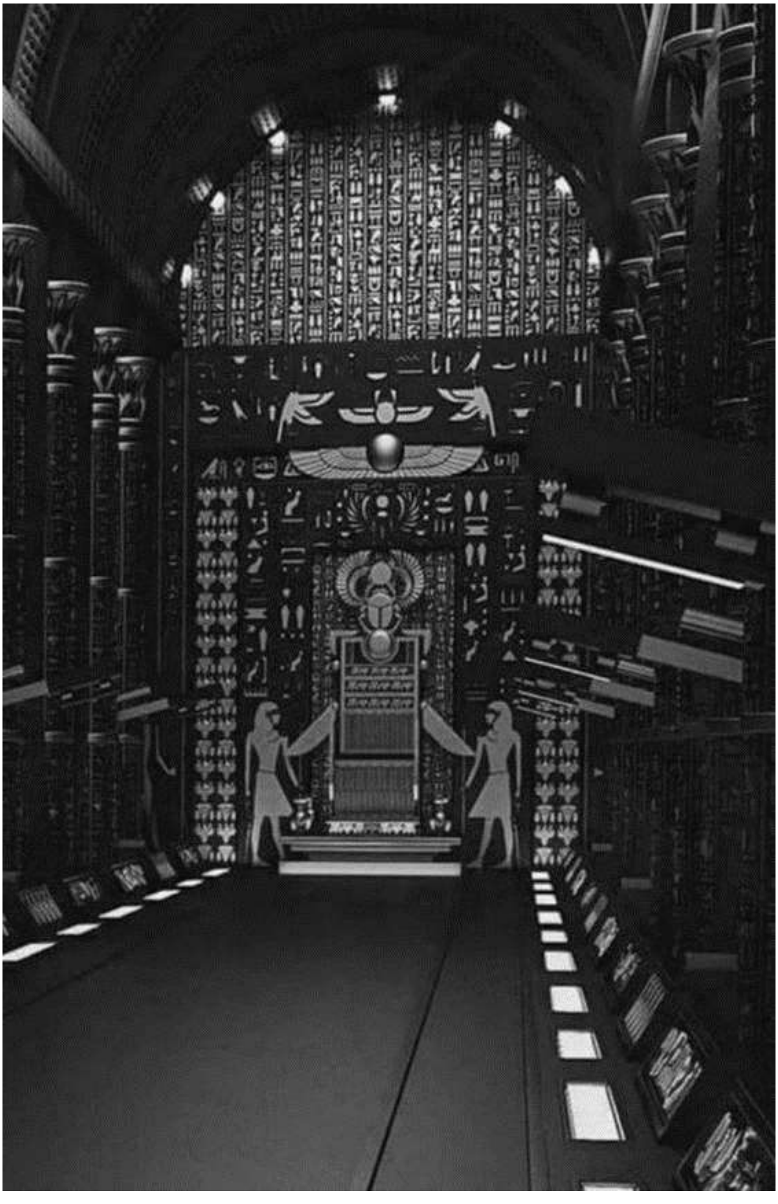
[٢٠٤] استرابو عالم جغرافيا وفيلسوف ومؤرخ يوناني، عاش في آسيا الصغرى خلال الفترة الانتقالية للجمهورية الرومانية إلى الإمبراطورية الرومانية، أطلق العرب عليه اسم «اسطرابون».

[٢٠٥] گايوس پلينيوس سِكوندوس Gaius Plinius Secundus (ع.٢٣ - ٢٥ أغسطس ٧٩م). اشتهر باسم پليني الأكبر، كتب الكثير من الأعمال التاريخية والفنية التي لم يتبق منها سوى ٣٧ مجلدًا من التاريخ الطبيعي، علمًا بأن هذا العمل كان يُستخدم في العصور الوسطى، وقيمته الوحيدة الآن هي أنه يكشف عن المعرفة العلمية خلال فترة بليني، ويعتبر بليني الأكبر أشهر مؤرخ روماني على الإطلاق فقد كانت كتاباته الجغرافية والتاريخية والطبيعية لها حيّز كبير في إثراء الثقافة الرومانيّة في تلك الحقبة.

[٢٠٦] الكانتون هو عبارة عن تقسيم إداري. عمومًا، الكانتونات صغيرة نسبيًا من حيث المساحة والسكان عندما تقارن بالتقسيمات الأخرى مثل المحافظات أو الإدارات أو الأقاليم. أشهر الكانتونات وأهمها سياسيًا هي تلك في سويسرا، والكانتونات في كوستاريكا.

[٢٠٧] يرجع أصل مصطلح "الغيتو" (Ghetto) إلى اسم الحي اليهودي في البندقية الذي تمت إقامته عام ١٥١٦، وأجبرت السلطات البندقية يهود المدينة على العيش فيه. وأمر الكثير من الزعماء مثل السلطات المحلية أو الإمبراطور شارل الخامس بتأسيس الأحياء اليهودية في فرانكفورت وروما وبراغ ومدن أخرى في القرن السادس عشر والسابع عشر.

البعث



البحث عن مفاتيح الكتابة الهيروغليفية

العرب ومفاتيح الهيروغليفية:

"كما عجبت من الصور والخطوط المرسومة بها المسلة التي جيء بها من الأقصر إلى باريس سنة ١٨٣١م) واختلاف أذواق البشر في طرق الكتابة، واشتقت إلى كتاب "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" لأحلّ به مُعَمَّى الكتابة. ومن الأسف أن هذا الكتاب لم ينشر إلى الآن بين أبناء العربية".

محمد المقداد الورتتاني[٢٠٨]

١٩٤١



ينبغي أن نلفت الانتباه إلى حقيقة تاريخيّة يقفز عليها كثير من الباحثين، بجعل فكّ الطلسم الفرعوني والكتابة الهيروغليفية سبْقًا غربيًا خالصًا أنجزه الفرنسي جان شامبليون بحلِّه لغز الرموز الهيروغليفية على "حجر رشيد" الفرعوني المكتشف شمالي مصر سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م؛ فقد سبقه علماء العرب - بما يزيد على ألف سنة- إلى جهود فك رموز الهيروغليفية.

ورغم ما يتردد من حديث عن الدور العلمي الكبير للحملة الفرنسية على مصر، وخاصة باكتشاف العالم الفرنسي "شامبليون" رموز الكتابة الهيروغليفية القديمة بفك رموز "حجر رشيد"، الذي كان بوابة التعرف على التاريخ المصري القديم وقراءته.

---

[٢٠٨] محمد المقداد بن نصر بن عمار الورتتاني. ولد في بلدة الكاف (غربي تونس)، وتوفي في تونس (العاصمة). (١٢٩٢ - ١٣٧٠ هـ) (١٨٧٥ - ١٩٥٠ م) عاش في تونس وفرنسا وسويسرا .له العديد من الكتب

ورغم أن الكتب التعليمية المصرية المعاصرة تفرد الصفحات لدور العالم الفرنسي "جان فرانسوا شامبليون" في عشرينيات "القرن ١٩" في فك رموز حجر رشيد؛ إلا أنه ببحث صغير عبر "جوجل" يتكشف لك أن هذا التسليم فيه انتقاص لدور علماء المسلمين في فك رموز الكتابة المصرية القديمة.
ومن المؤسف أنه لا توجد حتى الآن دراسات منشورة في حقل الآثار المصرية تشير من قريب أو بعيد إلى إسهامات العلماء العرب في مجال الكشف عن أسرار الخطوط المصرية القديمة، بالرغم من أن هذه الإسهامات العربية معروفة بالفعل للعديد من العلماء الأوروبيين في حقل الدراسات الاستشراقية. فعلى سبيل المثال نشر المستشرق النمساوي جوزيف همرفون برجسترال في عام ١٨٠٦ بمدينة لندن النص العربي مع ترجمة إنجليزية لكتاب ابن وحشية "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" والذي يعود إلى آخر القرن التاسع الميلادي. كما نشر بلوشيه عام ١٩٠٩ وما بعدها سلسة مقالات حول الغنوصية الإسلامية (مذهب العارفين بالله) والتي بين فيها نجاح بعض العلماء العرب في التوصل لمعرفة بعض الحروف الهيروغليفية.

لغة العصافير!

أما العرب فقد كان لدي بعضهم اعتقاد راسخ أن النقوش الهيروغليفية دون بها قدماء المصريين أسرار علم الكيمياء وخصوصًا طريقة تحويل المعادن العادية إلى معادن نفيسة فاجتهدوا في فك رموزها للوصول إلى هذه المعادلات[٢٠٩].
أطلق العرب على اللغة المصرية القديمة اسم (لغة العصافير)، لاحتوائها على كثير من صورها ففي الهيروغليفية تم استخدام صور العديد من الطيور (فطائر العقاب يرمز للحرف "أ"، وفرخ السمان يرمز للحرف "و"، والبومة ترمز للحرف "م")، ولقد بدأ بحثهم فيها في صدر الإسلام، فرأوا أن الخط الهيروغليفي طلاسم ورموز عسيرة الفهم، وتوهم المهتمون بعلم الكيمياء أنها رموز عن تحويل المعادن إلي معدني الذهب والفضة وتراكيب العقاقير، ومنهم من رأى أنها رموز كهنوتية ومنها من رأي كالصوفية أنها رموز روحانية.
ولكن لم تك هذه النظرة – العبثية - للهيروغليفية هي النظرة الوحيدة للعرب ولكن كانت هناك نظرات أخرى أكثر علمية.
الخط البرباوي:
"كان العرب يسمُّون الكتابة الهيروغليفية "القلم البَرْباوي" نسبةً إلى "البَرَابي" (واحدها بَرْبى/بِرْبا) وهي المعابد الفرعونية؛ كما نجد لدى النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) -في

[٢٠٩] من هؤلاء جابر بن حيان الذي دون هذه الاجتهادات في كتابين له اولهما هو كتاب (كشف الرموز) والثاني هو كتاب (الحاصل).

‘نهاية الأرب‘- الذي يحدثنا عن اكتشاف "بلاطة من الصوان الأسود كُتِبَ فيها بـ‘القلم البرباوي‘ ثلاثون سطرًا". ويدعوها القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) -في ‘صبح الأعشى‘- "الخط البرباوي" فيشير لوجود قبر فرعوني "في الهرم الكبير.. على بابه لوح من الحجر.. مكتوب بالخط البرباوي".

قلم الطير:

وربما سمَّوْها "قلم الطير" كما عند السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٦م) الذي يقول في ‘حُسن المحاضرة‘: "ولأهل مصر القلم المعروف بـ‘قلم الطير‘، وهو ‘قلم البرابي‘، وهو قلم عجيب الحرف"!

وهذا الشريف الإدريسي يفيدنا في كتابه أنوار الأجرام العُلْوِية في الكشف عن أسرار الأهرام بمعرفة بعض المسلمين قديما بقراءة الخطّ الهيروغليفي؛ فقد قال إن الخليفة العباسي المأمون (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م) في زيارته لمصر سنة ٢١٦هـ/٨٣١م أراد أن يطَّلع على سرّ الكتابات الهيروغليفية، فبحث عمن يعرفها "فلم يجد مترجمًا يترجم له عنها ويُعرب عن مُعْجَم ما اسْتَعْجَم منها غير أيوب بن مَسْلمة (ت بعد ٢١٦هـ/٨٣١م)، وهو شيخ من حكماء شيوخ المصريين دلّ المأمونَ حكماءُ مصر عليه..، فترجم للمأمون ما على الهرمين وعمودَيْ عين شمس، وما كان على حجر كان بالإصطبل من قرى كورة مدينة مَنْف".
وقد وثّق لنا ابن وحشيّة النبطي (ت ٣١٨هـ/٩٢٠م) هذا السبق العربي في فكّ رموز اللغة الهيروغليفية في كتابه "شوق المُسْتهام إلى معرفة رموز الأقلام"؛ حيث أورد في الباب الثامن منه تفسيرًا للرموز الهيروغليفية وشرحًا لغوامض معانيها. كما يلفت الأنظارَ نصٌ في كتاب "أخبار مكة" للمؤرّخ الفاكهي (ت بعد ٢٧٢هـ/٨٨٥م) يسجل فيه وجود كتابات على مقام إبراهيم ﷺ عند الكعبة بالخط الهيروغليفي، اكتُشفت صدفة حين خضع المقام لترميم سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م فوجدوا كتابات -لم يحسنوا قراءتها- في "كتاب بالعبرانية ويقال بالحميرية، وهو الكتاب الذي وجدته قريش في الجاهلية".
ويخبرنا الفاكهي -الذي كان شاهدًا على هذه الواقعة- أنه دوّن لنفسه نسخة من هذه الكتابات؛ فيقول: "وحَكَيْتُه كما رأيتُه مخطوطًا فيه، ولم آلُ جهدي" في دقة تصويره. ثم يكمل لنا قصة هذه الكتابات بما يفيد باكتشافهم أنها لم تكن عبرية أو حميرية الخط وإنما كتابة هيروغليفية خالصة، وذلك بعد وصول نسخته منها إلى رجل مغربي مقيم في مصر، وكان متخصصًا في فك الرموز الهيروغليفية بعد أن درس كتاباتها على مدى ٣٠ عامًا.
يقول الفاكهي: "فحدثني أبو الحسن علي بن زيد الفرائضي (ت ٢٦٢هـ/٨٧٦م) -و[كان] أخذ مني هذا الكتاب على المقام- فقال: حدثني أبو زكريا المغربي (ت بعد

٢٥٦هـ/٨٧٠م) بمصر، وقد أخذ مني هذه النسخة -يعني نسخة هذا الكتاب- فقرأتها عليه؛ فقال لي: أنا أعرف تفسير هذا، أنا أدرس البرابي -والبرابي كتاب في الحجارة بمصر من كتاب الأولين
-الخط الهيروغليفي- قال: فأنا أطلبه منذ ثلاثين سنة، وأنا أرى -أدري- أي شيء هذا المكتوب في المقام، في السطر الأول: «إني أنا الله لا إله إلا أنا»، والسطر الثاني: «ملك لا يرام»، والسطر الثالث: «أصباوت» وهو اسم الله الأعظم، وبه تستجاب الدعوة!"[٢١٠]
دون الإشارة من قريب أو بعيد لجهود العلماء العرب في هذا المجال ولا المحاولات الجادة من بعضهم للكشف عن معاني بعض الحروف والتوصل إلى وظيفة المخصصات في الكتابة الهيروغليفية.

موقف دكتور عبدالحليم نور الدين:

يقول عبد الحليم نور الدين[٢١١] في كتابه اللغة المصرية القديمة: " لقد ثبت مدى اهتمام بعض العلماء المسلمين العرب بالكتابة المصرية القديمة من خلال المخطوطات التي تركوها لنا، والتي تكشف عن طبيعة المحاولات التي قاموا بها، وهي محاولات كشف عنها بعض المستشرقين الأوربيين، مثل المستشرق النمساوي "جوزيف همرفون برجسترال" في عام ١٨٠٦ بمدينة لندن، حيث قام بنشر النص العربي مع ترجمة بالإنجليزية لكتاب "ابن وحشية":. "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام"، والذي يؤرخ للقرن التاسع الميلادي. وفي عام ١٩٠٩م نشر "بلوشيه" مجموعة من المقالات حول مذهب العارفين بالله، والتي أشار فيها إلى نجاح بعض العلماء العرب في التعرف على بعض العلامات الهيروغليفية.
لقد أبدى بعض العلماء في العصر الإسلامي اهتماما كبيرة بالخط الهيروغليفي، وخاصة علماء الكيمياء الذين تصوروا أن اللغة المصرية القديمة تحمل الكثير من أسرار الكيمياء، وخصوصا تحويل المعادن العادية إلى معادن نفيسة. وأبدى نفس الاهتمام

---

٢١٠ عبد القدوس الهاشمي - مغربي يسبق شامبليون لفكّ رموز الهيروغليفية وتوظيف للغرافيتي في الاحتجاج السياسي.. الكتابة على الجدران في الثقافة العربية - https://www.aljazeera.net/ على الرابط /
https://www.aljazeera.net/turath/٢٠٢٠/١٠/٢٠/%D٨٪A٣٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٧٪D٩٪٨٥٪D٨٪AA%D٩٪٨٧٪D٩٪٨٥-%D٩٪٨١٪D٩٪٨٣٪D٩٪٩١-%D٨٪B١٪D٩٪٨٥٪D٩٪٨٨٪D٨٪B٢-%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٧٪D٩٪٨A%D٨٪B١٪D٩٪٨٨٪D٨٪BA%D٩٪٨٤٪D٩٪٨A%D٩٪٨١٪D٩٪٨A%D٨٪A٩-%D٩٪٨٢٪D٨٪A٨٪D٩٪٨٤-%D٨٪A٣٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨١

٢١١ الدكتور عبد الحليم نور الدين (١ يوليو ١٩٤٣ - ١٦ نوفمبر ٢٠١٦) عالم آثار مصري، ورئيس مصلحة الآثار المصرية. لعب دورًا مهمًا في استعادة آثار مصر المسروقة بالخارج. وكان أستاذ اللغة المصرية القديمة، بكلية الآثار، جامعة القاهرة. وعميد كلية الآثار والسياحة، جامعة ٦ أكتوبر.

بعض علماء الصوفية اعتقادا منهم في أن غموض العلامات المصرية القديمة يتطلب جهدًا للكشف عنه.
لقد كان العلماء العرب على دراية بالصور المختلفة للعلامات المصرية القديمة، فالعلامة ابن الفاتك" (ق. ١٠-١١م) يشير إلى معرفة "بيثّاجورس" بخطوط اللغة المصرية القديمة، خط العامة (الديموطيقي)، وخط الكهنة (الهيراطيقي)، وخط الملوك (الهيروغليفي). وإذا أردنا أن نلقي الضوء في إيجاز على بعض العلماء العرب الذين حاولوا فك رموز الكتابة المصرية القديمة، فيأتي على رأسهم عالم الكيمياء "جابر بن حيان (ق. ٧-٨م) الذي ضمن كتابيه "كشف الرموز" و"الحاصل" محاولات لقراءة بعض رموز الكتابة الهيروغليفية.
ثم هناك العالم المصري "أيوب بن مسلمة" الذي صحب الخليفة العباسي " المأمون" خلال زيارته لمصر، وورد أنه تمكن من قراءة بعض النقوش المصرية القديمة، ومن أبرز العلماء العرب "ذو النون المصري" (القرن التاسع الميلادي) الذي ولد بأخميم (إحدى مدن محافظة سوهاج)، وذكر أنه كان يجيد قراءة النصوص التي سجلت على جدران المعابد. ومن أهم ما ترك من مؤلفات كتابه "حل الرموز"، و"برأ الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام"، والذي تضمن دراسات للكثير من الخطوط القديمة من بينها الهيروغليفية. وقد ورد في بعض صفحات هذا العمل بعض العلامات الهيروغليفية مصحوبة بالقيمة الصوتية كما تصورها.
ولعل أهم العلماء العرب في هذا الميدان هو "ابن وحشيه النبطي" من أهل العراق (القرن العاشر الميلادي) من المشتغلين بالكيمياء، وصاحب دراسة "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام"، والتي نشر نصها العربي مع ترجمة إنجليزية المستشرق النمساوي "جوزيف همرفون"، والتي ظهرت في لندن عام ١٨٠٩م، أي قبل أن يعلن العالم الفرنسي "شامبليون" عن اكتشاف الكتابة الهيروغليفية عام ١٨٢٢م.
ولعل أهم ما توصل إليه "ابن وحشية" هو معرفته للقيمة الصوتية لعدد من العلامات الهيروغليفية، وتوصله إلى أن العلامات التي ترد في نهاية الكلمات هي بمثابة مخصصات تساعد على تحديد معاني المفردات، وقد ثبت صحة بعضها.
ثم هناك أخيرا عالم الكيمياء العراقي "أبو القاسم العراقي المصري" (ق ١٣-١٤م) صاحب كتاب "الأقاليم السبعة"، والذي تضمن نسخة لبعض النصوص المصرية القديمة. كما تضمن جدولاً للحروف البرباوية (الهيروغليفية) جاءت قراءته لبعضها صحيحة.
وأبدى "المقريزي" اهتمامًا كبيرًا بالخط الهيروغليفي، وأورد ترجمة لبعض نصوص مصرية قديمة، وتمكن من وصف الأثر الوارد عليه النص وصفًا علميًا دقيقًا لا يقل كثيرًا عن القواعد المتبعة حاليًا في نشر مثل هذه النصوص.
قد آن الأوان إذا لكي نلقي الضوء على جهود علماء مسلمين عرب أجلاء حاولوا في إطار ظروف زمنهم ومنذ قرون طويلة مضت أن يبرزوا ليس فقط مجرد الاهتمام

بالكتابة المصرية القديمة من خلال لفت الأنظار إليها وإلى الآثار التي سجلت عليها، وإنما حاولوا كذلك استنطاقها ليتعرفوا على شيء من حضارة الأجداد في مصر القديمة، فبذلوا الجهد كل الجهد مدونين للنقوش، ومحاولين معرفة دلالاتها الصوتية، بل ومعانيها ودورها الوظيفي، وفتحوا بذلك الباب للمستشرقين من بعدهم لينهلوا من عملهم، وليبدأوا من حيث انتهى العلماء العرب، إلى أن تكلل جهد شامبليون" بالنجاح، مستكملاً مسيرة العلماء العرب في هذا الميدان.

وكون علماء الغرب تقدموا بكشف أسرار الكتابة الهيروغليفية وأسرار الحضارة المصرية فهذا يحسب لهم، ولكن هل يمكننا القول بأن شامبليون سرق جهد علماء المسلمين؟

والإجابة لا يوجد ما يثبت ذلك، ولكن باكتشاف حجر رشيد عام ١٧٩٩، ونجاح الترجمة عام ١٨٢٢، يثبت ولا شك أنه استفاد من جهد من سبقوه وأعمل عقله وراجع النصوص المصرية القديمة.

محاولات الغرب ما قبل اكتشاف حجر رشيد:

كانت المحاولات الأولى لفك طلاسم الهيروغليفية في القرن الخامس الميلادي ونلاحظ بأنها فترة قريبة جدًا بعد اندثار الهيروغليفية بسبب المراسيم اليونانية – مراسيم تحريم عبادة الآلهة القديمة وإغلاق المعابد الوثنية - التي تناولناها من قبل.

وكان الإغريق يعتقدون أن الهيروغليفية تكرس حكمة مصر القديمة الغيبية، التي لم يكن يصل إلى فهمها إلا الكهنة، الذين نسوا سر الرموز قبل فتح الإسكندر الأكبر. وكان المعتقد أن الهيروغليفية هي الشاهد الأخرس على وحي ضائع. وهي تحمل هالة من السحر: فلو أمكن فحسب أداء الطقوس الصحيحة والنطق بالكلمات السليمة، لأمكن استعادة القوة القديمة التي كانت لها ذات يوم[٢١٢].

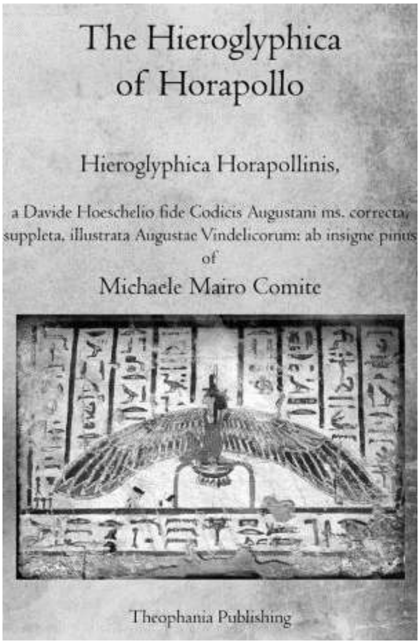
وسنتناول هذه المحاولات بشيء من التفصيل من أقدمها إلى أحدثها:

---

٢١٢ دونالد مالكولم ريد – فراعنة من؟ – ص ٤٩

أكثر التخيلات هذيانًا (هور أبوللون وتفسيراته الخيالية):

عرف التاريخ شخصًا يحمل اسمًا يعد نموذجًا لاندماج الأسماء المصرية - اليونانية (هور أبوللون)[٢١٣] (حور أبوللو، Hor - Apollon) بوضع كتابين[٢١٤] عن الهيروغليفية عام ٣٩٠ م[٢١٥] ويبدو أنه كتبهما في بداية الأمر باللغة القبطية، وقد نقل هذا المؤلف العجيب إلى اللغة اليونانية في القرن الخامس عشر وكان علماء عصر النهضة ينظرون إليه نظرة مجردة من أي نقد بل واختصوه بالقداسة التي كانوا يصفونها على كافة مؤلفات الكتاب القدامى، ظلت مؤلفات هور أبولون مفقودة حتى عام ١٤١٥، عندما عثر عليها الإيطالي كريستوفورو بونديلمونتي في جزيرة أندروس. وكان هور أبولون قد درس الكتابة "المبهمة " بصورة مستفيضة ودون أدنى تردد نقل خصائصها المميزة التي كان قد لحظها بصورة صحيحة وطبقها على الهيروغليفية. وخلال ذلك أطلق العنان "الأكثر التخيلات هذيانا" على حد تعبير هيرمان يونكر، عالم المصريات الألماني، فصورة "الصقر"، كانت وفق تفسيره تعني "الأم حيث إن جنس الصقور لا يضم - برأيه - غير الإناث" !، أما صورة "الإوزة" فكانت تعني "الابن"، إذ إن الإوز أشد الطيور شغفا بأبنائه! وضرب مثلاً بأنهم لكي يعبروا عن القوة كانوا يصورون قدمي الأسد الأماميتين إذ إنهما أشد أعضائه قوة، ولكي يعبروا عن مفهوم الإنسان القذر كانوا يصورون خنزيرًا، إذ إن القذارة تكمن في طبيعة الخنازير!، ومثل هذه المحاولات في التفسير تبدو ذات حظ وافر من الإقناع لكنها ذات



[٢١٣] هو المؤلف المزعوم لمقال عن الهيروغليفية المصرية ، تحت اسم "الهيروغليفية" ، والتي تعود إلى القرن الرابع – واسمه يعني حورس أبوللو ف "جور = حورس (إله مصري) " ، أبوللو = أبوللو (إله اغريقي) = Ὡραπόλλων = Gorapollo ، في القاموس البيزنطي للمحكمة ، تم تسمية جورأبولو كواحد من آخر ممثلي الكهنوت المصري ، ويذكر أنه قام بالتدريس في مدرسة في مينوفيس بالقرب من الإسكندرية في عهد الإمبراطور زينو

[٢١٤] أحدهما كتاب *هيروغليفيكا* لهور أبولو، والذي يُقال أنه كان كاهنًا مصريًا نَجَت أعماله في هيئة ترجمة يونانية ترجع إلى القرن الخامس تم اكتشافها في جزيرة أندروس عام ١٤١٩.

[٢١٥] تم العثور على المخطوطة اليونانية "الهيروغليفية" عام ١٤١٩ في جزيرة أندروس من قبل تاجر إيطالي ونقلها إلى فلورنسا ، حيث لا تزال محفوظة هناك. - نُشر "الهيروغليفية" في البندقية لأول مرة من قبل ألد مانوسيوس باللغة اليونانية عام ١٥٠٥ ، وفي عام ١٥١٧ – تم ترجمتها إلى اللاتينية

حظ أوفر من الخطأ. لقد شرح هور أبولون الهيروغليفات على أنها كتابة تصويرية فقط، لابد وأن يتخذ كل رمز منفصل فيها مفهومًا مستقلاً.
ومهما يكن في الأمر من غرابة فإن تصورات هور أبولون بقيت حتى مطلع القرن التاسع عشر آخر صيحة للعلم في ذلك الميدان، وتطلب الأمر تعاونًا خارقًا للمادة بين العقل والحدس من أجل إجلاء تلك الظلمات الخانقة التي بسطها هور أبوللو فوق الهيروغليفات، ومن أجل تمزيق الستارة التي غطى بها وجه الحضارة المصرية[٢١٦].
ومن المثير للدهشة أن يحظى هور أبوللو من مؤلفي القرن الخامس الميلادي بالتخليد على واجهة "المتحف المصري" بالقاهرة، فقد ثبتت قيمة كتابه "هيروغليفيكان"، ولكن طريقة قراءته للرموز الهيروغليفية ضللت العلماء عدة قرون.

المهرطق جوردانو برونو:


جوردانو برونو

كان فيلسوفًا إيطاليًا شهيًار. وكان راهبًا أيضًا في البداية ولكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة) وكان يرى أن النصوص الهيروغليفية تعتبر من بين أقدم النصوص التي عرفها البشر. والتي سبقت كل شيء تقريبا في الكتاب المقدس. وطور برونو نظرية مفادها أن سحر مصر القديمة لم يكن الأقدم فقط بل الدين الحقيقي الوحيد للبشرية. فيما بعد حوكم برونو بالهرطقة من قبل محاكم التفتيش الرومانية بتهمة إنكاره للعقائد الكاثوليكية الأساسية وهو يسعى لتأكيد تفوق الحكمة الهرمسية على المسيحية، ورغم أن إسحاق كازوبون أقام الدليل في ١٦١٤ أن قوانين هرمس كتبت بعد ظهور المسيحية، فإن الرؤية الأسطورية لمصر القديمة باعتبارها منبع الحكمة الصافية ظلت تلازم كثيرًا من الفلاسفة والمفكرين.
لقد احتفظت مصر بسمعتها كمصدر للسحر والحكمة الغامضة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. كان إسحاق نيوتن مفتونًا بالخيمياء المحكمة وكان من الطبيعي أن تتبنى حركات مثل الوردية Rosicrucian[٢١٧] والماسونيين Freemasons

---

٢١٦ أرنست دوبلهوفر - رموز ومعجزات " دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة – ترجمة ودراسة / عماد حاتم – دار علاء الدين للطباعة والنشر – ط ٢٠٠٧

٢١٧ وهى جمعية دينية سرية زعمت امتلاك اسرار الطبيعة والدين

" البنائين الأحرار"[٢١٨] الصور المصرية في طقوسهم السرية. لقد استمرت فكرة أن تكون مصر موطنًا لعلم التنجيم والعرافة أيضًا مسيطرة على الخيال.

جراءة عديمة النظير (الكاهن أثناسيوس كيرشر):

تم اللقاء الأول والحاسم بين كيرشر ومصر في شباير[٢١٩] كان ذلك عام ١٦٢٨ وكان أثناسيوس كيرشر قد نال المرتبة الكهنوتية فأوفدته الرئاسة لقضاء سنة واحدة تحت الاختبار، وفي شباير حيث كان عليه أن ينصرف إلى التأملات الروحية وهو منزو لنفسه، وحدث مرة أن عهدوا إليه بالبحث عن أحد الكتب فقلب الشاب المكتبة بأسرها لكنه لم يجد ضالته، غير أنه عثر بين كنوز المكتبة على مجلد مزين بلوحات جميلة وكانت اللوحات البديعة تمثل المسلات المصرية التي كان البابا سيكست الخامس قد أمر بإرسالها إلى روما رغم التكاليف الباهظة، واستقرت أنظار أثناسيوس كيرشر خاصة على الصور العجيبة التي كانت تغطي حوافي تلك الأعمدة الهائلة من أعلاها إلى أسفلها. وفي بادئ أمره فسر تلك الرسوم المدهشة على أنها صور تلقائية نقشتها أصابع الحجارين كزخارف عادية، إلا أن النص المؤلف الذي استغرق الباحث منذ اللحظة الأولى، سرعان ما أخرجه من ذلك التيه. فقد كان مسطورًا هنالك بصورة غاية في الوضوح، إن حكمة قدماء المصريين قد صيغت في هذه الرموز الهيروغليفية الغامضة وأنها نقشت في الحجر لكي يتخذ الجميع منها العبرة، بيد أن مفتاح فهم تلك الكتابة الغامضة كان قد ضاع منذ زمن بعيد ولم يتأت لأي إنسان من البشر الفانين أن يفتح ذلك الكتاب المختوم بأختام سبعة حينذاك اشتعلت روح باحث المستقبل بالرغبة في فك رموز الهيروغليفات وقراءة



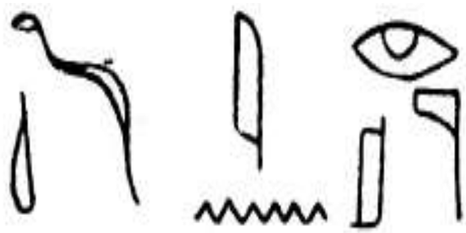
P. ATHANASIVS KIRCHERVS FVLDENSIS

---

[٢١٨] هي منظمة أخوية عالمية يتشارك أفرادها عقائد وأفكار واحدة فيما يخص الأخلاق، الميتافيزيقيا وتفسير الكون والحياة والإيمان بخالق (إله)، تتصف هذه المنظمة بالسرية والغموض الشديدين خاصةً في شعائرها مما جعلها محط كثير من الأخبار حول حقيقة أهدافها، في حين يقول الكثير من المحلّلين المتعمقين بها أنها تسعى للسيطرة على العالم والتحكم فيه وتوحيدهم ضمن أفكارها وأهدافها كما أنها تُتَّهم بأنها من "محاربي الفكر الديني" و"ناشري الفكر العلماني حينما يؤكد الكثير من المحللين في الشرق الأوسط أنها تابعة لتنظيمات صهيونية استنادًا للكثير من العقائد والأفكار المتشابهة معها".

[٢١٩] هي مدينة في ولاية راينلند بالاتينات وتعبر المدينة من أقدم المدن في ألمانيا ولذلك لمدينة شباير معني حضاري وتاريخي لدي الألمان.

النصوص وترجمتها. وتجرأ على الإمساك بالنصوص والبدء بالترجمة ونشر ما توصل إليه دون أن تكون لديه تلك المنطلقات الأولية المعروفة في مفاهيمنا الحالية، ودون أن يتسلح بذلك الحذر الذي يعتبر أيامنا الحاضرة القانون الفولاذي لأي عمل علمي وتعرض فيما يلي نموذجًا من ترجمته للشكل التالي: لقد فسر كيرشر هذه الهيروغليفات بما يلي: " **عودة كل شيء إلى الحياة بعد الانتصار على التيفون، رطوبة الطبيعة بفضل يقظة أنوبيس**" ومن السهل على أي شخص غير متخصص أن يدرك الكيفية التي توصل كرشر بها إلى هذه الترجمة، فرطوبة الطبيعة استمدها من الخط المتموج الذي يعني في الحقيقة "الماء"، أما "يقظة أتوبيس" فارتبطت في تصوره بصورة العين، وهو في مكان آخر ترجم اللقب الملكي الروماني - اليوناني "أوتوقراط" (الحاكم المطلق) المكتوب برموز مصرية بواسطة جمل كاملة لا تمت للقب بصلة ومن المهم أن نذكر أنه يستحيل قبول مثل هذا التفسير مهما اشتدت الرغبة إلى ذلك. هراء - هكذا وبكل حق وُصِفَت الترجمات التي وضعها كيرشر.



وهكذا فإن فك رموز الهيروغليفية وقراءتها لم يكسبا شيئًا من أبحاث كرشر فقد كان هو نفسه مسحورًا بجاذبية هور أبولون التي ستظل مسيطرة على الأذهان فترة طويلة من بعده[٢٢٠].

فكل " ترجماته " سواء في التفاهة، لكن الذين صدقوا أنه يمكنه قراءة الهيروغليفية المصرية توقعوا أن يستخرج منها معلومات سحرية غامضة، ومثل الأعمى الذي يرشد ضريرا، فعل ما أرادوه منه. عاش في عصر يتسم بالسذاجة والتعلق بالخرافة فكان نتاجا له.

الأسقف ويليام ووربيرتون يكسر فترة الجمود:

ومن جديد يطبق الظلام فيلف الطريق إلى فك الرموز الهيروغليفية، وليس من حقنا أن ننكر أن بعضًا من الحزم الضوئية تمكنت من النفاذ عبر هذا الظلام في القرن الثامن عشر وذلك مع الانطلاقة الكبرى لعلم الاستشراق، فالأسقف الإنكليزي الناشط ويليام ووربيرتون، وهو أكبر خصوم فولتير، تقدم سنة ١٧٤٠ بفرضية (تعاكس الآراء التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت) وتقول بأن الهيروغليفية ليست مجرد إيديوجرامات[٢٢١]

---

٢٢٠ أرنست دوبلهوفر - رموز ومعجزات " دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة – ترجمة ودراسة / عماد حاتم – دار علاء الدين للطباعة والنشر – ط ٢٠٠٧ – ص ٥١ وما بعدها

٢٢١ تمثيل الأفكار برموز تصويرية (إيديو جرام ideograms)، وهي شكل متطور للكتابة التصويرية التي تنقل فيها الأفكار عن طريق عرضها في صورة

بل إن النصوص الهيروغليفية لا تتضمن محتوى دينيًا فقط بل وعناصر لفظية أيضا، أما النصوص فربما احتوت على مضامين حتى من الحياة اليومية، كما لمس ذلك المضمون اللفظي للهيروغليفيات القسيس الفرنسي بارتيليمي وكان قد عمل شخصيًا وبصورة مستقلة على حل رموز الهيروغليفية، كما حدس بذلك المؤرخ والمستشرق جوزيف دي غين (الكبير) الذي قال في تقريره أمام أكاديمية النقوش الفرنسية١٤ تشرين الثاني سنة ١٧٥٦ بأن الصينيين - مستعمرون مصريون سبق أن أشرنا إلى أن الفرنسي دي غين أعلن الصينيين مستعمرين مصريين. غير أن الإنكليز سرعان ما تقدموا إلى الصفوف الأولى وعكسوا الآية فأجبروا المصريين على الخروج من الصين بينما بقيت أكاليل الغار على هامات الكشافة الأوائل، تقض مضاجع الروس الى أن برهن كوخ، مستشار البلاط في بطرسبرج، على أن قدماء المصريين كانوا يستعملون أبجديات خمس لا تزيد ولا تنقص، ولم تتوقف هذه الأخيلة الهذيانية ومثيلاتها عن الظهور حتى وعندما أنجزت الخطوات الملموسة الأولى نحو قراءة الرموز، وكل حين كان يطوف الشيطان ليغوي ضحاياه بالهيروغليفيات، فكانت تستنبط من نصوصها الغيبيات الأبيقورية[٢٢٢] والتعاليم السحرية والغيبية والفلكية والغنوصية السرية[٢٢٣] والإرشادات العملية المتعلقة بالزراعة ومقاطع كاملة من التوراة بل وآداب ما قبل الطوفان وبين الفينة والفينة كانت اللغة الصينية تغطي بضبابها العقول، بل لقد استنبط أحدهم، وهو الكونت بالين، وصفة طريفة إذ قال: خذوا مزامير داوود وترجموها الى الصينية الحديثة تم اكتبوها برموز الكتابة الصينية القديمة، تتحصلوا على نسخة من البرديات المصرية، فهل يحق لنا أن نستغرب بعد ذلك توصل ذلك الكونت إلى "النتائج الباهرة" فما أن يُلقي نظرة على حجر رشيد الشهير حتى "ينفذ إلى أعماقه من أول نظرة" معتمدًا في ذلك على هور أبولون وعلى تعاليم أبيقور وعلى أي حال فقد كان على ذلك الكونت أن يمضي ليل بكامله في سبيل ترجمة جزء من ذلك النقش، ونشرها سنة ١٨٢٤ في دريسدن. وهو يشير الى أن من الخطل إتعاب الرأس فمن المستحيل بغير منهجه التسارعي "حماية الذات من الأخطاء المنهجية التي لا تنجم إلا عن التفكير المتطاول الأمد ...."[٢٢٤].

واستمر تدفق تيارات الدراسات الزائفة التي جذبت أحيانًا انتباه رجال الآثار إلى الهيروغليفية:

---

[٢٢٢] هو فيلسوف يوناني قديم عاش في الفترة بين عامي (٣٤١-٢٧٠ ق.م)، أسس مدرسة فلسفية سميت باسمه هي المدرسة (الأبيقورية). والغيبيات يقصد بها اعتماد هذا المذهب الفلسفي على الأخلاق والغيبيات "ما وراء الطبيعة" كالتصوف والتجليات العرفانية والتنجيم والسحر

[٢٢٣] الغنوصية أو العرفانية أو المعرفية (بالإنجليزية: Gnosticism) هي مصطلحات حديثة تطلق على مجموعة من أفكار ومعارف من الديانات القديمة التي انبعثت من المجتمعات اليهودية في القرنين الأول والثاني الميلاديين. وبحسب تفسيرهم للتوراة، اعتبر الغنوصيون (أو العرفانيون) أن الكون المادي هو انبثاق للرب الأعلى الذي وضع الشعلة الإلهية في صلب الجسد البشري. ويمكن تحرير أو إطلاق هذه الشعلة عن طريق معرفتها، أي "أغنصتها".

[٢٢٤] أرنست دوبلهوفر - رموز ومعجزات " دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة – ترجمة ودراسة / عماد حاتم – دار علاء الدين للطباعة والنشر – ط ٢٠٠٧ – ص ٥٥ وما بعدها

الأب تاندو: الهيروغليفية نقوش زخرفية للمباني والتماثيل!

"ففي عام ١٧٩٢ أكد الأب تاندو أنها رموز عشوائية استخدمت كحلية للمباني والتماثيل التي وجدت عليها، وليس مقصود بها نقل أفكار أو كلمات.
وعارض تاندو في ذلك الشيفاليه دى بالن - رجل السحر والتنجيم - الذي أعلن في عام ١٨٠٢ أنه نفذ أخيرًا إلى السر: فلو أن مزامير داود قد ترجمت إلى الصينية ثم كتبت بالحروف القديمة لهذه اللغة، فسنجد أمامنا كل الكتابات والبرديات في مصر.
ويبدي الراهب تاندو دي سان - نيكولا رأيه في ذلك بقوله: "يا للهراء، فما الذي يستحق التفكير إذا كان من الواضح من دونه وضوح النهار أن الهيروغليفات مجرد زخارف وتزيينات بسيطة!"[٢٢٥].

جوزيف فون هامر- برجشتال و ترجمة لشوق المستهام



وفي عام ١٨٠٦ بدا أن المسألة قد سويت مرة أخرى حين نشر جوزيف فون هامر برجشتال[٢٢٦] ترجمته لكتاب «الأبجديات القديمة، بقلم أحمد أبو بكر بن وحشى، ولكن اتضح أن المؤلف دجال[٢٢٧]، وأن الكتاب لا يعدو أن يكون تهويمات عن الرموز القبلية، ونشر عالم المصريات والعملات الفرنسى مارى - الكسندر لينوار كتابه شرح جديد للهيروغليفية في أربعة مجلدات فيما بين عام ١٨٠٩ وعام ١٨٢١. وأوضح لينوار في هذه المجلدات أن الهيروغليفية مجرد شكل من أشكال العبرية، لكن هذا الكشف لم يجد تربة خصبة، شأن كشف الكونت كايلوس الذي أعلن في عام ١٨١٢ أنه هو قد نجح أخيرًا في كشف الرموز الهيروغليفية التي تغطي سقيفة معبد دندرة، فهي لم تكن شيئًا آخر سوى مزمور داود المائية الذي يدعو شعب مصر إلى دخول دار الرب.

---

[٢٢٥] بيتر فرانس - اغتصاب مصر – ص ٨٦

[٢٢٦] جوزيف فون هامر-برجشتال (بالألمانية: Joseph von Hammer-Purgstall) (١٧٧٤-١٨٥٦م) مستشرق نمسوي. ترجم أجزاء من سيرة «عنترة» و «ألف ليلة وليلة» كما ترجم تائية ابن الفارض إلى الألمانية مع نشر نصها العربي

[٢٢٧] هنا يرى بيتر فرنس أن ابن وحشية في كتابه شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام مجرد دجال في فكه لرموز الهيروغليفية!

ولم يكتم بعض القارئين المجهولين النتائج التي توصلوا إليها، فقد تحايل أحد الدارسين في باريس حتى وضع يده على المزمور المئوي في نقش على أحد المعابد في دندرة، وهكذا "أقيمت الحجة" على أن للهيروغليفيات علاقة بالعهد القديم!

بيد أنهم قطعوا مرحلة أبعد في جنيف حيث صدرت ترجمة لنقش المسلة المسماة بمسلة بامفيلي في روما، تلك الترجمة التي ظهرت فجأة أمام أعين المعاصرين المبهورة: كإعلان عن انتصار أرواح الخير على أرواح الشر، منقوش قبل أربع آلاف سنة من ميلاد المسيح!

بل إن الاوربيين في عصر التنوير نفسه كانوا ينظرون إلى الرسومات الغريبة التي تزين المعابد المصرية والمسلات وتمتلئ بها أوراق البردي المكتشفة في المقابل على أنها نوع من الطلاسم والأحاجي السحرية استخدمها السحرة القدماء لإبعاد المتطفلين وسارقي القبور عنها كما أوضحنا من قبل.



فقد كانت مصر في نظرهم الأرض القديمة الغامضة التي ينسب إليها السحرة بوتقة فنونهم المحظورة، ففي أوج عصر التنوير الأوربي شاعت الكتب عن علم السيمياء[٢٢٨] والسحر وادّعى كثير من كاتبيها أن مصدرها هو الكتابات الهرميسية لهيرمس تريسمبتيوس[٢٢٩]، وهو اسم يمثل مجموعة من الكتابات في السحر والسيمياء يرى الإغريق أنه الإله المصري توت[٢٣٠]، ورغم أن الباحثين كانوا يطعنون دائمًا في نسبة الكتابات وشخصية المؤلف إلا أن ذلك يوضح لنا كيف كانت مصر في نظر الغرب بنائية وقديمة وملغزة بحيث يسهل أن يستشهد بها بثقة الراغبين في استدعاء الأسرار الخفية وكشف الأسرار الغيبية[٢٣١].

---

[٢٢٨] هي مجال دراسة الطقوس والتقاليد التي تمارس من أجل التواصل مع الماورائيات أو مع وجوديات لا يمكن استيعابها في العالم المادي، مثل الآلهة، أو إحضاره، من أجل الاتحاد معها أو تحقيق الكمال الذاتي. يخطئ البعض بربطها بالسحر أو الشعوذة وهو خطأ شائع.

[٢٢٩] هرمس مثلث العظمة أي ثلاثي التعليم لأنه كان يصف الله بثلاث صفات ذاتية هي الوجود والحكمة والحياة. والذميّون والعرب المسيحيون يسمونه أخنوخ أما المسلمون فيطلقون عليه نبي الله إدريس - وتجمع المرويات على أن هرمس أول من اخترع الكتابة، وأول من كتب الصحف وخاط الثياب ولبسها، وأول من حصل على الخلود وأول من صعد إلى السماء.

[٢٣٠] تحوت أو توت إله الحكمة عند الفراعنة.أحد أرباب ثامون الأشمونين الكوني. يعتبر من أهم الآلهة المصرية القديمة، ويُصور برأس أبو منجل.. نظيره الأنثوي الإلهة ماعت ولقد كان ضريحه الأساسي في أشمون حيث كان المعبود الأساسي هناك.

[٢٣١] اغتصاب مصر " كيف جرد الاوربيين مصر من تاريخها" – بيتر فرانس - ص ٩

وهكذا استمر الجدل واستمرت الآراء تتدفق ؛ منها الطريف الذي اعتبر أن الصينيين هم مستعمرون مصريون، و آخر قال: إنك إذا أردت أن تحصل على بردية مصرية فما عليك إلا أن تأخذ مزامير داود وتترجمها إلى الصينية الحديثة وتكتبها برموز صينية قديمة فبهذه الوصفة أعطانا الكونت "بالين "كيفية الحصول على بردية مصرية ؛ ومنها الجاد نحو الآراء التي طرحها "أرافني كارستين نيبور"، التي توصل إليها بعد إقامته في القاهرة لعدة شهور بين عامي ١٧٩١- ١٧٩٢م، نجح فيها بتصوير العديد من النقوش المصرية القديمة، فقد طرح ملاحظتين مهمتين تجعلانه بحق - من واضعي أساس فك رموز الكتابة المصرية - بقوله إن الفارق الواضح بين الرمز الأكبر والأصغر يجعل من الرموز الكتابية الصغرى تقدم تفاسير ومعاني للرموز الكبرى، وأنها تحمل ملامح الأبجدية، وأردف قائلاً إن كان هذا صحيحًا فعلينا أن نبدأ بفك رموز هذه الكتابة بمساعدة اللغة القبطية. أما ملاحظته القيمة الثانية فكانت عن عدد الهيروغليفيات فقد اعتبرها أعدادًا غير كبيرة من الناحية النسبية، مما يجعل - كما يقول نيبور- من الصعوبة اعتبار المصرية بصورة كلية كتابة أديوغرافية.

الأب چان چاك بارتلمي وترجمة الخراطيش الملكية:

وجاءت أول خطوة محددة نحو ترجمة الهيروغليفية في بحث نشره عام ١٧٩١ عالم الآثار الأب چان چاك بارتلمي[٢٣٢]، فقد اقترح الأب أن الرموز الهيروغليفية الموجودة في حلقات بيضاوية ربما كانت أسماء ملكية، وهي فكرة خطرت كذلك لشارل دى جوين، المستشرق الفرنسي الذي كان يبحث عن أدلة تأييد نظريته القائلة أن الصين كانت ذات يوم مستعمرة لمصر، واستمدت كتابتها من الكتابة المصرية، ومن الباحثين الآخرين الذين تنسب إليهم الفكرة أحيانًا، هذه الفكرة الرئيسية عالم اللغة الدنماركى چورچ زويجا الذي نشر دراسة عن المسلات في عام ١٧٩٧- «أصول المسلات- وردت بها للمرة الأولى نسخ دقيقة من النصوص.

---

[٢٣٢] Jean-Jacques Barthélemy (٢٠ يناير ١٧١٦ - ٣٠ أبريل ١٧٩٥) عالم فرنسي

"البعث" فك ألغاز الكتابة الهيروغليفية: اكتشاف حجر رشيد:

" منذ أمد بعيد فقدت آخر بارقة من الأمل في فك رموز الهيروغليفيات"

ديفيد أوكيربلاد ١٨٠٢

" لقد نجحت "

شامبليون ١٨٠٢

اختفت الآثار المصرية في زوايا الإهمال والنسيان، وتعرض جانب كبير منها للتدمير والضياع، بعد أن قضى خلال القرن الرابع الميلادي على الديانة الوثنية في مصر، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام، وانزوت مصر الفرعونية خمسة عشر قرنًا، وطوى الماضي المزدهر السحيق لتحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والأراجيف، وتعتمد على الخيال. ظل الأمر كذلك حتى قيام الحملة الفرنسية على مصر ولذلك حكاية يجب أن تروى.

الحملة الفرنسية على مصر:

في عام ١٧٩٨ كون نابليون بونابرت ذو الثمانية وعشرين عامًا أسطولاً بهدف غزو إنجلترا في عقر دارها بعد أن يعبر المانش إليهم ولكن لفشل الحكومة في حينه في تمويل هذه الحملة فقد تم إلغاؤها، ولكن نابليون أقنع الديركتوار[٢٣٣] أنه يمكن ضرب النفوذ الإنجليزي في أوروبا عن طريق غزو مصر، وسارع رجال الديركتوار بالموافقة لأن نابليون القائد الوطني المتحمس قد خطف الأضواء من رجال الديركتوار ووجدوا في حملته على مصر الطريق الأمثل لإبعاده عن فرنسا وحب الجماهير.
"وكان بونابرت يعتبر مصر صيدًا سهلاً، فقد كانت البلاد نظريًا مركزا أماميًا للإمبراطورية العثمانية التي وصلت في نهاية القرن الثامن عشر إلى حد من الضعف والفوضى يمنعها من الدفاع عن نفسها. وطيلة أكثر من خمسة قرون ونصف كانت مصر خاضعة لحكم المماليك، وهم قوة عسكرية من سلالة الجورجيين والجركس، الذين يدفعون فحسب جزية صغيرة غير منتظمة للباب العالي و البلاط العثماني في الأستانة. وليس لدى المماليك سوى خيالة للدفاع عن أنفسهم ضد المدفعية الفرنسية، والإسكندرية، ميناء الهبوط، غير محمية ومفتوحة أمام الهجوم. وما أن تحتل مصر حتى يستطيع

[٢٣٣] أصحاب السلطة التنفيذية في فرنسا (الحكومة).

الجيش الفرنسي توجيه ضربة إلى الإمبراطورية العثمانية بل ربما حتى للهند البريطانية، ويستطيع أن يسير شمالاً وشرقا مقتفيًا آثار الإسكندر الأكبر بطل بونابرت، ولعله يعيد انتصاراته."[٢٣٤]

وكان بونابرت قد اختير عند عودته من إيطاليا في عام ١٧٩٧ عضوًا في أكاديمية العلوم، أحد أقسام المجمع الفرنسي. وربما لم يكن هذا الشرف راجعًا إلى تميزه الفكري قدر ما يرجع إلى إثرائه لمتاحف فرنسا بكنوز روما وفلورنسا - وبالتأكيد هو ما سيقوم به مع الآثار المصرية وسنذكره في وقت لاحق من هذه السلسلة -. وكان يعتز باختياره، واعتاد توقيع رسائله ومراسيمه بعبارة "عضو المجمع" قبل عبارة "القائد العام". كما كان يحضر اجتماعات الأكاديمية بانتظام، مرتديًا حلة الأكاديمي الفاخرة التي صممها جاك لويس دافيد [٢٣٥]. وخضعت مصر للاحتلال الفرنسي وبدأ رجالات المجمع العلمي الذين أحضرهم نابليون معه من فرنسا ليؤرخوا لهذه الفترة ويسجلوا كل كبيرة وصغيرة على أرض المحروسة ولينهبوا آثارها وخيراتها.

رب ضارة نافعة، والضارة هنا هي حملة نابليون الاستعمارية على مصر، لكنها - لو لم تنفع بشيء، - فقد نفعت بعثورها على هذا الحجر، الذي انتزعه منها عنوة مستعمر آخر(الانجليز). وسبحان مسبب الأسباب، فما كانت الحملة إلا وسيلة للعثور على هذا الحجر ليخرج من يد مستعمر أثيم إلى يد مستعمر أثيم آخر، ثم ينبري لدراسة نقوشه قوم من أهل العلم باللغات، فيسبقهم ويفوقهم فيزيائي (العالم الإنجليزي توماس يونج) لم تكن له صلة بهذا المجال، ويكمل عمله لغوى (جان فرانسوا شامبليون) من المعسكر الآخر الذي عثر على الحجر ثم فقده.

---

[٢٣٤] بيتر فرانس – اغتصاب مصر – ص ١٤

[٢٣٥] كان رسامًا فرنسيًا وأحد أبرز فناني المدرسة الكلاسيكية الجديدة.

حجر رشيد



حجر رشيد المحفوظ في المتحف البريطاني

"القاعة الجنوبية للآثار المصرية، رقم ٢٤" عليه نقوش باللغة اليونانية القديمة وبالديموطيقية والهيروغليفية ، لنص المرسوم الذي أعلن في مجلس عمومي كبير للكهنة من كل أنحاء مصر ، تم عقده في منف احتفالاً بالذكرى الأولى لارتقاء بطليموس الخامس ابيفانيس عرش مصر ، في عام ١٩٧-١٩٩ ق.م.، أي في السنة التاسعة من عهد الملك.

غير بعيد عن الإسكندرية تقع "رشيد" عند أسفل الفرع الغربي (الفرع القانوبي)[٢٣٦] لنهر النيل، حيث يتعانق والبحر، تلك التي انحدر ساكنوها من شعب مصر القديمة، ذلك الذي استقر وعاش بدلتا ووادي نهره منذ آلاف مؤلفة من السنين.

[٢٣٦] عرف فرع رشيد قديما بالفرع القانوبي نسبة الى (قانوب) ابو قير الحالية

وفي أقصى البلدة، ترتفع بين البيوتات المتناثرة قلعة قايتباي[٢٣٧] كأنها الملكة بين وصيفاتها. ومع ما في هذه القلعة من تشابه بمثيلاتها ـ مثل قلعة الإسكندرية، المعاصرة لها ـ فهي تختلف عنهما فيما ضمت بين جدرانها من حجر كان بمثابة مفتاح كشف عن أسفار مصر القديمة وحل طلاسم خطوطها وكأنه نطق بلغة الأجداد.

يقال[٢٣٨] (في أغسطس سنة ١٧٩٩ بينما كان (بوشار) أحد جنود الحملة الفرنسية مكلف بالعمل في قلعة رشيد (قايتباي)، عثر على حجر مبني في جدار قديم[٢٣٩]، كان لابد من هدمه لوضع أساس (قلعة سان جوليان)[٢٤٠]، وسرعان ما علم قنصل الاسكندرية المستر هاريس أن الجنرال (مينو) قد أمر باستحضار الحجر إلى منزله بالإسكندرية، بعد أن نظفوه واعتنوا به كى لا يصيبه أي خدش وعلم الدكتور (ابرش)، وهو الذي قال أن الحجر كان مقامًا بمعبد (توم) أو (توموس) أو (الشمس الغاربة) وذلك في عهد نقطانب[٢٤١] في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، ونقل الحجر الى القاهرة[٢٤٢]، على أن الأخبار ما أن ترامت إلى "نابليون" حتى أمر بتسليمه إلى المعهد العلمي المصري لدراسته وتحقيق رموزه، فلما أن استعصى على دارسيه، أمر باستنساخه، وإرسال نسخ منه إلى علماء أوربا آنذاك، وسرعان ما ذاع خبره في العالم، ثم نقل إلى لندن في فبراير سنة ١٨٠٢.

والحجر قطعة غريبة غير منتظمة من البازلت، بل صحيفة أثرية. قدر لها أن تشغل الباحثين بما أحدثت من أثر خطير في تراث العالم القديم عامة، إذ أفضت إلى كشف السر عن تاريخ وحضارة مصر، إذ عثر عليه كسيرة قمته مفتقدًا جزءًا من زاويتيه اليمنى واليسرى من أعلى، وجزء من زاويته اليمنى من أسفل، فضلاً عن شرخ نطاق النص الإغريقي من السطر العشرين. وقد تم البحث بعناية عن هذه الأجزاء المفقودة من اللوح عقب اكتشافه مباشرة إلا أنه لم يتم العثور عليها. وتشير هذه الحقيقة إلى أن اللوح

---

[٢٣٧] قلعة امر ببنائها الأشرف قايتباي سنة ١٤٧٢ م – ٨٧٧ هـ على الشاطئ الغربي لفرع النيل شمالي رشيد بحوالي ستة كيلومترات

[٢٣٨] لا نعرف ظروف اكتشاف حجر رشيد بالضبط ، وهناك شك في اسم مكتشفه. لكن لا شك أنه قد عثر عليه في أغسطس ١٧٩٩ ، بينما كان الفرنسيون - الذين احتلوا رشيد سنة ١٧٩٨ - مشغولين بإصلاح أو زيادة التحصينات الواقعة شمال البلدة. وتعددت الروايات حول مكتشف الحجر هل هو البارون بوسار أم أنه الجندي بوشارد. راجع حجر رشيد واكتشاف أسرار اللغة المصرية للسير أرنست الفريد و والس بيدج ص ٣٣ النسخة المترجمة الى العربية.
ومن الغريب أن الحملة الفرنسية التي لم تترك مكانًا في مصر إلا وانتهكته تصويرًا وتحليلاً أن تترك مثل هذا الحدث بدون توثيق.

[٢٣٩] الراجح أن العثور على الحجر كان في موقع البرج الشمالي الشرقي من قلعة قايتباي جزء من جداره.

[٢٤٠] أدخل الفرنسيون تعديلات على أبراج قلعة قايتباي وأحاطوها بناء من الأجر وجعلوا كلا من البرجين الشمالي الشرقي والشمالي الغربي في شكل متوازي أضلاع بدلاً عن الاستدارة وأطلقوا عليها اسم قلعة سان جوليان

[٢٤١]نختنبو الثاني ويُعرف أيضاً باسم نقطانب الثاني (الاسم باللغة المصرية نخت حورب أو نخت حر حب يعني "قويٌ هو حورس حبيت")، حكم بين أعوام ٣٦٠-٣٤٢ قبل الميلاد

[٢٤٢] تتضارب الروايات حول مآل الحجر هل كان في بيت الجنرال مينو أم تم إرساله مباشرة الى المعهد القومي بالقاهرة.

قد تحطم أثناء نقله من المكان الذي أقيم فيه إلى الجدار الذي وجد بين أحجاره، ولا يمكن تقدير مساحة الجزء المفقود من أعلى الحجر، استنادًا إلى النسبة الموجودة بين أطوال النقوش الثابتة عليه، يمكننا أن نفترض أن الحجر عندما كان كاملاً كان أطول بمقدار ٤٥-٦٠ سم عن الطول الحالي. يبلغ ارتفاع هذا الحجر ١١٣ سم، وعرضه ٧٥ سم، وسمكه ٢٧,٥ سم [٢٤٣].

هذا الحجر من البازلت الأسود الصلد مكتوب بثلاث خطوط هي بالترتيب من أعلى إلى أسفل الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية، ويرجع تاريخه إلى ما يقابل ٢٧ مارس ١٩٩ ق.م في أيام الملك بطليموس الخامس أبيفانس الذي حكم مصر فيما بين ٢٠٣ و ١٨١ ق.م.)[٢٤٤].

بداية المعارك بين الإنجليز والفرنسيين:



(عند سماع نابليون بحجر رشيد أمر بطبع عدة نسخ لترسل إلى العلماء في أوربا ثم نقل إلى منزل الجنرال مينو بالإسكندرية. وكان مينو قد عُيِنَ قائدا للقوات الفرنسية بعد مغادرة نابليون لمصر في أغسطس ١٧٩٩، وفي عام ١٨٠١ وقع مينو معاهدة التسليم مع الإنجليز والتي جاء بها أن يعود الجيش الفرنسي إلى بلاده على سفن إنجليزية ونصت الفقرة السادسة عشرة من هذه المعاهدة أن تسلم معظم الآثار المصرية التي كانت في حيازة الحملة الفرنسية ومن بينها حجر رشيد إلى الإنجليز.

أما العلماء بالإسكندرية - يقصد علماء الحملة الفرنسية - فكان لهم موقف محمود في الدفاع عن ثمرة جهودهم العلمية، عندما طلب الإنجليز في المادة السادسة عشرة من الشروط التي عرضوها على مينو أن يسلم أعضاء المجمع العلمي المصري ولجنة

---

[٢٤٣] شحاتة إسماعيل - قراءات في حجر رشيد – ص ١٣

[٢٤٤] إبراهيم إبراهيم عناني – حجر رشيد وعلم المصريات (دراسة في اللغة المصرية القديمة ورموزها – ص ٤

العلوم والفنون كل ما لديهم من أوراق ومذكرات ورسوم ومجموعات علمية (في التاريخ الطبيعي)، إلى ما جمعوه من آثار (بما في ذلك حجر رشيد). فقد عارض العلماء في ذلك. وكتبوا إلى مينو خطابًا شديد اللهجة قالوا فيه إن القائد العام الفرنسي إذا كان يحق له أن يبت في مصير الجيش والمستعمرة، ويتصرف في مهمات الجيش وعتاده، فإنه ولاشك يتجاوز سلطاته إذا اعتقد أن من حقه أن يفصل في ثمرة جهود العلماء التي هي ملكهم الخاص. ومما يذكر لمينو بالثناء، أنه أقر العلماء على وجهة نظرهم، على الرغم من كبريائه وغروره. ووعد بأن يطلب من الإنجليز تعديل هذه المادة، ولكنه فشل في مسعاه وأصر الإنجليز على التوقيع على شروط التسليم بأكملها بما فيها المادة السادسة عشرة.

سرقة الإنجليز لحجر رشيد:

ومازالت على ظهر الحجر ملحوظة، استولى عليه الجيش البريطاني Captured by British Army ونقلت هذه الآثار إلى إنجلترا عام ١٨٠٢ وأودع الحجر في الجمعية الأثرية بلندن ثم نقل إلى المتحف البريطاني منذ نهاية عام ١٨٠٢ ومازال معروضا حتى الآن على الجمهور ويعتبر من بين أهم القطع الأثرية المصرية المعروضة في المتحف البريطاني.

ولقد فقدت منه الجوانب العليا: اليسرى واليمني وكذلك الجانب الأسفل الأيمن، وعرف مضمون الحجر من النص اليوناني المنقوش في الأسفل منه والذي قرأ " ستيفان وستون Stephen Westan " ترجمة له أمام الجمعية الأثرية بلندن، والنص يحتوي على "مرسوم منف" أصدره الكهنة المصريون [٢٤٥] المجتمعون في عاصمة البلاد القديمة وتقع إلى الجنوب من القاهرة بحوالي ٢٠ كم، لتكريم الملك بطليموس أبيفانس ويرجع إلى عام ١٩٦ ق.م، ومن المعروف أن الإسكندر الأكبر كان قد فتح منطقة الشرق وبعد وفاته المبكرة عام ٣٢٣ ق.م. قسمت الامبراطورية بين قادته، وكانت مصر من نصيب الجنرال بطليموس الذي توج نفسه ملكًا على البلاد عام ٣٠٤ ق.م. وبذلك بدأت المرحلة التاريخية المعروفة بعصر البطالمة في مصر. وخامس هؤلاء الحكام الذي نتحدث عنه، وبمناسبة الاحتفال بعام تتويجه التاسع صدر هذا المرسوم الذي يبدأ بمقدمة بها ألقاب

[٢٤٥] يقول هشام كمال الدين الحناوي في مقدمة ترجمته لكتاب حجر رشيد وكشف أسرار اللغة المصرية القديمة للسير أرنست الفريد وواليس بيدج (منذ نصف قرن حوالى ١٨٨٠م اعتقد بعض علماء المصريات البارزين أن المرسوم ثنائي اللغة المنقوش على حجر رشيد قد أعده الكهنة - المجتمعون في منف سنة ١٩٧-١٩٦ ق.م. - بالديموطيقية ، وأن النص اليوناني ما هو إلا ترجمة له. وقد بدا هذا الرأي معقولاً في ذلك الوقت ، إذ أن قلة من علماء المصريات حينئذ كانت لديها معرفة كافية بالديموطيقية. لكن الدراسات التي قام بها علماء الديموطيقية خلال العشرين سنة الماضية في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين أثبتت أن المسودة الأصلية للمرسوم كتبت باليونانية ، و أن النص الديموطيقي على حجر رشيد هو ترجمة غير دقيقة لها.)

الملك والتاريخ وبعدها ذكرت الأعمال التي قدمها للبلاد وخاصة المعابد التي قدم إلى معبوداتها الهدايا[٢٤٦].
لقد فشل الفرنسيون في إقامة امبراطورية في مصر، وانتهت المغامرة دون تحقيق ميزة عسكرية وإن كانت سلطة المماليك قد تمزقت، غير أن شيئًا هائلاً قد تحقق: فللمرة الأولى أصبحت مصر مفتوحة أمام أبحاث المؤرخين وعلماء الآثار. ووفر لهم المجمع العلمي دليلا ضخما. وإذا كان الفرنسيون قد عجزوا عن فتح مصر وفشلت حملتهم، فقد نجحوا نجاحًا رائعًا في وصفها في ذلك العمل الهائل وصف مصر، الذي نشر في باريس فيما بين عامي ١٨٠٩ و ١٨٢٨ في ثلاثة عشر مجلدًا من اللوحات الرائعة، وعشر مجلدات أخرى من الكتابات.

اللص الذي شيد المجمع العلمي بمصر!

وإذا كان بونابرت قد أرسى أسس علم المصريات فقد انغمس كذلك في ممارسة عرقلة تطوره، فقد حمل معه وهو يغادر مصر سبعة قطع أثرية صغيرة ليهديها إلى جوزفين التي وضعتها في مالميزون. وعرض أحدها - وهو تمثال من الدولة الوسطى المصري جالس - للبيع بعد قرن، واشتراه لورد أمهيرست أو هاكنى، وفي عام ١٩٢١ اشتراه بارون الصحافة الأمريكية ويليم راندولف هيرست من مزاد أمهيرست وانتهى به الأمر إلى متحف بروكلين. لقد بدأ في حماس نهب كنوز مصر[٢٤٧].
ورغم استيلاء الإنجليز على حجر رشيد وتفوقهم في معركة الاستيلاء على آثار مصر وانتزاعها من الفرنسيين إلا أن الصلة الفرنسية لم تنقطع بحجر رشيد، فقد كان لدى العلماء نسختهم الخاصة من الحجر في باريس ضمن النسخ طبق الأصل الذي أمر نابليون بإعدادها فقد (استدعى خبيران في الطباعة بالحجر هما المواطنان مارسيل Marcel وجايان Galland" من باريس على عجل، وأعدا نسخًا من نصوص الحجر بتحبيره بحبر طباعة ودحرجة أفرخ من الورق عليه. لم يقنع نابليون بهذا، فأمر المواطن رافينو Raffineau بعمل طبعة (بصمة) كبريت للحجر ليستخدمها الأستاذ أميلون Ameilhon في باريس، والذي أمره نابليون بترجمة النص اليوناني، وفي خريف سنة ١٨٠١، عاد الجنرال ديجا Dugua إلى باريس وأخذ معه نسختين من نقوش حجر رشيد من صنع "المواطنين مارسيل وجايان"، وقدمهما لمعهد باريس القومي)[٢٤٨]، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع الإنجليزي الفرنسي ولكن هذه المرة في محاولة نيل السبق في ترجمة نصوص حجر رشيد وفك أسرار الخط الهيروغليفي.

---

[٢٤٦] إبراهيم إبراهيم عناني – حجر رشيد وعلم المصريات – ص ٥ وما بعدها
[٢٤٧] بيتر فرانس – اغتصاب مصر – ص ٢٩ وما بعدها
[٢٤٨] سير أرنست الفرد – والس بيدج – حجر رشيد وكشف أسرار اللغة المصرية القديمة – ص ٣٣ - ٣٤

عندما نطق الحجر!

عهد الجنرال ديجا بنسخ من التي اصطحابها معه إلى باريس لعناية مواطنه(دو تيل)، الذي قرأ النص اليوناني فورًا، وأعلن في الحال أن الحجر "أثر لعرفان بعض كهنة الإسكندرية - أو مكان مجاور - نحو بطليموس أبيفانس بالجميل". ومضى قدمًا ليقول أن النصين الأول والثاني على الحجر يحتويان على تكرار المحتويات النص اليوناني، وأن السطر قبل الأخير من النص اليوناني أمر بوجوب نقش نسخة من مرسوم الكهنة على لوح من الحجر الصلب بالحروف المقدسة، وبحروف البلد – يقصد الديموطيقية الخط الشعبي، وبالحروف اليونانية، وعليه فالنص الأول على الحجر يجب أن يكون مكتوبًا بالهيروغليفية، والثاني بالحروف المحلية أي (الديموطيقية). شد هذا البيان لفوره انتباه أهل العلم في أنحاء العالم إلى الحجر، إذ كان من الجلي أنه بواسطة النص اليوناني يحتمل التمكن من حل شفرة الهيروغليفية المصرية وكذا الكتابة المحلية الديموطيقية في مصر.

كان هذا هو الموقف في فرنسا فالمواطن (دو تيل) وصف بشكل صحيح أنواع الخطوط الثلاثة التي نُقِشَت على حجر رشيد فجعل لفرنسا السبق في ذلك كما كان لها السبق في اكتشاف الحجر. أما في إنجلترا التي لم يكن لها أي خطوات مؤثرة متعلقة بحجر رشيد وبالخطوط المصرية إلا الاستيلاء على الحجر وعلى الآثار المصرية من الحملة الفرنسية ولكن في أبريل من عام ١٨٠٢ قام ستيفن ويستون[٢٤٩] Stephen Weston عضو جمعية دارسي الآثار ترجمة قصيرة للنقش اليوناني على حجر رشيد مع بعض الملاحظات النقدية عليها.

وقامت الجمعية بإعداد أربع طبعات (بصمات) للحجر بعجينة باريس (جص) لإرسالها للجامعات البريطانية كما تم حفر صور طبق الاصل للنص اليوناني وارسال نسخ للجامعات الاجنبية، وكانت الجمعية تأمل أن يحاول بعض أعضاء الجمعيات العلمية الأجنبية أن يسدوا الثغرات التي تسبب فيها كسر أجزاء من الحجر ولما لم يتلقوا إجابة من أي نوع قام ستيفن ويستون بتقديم ترجمة كاملة للنقش اليوناني، قرأها أمام الجمعية في اجتماعها في الرابع من نوفمبر سنة ١٨٠٢، حيث قام بتعويض مواضع النقص التي نجمت عن الكسور ببراعة، وفي الحادي عشر من نوفمبر، تسلم أمين السر خطابًا محررًا باللغة الفرنسية من الأستاذ هاين [٢٥٠]من جامعة جوتنجن[٢٥١] Göttingen، ينطوي على رسالة باللغة اللاتينية للجمعية، مصحوبة بترجمة لاتينية للنقش اليوناني،

[٢٤٩] رجل دين وأثري وأديب إنجليزي ١٧٤٧ –١٨٣٠

[٢٥٠] كريستيان جوتلوب هاين Christian Gottlob Heyne مين مكتبه و أستاذ جامعي و مؤرخ الفن و باحث فى تاريخ العصور الكلاسيكية و عالم آثار و باحث أنثروبولوجيا الماني الجنسية

[٢٥١] جامعة ألمانية مقرها مدينة غوتنغن.

مع عدد كبير من التعليقات عليها. وهذه الترجمة شديدة القرب وإن لم تكن مماثلة بالضبط لتلك التي قدمها الأسقف ستيفن وستون.
تم ترجمة النص اليوناني على حجر رشيد و(تأويل) الجزء المفقود منه نتيجة لكسر الحجر وعدم العثور على الأجزاء المكسورة بواسطة الاسقف الانجليزي ستيفن ويستون والألماني الأستاذ هاين أما النص الهيروغليفي فلم يحدث تقدم حقيقي في حل رموزه لمدة اثني عشر عامًا وانتشرت في هذه الفترة كتب المهووسون وهواة البدع والتقاليع عن الهيروغليفية وهم عادة في غاية الجهل، ولديهم فكرة واحدة هي إثبات أن النقوش المصرية هي المقتطفات من الكتاب المقدس. وذهب وأحد منهم بعيدًا إلى أقصى مدى ليصرح أن النقش الموجود على الرواق ذي الأعمدة في معبد دندرة هو المزمور رقم ١١٩ !

محاولات بائسة:

شيخ المستشرقين " سلفستر دي ساسي "[٢٥٢]



أول من حاول فك رموز هذا الحجر هو «سلفستر دي ساسي» عام ١٨٠٢، وكان عالمًا باللغة العربية، وقد كانت محاولته منصبة على القسم الديموطيقي ظنًّا منه لتشابه هذا الخط بالكتابة العربية الرقعة وجود علاقة بينهما.
نجح دي ساسي في تحديد ثلاث مجموعات من الرموز التي كانت مطابقة لأسماء تكرر وجودها في النص اليوناني وهي: بطليموس، إلكسندر (الإسكندر)، والإسكندرية.
غير أن جهوده هو و أكربلاد لم تفلح إلا في معرفة خرطوش بطليموس..

[٢٥٢] أنطوان إيزاك سِلفستر دي ساسي أو كما أورد رسمه في كتبه «البارون سلوسترى دساسى» هو مستشرق فرنسي، لقّبه البدوي بـ «شيخ المستشرقين الفرنسيين». عمل في معهد اللغات والحضارات الشرقية بباريس ويُعتبر استاذًا للأساتذة في اللغات الشرقية ولا سيما اللغة العربية. درس اليونانية واللاتينية ثم العربية والعبرية. ٢١ سبتمبر ١٧٥٨ - ٢١ فبراير ١٨٣٨

أكربلاد السويدي مرهف الحس:

"السويدي "دافيد أوكير بلاد" فحال استلامه لنسخة مصبوبة من حجر رشيد، أرسلها إليه "دي ساسي"، عكف على دراستها، ونظرًا لخلفيته باللغة القبطية (وهو ما نادى به الرحالة المشهور نيبور)، إلى التوصل إلى عدد من الملاحظات المهمة:

أولها: نجاحه عند قراءته للنص الشعبي (الديموطيقي)، في التعرف إلى جميع أسماء الأعلام الواردة في النص اليوناني وقراءتها.

ثانيها: نجاحه في الحصول على ١٦ حرفًا أبجديًا، بعد قيامه بتوزيع أسماء الأعلام اليونانية المكتوبة بالرموز الشعبية (الديموطيقية) إلى أحرف متفرقة.

ثالثها: تمكنه من قراءة بعض كلمات النص الشعبي (الديموطيقي) فقرأ كلمتي "برفيوئي"، و"ينين" وتعنيان على التوالي "معبد" و"اليونانيون" في اللغة القبطية.

رابعها: استطاعته التعرف على الرمز الذي يستخدم في النهاية الإعرابية للشخص الثالث (الضمير المتصل).س

خامسها: فتحديده للهيروغليفيات، في النص المكتوب بالخط الرباني (الهيروغليفي)، التي تعني الأعداد الترتيبية، "الأول، الثاني، الثالث"، وكان تحديده هذا نتيجة لملاحظته أن النص اليوناني يتحدث عن معابد ثلاثة.

ومع هذا التقدم الواضح إلا أن العالم السويدي "بلاد" قرر عدم الاستمرار بأبحاثه، بسبب رفض "دي ساسي"، الذي أرسل له نسخة من حجر رشيد لنتائجه و آرائه، وكان "بلاد" حساسًا مرهفًا فتأثر كثيرًا من انتقادات "دي ساسي"، أما الأمر الآخر والخاطئ الذي وقع فيه "بلاد"، فهو أن دراسته كانت قائمة على أساس أن الهيروغليفية أبجدية"[٢٥٣].

وبعد جهود "بلاد" دخل هذا الحجر الناطق لمرحلة من الزمن زوايا النسيان حتى عام ١٨١٤م عندما بدأ توماس يونج التعامل مع الحجر الأشهر.

[٢٥٣] سليمان عبدالرحمن محمد الذييب - الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية – ص ٧١ وما بعدها.

يونج ذلك الهاوي!



وكانت المحاولة الأولى الناجحة بحق لحل رموز الهيروغليفية المصرية هي التي قام بها د. توماس يونج[٢٥٤] ، Dr. Thomas Young ذلك الهاوي الذي كان يقوم في وقت فراغه بترميم المخطوطات والنقوش الأثرية بالإضافة الى كونه فيزيائي شهير ومؤسس علم البصريات الحديث، بدأ يونج سنة ١٨١٤ في دراسة النقوش الموجودة على حجر رشيد، ونشر بعد أربع سنوات مقالاته التي استهلت عصرًا جديدًا لدراسة رموز الهيروغليفية المصرية في الموسوعة البريطانية Encyclopedia.

"و يخبرنا يونج بنفسه أنه بعد أن تزود بنسخة من (نص) حجر رشيد، نشرتها جمعية دارسي الآثار في لندن السابق ذكرها، ذهب إلى ورتنج[٢٥٥] Worthing في صيف سنة ١٨١٤ وهناك بدأ تعامله مع النصوص الثلاثة لمرسوم منف الشهير"[٢٥٦].

وفي الفترة ما بين ١٨١٥-١٨١٦ توصل يونج إلى استنتاج أنه إذا أمر فاتح أجنبي من بلد ما أن يخلد ذلك الفتح في نقوش تدون باللغة المحلية لهذا البلد، وكانت هذه اللغة تحتوي على حروف مصورة مثل رموز الهيروغليفية المصرية، فسوف يستخدم الكتبة في كتابة اسم الفاتح المقابل الصوتي لعدد من الحروف المصورة بغض النظر عن الدلالة الفعلية لهذه الحروف كصور. اعتقد يونج أنه كان أول من توصل إلى هذا الاستنتاج، إذ قال في سرده لمختلف مراحل اكتشافه:" على قدر ما سمعت وقرأت، لم يقم أي شخص آخر، حي أو ميت، بتأسيس أي من التفاصيل وتسجيلها. لكن الواقع أن نفس الفكرة خطرت في بال بارتلمي وزويجا. وتظهر هذه الحقيقة أن يونج لم يكن مطلعًا على أعمال اثنين من أقدر دارسي علم المصريات الأوائل ومن أكثرهم حصافة.

لكن يمكن التأكيد أن يونج (توصل إلى نتائج فتحت الباب على مصراعيه للحل النهائي لهذه الرموز التي عرفتنا على تاريخ وحضارة الشعب المصري العريق، وذلك خلال أربع سنوات فقط من بدايته في دراسة هذا الحجر ولعلي أحصر نتائجه في الآتي:

١- قيامه في السنة الأولى بتقسيم النصين الشعبي (الديموطيقي) والرباني (الهيروغليفي) إلى كلمات منفصلة.

---

[٢٥٤] فيزيائي وطبيب وعلامة بريطاني، اشتهر بسبب إسهامه في فك رموز اللغة الهيروغليفية

[٢٥٥] مدينة ومنطقة ساحلية بانجلترا

[٢٥٦] سير ارنست الفرد – والس بيدج – حجر رشيد وكشف أسرار اللغة المصرية القديمة – ص ٢١٩

٢- وجد أن مجموعة الرموز التي تكونت بعد تقسيم النصوص تطابقت بصورة مذهلة مع مجموعة الرموز الربانية (الهيروغليفية)، و كانت مجرد مختصرات بسيطة بمعنى أنها مشتقة من الهيروغليفيات.
٣- تحديده معنى بعض مجموعات الرموز الربانية (الهيروغليفية)، لكن دون تحديد مكانتها اللفظية.
٤- وضعه عام ١٨١٨ م فهرسة لما مجموعه ٢١٤ كلمة مكتوبة بالربانية (الهيروغليفية)، وكان تحليله لربع هذه الكلمات صحيحًا.
٥- نجاحه في تحديد "١٤"، رمزًا لفظيًا هيروغليفيًا، كان منها "خمسة" رموز حللت تحليلاً صحيحًا، وثلاثة منها كان تحليله لها موفقًا إلى حد كبير.
٦- استخراجه المعنى اللفظي للحرفين الأولين الباء والطاء، اللذين اكتشفهما في إطار اسم الملك بطليموس.

وبعد هذه النتائج المذهلة والناجحة تجرأ يونج على نشر بحثه الذي جعل عنوانه "الترجمة الافتراضية لنص رشيد الديموطيقي".

لكن هذا النجاح الذي وفق إليه يونج لم يلق الاحتفاء والاستقطاب، الذي كان يأمله من الجهات العلمية في وطنه بريطانيا، نظرًا لمعرفتهم المسبقة بضعفه في علم الفيلولوجيا[٢٥٧]، وإضافة إلى هذا السبب، فإن يونج كما يقول لم يجد في هذه النصوص التي كانت تدور حول المعبودات والموتى ما يشفي اهتماماته وغليله عن علوم الطبيعة، خصوصًا وأنه شخصيًا كان يعتقد أن فيثاغورس قد استقى الكثير من الحضارة المصرية. لهذا لم يستمر هذا العالم الفذ في أبحاثه ودراساته عن اللغة المصرية القديمة، إلا أنه بغير قصد ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه للفرنسي «شامبليون» الذي نرى أنه أخذ مقارنة بالعلماء شهرة ومكانة لا يجب أن تؤول إليه وحده دون غيره من العلماء الذين شاركوا في دراسة هذه النصوص)[٢٥٨].

وفي عام ١٨٢٢ دعي يونج لحضور اجتماع لأكاديمية العلوم في باريس وكذلك لأكاديمية الآداب ولقد جلس بجواره في الاجتماع الاخير مؤلف ورقة عن الهيروغليفية المصرية بدا في هذه الورقة، إن إنجازات يونج التي تحدثنا عنها في مجال الهيروغليفية كانت قد انعكست فيها وإنما دون اعتراف، واستقبلت الورقة بالاحتفاء باعتبارها فتحًا وكشفًا تاريخيًا وكان مؤلفها هذا الشاب الذي يطلقون عليه شامبليون المصري باعتباره عبقريًا ولم يحرك يونج ساكنًا لرد اعتباره في هذا الوقت ولكنه أضمرها في نفسه حتى حين.

ولتفسير صمت يونج في هذه المناسبة حديث آخر في الفقرات القادمة من هذا الكتاب سنتناول فيها كيف رد يونج على شامبليون وعلى العالم وكيف هبت الصحافة للدفاع عن

---

[٢٥٧] دراسة النصوص القديمة أو علم اللغة او فقه اللغة

[٢٥٨] سليمان عبدالرحمن محمد الذيب - الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية – ص ٧٤ - ٧٥

يونج والمطالبة بالكثير من التوضيحات من شامبليون وكيف انقسم العالم بين مناصر لهذا وذاك ولمن كانت الغلبة في النهاية ولما كانت النهاية بمثل هذا السوء ليونج.

شامبليون المصري وإحياء الرموز الأسطورية:



في عام ١٨٢٢ أعلن شامبليون" على العالم أنه تمكن من فك رموز اللغة المصرية القديمة، وأن بنية الكلمة في اللغة المصرية لا تقوم على أبجدية، وإنما تقوم على علامات تعطي القيمة الصوتية لحرف واحد، وأخرى لاثنين، وثالثة لثلاثة، وأكد استخدام المخصصات في نهاية المفردات لتحديد معنى الكلمة[٢٥٩].

شامبليون المولود قبل ثمانية أعوام من مخطط نابليون لغزو مصر وتحديدًا في عام ١٧٩٠م لأب يعمل بائعًا للكتب، تقول بعض الحكايات المنتشرة عنه والتي لا نعرف لها أصلاً " أن قرنيتي عينيه كانتا صفراوين منذ الميلاد كعيني الأطفال المصريين وكانت ملامحه شاحبة ووجه شرقيٌ للغاية)[٢٦٠]. وتترد حكايات أخرى أن چان - فرانسوا شامبليون قد أُخذ وهو تلميذ إلى فوريه ـــ عالم الرياضيات ـــ الذي صحب بونابرت إلى مصر، حيث شاهد أوراق البردى والكتابات الهيروغليفية على بعض الألواح هناك، فسأل هل يستطيع أحد قراءتها؟ وحين هز فورييه رأسه نافيًا قال الصبي: سأفعل ذلك. وسأتمكن منه خلال بضع سنوات عندما أكبر!

كما سجل كاتبو سيرة شامبليون قصة زيارة عالم الجماجم الشهير الدكتور فرانز جوزيف جال لمنزل چان - فرنسوا. وتحسس الدكتور جال نتوءات في رأسه وأعلن أنه عبقرية لغوية، وكانت هناك في ذلك الوقت بعض الشواهد على قدرة شامبليون ربما كان الطبيب الصالح قد أخبر بها. فالتلميذ ذو السادسة عشرة كان يتعلم بالفعل العربية والآشورية

[٢٥٩] عبدالحليم نور الدين – اللغة المصرية القديمة – الطبعة التاسعة -

[٢٦٠] بيتر فرانس - اغتصاب مصر – ص ٩١

والكلدانية والقبطية، فضلاً عن اللاتينية واليونانية، كما كشف عن وعي مبكر بتميزه بوضع مشروع تاريخ للعالم بعنوان "التاريخ من آدم حتى شامبليون الصغير"!.
ورغم هذه الحكايات الأسطورية، (فقد ابتسم الحظ لشامبليون الصغير، فقد انتقل مع أخيه الذي كان يعمل أمين سر أكاديمية غرونوبل، إلى مدينة "غرونوبل"، ولحسن حظه كان والي هذه المدينة هو الفيزيائي المشهور جان باتيسيت فوربيه، الذي كتب مقدمة الكتاب المشهور "وصف مصر"، فخلال لقاءات أخيه بالوالي كان يشاهد العديد من القطع الأثرية، ومنها النصوص المصرية القديمة، التي أحضرها فوربيه من مصر. وهكذا دخل حب الاكتشاف و البحث عن المجهول في قلب هذا الفتى الصغير، فقرر تمهيدًا لدراسته هذه النصوص تعلم اللغتين الشرقيتين المهمتين العربية والسريانية، فما أن بلغ هذا الباحث الفذ من العمر أربع عشرة سنة حتى وافق أعضاء جمعية غرونوبل على انضمامه إلى الجمعية ؛ لكن الذي ساعده كثيرًا في فهم النقوش الهيروغليفية هو عشقه للغة القبطية التي أصبح كما يقول شامبليون يتحدث بها مع نفسه. وهكذا لخلفيته العلمية الجيدة مثل معرفته باللغات القديمة، كالعبرية القديمة واليونانية، واللغات الحية، مثل العربية والسريانية، واستيعابه الواضح والرائع للغة القبطية، التي كانت مفتاحه لفك الغموض المتبقي لهذه النصوص (نذكر أن هذا كان رأي الرحالة نيبور). بدأ هذا الفرنسي البالغ من العمر تسعة عشر عامًا بعد تقلده منصب أستاذ التاريخ في كلية غرونوبل- بالتعامل مع هذا الحجر الذي أدخله التاريخ، فتمكن في عام ١٨١٠م من القول لأول مرة إن المصرية القديمة تحتوي على ثلاثة أنماط من الكتابة هي الديموطيقية، والهيروغليفية، والثالث الذي أطلق عليه اسم الهيراطيقية، وبعد ثلاث سنوات وذلك في عام ١٨١٣م، نجح شامبليون في معرفة الضمير المتصل في الهيروغليفية، ونحن نعلم أن السويدي العالم الحساس "بلاد" قد عرف الضمير نفسه في الديموطيقية ؛ وبعد جهد جهيد، معتمدًا بذلك على ما توصل إليه الإنجليزي يونج، نجح هذا العبقري ١٨٢١ م وهو في الثالثة والعشرين من إحصاء رموز النص الهيروغليفي وجميع مفردات حجر رشيد، فاتضح له أن ٤٨٦ كلمة يونانية تقابل ١٤١٩ رمزًا هيروغليفيا، فعرف بذكائه أنه من غير الممكن أن تكون الرموز الهيروغليفية كلمات، فعددها أكبر من أن يسمح بذلك (نذكر مرة أخرى بأن هذا ما أشار إليه نيبور)، وكان تفسيره الصحيح للنجمة الصغيرة التي تظهر خلف بعض مسميات النجوم المكتوبة بالهيروغليفية، أنها المحددات ؛ وعندما توصل إلى هذه الاستنتاجات حزم أمتعته متجها إلى باريس، حيث ألقى دراسته موضحًا الأسلوب المبسط الذي استخدمه للتعرف إلى هذه اللغة، مشيرًا إلى أن هذه الكتابة تتضمن إلى جانب الرموز والمقاطع، رموزًا أبجدية، فرحبت الجمعية بهذا الإنجاز الشامبليوني، واعتبرته إنجازًا وطنيًا لفرنسا كلها، وهكذا اختطف شامبليون كعكة النجاح بصعوده منصة الشرف تاركًا خلفه الجهد الذي قام به السويدي "بلاد"، والإنجليزي يونج)[٢٦١].

---

[٢٦١] سليمان عبدالرحمن محمد الذيب - الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية – ص ٧٥ – ٧٦ - ٧٧

وكما نري- في ما سبق - فهناك الكثير من التضارب في التواريخ والمكتشفين، حيث نجد في بعض المراجع من يقول بأن شامبليون هو أول من توصل إلى أن أسماء الملوك التي كانت تكتب في خراطيش، وفى مراجع أخرى نجد أن أول من توصل إلى ذلك هو توماس يونج، وفى مراجع أخرى نجد أنه سلفيستر دى ساس، وأخيرًا نجد أنه "ج بارتلمى" الذى توصل إلى أن الخراطيش تحتوى على أسماء الملوك في عام ١٧٦٢ أي قبل كشف حجر رشيد بحوالي ثلث قرن من اطلاعه على الكتابة الهيروغليفية على الآثار المصرية. كما أن هناك اختلاف بين المراجع على أول من قرأ اسم بطليموس في الخراطيش.

دي ساسي يحذر يونج!

"في شهر يوليو (١٨١٥) حاول الأثري الفرنسي سلفستر دي ساسي تحذير يونج من سرقة شامبليون لنتائجه فأرسل رسالة نصها: "لو لدي نصيحة أود أن أنصحك بها فهي أنك تتواصل مع السيد شامبليون بشكل كبير في اكتشافاتك. عندها سيتظاهر بأن له الأسبقية في الاكتشاف. إنه يبحث باكتشافه في أماكن متعددة لخلق الاعتقاد بأنه اكتشف كلمات كثيرة في الخط المصري لحجر رشيد. أخشى أن هذا ليس إلا سطوًا". وأهمل توماس يونج نصائح دي ساسي!"[٢٦٢]

يونج يرد على شامبليون:

"ومن المستحيل أن نثبت ما إذا كان شامبليون قد تأثر بمقال يونج في "دائرة المعارف البريطانية" أو لم يتأثر، فقد أنكر دائمًا أنه قرأه. ودفع نشر رسالته المعنونة باسم " رسالة إلى السيد داسييه بشأن أبجدية الصوتيات الهيروغليفية " صحيفة "كوارترلى ريفيو"[٢٦٣] إلى أن تدخل الحلبة لصالح أولوية يونج حيث قالت:

"....ونستطيع أن نقول - دون أن نقلل من شأن جهود شامبليون التي لا تكل - أنه سواء وزنا قيمتها من زاوية الجدوى أو الجدة، فإننا لا نجد فيها كثيرًا، أو لا نجد شيئًا - يمكن أن يبرر هذا الحصار المستمر الذي فرضه على منافسيه في مصر، لسنوات تعادل سنوات بقاء الاغريق أمام طروادة..... "

[٢٦٢] محمود أحمد درويش - موسوعة رشيد "الجزء الأول": التاريخ والإستحكامات الحربية – ص ٤٦

[٢٦٣] كانت The Quarterly Review دورية أدبية وسياسية أسسها دار نشر لندن جون موري في مارس ١٨٠٩. توقفت عن النشر في عام ١٩٦٧.

واستطردت الريفيو لتذكر قراءها بأن السويدي "بلاد" وغيره بدأوا وضع أبجدية، وأصّلها يونج ومدها إلى الهيروغليفية، وأن كل ما فعله شامبليون هو أن وسع المبدأ الذي اعتمدوه:
وسيتضح مدى ضآلة ادعاء شامبليون للأصالة فيما يبدو أنه يعتبره اكتشافًا وما نثق من أن مواطنيه سيتصايحون حول اعتباره كذلك، من الفقرة التالية من عرض يونج لمصر الذي كتبه منذ سنوات.
ثم نشرت الصحيفة بعد ذلك نص جزء من مقال يونج في " دائرة المعارف البريطانية التي حدد فيها الرموز الهيروغليفية لحروف اسم بطليموس في حجر رشيد، وقد اعترض شامبليون فيما بعد بأن يونج لم يحددها بشكل سليم تمامًا، ولكن النقطة التي قدمتها الريفيو، وهي أن شامبليون إنما كان يوسع مبدأ ولا يعلن اكتشافا جديدًا، تبدو صحيحة.
وفي العام التالي -١٨٢٣- نشر يونج **وداعه** للموضوع بعنوان استفزازي: **"عرض لبعض الاكتشافات الحديثة في الأدب الهيروغليفي والآثار المصرية، بما في ذلك أبجدية المؤلف الأصلية كما وسعها شامبليون"، وادعي يونج أنه نشر دائمًا نتائج أبحاثه** " لا عن حرص على أن أكون المالك الوحيد لكنز سري، وإنما عن رغبة في أن أحقق، لبلدي على الأقل،.... صيت توسيع حدود المعرفة الإنسانية، والإسهام في توسيع سيطرة عقل الإنسان على الزمان والمكان والإهمال والظلام". وأنه كان سيسعده أن يبقى في عتمة نسبية، لكن شهرة شامبليون المفاجئة قد جرته إلى أعين الجمهور، وشعر أن هناك ما يبرر أن يحاول الحصول، ومازالت أمامي بضع سنوات للعيش والتعلم، على أي قدر من الاحترام يفترض أنه من حق الاكتشافات التي شكلت تزجية ساعات فراغي القليلة".
وأكد يونج في رسالة بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٨٢٣ أنه لن ينشر ثانية مزيدًا من النصوص المصرية، من ناحية بسبب النفقات، ومن ناحية لأن المادة قد استنفدت ومن ناحية ثالثة لأن شامبليون يعمل الكثير بحيث لن يسمح بضياع أي شيء ذي قيمة.

شامبليون يرد على يونج وينسب كل الفضل لنفسه!

وفي العام التالي - عام ١٨٢٤ - أكد شامبليون ادعاءه كل الفضل في حل رموز الهيروغليفية في مجلد ضخم بعنوان **"موجز نظام هيروغليفية المصريين القدامى"**، يحوي نصًا طوله ٤٦٥ صفحة، وملحقًا مستفيضًا من اللوحات والأشكال، وتناول شامبليون ادعاءات منافسيه في المقدمة، مقررًا أن اكتشافاته قد تأكدت بحيث أنه لا يخشى عند إعلانها من المعارضة قدر ما يخشى من أن يحاول الآخرون اقتسام شرف اكتشافها، وقد حدث هذا بالفعل، لا في فرنسا بالطبع، وإنما في الخارج، ورغم أنه على استعداد للصفح عن هذه الادعاءات التي تستند إلى روح الوطنية فإن على الكاتب أن يعارضها لصالح الحقيقة والعلم. ثم أخذ شامبليون يهاجم يونج بقوة، محاولاً أن يبين أنه

لم يفهم أبدًا الأساس الصوتي للهيروغليفية، وأن الترجمات القليلة التي قام بها يونج لم تكن سوى تخمينات موفقة وليست نتيجة بحث لغوي[٢٦٤].
والحق يُقال ليس هناك شك كبير في أن شامبليون قد تعلم من يونج أكثر مما كان على استعداد لأن يعترف به، وأن الاكتشافات التي أعلنت بمثل هذه الضجة، والتي حظيت منذ ذلك الحين بالاحتفاء بين علماء المصريات لم تكن إلهامًا فجائيًا بقدر ما كانت توسيعًا صبورًا وماهرًا للأبحاث القائمة. غير أن من العبث محاولة التقليل من إنجازات شامبليون الكبيرة قدر ما هو من العبث محاولة الإبقاء على صورة عبقري يعمل معزولاً، وهي الصورة التي سعى أنصاره إلى تأكيدها.

الأبواق المناصرة لشامبليون تتعالى!

و في احتفالية أقامها چورچ ر جليدون القنصل الأمريكي في القاهرة في بوسطن في عام ١٨٤٤، بعد عشرين عامًا من ظهور شامبليون على المسرح قال جليدون "**وبقوة الزلزال أطاح الفرنسي الدؤوب بالأبنية الهشة لأسلافه، ومن هذه الساعة كفّت حوليات مصر، وتاريخها الذي كرمه الزمن، وبردياتها التي تفتت في غبار الزمن عن أن تكون أسرارا ! إن شامبليون الشاب قد أزاح قناع إيزيس والستار الذي لا تستطيع يد بشرية أن ترفعه، والذي أعجز محاولات الإغريق والرومان طيلة ٢٠٠٠ عام وجهود علماء المصريات المحدثين الأقوى.** " ويصف جليدون نفسه بأنه واحدٌ من تلاميذ شامبليون في مصر حين أعلنت اكتشافات شامبليون، ولاحظ الصمت المُذهل الذي أعقبها "**ومثل سكون الجو الذي يعقب قصف الرعد بدت العبقرية مشلولة بفعل الحقيقة المذهل**"
"ولم يكن الصمت راجعًا إلى ذهول الباحثين أمام اكتشافات شامبليون المفاجئة بقدر ما يرجع إلى أن مراكزهم المستقرة جعلتهم غير متقبلين لأفكاره. كان أعضاء المجمع المصري الذين صحبوا بونابرت مازالوا في مناصبهم العُليا، وعلى غير استعداد الآن يتعلموا من فتى جمهوري دعيّ لم يضع قدمه أبدًا في مصر. كما لم يكن المسيحيون بدورهم يرتاحون لتقديم بحث عن مصر لم يكشف دليلاً على إقامة الإسرائيليين فيها أو على الخروج. والباحثون الكلاسيكيون يهزأون من استخدام الفكر والأموال في مثل هذا الجهد البربرى"[٢٦٥].
ولهذا الموقف الغريب من أعضاء المجمع العلمي ومن المؤسسة الدينية في أوروبا ومن العلماء الكلاسيكيين قصة سنعرض تفاصيلها في حينها.

---

[٢٦٤] بيتر فرانس - اغتصاب مصر – ص ٩٢-٩٣
[٢٦٥] بيتر فرانس – المرجع السابق ص ٩٤

انتقال ميدان المعركة إلى أرض المحروسة:

انتقلت المعركة القومية لسرقة الآثار المصرية والاستيلاء عليها من أجل إعلاء القومية الفرنسية أو الإنجليزية تحت مُسمى فك رموز الحضارة المصرية القديمة إلى أرض مصر فقد كوفئ شامبليون على نجاحاته العلمية في فرنسا بإرساله بعثة في عام ١٨٢٤ لدراسة المجموعات المصرية في متاحف تورينو وليجهورن وروما ونابولي وفلورنسا.

قنصلين بدرجة لص!

كان لويس الثامن عشر ثم شارل العاشر قد نسيا نزعته الجمهورية إلى حد تعيينه أمينًا للمجموعات المصرية في اللوفر، واختارته الحكومة الفرنسية لتقيم وشراء الآثار التي أرسلها القنصل الفرنسي "**برناردينو دروفيتي - Bernardino Drovett** " و"هنري سالت **-Henry Salt** " إلى ليجهورن.
وقبل أن نسترسل عن بعثة شامبليون إلى مصر يجب أن نلقي الضوء على شخصية دروفيتي و سالت فالأول أكبر لص آثار ومورد آثار مصر المنهوبة لمتاحف أوربا من أصل إيطالي وتجنس بالجنسية الفرنسية وشارك في حملة نابليون في مصر وعمل قنصلاً عامًا لفرنسا في مصر لفترتين، ويعتبر دروفيتي أكبر لص آثار مصرية فقد جمع أكبر مجموعة من أوراق البردي وعرضها للبيع علي فرنسا فرفضت فباعها لملك سردينا بمبلغ ٤٠٠ ألف ليرة إيطالية وقدمها لمتحف تورينو.وضمت هذه الصفقة القذرة قوائم بأسماء ملوك الفراعنة.وفي عام ١٨٣٦ اشتري منه متحف برلين مجوعة آثار متنوعة بمبلغ ٣٠ ألف ليرة،ثم باع مجموعة ثالثة من الآثار لشارل العاشر بربع مليون فرنك وقدمها لمتحف اللوفر في باريس.. وكان اللص دروفيتي صاحب حظوة ونفوذ لدي والي مصر محمد علي الذي اعتمد على فرنسا لمساندته ضد إنجلترا.
أما الثاني فكان القنصل العام لإنجلترا في مصر ولقد وصل إلى هذا المنصب بمساعدة للورد فالينسبا والسير جوزيف بانكر رئيس الجمعية الملكية في ذلك الحين.
"وحين عين أعرب عن امتنانه بوعد للسيدين بأن يجمع الآثار لهما، وكان اللورد فالينسيا يريد تزيين مقر الأسرة في آرلى هول، والسير جوزيف بانكر على ثقة من أن أي شيء قد يلتقطه سالت من وادي النيل سيرحب به المتحف البريطاني الذي كان أحد أمنائه!"[٢٦٦]
كان هذا طرفي السباق الذي بدأ على ضفتي النيل لنهب آثار مصر دون حسيب أو رقيب بل تحت رعاية مؤسس مصر الحديثة محمد على باشا!

[٢٦٦] بيتر فرانس – المرجع السابق – ص ٣٨

السباق على كنوز النيل باسم العلم:

وعودة إلى رحلة شامبليون إلى مصر "غير أن أنباء عن الأنشطة البريطانية في مصر بدأت تتسرب إلى باريس، وشعر شامبليون بالقلق من أن تُزاح فرنسا عن موقعها كام للفنون وراعية لعلم المصريات. وأرسلت بعثة بقيادة شامبليون وبصحبته أربعة فنانين فرنسيين لاستعادة مصر للبحث العلمي الفرنسي، وظهرت صعوبة طفيفة حين علم أن دوق توسكانى يخطط لبعثة مماثلة، لكن الوضع رتب بلباقة حين نظمت البعثة الإيطالية كقوة معادلة تمامًا، يرأسها المستشرق البارز البروفيسور ايبوليتو روسلينى، أحد أنصار شامبليون، ويصحبه أربعة فنانين إيطاليين، ولما كانت أهداف بحث البعثتين واحدة، فقد تقرر أن يتوحدا بداعي الوفر، وأبحرت البعثتان إلى الاسكندرية على سفينة واحدة.

ولاحظ چورچ جليدون - الذي كان في القاهرة في عام ١٨٢٨ - وصول البعثة المشتركة: "وأنها تضيف وقودًا جديدًا لشعلة الغيرة الأثرية التي اتسم بها طيلة ثلاثين عامًا من كرسوا أنفسهم للأركيولوجيا[٢٦٧] في إنجلترا وفرنسا. وكان شامبليون ينظر إلى كل من الدارسين الآخرين باعتبارهم متطفلين على ما يعتبره ميدانًا قاصرًا عليه، ويعتبر كل من يسجل أو يعرض الهيروغليفية في مصر متجاوزًا. وكان الباحثون البريطانيون - الذين ظلوا يعملون بدأب لسنوات قبل وصول شامبليون - يخشون لقاءه حتى لا يزعم أن كل ما سينشروه فيما بعد جاء نتيجة لهذا اللقاء. وأدى هذا إلى كثير من الحوادث الفكاهية حيث كان البريطانيون يختفون عن الأنظار عند اقتراب شامبليون لتفادي الاتهامات بالاتصال الشخصي.

وتجلت أثناء زيارة شامبليون كذلك ألوان الغش والخداع التي اتسم بها جيل من المنافسة الوطنية على طول وادي النيل، فقد كان البريطانيون قد لاحظوا أن لوحًا من البازلت الذي يشكل سجاف[٢٦٨] باب مسجد متهدم في القاهرة منقوش بما يشبه الكتابة الموجودة فوق حجر رشيد. وطلبوا من محمد على السماح لهم بنزع اللوح لصالح علم المصريات، وتقدموا بالطلب بالطريقة المقررة من خلال القنصل البريطاني، عارضين تعمير المسجد كله مقابل هذه المنة. إلا أن دروفيتي سمع بالطلب وأقنع الباشا برفضه على أساس أن نزع سجاف الباب نوع من انتهاك حرمة المسجد، وتبين محمد على أنه إذا كان قد رفض طلب البريطانيين على مثل هذا الأساس الدينى فإنه لا يستطيع بالتالي السماح للفرنسيين بنزع اللوح.

وكان من الممكن أن تنتهي المسألة عند هذا الحد لو لم يأخذ أحد شامبليون لرؤية الحجر، وكانت الضجة المترتبة من الضخامة بحيث دُعِى دروفيتي إلى ممارسة مواهبه في هذا الميدان. وقد فعل ذلك بالتقدم بطلب إلى ابراهيم باشا بن محمد علي للسماح له بنزع الحجر، دون أن يذكر بالطبع أن أباه قد رفض، واستجاب إبراهيم للطلب، مشترطًا

---

[٢٦٧] علم الآثار

[٢٦٨] إطار أو برواز

فحسب أن يقال للأهالي أن الباشا يريد الحجر لنفسه، مما قد يثير استهجانًا أقل مما لو أخذه الأجانب. إلا أنه لم تكن هناك أسرار في القاهرة، وسرعان ما عرف البريطانيون بالخطة، فتوجهوا ليلا إلى المسجد القديم ونزعوا السجاف، حاملين إياه في انتصار إلى القنصلية. وحدثت ضجة كبيرة، وأقنع ابراهيم أباه بإجبار البريطانيين على تسليم الحجر للحكومة المصرية. غير أن هذا لم يثر ما كان متصورًا من ضيق؛ فقد كشف فحص الحجر أنه قد شوه إلى حد أفقده أي قيمة جدية، وأخذت نسخ أرسلت إلى لندن، وأعاد البريطانيون الحجر دون تحرج إلى المسجد، وانتهى الحجر إلى باريس. وكان الشيء الأساسي الذي تعلمه شامبليون منه هو أسلوب التغلب على منافس في المناوشات الدولية حول الآثار في مصر.

وقد تعلم بسرعة، فحين عسكرت البعثة المشتركة في وادي الملوك، متخذة من مقبرة رمسيس السادس مقرًا لها، قرر شامبليون أن النقوش البارزة في مقبرة سيتوس الأول[٢٦٩] يمكن أن تُحلى مجموعته في اللوفر، وبدأ في قطعها، وسمع جوزيف بونومى النحات والرسام الإنجليزي بذلك فكتب إلى شامبليون محتجًا:

"إذا كان صحيحًا أن هذا هو ما تعتزمه فإنني أشعر أن من واجبي كإنجليزي، وعاشق للآثار أن استخدم كل حجة لإثنائك عن هذه الغاية المفزعة، على الأقل إلى أن تحصل على إذن من القنصل العام الحالي أو من محمد علي."

ورد شامبليون في استعلاء:

"كما أنني أؤدي واجبي كفرنسي حين أخبرك أنني لا أعترف بأي سلطة في مصر إلا سلطة الباشا، وليس عليّ أن أحصل على أي إذن آخر، وبالأحرى إذن القنصل البريطاني، الذي من المؤكد أنه لن يدعى هذا الادعاء الأحمق الذي نسبته إليه، ولو تمكنت من الحصول على عمال أفضل ممن أرسلوهم من القاهرة أستطيع أن أعهد إليهم بهذه العملية الدقيقة فتأكد يا سيدي أنك ستحظى ذات يوم برؤية بعض النقوش البارزة الجميلة في مقبرة أوزيري في المتحف الفرنسي، فستكون هذه هي الطريقة الوحيدة لإنفاذها من الدمار العاجل، وأنا بقيامي بهذا المشروع أتصرف كعاشق حقيقي للآثار لأني أنا أنقلها بعيدًا لأحافظ عليها لا لأبيعها!!"

إن قاعدة أخلاقية جديدة قد أدخلت على أرض المحروسة تبيح سرقة الآثار: فمن الصحيح تمامًا أن تسرق الآثار المصرية طالما أن اللصوص لا تحركهم الرغبة في الكسب الشخصي ولكن كما خاطب شامبليون بونومي "للحفاظ عليها من الدمار العاجل" ولنا أن نتسأل أبعد أن صمدت هذه الآثار آلاف السنين في خبيئة تحت الرمال أو فوق الرمال

[٢٦٩] من ملوك الأسرة التاسعة عشر المصرية القديمة

حتى لطمتها مئات العواصف وبللتها الأمطار دون أن يفل ذلك في بنيانها أو يؤثر على الأحجار التي تشكلت منها أو يخفي ما عليها من كتابات نقشها أزميل كاتب فنان؟!
ولكنها الغايات المكيافيللية التي صدّرها الغرب لنا ليبرر سرقته لكنوزنا دون أن يتحرك له ضمير ودون أن تطرف له عين.
ونسترسل فسرعان ما شاع هذا السلب الإيثاري، بل أثر حتى على بونومى، فحين تسلم هذا رسالة شامبليون وسمع أن روسلينى كان هو أيضا يقطع النقوش لصالح متحف فلورنسا، شارك بدوره واقتطع جزءًا للمتحف البريطاني. وياللروعة هكذا كانوا يحافظون على تراثنا بتشويهه واقتطاع أجزاء منه!
وبرر الثلاثة جميعًا سطوهم على أساس أنهم يحفظون الآثار لإعجاب العالم في المستقبل، وأن النقوش لو تركت في المعبد فسرعان ما ستدمرها الأمطار. إلا أن شامبليون كان يريد أن يمنع الآخرين من إطلاق أيديهم في آثار وادي النيل، وكتب رسالة احتجاج إلى محمد علي، يبدى فيها أسفه للتجارة في الآثار، ويقترح تطبيق ضوابط حكومية على الحفائر وعلى تصدير الآثار. وقد أثمر هذا الاقتراح فيما بعد، ولكن ليس قبل أن يقنع محمد علي بإرسال إحدى المسلتين الموجودتين أمام معبد الأقصر إلى باريس تذكارا لقوات بونابرت. وقد نقلت إلى باريس عام ١٨٣٠ على ظهر صندل خاص يحمل اسم "درومادير ا" وفى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ نصبت في ميدان الكونكورد في احتفال كبير حضره الملك لويس فيليب و مائتي الف متفرج.
وفي ١٥ أغسطس ١٨٣٥ صدر مرسوم حكومي في مصر كان ينبغي له أن يضع حدًا لمثل هذه الاحتفالات. وقد لاحظت الديباجة أن المتاحف والجامعين في الدول الأجنبية متعطشون لآثار مصر مما يشكل خطرًا اختفاء كل آثارها القديمة لإثراء بلدان أخرى. والغريب أن محمد على باشا لم يطبق هذا القانون فعليا لمحاولاته كسب ود الخارج بتقديم الهبات والمنح من كنوز مصر المحروسة!
لكن تمتع شامبليون بالنجاح لم يدم طويلاً، فتوفي وعمره اثنتان وأربعون سنة تاركًا لصديقه الألماني ريتشارد ليبسيوس[٢٧٠]، إكمال أبحاثه، فبذل هذا الألماني كل جهده في إثبات نظرية صديقه و مصححًا بعض جوانب الضعف فيها)[٢٧١].
لم يكن اكتشاف شامبليون الذي حدث عام ١٨٢٢ ومجهود اقرانه الذين سبقوه في هذا المجال هو حروف اللغة المصرية القديمة المقدسة فقط وإنما - وذلك هو الأهم - اكتشف المنظومة المركبة التي تقوم عليها استخدامات الحروف الهيروغليفية.
الذي حدث بعد ذلك الاكتشاف هو أن جميع الصروح والمعابد المصرية القديمة والبرديات المنتشرة في جميع أنحاء العالم راحت تتكلم، وكان بعض هذه الآثار قد نقلها الرومان منذ أكثر من سبعة عشر قرنًا عندما احتلوا مصر. ومثال ذلك المسلات التي تزين ميادين روما إلى يومنا هذا، والبعض الآخر انتزع من جدران المعابد المصرية

[٢٧٠] كارل ريتشارد ليبسيوس Carolus Richardius Lepsius - عالم مصريات ولغوي وعالم آثار حديثة بروسي.
[٢٧١] سليمان عبدالرحمن محمد الذيب - الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية – ص ٧٥ – ٧٦ - ٧٧

ومن المقابر الفرعونية، وتم إخراجه من مصر ليكوّن متاحفَ في بلدان العالم المختلفة. هذا بالطبع بخلاف المجاميع الخاصة بالأفراد، كل هذه الآثار أخذت تتكلم فجأة وتبوح بما كانت تتكتم عليه لأكثر من ألف وسبعمائة عام.

وأخيرًا سواء أكان شامبليون هو الذى حل رموز الهيروغليفية أو يونج أو بلاد أو دي ساسي أو ابن وحشية أو ابن حيان. فإن من قام بحل هذه الرموز قد قام بحل رموز تاريخ أمة بأكملها.. حيث لم يكن بوسع أحد أن يعرف شيئًا عن تاريخ مصر القديمة وتاريخ علاقاتها مع الدول المحيطة وطبيعة الحياة في المنطقة بأكملها دون التعرف على اللغة التي تمت بها كتابة هذا التاريخ بأكمله.

لكن هل التزم من نطلق عليهم علماء المصريات الأمانة العلمية عند قيامهم بالترجمة من الخطوط المصرية القديمة إلى لغتهم الأم؟ هل وقعوا في أخطاء بما فيهم شامبليون نفسه؟ هل الترجمات التي تصلنا عنهم هي التي كان يقصدها الكاتب في العصور الغابرة من تاريخنا القديم؟

هل اخطاء شامبليون في فك رموز الخط الهيروغليفي؟

يقول واليس بيدج[٢٧٢] في كتابه حجر رشيد وكشف أسرار اللغة المصرية القديمة[٢٧٣]:"على الرغم من الدقة العامة لأبجدية شامبليون المصرية، نظر إليها الكثيرون من دارسي المصريات بعين الشك وارتابوا في تأويله للكلمات. فبقي شپون F. A. W. Spohn وزايفارت G. Seyfarth على رأيهما في أن اللغة المصرية مقدسة وغامضة، وأن كل الحروف الهيروغليفية رموز (عن اللغة والحروف المصرية القديمة De Lingua et Literis veteris Aegyptiorium، لايبزيج ١٨٢٥١٨٣١).

ويستطرد بيدج: " يبدو أن شامبليون - بنشر عمله " ملخص Précis" - قد توقف عن استكمال دراسة حجر رشيد ولا عجب في ذلك، فإن الأربعة عشر سطرًا الناقصين[٢٧٤] من النص الهيروغليفي الموجود على الحجر لم تعطه إلا مدى بسيط **ليطور نظامه في التأويل**، ولابد أنه شعر أنه في حاجة إلى مادة إضافية. وقد عرف أن النص حديث نسبيًا، وأن المصريين استخدموا النظام الهيروغليفي للكتابة قبل أن يجلس أى بطليموس على عرش مصر بحوالي ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، انشغل للغاية خلال الأعوام ١٨٣٠-١٨٢٠

بنسخ نصوص في إيطاليا ومصر والنوبة ليجد أنه يلزمه وقت طويل ليكمل نظامه وليختصره فيحوله إلى كتابة، فكانت النتيجة أنه تركه في حالة من النقص الشديد. لم

---

[٢٧٢] عالم مصريات ومستشرق إنجليزيّ.

[٢٧٣] توجد نسخة ترجمها هشام كمال الدين الحناوي ونشرتها المكتبة الاكاديمية في ٢٠٠٥

[٢٧٤] يقصد الجزء المكسور من حجر رشيد ويحتوي ١٤ سطرًا

يطبع شامبليون - فيجاك[٢٧٥] المسودات كما تركها أخوه، لكنه صنفها ورتبها، وأضاف مادة تكميلية، وحررها بطريقة علمية منظمة، كان يفتقر إلى ذكاء أخيه المتقد، لكنه كان عالمًا حصيفًا، وعلم المصريات الناشئ يدين له بالكثير.
ولنا هنا وقفة مع ما قاله بيدج " **ليطور نظامه في التأويل**" فهل يقوم البحث العلمي على التأويل؟ وسأترك الرد لستة من مشاهير علماء الآثار في العالم وهم:- جورج بوزنر، وسيرج سونرون، وجان يويوت، وإدواردز، وليونيه، وجان دوريس أصحاب كتاب معجم الحضارة المصرية القديمة وذهبوا فيه أن شامبليون استعان بنقش عثر عليه بجزيرة فيله في أسوان يحتوى على خرطوشتين ملكيتين لاسمي " بطليموس وكليوباترا " تشترك في حروف (P , O , L) واستفاد من نصوص مؤلف قديم مجهول وكان فيه شرحًا بطريقة غامضة ومن هنا انتهى شامبليون إلى أن القيمة الصوتية للرموز المصرية القديمة تؤخذ من الحرف الأول لاسم الشكل الذي يمثل ذلك الرمز. فإذا ما تعرف شامبليون على رمز بحث عن اسم له باللغة القبطية وأخذ من ذلك الرمز الحرف الأول المنطوق بالقبطية.
وبذلك أمكن شامبليون معرفة القيمة الصوتية للرموز الهيروغليفية من الحرف الأول للكلمة القبطية كذلك فشامبليون ملأ الفراغات الشاغرة في اللغة الهيروغليفية بتخمين المعنى القبطي للكلمة الإغريقية وسط الحروف التي تعرف عليها فأمكنه بذلك حل رموز ٧٩ اسمًا ملكيًا مختلفًا. ولم يلاحظ أحد على مستوى العالم منذ مائتي عام حتى مؤلفا الكتاب أن الـ ٧٩ اسمًا التي ترجمها شامبليون كانت كما قال مؤلفو الكتاب على لسان شامبليون أنها كانت بالتخمينات، والتخمينات لا يُعتمد عليها في البحث العلمي ويبنى عليها نظريات.
وبذلك أصبح شامبليون بتفسيره بهذه الطريقة الافتراضية كالكفيف الذي يضئ شمعة وسط مجموعة عميان ويصف لهم ما هو لون السماء مدعيًا أنه بصير وترجع أسباب ما فعله شامبليون إلى أنه تعلم اثنتي عشرة لغة مختلفة في عشرين عامًا فاختلط عليه الأمر بسبب التزاحم الشديد وكم المفردات والتراكيب التي أُدخلت على عقله
أما إدوارد هانكز فقال: "إن المصدر الكبير لأخطاء شامبليون كان عدم رغبته في الاعتراف بجهله، وما يترتب على ذلك من تشويش مع تفسيرات معينة"[٢٧٦]
وكثير من الدوريات ومتون علم المصريات[٢٧٧] التي توضح تفاصيل أخطاء شامبليون، ذكرنا بعضًا منها في الهامش لتكون مرجعًا لمن يريد.

---

[٢٧٥] يقصد شقيق شامبليون الأكبر

[٢٧٦] Edward Hincks -Catalogue of the Egyptian Manuscripts in the Library of Trinity College P. ٢٦

[٢٧٧] The Journal of Egyptian Archaeology - Frederick George Walker، المجلد ٢ – ١٣٦ p
Hojn Leitch - **Miscellaneous Works of the Late Thomas Young, M.D., F.R.S., &c ...,** - **المجلد ٣ – p ٤٦٢**

لم يكن منهج شامبليون في الترجمة من الهيروغليفية للفرنسية هو النقد الوحيد الذي وجه للترجمات الغربية للهيروغليفية ولكن تغير اتجاه الكتابة الهيروغليفية ليتوافق واتجاه الكتابة الغربية ليكون من اليسار لليمين إجباريًا حتى لو كان اتجاه النص الهيروغليفي من اليمين لليسار!

"يوضح جاردنر في كتابه المهم (Egyptian Grammar) أن نظام الكتابة في اللغة الهيروغليفية، هو ككل اللغات السامية يسير من اليمين إلى اليسار. ولكنه أوضح أنه سيعتمد النظام المخالف (من اليسار إلى اليمين). وذلك لتفادي مشكلات التناقض بين نظام الكتاب الإنجليزي والنصوص المصرية، وكذلك تسهيلاً على الدارس الأوروبي، وذلك استنادًا إلى بعض الاستثناءات التي اعتمدها المصريون في الكتابة التي كانت من اليسار إلى اليمين.

والعجيب في الأمر أنه رغم أننا في مصر في بلد عربي لغته من اليمين إلى اليسار تمامًا كاللغة المصرية القديمة ولا نحتاج إطلاقًا لنظام جاردنر (المعكوس)؛ لأن كتبنا كلها وطلابنا يكتبون من اليمين إلى اليسار، فإننا للأسف الشديد نستعمل نظام جاردنر (المعكوس) بدون مبرر إلا التقليد بدون تفكير، فنشوه لغة الأجداد ونصعبها على الأحفاد.

تنطق معظم الأحرف المصرية القديمة في كل العالم كأحرف عربية فيقال لحرف النسر (ألف) (Alif)، ولكن في مصر ينطق (A) ولا علم لي بالسبب، إلا إذا كنا نهدف إلى ربط المصرية القديمة باللغات الأوروبية قصرًا، وقطع كل الروابط الطبيعية التي تربطها بشقيقتها العربية.

لا يعرف الكثير من الطلبة - ربما كلهم- أن اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى المصرية القديمة. بل إن الأحرف المصرية ذات الطابع الحلقي السامي مثل العين والحاء تنطق في المعاهد المصرية بالطريقة الأوروبية التي تعتمد على إلغاء العين أو تحويلها إلى ألف واستبدال الحاء بالهاء. هناك مشكلة أخرى؛ ينطق الدارس المصري أسماء الآلهة المصرية والملوك المصريين بالطريقة اليونانية التي تعطيهم طابعًا يونانيًا وتنزع عنهم الطابع السامي.. فيتحول الإله (وزير) إلى أوزوريس. في حين لو نطقه الدارس المصري بالنطق الصحيح لاكتشف قربه إليه وإلى تراثه الثقافي العربي السامي.

طريقة تدريس اللغة المصرية القديمة تخفي تمامًا ارتباط اللغة العربية الشديد باللغة المصرية من ناحية، وتقوي الإحساس بأن من كان يمتلك اللغة المصرية القديمة قوم لا علاقة لهم بمن يعيش اليوم في مصر، ومن ناحية ثالثة تجعل من اللغة المصرية القديمة شيئًا عسيرًا على الفهم والاستيعاب كالصيني أو الياباني، تماما كمن يعيش في القاهرة ويتوجه إلى بنها عن طريق الإسكندرية.

أما لو تم تدريسها بالطريقة الصحيحة لاكتشف الدارس كم هي قريبة منه، وأنه امتداد طبيعي لأجداده، حتى على المستوى اللغوي. وأنه لم ينحرف بعيدًا عن هويته القديمة، بل ربما لم ينحرف إلا بالشكل الطبيعي للتطور الزمني. وتجعل فهم اللغة واستيعابها أبسط بمراحل. كما أن تدريس اللغة المصرية القديمة بالشكل السامي الصحيح كما اتفق

عليه العالم (إلا مصر) سيجعل المصريين أقدر الناس على حل بعض مشكلاتها وتصحيح التصورات والأخطاء المنتشرة عنها، واحتلال موقع القيادة العالمية في هذا المضمار، بدلًا من جلوسنا في موقع التلميذ أمام الأساتذة الأوروبيين حتى في لغة أجدادنا"[٢٧٨].

"الحقيقة التي ينبغي ألا تنكر هي أن أهل الغرب الأوروبيين هم الذين كشفوا أسرار الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) على يد الفرنسي شامبليون، **Champolion** والإنجليزي يونغ **Young** في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكذلك رموز الكتابة الهيراطيقية (الكهنوتية) الديموطيقية (الشعبية)، وتوالت من بعد الدراسات والبحوث المتواصلة في مختلف المجالات المتعلقة بآثار مصر وتاريخها ولغتها، وقد ساعدت سيطرة الاستعمار الغربي على مصر وبقية أقطار الوطن العربي أعدادًا لا تُحصى من علمائه وباحثيه على مزيد من الكشف عن الآثار المصرية في مختلف صورها وأشكالها، ويسرت لهم الانفراد بدراسة الحضارة المصرية القديمة انفرادًا يكاد يكون كاملاً. ولا يمكن حصر ما كُتب عن مصر القديمة من مؤلفات في شتى اللغات الأوروبية، ولا ما سطر من بحوث ودراسات، أو صدر من دوريات، أو عقد من ندوات ومؤتمرات واجتماعات ومناقشات، فهذا بحر زاخر لا يبلغ أحد مداه، وليس لأمواجه حد ولا غاية. ولم ينته البحث في هذا المجال، ويبدو أنه لن ينتهي أبدًا.

وإذا كان من العدل أن نشكر علماء أوروبا جهدهم ونحمد لهم صبرهم ونشيد بكثير مما قدموه ونكبر حماسة العديد منهم، بل وعشقهم لتاريخ مصر وحضارتها، فإن من الصواب ملاحظة أن استحواذهم على التاريخ وسيطرتهم على ميادين البحث فيه أدى إلى نتائج بالغة الخطر، منها **أولاً:** أن الكتابة في هذا الميدان كانت في الغالب الأعم باللغات الأوروبية مما أدى إلى حصر معرفته في أصل تلك اللغات أو في من يحسن لغة منها غير لغته هو، وكان أشد الضرر وقع على العرب، أو لنقل على عامة القارئين بالعربية وحدها. فإذا ما صدر كتاب، أو دراسة، بالعربية في الموضوع كانت الترجمة واضحة والنقل جليًا عن المصادر الأوروبية. ولقد بلغ من سيطرة اللغات الأوروبية على البحث في تاريخ مصر وحضارتها حد أن المجلة الرسمية التي تصدر عن هيئة الآثار المصرية في القاهرة تنشر البحوث فيها باللغات الأوروبية، وبأقلام دارسين عرب، حتى يومنا هذا. وقد اعتبر تقديم ملخص قصير بالعربية لبعض ما ينشر من دراسات في هذه المجلة «ثورة» جديرة بالتقدير والاعجاب !

من هذه النتائج، ثانيًا: أن علماء الغرب للأسف مهما بلغ من موضوعيتهم، لم يكونوا بقادرين على التجرد الكامل من الهوى. فهم بشر ذوو نوازع وأغراض، يتبعون أوطانًا كان - ولا يزال - لها مأرب وأهداف، ولم يكن من اليسير الفصل بين الأهداف الاستعمارية والغايات العلمية، فكان هؤلاء العلماء منحازين - تلقائيًا - لفكرة بذاتها مؤداها فصل مصر، تاريخ وحضارة وثقافة وأصولاً، عما يحيط بها من جيرانها..

[٢٧٨] ياسر شحاتة – إعادة كتابة التاريخ – ص ٣٩٧ وما بعدها

العرب. ويبدو هذا الاتجاه واضحة عند العلماء الإنجليز والفرنسيين بالذات، لأن دولتيهما كانتا تستعمران الوطن العربي، وتعملان على تقسيمه وتفتيته لتتحقق سياسة: "فرق تسد" مما هو معروف مشهور. يثبت هذا أن ما يسمى المدرسة الألمانية كانت تتخذ مسارًا آخر مخالفا يقول بوحدة تاريخ مصر والوطن العربي، والسبب - فيما نرى - راجع إلى أن المانيا لم تكن ذات مستعمرات في المنطقة فلم يكن لعلمائها غاية سياسية ترتدي لبوس العلم، وبذا كانت دراساتهم تنصب على ربط حضارة مصر بجيرانها واللغة المصرية بما أسموه (اللغات السامية).

فإذا افترضنا حسن النية والبعد عن الهوى كانت **ثالثة النتائج**، أعني جهل الغربيين باللغة العربية، أو لنقل جهل أغلب هؤلاء الغربيين بها. فالحق أن الكثرة الوافرة ممن اهتموا باللغة المصرية القديمة لم يكونوا يحسنون العربية، وإن ادّعي بعضهم معرفته بها. وهم قد يتكلمون لغة التخاطب العربية المعاصرة، أو لغة الصحف، أو حتى اللهجة العامية الدارجة، لكنهم لم يكونوا ليحيطوا علمًا بلغة الشعر الجاهلي مثلاً أو لغة الأدب العربي القديم. فمن فعل ذلك من المستشرقين كان اهتمامه مقصورًا على الشعر والأدب بعيدًا عن اللغة المصرية، فلا يمكنه المقارنة واستخلاص النتائج. فإذا وجدنا من اهتم بمقارنة المصرية بما يدعونه (اللغات السامية) كانت مقارنته مبنية على معرفته بالعبرية أصلاً فإن أغلب هؤلاء من اليهود، وقد يعرجون على العربية إذا تبحروا فيها، كما فعل **"فرانز كاليس" Franz Calico** أو " أمبير" **Ember** مثلاً، ولكن دون أن تتيسر لهم الإحاطة الكاملة.

هناك أيضا نتيجة أخرى لاستحواذ الأوروبيين على الدراسات المصرية تكمن في أنهم في مجال دراستهم للغة المصرية وفكهم رموز الهيروغليفية وجهوها وجهة تتفق مع نمط كتابتهم وأصوات لغاتهم، فكان أن قلبوا أشكال هذه الرموز وعكسوها صورة ومسار كتابة. فالرموز الهيروغليفية تمضي عادة من اليمين إلى اليسار، وأحيانا من أعلى إلى أسفل، فكان لابد لكي تسهل قراءتها من أن يحولوا مسار الكتابة لتصبح من اليسار إلى اليمين وتبع هذا عكس صور الرموز بالطبع. نحن إذن نقرأ الهيروغليفية مقلوبة، كما نقرأ التاريخ مقلوبًا هو الآخر!

ليس هذا فحسب، بل كان ثمة **نتيجة خامسة** نجدها في مجال "النقحرة"[٢٧٩]، أي النقل الحرفي للرموز الهيروغليفية إلى الحروف اللاتينية. إذ من المعلوم أن المصرية تحتوي على أصوات لا توجد في اللغات الأوربية، من مثل **العين و الحاء و الخاء والقاف**، مما لا مقابل له في الأبجدية اللاتينية، فكان كل باحث منهم يستنبط رمزًا من اللاتينية يضيف تحته نقطة أو خطًا يشير به إلى الصوت المعني، ومن هنا جاء الاختلاف في العلامات كما يلاحظ القارئ من الجدول المخصص لهذه الغاية. ومضوا فافترضوا أن المصرية لا تحتوي على أصوات نجدها في العربية من مثل **الضاد والطاء**، فوضعوا بدلاً منها الدال أو التاء، ودرجت القراءات على هذه الصورة حتي رسخت، وهي قد لا تكون

٢٧٩ عن منير البعلبكي في قاموسه المورد النقحرة = transliteration

كذلك وزادوا على ذلك أن افترضوا تحريكا للصوامت، إذ المصرية كبقية العروبيات تعتمد الصوامت وأكثروا من الصائت e مساوقة للغات الأوروبية دون دليل على وجود هذا الصوت في المصرية، فيحركون **Kmt** (وهو اسم لمصر) مثلا ليقرأ **kemet**، ولم أجد من قرأه **kamt** اتساقًا مع العربية[٢٨٠].

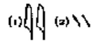
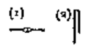
والخلاصة أن علماء الغرب "أوربوا" اللغة المصرية وحرفوها بشكل جعلها تبدو بعيدة كل البعد عن أخواتها اللغات العروبية، والعربية بصفة خاصة، منفصلة عما حولها، حتى أصبح العرب أنفسهم مقتنعين بأن هذه اللغة، التي سرت تسميتها خطأ (الهيروغليفية)، لا صلة لها بالعربية، باعتبارها تمثل "الحضارة الفرعونية الغربية".

ولا جدال في أن وراء هذا الاتجاه غايات استعمارية مخططة أن لنا أن ننتبه إليها وإلى خطورتها على مستقبل الوطن العربي والأمة العربية كلها. وأذكر هنا مثلاً أخذته عمن ينسب له فضل فك رموز الكتابة الهيروغليفية، أعني "شامبليون" ؛ إذ تقرر المصادر الأولى التي كتبت عن عزمه على فك هذه الرموز أنه تعلم العربية وأتقنها، إلى جانب القبطية، لكي يصل إلى فهم ألفاظ اللغة المصرية بعد قراءة رموزها. ثم تأتي الكتابات التالية لتجاهل هذه الحقيقة تماما وتغفل ذكرها.. حتى يحسب المرء أن شامبليون كان يوحى إليه وحيًا دون سابق علم بلغة أخرى يقارن بها اللغة المصرية. وهذه صورة واحدة فقط من صور التعمية وإخفاء الحقائق متعمدة ومدروسة

[٢٨٠] راجع الجدول التالي حيث يوضح اختلاق بعض الأحرف من قبل بعض علماء المصريات لتتسق مع النطق اللاتيني لها كل حسب لغته الأوربية

الرموز الهيروغليفية

ترد في ثنايا صفحات هذا الكتاب مجموعة من الرموز في الكتابة المصرية القديمة شرحناها في موطنها، وهذه لوحة لها باعتبارها «حروفاً» أو«رموزاً هجائية»، مأخوذة من الأستاذ «غاردنر» (Egyptian Grammar, p. 27) مقارنةً بما عند سواه من العلماء، مع المقابل العربي :

ملاحظات	المقابل العربي	عند آخرين	عند «غاردنر»	الرمز الهيروغليفي
ألف مهموزة، أو همزة مفتوحة	عـ، أ	a, ʾ	ꜣ	
ألف مكسورة أو همزة وصل، أو ياء	إ، إ (مرققة)، ي	à, ĭ	ỉ	
ياء النسبة أو التثنية غالباً	ي	i, ī, ĭ	y	
	ع	ā	c	
	و	u, u̯	w	
	ب	b	b	
باء مهموسة	ب	p	p	
	ف	f	f	
	م	m	m	
	ن	n	n	
	ر		r	
	هـ	h	h	
	ح	ḥ, h	ḥ	
	خ	kh	ḫ	
صوت ما بين الحاء والخاء المعجمة	ح، خ	kha	ẖ	
	س، ص، ز	ś, z	s	
	ش	sh	š	
قاف، أو قاف معقودة	ق، كـ، گـ	q	ḳ	
	كـ، (كاف مكشكشة)	č	k	
جيم مجهورة أو معطشة	ج، (جيم معطشة)	k, ğ	g	
	ت		t	
ثاء مثلثة، أو ثنائية بنطق المغاربة	ث، ت	th, dj, tj	ṯ	
	د	ṭ	d	
	ذ، تش، ح، ط، ص، ض	tch, t', dj, tj, ts	ḏ	

ملاحظة :

لا توجد في الألف باء العربية في الأصل : (ب، كـ، گـ، ت، ج). وهي مبتدعة لمقابلة بعض الأصوات في الحرف اللاتيني.
ولسنا على ثقة من أن تقحرات العلماء الغربيين للرموز الهيروغليفية صحيحة كلها بدليل اختلافهم فيما بينهم في هذه التقحرات.

الجدول من كتاب آلهة مصر العربية لعلي فهمي خشيم الجزء الأول ص ١٧

فماذا عن العلماء العرب ؟

لا نضيف جديدًا إذا قلنا إن الباحثين العرب لم يكونوا سوى تلاميذ للعلماء الأجانب في ميدان الدراسات المصرية. هذه حقيقة بينة بذاتها، ومن الطبيعي أن يتبع التلميذ خط الأستاذ، إلا في القليل النادر، وقد غطت الفكرة القائلة بانفصال الحضارة المصرية عما جاورها أغلب الدراسات والبحوث، ولم أر من جرد نفسه وكرس حياته للربط بين اللغة المصرية والعربية في بحث كامل سوى تلك البداية الجريئة الرائدة، والموؤودة أيضًا، على يد أحمد كمال الذي يجد القارئ حديثًا عنه فيما يلي من الصفحات عند الحديث عن العلاقة بين الهيروغليفية والعربية. ثم أذكر محاولة أخرى للأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح في كتاب (حضارة مصر القديمة وآثارها) في فصل قصير عقده بعنوان "مصر القديمة بين جيرانها في الجنس واللغة" (ص ١٢ - ٢٩) استعرض فيه مذاهب علماء المصريات في صلة اللغة المصرية بالسامية من جهة و الحامية من جهة أخرى، وقدم بعض ألفاظ مقارنة بالعربية وأخواتها (الساميات) وأخرى مقارنة بالليبية وأخواتها (الحاميات) - كما يقول. وإذا كان الدكتور عبد العزيز صالح أشار إلى وحدة اللغات السامية والحامية وانبثاقها من جذع واحد (العروبية). والملاحظ في هذا الكتاب القيم أن الدكتور عبد العزيز صالح كان حائرًا ما بين ما يحس به هو شخصيًا من صلة اللغة المصرية بالعربية وأخواتها، وله ملاحظات مفيدة في هذا الباب سواء من حيث المفردات أو قواعد النحو، وما يراه في المراجع التي استعان بها من اتجاه فصلي مسيطر. ويبدو هذا في حديثه عن تكوين مصر السكاني، إذ نراه من جهة يذهب إلى أن سكان وادي النيل الأوائل جاءوا من شرقه وغربه عبر فترات من التاريخ ممعنة في القدم وفي العصور التاريخية أيضًا، ثم نجده من جهة أخرى يدافع عن أصالة الحضارة المصرية وتفردها بل وتميزها بشكل يصل إلى حد الشوفينية[٢٨١] القاتلة.

من خطايا الترجمات الخاطئة "ليسوا آلهة":

من الخطايا التي ارتكبها علماء المصريات في الترجمة من الخط الهيروغليفي للغات الأوربية ما ذكره واليس بيدج **Wallis Budge** في مقدمة ترجمته لكتاب الموتى عن ترجمة مفردة "**نيتر**" وإليكم القصة كما رواها نديم السيار[٢٨٢] في كتابه "**ليسوا آلهة ولكن**



[٢٨١] هي الاعتقاد المغالي والتعصب للوطن والقومية والعنجهية في التعامل مع خلافه، وتعبر عن غياب رزانة العقل والإستحكام في التحزب لمجموعة ينتمي إليها الشخص

[٢٨٢] نديم عبد الشافي السيار (١ مارس ١٩٤٦- ٢٤ مارس ٢٠١٨)، باحث في علم المصريات. بدأ بدراسة التاريخ المصري منذ منتصف السبعينيات، ومنذ العام ١٩٨٠ م ركّز على دراسة (العقائد) المصرية حيث قام بالتوصل إلى

ملائكة": "وبالنسبة لهذا المصطلح الديني: (نيتر) (NETER)[٢٨٣]. فقد توقف أولئك الرواد الأوائل من العلماء أمامه طويلاً، وكثرت اجتهاداتهم في محاولة تفسيره على مدى سنوات... دون أن يصلوا إلى قرار واضح قاطع.

ولقد انتقلت لكتاب الموتى لواليس بيدج في نسخته العربية حتى نقف على جلية الأمر وبدءًا من صفحة ٩٠ وما بعدها وجدنا هذا الكم من التخمينات والتأويلات التي لجأ إليها علماء المصريات الغربيين لجلاء غموض هذه المفردة (نتر) حيث يقول: **"سبق أن ذكرنا أن اللفظ الشائع لدى المصريين للتدليل على الله أو إله أو روح من أي نوع أو كائنات من كافة الأصناف والأشكال والأنواع والكيفيات التي كانوا يعتقدون أنها تمتلك أي قدرات تفوق البشر أو خارقة للطبيعة كانت كلمة (نيت) (NETER)......**

وعندما نحاول أن نجد كلمة تعبر عن (نيتر) هذه ستقابلنا صعوبة التوصل لها لتؤدي بدقة المعنى الذي ربطوه بها لذلك فمن المهم للغاية أن نجد بعض الأفكار لما تعنيه الكلمة " لأنها تمثل الأساس الذى تركز عليه بدون شك فكرة المصريين عن الألوهية أو الله".

وكلمة «نيتر» نوقشت بشكل موسع بين عديد من علماء المصريات ولكن لم يتطابق ما توصلوا إليه عن مغزاها أبدًا. فستر «بيريت» «PIERRET» عام ١٨٧٩ فكر في أن المعنى الحقيقي لها هو "التجدد " " لأنهم في الفكر الأسطوري يؤكد الله على بقائه للأبد شابًا بواسطة تجديد نفسه بالتوالد الأزلي ".

وفي نفس العام في محاضرة شتوية أكد (رينوف RENOUF) أن باستطاعته معرفة المعلومات البدائية المتصلة بالكلمة بدقة بمعنى أن «نيتر» بالنسبة له لا يوجد لها تفسير مقبول تم تقديمه من قبل "ولكنه ظن أن التفسير الذي كان على وشك إعلانه سيكون في الأعم مقبولاً من الباحثين" لأنه توصل إليه من خلال دراسة خاصة لكل ما نشر من كتابات عما تعنيه هذه الكلمة.

ثم قال "أن قريبًا من (نيتر) تأتى كلمة "نيترا NETRA " وأن كلاهما يمكن أن يكون معناهما هو الكلمة القبطية nomt او noute والتي كما نرى من نص مقتبس بواسطة تاثام TATHAM في معجمه أنها منقولة عن الكلمات اليونانية

παρακαλεῖν و ἰσχὺς, παράκλησις,

والمعنى الأول لكلمة nomt يبدو كما لو كان (قوى) وبافتراض أن نيتر مقابلة لها في المعنى فإن رينوف يؤكد بجسارة أن نيتر تدل على كلمة "قوى" أو "قوة" ويمكن

نظريات علمية جديدة ومجددة في مجال العقائد المصرية القديمة وخصوصًا«الديانة الإدريسية» معتمدًا على دوائر المعارف البريطانية، اليهودية، الإسلامية، معارف الدين وأخرى. إلى جانب تراجم مختلفة للتوراة.

٢٨٣ ونلاحظ أن علماء المصريات الاوروبيين رغم أن الكلمة بالخط الهيروغليفي مكونة من ثلاثة أحرف فقط (ن ، ت ، ر) لتكون نتر او NTR نجد أنهم أضافوا الحرف المتحرك E بين الحروف وهو غير موجود أصلاً ليستطيعوا نطق الكلمة لتكون (نيتير) أو (نيتر).

أن تكون قدرة والتي هي أيضاً أحد معانى الكلمة العبرية الـ EL التي يمكننا أن نعلق عليها بشكل عابر بأن المعنى الدقيق لكلمة «الـ» العبرية الدالة على اسم الله غير معروف وأن الكلمة نفسها يحتمل أن تكون اسم خاص بأحد الآلهة السامية القديمة.
والنص الذي اقتبس منه رينوف للبرهنة على أن نيتر تعنى "قوى أو قوة أو قدرة" كما قال مستر ماسبرو تم تفسيره - بشكل خاطئ فمستر ماسبرو عارض عن حق محاولة جعل كلمة نيتر (المذكرة) أو كلمة نيترت (المؤنثة) تعنى قوى في الكلمات الآتية:
التعبير «مدينة » « نيتريت» أو « ذراع » « نيتر».. من المؤكد أنها مدينة قوية أو ذراع قوى تعطى لنا المعنى البدائي لكلمة (نيتر) ؟ ولكن لو أن أحدًا من بيننا قال «موسيقى إلهية» أو قطعة من الشعر الإلهي أو الطعم الإلهي للخوخ أو الجمال الإلهي للمرأة.. فكلمة إلهى هنا مبالغة في الإطراء فإذا قلنا أن المعنى الأصلي "الإلهي" هو فاخر أو رائع أو لذيذ لأن في الجمل التي تخيلت أن أحدهم يمكنه أن يصيغها جاءت من موسيقى رائعة أو قطعة عظيمة من الشعر أو طعم لذيذ للخوخ أو الجمال الخلاب لامرأة نصبح وقد أخطأنا في شرح كلمة "إلهى".
وبالمثل في المصرية "مدينة نيتريت" تعنى مدينة مقدسة و "ذراع نيتر" يعنى ذراع مقدس أى أن كلمة نيتريت أو نيتر هنا تستخدم بشكل مجازى لدى المصريين كما نستخدم نحن كلمة إلهى فى الفرنسية لمعنى فاخر أو رائع أو لذيذ أو خلاب. معنى "قوى" لكلمة "نيتر" إذا جاز فهو معنى مساق وليس أصيلاً.
المنظور الذي كون على أساسه دكتور بروجش معنى كلمة نيتر كان مختلفاً كلية.. لأنه تصور أن معناها الجوهري هو "القدرة الفعالة التي تخلق وتنتج أشياء بواسطة تكرار متعاقب وتعطى لها حياة جديدة وتحفظ لها نضارة الشباب". هذا الذي اقتبسناه كان وجهة نظره عام ١٨٨٥ ولكن هل تمسك دكتور بروجيش بها لمدة ست سنوات تالية؟.
من المقتطع التالي من كتابه الذي صدر عام ١٨٩١ عن الدين المصري يشير فيه إلى وجهة نظر رينوف وقناعته بأن نيتر لها معنى مساو للكلمة اليونانية δύναμις فهو يقول:
أنها حقيقة بادية لنا أن الله يعنى القوة والعظمة وأن الإله أو الله يبدو كما لو كان صخرة قوية أو جبل قوى وفى عهد الفراعنة كانوا يعتقدون في وجود الإله الأعظم خاصة في الأسرة الثامنة عشرة عندما كانت "نوت" ربة للخلق والبعث.. ولقد وجدنا في مقابرهم ما يدل على ذلك في نقوش التوابيت وكتاب الموتى. والآن نترك لكم الخيار أما أن الربة "نوت" هي ربة البعث والحياة وأما هي ربة القوة والمقدرة. المصريون القدماء هل قصدوا هذا المعنى أم ذلك.. وهو معنى لا يختلف كثيرًا عن العقيدة الإلهية لدينا الآن.
من هذه الجمل دكتور بروجيش يوافق بشكل كامل على وجهة نظر بيريت التي ذكرناها أنفاً عن علاقة التجدد بكلمة نيتر وإن كان يبدو كما لو كان قد انسحب من الموقف

الذي اتخذه من قبل وأكد أن معنى الكلمة يتطابق مع الكلمة اليونانية φυσις: واللاتينية "NETRA"
ونحن نجد صعوبة في أن نقول أنه لا توجد أرضية صلبة لهذا التأكيد ويعز علينا أن نرى عالمًا رفيع الشأن في المصريات يحاول مقارنة فكرة الله المكونة بواسطة شعب إفريقي نصف متحضر بشعوب ذات حضارة مثل اليونانيين والرومانيين[٢٨٤].
وحتى لو أننا أخذنا بوجهات نظر علماء مميزين في علم المصريات مثل (أى. دي. روج) وليبلين وماسبيرو فنحن لا نقترب من حل صعوبة معرفة معنى "نيتر".
أول هؤلاء يشرح رؤيته في العبارة التالية:
"نحن لا نستطيع أن نعرف على وجه الدقة معنى فعل "نيتر" والذي يشكل جذور كلمة نيتر "إله" ومن يرى أنها تدل على كلمة " يصبح" أو "يجدد" أو" روح ما" يقدم أفكارًا غير كاملة لأن (نيتر» تستخدم للدلالة على الروح التي تعيد الحياة والتي ترتدي لباس الخلود".
وهكذا نجد أن أحد كبار علماء المصريات يقر بأن المعنى الدقيق لكلمة "نيتر" غير معروفة ولكنه يقدم وجهة نظر لا تختلف في معناها مع ما طرحه بيريت.
أما الأستاذ ليبلين فهو يتقدم لخطوة أبعد من دى روج لأن من رأيه استحالة أن نرى الأصل الأول لفكرة الله بين الشعوب التي سبقت التاريخ المعروف. عندما نأخذ الهنود الأوربيون كمثال. ماذا نجد لديهم ؟.
الكلمة السنسكريتية ديفا ""DEVA تتطابق في معناها مع كلمات أوروبية مثل TIVAR اللاتينية DEUS و TIVI تيفى وتيفار الشماليتين فإذا كانت الكلمات الأوروبية تشير في معنى لها إلى "الله" فلابد وأن السنسكريتية لها نفس الدلالة على الأقل في بداية نشأة هذه اللغة بمعنى أنه إذا كان الآريون والهنود الأوروبيون قد عاشوا معًا في وطنهم الأصلي فلابد وأن كلمة ما من لغتهم الأم قد تم دمجها مبكرًا كلمة الله بحيث أنها بعد أن تطورت في اللغات المأخوذة عنها احتفظت بنفس دلالة الأصل كما رأينا في الكلمات السابق الإشارة لها. فإذا لم تكن كلمة ديفا السنسكريتية تشير هي أيضاً لـ "الله" فسيصيبنا العجب إذ كيف حملت كل هذه الكلمات بمحض الصدفة نفس القدر في المعنى مع كل هذه الشعوب بعد انفصالها !! وهو أمر غير محتمل تمامًا.. إلا أن يكون للكلمة المشتقة عنها باقي الكلمات في اللغة الأم من عصر ما قبل التاريخ معنى "الله".
فإذا كان بمقدورنا أن نمضى قدمًا ونفترض أن حتى هذه اللغة الأصلية المشتركة أخذت هذه الكلمة عن آخرين فبالتبعية نتوقع أن نجد لها أصولاً في لغات عصر ما قبل التاريخ الأكثر تبكيراً.. وهو أمر ممكن بل حتى محتمل فكل العناصر التي يمكن أخذها في

---

٢٨٤ لننظر الى هذه العنصرية البغيضة من واليس بيدج "شعب افريقي نصف متحضر" وكأن تاسوع الالهة الذي نشأ قبل آلهة الأوليمب بما يقارب من الثلاثة آلاف عام وكيف أن الديانة المصرية قد عرفت التوحيد وعرفت الخلود بعد الموت والحساب وأخذت عنهم الحضارة اليونانية الحديثة النشأة مقارنة بالحضارة المصرية القديمة كل العلوم والفلسفة وحتى الآلهة.

الاعتبار تشير إلى أن فكرة الله نفسها قد تطورت من لغة عهد مبكر عن العصر الذى تكونت فيه اللغة الهندواوروبية الأم.. والمستقبل ربما سيكون قادرًا على إمدادنا بالأدلة على ذلك فعلم اللغات أصبح قادرًا جزئيًا على إعادة بناء اللغة الهندواوروبية والخاصة بعصر ما قبل التاريخ. وقد يكون من الممكن أيضًا إعادة بناء اللغة السامية القديمة واللغة الحامية (المصرية) ومن هذه اللغات الثلاث التي تعود إلى عصر ما قبل التاريخ بجذورها والتي من الثابت وليس تخمينًا أن لها ارتباطات مشتركة[٢٨٥] برهنت عليها الدراسات الأولية يمكن أن نستخلص مع مرور الزمن من بينها لغة خامدة لعصر ما قبل التاريخ المبكر والتي طبقًا لعلم القياس ممكن أن نسميها "بالنوحية"[٢٨٦]. وفي تصوري أنه إذا توغلنا في هذه النوحية فإننا سنجد في الغالب كلمات تعبر عن الله.. أو قد لا نجد أن فكرة الألوهية قد بزغت في ذلك الزمن للوجود.

على العموم فقد تكون دلالة هذه الفكرة أن كلمة الله كامنة في لغة خامدة مبكرة أو قد تكون مدفونة بعمق في طبقة من الطبقات البعيدة للغة ما بحيث يستحيل الكشف عنها. فبين زمن سكنى الكهوف في العصر الجيولوجي الرابع وعصر الممالك التاريخية توجد مسافة شاسعة من الزمن بحيث يصعب أن نرحب بأنها كانت خالية تمامًا من أي فكر عن العبادة.. وأن هذه الأفكار قد تفجرت فجأة في الأزمنة التاريخية المعلومة.. على أي حال.. نحن ليست لدينا القدرة الآن على تقديم الأدلة التاريخية الخاصة بالزمان والمكان الذين ظهر فيهما لأول مرة السؤال عن ماهية القدرات الخارقة التي نرى آثار أعمالها يومياً في الطبيعة وفى حياة الإنسان !! ورغم أن المصريين كانوا أقدم الشعوب المتحضرة تبكيراً ـ بقدر ما نعرف تاريخيًا إلا أننا إذا كنا نأمل في تأسيس علم لاهوتي صحيح سنجد أن من المستحيل الإشارة إليهم كأصل لفكرة العبادة.. فأقدم الآثار المصرية تقدم لنا آلهة الطبيعة أساسًا ومن بينها نجد مكانًا خاصًا للشمس منذ الأسرتين الرابعة والخامسة إلا أنه كان يتأرجح بين القدرة العظمى أحيانًا والله الكبير مرة أخرى في نفس الوقت لم تكن الفكرة مؤكدة فيما إذا كانت تشير إلى إله الشمس أم لإله آخر من آلهة الطبيعة.. أو أنها تتمحور حول عبادة لفكرة غير محددة لقوة خالقة للطبيعة غامضة ممكن أن يكون المصريون قد ورثوها.

ومن المحتمل أن هذا الإله الكبير المشار إليه في آثار الأسرة الرابعة والخامسة وما بعد ذلك قد أعطى الفرصة لاعتقاد خادع أن أقدم الديانات المصريين كانت توحيدية مطلقة عموماً يجب ملاحظة:

أولاً: أنه لم يذكر منفردًا وإنما كان يذكر جنبًا إلى جنب مع آلهة أخرى متنوعة.

ثانياً: أنه كان يسمى باسم الله العظيم» مجردًا بدون إظهار أي فروق في الألقاب على عكس عاداتهم. وكما أن الله هذا الذي ليس لديه شيء آخر يذكر به كان يتكلم بالرمز

---

[٢٨٥] يستمر واليس بيدج في نهج نفس المنهج الذي سار فيه أقرانه وهو عزل اللغة المصرية القديمة عما يحيط بها من لهجات عروبية وضمها عنوة إلى ما يسمى باللغة الهندواوروبية والعبرية.

[٢٨٦] يقصد بها لسان نوح عليه السلام

ويظهر في وجود تجريدى بحت.
كان من الضروري الاستشهاد برأي الأستاذ ليبلين باستفاضة لأنه كان واحدًا من أوائل الذين ناقشوا الفكرة المبكرة الله في ضوء ربطها بما يدعى أنه يماثلها من أفكار لدى الشعوب الأرية. وعمومًا لو أتيحت له الفرصة لأن يعيد كتابة الجزء الذي اقتبسناه آنفًا في ضوء الأبحاث الحديثة سيعدل في اعتقادنا عن عديد من نتائجه. وللأغراض الدراسية التي بين أيدينا قد يكون من الكافي أن نوضح أنه قد آمن أن من المستحيل الإشارة إلى أصل فكرة العبادة بين المصريين.
آخر من نحتاج إلى الاستشهاد به هو ذلك الرأي الذي يخص مستر ماسبرو الذي لم يقل فقط – بجرأة- أنه لو كانت كلمة نيتر أو نيترى تعنى "قوى" فإنها تصبح معنى دارجًا وليس أصيلاً وأنه يفضل أن يقر بقدم الكلمة لدرجة أن نشأتها غير معروفة - أي - هي تعنى" إله" ولكنها لا تعلمنا شيئًا عن ما كانت تعنيه في العصور البدائية بل يضيف "بأننا يجب أن نكون حريصين في إلا نجعلها توحى إلينا بما تعنيه كلمة الله في العبادات الحديثة أو في التعريفات الفلسفية... لأن الإله المصري القديم كان كائنًا يولد ويعانى ويموت مثل الإنسان وهو هالك وغير متكامل وله عواطف وفضائل وغرائز وبدائل".
هذه الجملة عن الآلهة المصرية صحيحة بالطبع في فترات متعددة من تاريخهم ولكن يجب أن تفهم بوضوح بحيث لا تطلق على عواهنها لأنه جنب إلى جنب لهذه الأفكار كان موجودًا على الأقل - بين المصريين المتعلمين أفكار توحيدية لا تقف بعيدًا عن تلك الأفكار الحديثة السائدة اليوم.
مما سبق عرضه نرى أن أغلب الباحثين قد أخذوا بوجهة النظر القائلة بأن كلمة نيتر قد تعنى "تجديد" أو "قوة" أو " قدرة " أو "صيرورة" أو بعض الأفكار التي تدور حول التجديد.. وأن آخرين تصوروا أن معناها الأصلي ليس فقط غير معروف ولكن مستحيل معرفته.
ولكن ورغم أننا - معهم – لن نكون قادرين على اكتشاف المعنى الدقيق الذي تعنيه الكلمة لدى شعوب عصر ما قبل التاريخ.. إلا أننا يمكننا أن نحصل على بعض الأفكار عن معناها في عصر الأسرات بفحص بعض العبارات الواردة في أدعية وفصول أجزاء مختلفة من كتاب الموتى.........."
وكما رأينا دوامة كانت.. ومتاهة كبرى....
ثم لأنه في النهاية كان لا بد من الوصول إلى قرار، وكان لا مفر من إيجاد (ترجمة).. لذا، أخذوا برأي البعض مِمَّن غامر بالقول باحتمال أن هذا (اللفظ) قد يعنى: (إله). ومن يرجع إلى ما كتبه "والس بيدج بالصفحات السابقة في عرضه لتفاصيل ما جرى، سيرى كيف كانت رحلة الحـــيرة في (ترجمة) هذا المصطلح الهام والخطير.. بدءًا من إعلان العلماء عجزهم عن فهمه، وانتهاءً بوصول بعضهم إلى ذلك (الخطأ) -أو (الخطيئة)- بترجمته بلفظ: (إله)... وهى الترجمة التي للأسف قد تبنت، وانتشرت،

واشتهرت.. برغم اعتراض الكثير من العلماء عليها آنذاك.. وقد كان ذلك كله.. في بدايات القرن الـ(١٩).
وهكذا انتهت الأمور إلى ترجمة هذا "اللفظ" في المراجع الإنجليزية بلفظ (**God**)، وفى المراجع الفرنسية بلفظ (**Dieu**)، وكذلك في الألمانية (**Gott**) إلخ ثم جئنا نحن، فنقلنا من كتب أولئك الرواد من العلماء الأجانب.. وبطبيعة الحال، ترجمنا ترجمتهم بلفظ: (إله). وبذلك امتلأت كل كتب التاريخ الفرعوني في الإنجليزية بلفظ: (**God**) ـ كلقب لكل تلك الشخصيات الفرعونية المقدسة (مثل: بتاح، رع، آمون إلخ)... وبالمثل في الفرنسية والألمانية.إلخ.. وبالمثل أيضًا في الكتب العربية.
"ولعلّ مما ساعد على حدوث هذا (الخطأ) ـ أو (الخطيئة) ـ صعوبة "اللغة المصرية القديمة" بالنسبة لأولئك العلماء آنذاك. بل.. ومازالت هذه "اللغة" لم تكتشف بعد جميع غوامضها وخفاياها حتى الآن.
فهذا أكبر جهابذة عُلماء اللغة المصرية وقواعدها، العالم البريطاني جاردنر[٢٨٧].. يعترف بذلك في صراحة فيقول: "إن معلوماتنا لانزال غير مستوفاة في اللغة المصرية". " كما يذكر العالم الأمريكي / جيمس هنري بريستد: "والحقيقة أن معرفتنا بهذه اللغة المصرية ونظم كتابتها.. لانزال بعيدة عن حد الكمال."[٢٨٨]. ويذكر العالم الفرنسي فرانسوا دوماس ".. وفي غضون هذا الزمن كانت تتراكم وثائق نُشرت في أناة ونُسِخَت وعلق عليها.. لقد كشفت ـ ومازالت تكشف في اطراد لا يني يتزايد ـ عن (لغة) مرنة ومعقدة، مازلنا حتى الآن على شوط بعيد من تعمق كل ظلال معانيها."[٢٨٩]
ويضيف د. عبد العزيز صالح: " إن ترجمة "النصوص المصرية القديمة ترجمة علمية مباشرة... مهمة وعرة لاتزال في بدايتها.....إلخ "[٢٩٠]
كما يتحدث د. حسين فوزى عن عدم الإحاطة الكاملة بمعاني ألفاظ هذه "اللغة المصرية القديمة" حتى في أكبر وأوثق القواميس التي وضعها كبار علماء المصريات في العالم... فيقول:" لنفتح أحدث قواميس اللغة المصرية لتعجب من كلمة مصرية مازال كل معناها عند جهابذة اللسان (البربائي) = (الهيروغليفي) هو: (فعل يعنى حركة أو عملاً عنيفاً) (!)... فإذا توصل القاموس إلى المعنى الدقيق لكلمة. من الكلمات، إذا به يضيف في ذيل شرحه: (أو.. ما أشبه ذلك) (!).. كأن تقول: (عجلة.. دائرة.. خاتم.. طوق.. حجر رحى.. أو ما أشبه) (!).. وتذكرني (ما أشبه) هذه، بخاتمة الشروح والمباحث والهوامش في كتب العرب وهي تختم بقوهم: (والله أعلم).[٢٩١]"أي أننا حتى الآن.. لم تتمكن بعد من الإمساك بناصية هذه "اللغة" تمامًا، ولم تملك زمامها، ولم تتعرف بعد على خفاياها ودقائقها بصورة وافية.

[٢٨٧] سير ألان جاردنر – مصر الفراعنة – ص ١٣٤
[٢٨٨] جيمس هنري بريستد - فجر الضمير ص ٣٤
[٢٨٩] فرانسوا دوماس – الهة مصر – ص ١٤
[٢٩٠] د. عبد العزيز صالح – التربية والتعليم في مصر القديمة ص ٣
[٢٩١] د. حسين فوزى – سندباد مصري ٢٨٣

ولقد رأينا فيما ذكرناه من مثال عما في (قواميس اللغة المصرية) ذاتها، كيف يتضح بجلاء عجـز العلماء عن النفاذ إلى جوهر وصميم معانى الكثير من "الألفاظ".. وبذلك جاءت ترجماتهم لها أشبه بدوران حول المعنى، وأحيانًا أشبه بالتخمين أو الوصف التقريبي. فإذا كنا نجد في تلك القواميس هلامية (الترجمة) وضبابيتها واحتمالياتها، حتى بالنسبة للألفاظ عادية.. فما بال تلك المصطلحات الدينية العقائدية أو الفلسفية أو الميتافيزيقية إلخ، الصعبة العميقة الغور.
ذلك كله يعطى فكرة عن مدى صعوبة (الترجمة).. وهو ما حير أولئك الرواد الأوائل من العلماء عندما توقفوا أمام ذلك "المصطلح" الديني الصعب: (نيتر).. حتى انتهى بعضهم إلى ذلك (الخطأ) الفادح، الذى ذاع وانتشر، وثبت في الأذهان حتى اليوم.[٢٩٢]
ولكن من الإنصاف أن تذكر لبعض أولئك الروّاد الأوائل من عُلماء المصريات ـ الذين قاموا ببواكير (الترجمات) للنصوص الهيروغليفية... أمانتهم العلمية واعترافهم بعجزهم أحيانًا عن (ترجمة) بعض الألفاظ والمصطلحات المصرية القديمة.
ومثال ذلك ما يذكره عالم المصريات والس بدج: **"إن أي شخص أمين يعمل في مجال المصريات.. لا يمكنه إلا أن يعترف بأنه حتى وقتنا الحاضر لاتزال توجد سطور غير واضحة في بعض النصوص المصرية.. وأن هنالك الكثير من الإشارات الهامة، لا تعرف معناها الحقيقي."**[٢٩٣] ومثال ذلك أيضًا، ما فعله عالم المصريات شاباس.. الذي أعلن اعترافه بعجزه عن ترجمة إحدى الفقرات من "كتاب الموتى"، فكتب يقول:" **"وهذه الفقرة تعتبر قديمة جدًا.. غامضة وخفية جدًا.. ومن الصعب جدًا فهمها."**[٢٩٤]
كما يذكر د. أحمد بدوى: **"إن بعض النصوص المصرية القديمة مازالت تستعصي على (لترجمة).. ومازالت عسيرة الفهم.. عسيرة التأويل".**[٢٩٥] كما يذكر العالم الفرنسي فرانسوا دوماس: **"إننا لا نستطيع أن نعرف بدقة لفظ: (فراغ ـ لا نهائي)، الذى يترجمه المرء في غالب الأحيان بلفظ: (أبدية).. وليس من المؤكد على آية حال، أن يكون له هذا المعنى."** [٢٩٦]كما يذكر د. سليم حسن:" **وإذا أمكننا الإشارة إلى "متون الأهرام" بصفة عامة، فلا يمكننا معرفة معانيها معرفة تامة... فإن ذلك يُعد من أصعب الأمور."**[٢٩٧]
فإذا ما جئنا إلى ذلك المصطلح الخطير الهام:"نتر" فسنجد أن هنالك فريقًا من العلماء لم يتورطوا بالتسرع في إلقاء "التخمينات" جزافاً.. ولم يتحرجوا من إعلان عجزهم عن الفهم.
ومنهم عالم المصريات والس بيدج.. الذي أعلن في صدق وأمانة العلماء:" **أما كلمة**

---

[٢٩٢] نديم اليسار – ليسوا الهة – ٤٠-٤١
[٢٩٣] والس بيدج – آلهة المصريين – ص ١١
[٢٩٤] The Egyptian book of the dead - Wallis Budge P:٦
[٢٩٥] أحمد بدوي – تاريخ التربية والتعليم – ص ١٠٠
[٢٩٦] فرانسوا دوماس – آلهة مصر – ص ٣٣
[٢٩٧] سليم حسن – موسوعة مصر القديمة – الجزء الثاني – ص ٦٦

(نيثر. و) - التي كانت عادةً تُترجم: (gods آلهة)... فيجب أن تترجم بكلمة أخرى.. ولكن، ما هي تلك "الكلمة" التي يجب أن تترجم بها ؟؟.. هذا ما لا أستطيع قوله. "[٢٩٨]
كما يذكر في موضع آخر: "**أن المعنى الدقيق المضبوط لكلمة (نيثر).. مفقود تمامًا.**"[٢٩٩] **كما يذكر عالم المصريات رينوف: "وأعتقد أن الكلمة (نيثر)، قديمة جدًا جدًا.. وأن إدراك معناها الأصلي الأوّل، غامض، وغير معروف لنا."**[٣٠٠]
وبرغم أن العالم البريطاني والس بدج، كان قد أعلن عن عجزه عن "ترجمة" لفظ: (نيترو)[٣٠١] - رغم تفرغه لدراسته سنوات عديدة- إلا أنه قد خرج من دراسته الطويلة لهذا "اللفظ" بحقيقة واحدة، وهى أنه - في عقيدة المصريين القدماء - يُشير إلى معنى آخر تمامًا.. غير معنى: (الإله). فبعد استعراضه لمفهوم المصريين القدماء عن الـ(نيتر.و) - مثل (بتاح، رع، آمون إلخ) -.. ثم استعراضه لمفهومهم عن (الإله الواحد) يقول: "**والفرق بين إدراكات وتصورات المصريين القدماء لمفهوم الإله الأسمى (God / الله)، وال نيتر. و).. يُرى جيدًا - وبوضوح- باللجوء إلى النصوص المصرية الأصلية.**"[٣٠٢] إذن، فهنالك فرق - في عقيدتهم... بين (الإله / الله) وبين ال(نيتر).
ويذكر والس بدج أيضًا: "**والحقيقة التي تم برهنتها - بشكل قاطع -.. أنه منذ عام (٣٣٠٠ ق م) تميز في عقل المصريين "إله واحد".. مختلف عن الـ(نيتر. و).** "[٣٠٣]
كما يذكر عالم المصريات شاباس[٣٠٤]: "**و (الله) العلى - عند المصريين القدماء... كانت له صفات وملامح فريدة تختلف عن تلك التي لل نيثر. و.**"[٣٠٥] ثم يضيف: "**والله الواحد الذي يمثل الفكرة النقية المجردة للألوهية.. لم يتم تجسيده - عند المصريين القدماء - طوال عصورهم في أى (نيتر).** "[٣٠٦] وبصورة أكثر تحديدًا.. يقول: " **فـ(الله) - عند قدماء المصريين -.. ليس "بتاح" أو "رع" أو "تحوت" أو "أوزيريس" إلخ**"[٣٠٧]
أما عن مكانة هذا الإله الواحد بالنسبة للـ (نيتر و) ، وعلاقته بهم. يذكر عالم المصريات:

---

[٢٩٨] The Egyptian book of the dead - Wallis Budge P:٨٣
[٢٩٩] The Egyptian book of the dead - Wallis Budge P:٧٤
[٣٠٠] Mythologie égyptienne - Sir Peter Le Page Renouf P: ٢١٥
[٣٠١] حيث الواو في نهاية كلمة نتر هو علامة الجمع في اللغة المصرية القديمة
[٣٠٢] The Egyptian book of the dead - Wallis Budge P:٧٤ - ٧٥
[٣٠٣] والس بيدج – الهة المصريين – ص ١٤٧
[٣٠٤] فرانسوا جوزيف شاباس كان عالم مصريات فرنسي. جاء شاباس من خلفية متواضعة، ودرس في شالون وأصبح تاجر نبيذ. علّمَ نفسه اللاتينية واليونانية ولغات أخرى. ولاهتمامه بالأنثروبولوجيا، درس اللغات المصرية القديمة. كان شاباس عضوًا في العديد من الجمعيات العلمية ثم أصبح لاحقًا رئيس إقليم سون ولوار
[٣٠٥] والس بيدج – الهة المصريين – ص ١٦٣
[٣٠٦] والس بيدج – الهة المصريين – ص ١٦٣
[٣٠٧] والس بيدج – الهة المصريين – ص ١٦٣

ماريت[٣٠٨]: " **وفوق مجمع الـ (نيتر. و) المصرية.. (إله واحد)، لم يُولد، ولا يمكن رؤيته، فهو خالد مُختفي في عُمق جوهره المنيع، خالق السماوات والأرض وكل كائن حي، وهو على كل شيء قدير.. هكذا كان (الله) الذي تم ذكره ـ عند قدماء المصريين ـ.** "[٣٠٩] ومن بين النصوص القديمة التي عُثر عليها.. فقرة تقول: **" (الإله) خالق ال (نيتر. و)."** [٣١٠]هذا ما كتبه المصريون القدماء أنفسهم. إذن.. فقد كانوا يفرقون ويميزون جيّداً بين (الإله / الله)، وبين تلك الكائنات التي أطلقوا عليها: (نيتر. و).[٣١١]

ولذا، يقول بدج مؤكدًا: **"والمصري القديم.. لم يخلط أبدًا بين (الله) وال(نيتر. و).**"[٣١٢]

ثم بعد أن يستعرض عقيدة المصريين القدماء عن (الإله الواحد) وصفاته، وكيف أنه كان "خفي الاسم"، وأنه خالق (النيتر. و) ذاتهم والمهيمن عليهم إلخ، ثم كيف أنه ـ في عقيدتهم ـ شيء آخر تمامًا غير الـ(نيتر. و). إلخ.. بعد استعراضه لذلك كله، يخرج بدج بالنتيجة التالية: "ونتيجة لذلك.. **فإن الكلمة: (God / الله)، يجب أن تُستَبقَى لتعبر عن اسم "خالق الكون".. أما كلمة: (نيثر. و) ـ التي كانت عادةً تُترجم: (gods / آلهة) ـ فيحب أن تترجم ب(كلمة أخرى).**"[٣١٣]

إذن.. انحسم الأمر. فال (نيتر. و) ليسوا (آلهة). ومن الخطأ الفاحش والقاتل أن نترجم هذا اللفظ بـ(آلهة). إذ أن الإله عند المصريين القدماء.. (واحد). وهو كيان مستقل ومختلف تماماً عن تلك الكائنات المسماة: (نيتر. و). هو عندهم يعنى (الله) كما نعرفه نحن في عقائدنا اليوم.. واحد أحد.. فائق القداسة والعظمة.. وخالق الجميع.[٣١٤]

أما.. ماذا تكون تلك "الكائنات" التي أطلقوا عليها لفظ: (نيتر. و)؟ فهذه قضية أخرى. قضية يمكن دراستها وبحثها ولكن المهم.. أن وجودها لا يتعارض مع القول بـ(التوحيـــــد).

واذا كان الإسلام ومن قبله اليهودية والمسيحية قد أخبرنا عن درجات الملائكة ووظائفهم فهناك ملائكة للرياح وملاك الموت وملائكة الأمطار وملائكة العذاب والملائكة الكتبة وغيرهم فليس من الغريب لأن علماء الغرب انتزعوا مصر من محيطها وجعلوها متفردة في لغتها وحضارتها وحاولوا الصاقها عنوة بجنسهم ولسانهم، أقول أن علماء الغرب فسروا كل النصوص حتى بعيدًا عن الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والاسلام فكان نتيجة طبيعية لهذا الفصل أن يقعوا في مثل هذا التخبط ويترجموا كلمة ربما كانت تعني ملائكة وأن يتغاضوا عن نصوص وردت في كتاب الموتى ومتون

---

[٣٠٨] أوجوست مارييت . مؤسس المتحف المصري في القاهرة عالم من علماء المصريات كان له الفضل الكبير في الاحتفاظ بآثار مصر، وعرف فيما بعد بمارييت باشا.

[٣٠٩] والس بيدج – الهة المصريين – ص ١٦٣

[٣١٠] The Egyptian book of the dead - Wallis Budge P:٨٥

[٣١١] نديم اليسار – ليسوا الهة – ص ٤٤

[٣١٢] والس بيدج – الهة المصريين – ص ١٦٨

[٣١٣] The Egyptian book of the dead - Wallis Budge P:٨٣

[٣١٤] نديم اليسار – ليسوا آلهة – ص ٤٥

الاهرامات تتحدث عن الله الواحد "**الإله الواحد الذى وُلد في بدء الزمان... خالق الأرض ومكون الإنسان**" وكان نتيجة لهذه الخطايا في الترجمة هو وسم الحضارة المصرية القديمة بالوثنية رغم ما يذخر به كتابهم المقدس "برت أم هرو" أو "كتاب الموتى" او الترجمة الصحيحة له "الخروج إلى النهار".[٣١٥] بنصوص تتحدث عن الإله الواحد وليس عن التاسوع المصري أو آلاف الآلهة التي ألصقوها بحضارة عرفت التوحيد طوال عمر حضارتها لمرات ومرات.

ونحن هنا نتكلم عن مفردة واحدة وكيف أنها غيرت من تاريخ أمة فماذا لو دققنا في قواميسهم وتخميناتهم وخيالاتهم وأهوائهم هذا ما سيتضح فيما سيلي.

كيف استطاع شامبليون التوصل لفك رموز الخط الهيروغليفي؟

"قام شامبليون خلال سنوات عمله العشر في بحثه للحجر وما يحويه بمحاولات كثيرة واستخدم كل ما نعلم من أساليب الاستدلال والاستنباط وغيرها إلى أن وجد ضالته في طريقة جديدة استحدثها هو لتكون مصدرًا لكل ما توصل إليه من خلال هذه الطريقة فقد توصل إلى استخراج الأصوات واكتشاف الأسماء والألفاظ وتحديد هوية كل شكل ورمز وهذه الطريقة هي طريقة المقابلات الخطية.

طريقة المقابلات الخطية:

هذه الطريقة التي ابتكرها شامبليون واستخدمها في محاولاته لفك طلاسم حجر رشيد هي عملية إجراء مناظرة أو مقابلة بين النصوص التي تنص في المعنى والمدلول ولكنها تختلف في اللغة التي كتب بها كل منها.

مثال ذلك **Tom** "توم"، فعند إجراء مقابلة أو مناظرة بين الاسمين نجد أن:

T = ت، **O** = و، **M** = م

وبهذه الطريقة يمكن لنا استخراج أصوات الحروف بحيث أن تدرك الصوت الذي يعبر عنه الحرف أو الرسم أو الرمز ولكن هذه الطريقة إن أردنا الاعتماد عليها في الاستدلال على أصوات الحروف يلزم أن يتوافر لدينا عدة ثوابت.

١- **أن يكون لدينا علم مسبق بأسلوب الكتابة:**

كأن نعرف ما إذا كانت هذه اللغة نكتب من اليمين إلى اليسار أم العكس أو من أعلى إلى أسفل أم العكس والجهل بهذا في إجراء المقابلة يقلب الحقائق وعليه نجد أن **Tom** - توم **M** = ت، **O** = و، **T** = م وهذا خطأ بالغ.

ففي المثال الأول كانت المقابلة لاتجاه الكلمة من اليسار لليمين أم في المثال الثاني فقد كانت المقابلة لاتجاه الكلمة من اليمين لليسار.

---

[٣١٥] الترجمة الصحيحة لعبارة "برت ام هرو" المصرية القديمة هو "الخروج إلى النهار" بالعربية

٢ـ قواعد الترتيب في الجملة والتكوين فيها:

فمعرفة مواقع الفعل والفاعل والصفة و الضمائر... إلخ في الجملة وبين بعضها البعض يحدد لنا أي هذه الكلمات بقابل التي ندركها من النص الذي يجرى التعامل معه ففي جملة " الأب الطيب أسعد أسرته ".

"The good father did make his famly happy"

في هذه الجملة لا يجوز إجراء مقابلة بين أي من كلماتها في الأولى سبق الموصوف الصفة وفي الثانية سبقت الصفة الموصوف وأيضا أداة التعريف ظهرت متصلة بالموصوف في الأولى أما في الجملة الثانية فقد ظهرت مستقلة وكذلك الضمير وأيضا لم تتساوي عدد الكلمات في الجملتين وإجراء المقابلة إزاء ذلك ينتهي ولا يصل بنا إلى شيء.

٣ـ معرفة الأصوات المستخرجة في اللغة:

وهذه الأصوات هي التي تشكل وتكون ألفاظ وكلمات اللغة وعدم إدراكنا لهذا قد يحدث أن تحوى اللغة ما ليس منها مثل كلمة "علي" " Aly" فصوت الحرف "ع"، لا وجود له في اللغة الإنجليزية وبإجراء المقابلة الخطية سيظهر الصوت في اللغة مع عدم وجوده فيها أساسا والعكس فإن (A) هو بديل للصوت (ع)، لكن لا يقوم بالتعبير عنه وبالمقابلة نجد أن ع = A وبذلك نكون حذفنا صوتا من أصوات اللغة!

٤ـ معرفة وإدراك الصياغة الخاصة:

بالصياغة الخاصة التي تحدث لبعض الأسماء لا يمكن أن نتعامل معها كتعاملنا مع بقية الكلمات ذلك لعدم إتباعها لأي من قواعد النقل والترجمة فلابد أن يدرك الباحث ذلك فمثلا كلمة EGYPT، هذه تعني مصر حتى لا يخرج الينا بكلمه غريبة إيجيبت، لا معنى لها في اللغة التي نبحث فيها.

وأتساءل هنا... هل كان لشامبليون أي من هذه الثوابت؟ الحقيقة أن شامبليون لم يكن يملك من أمر لغة المصري القديم شيئًا فهذه اللغة لم يبق منها شيء فقد انتهت ولم يبق من يتحدثها على بساط المعمورة ولكن كل ما تبقى هو بعض الرسوم والرموز التي تكسو المعابد وعلى البرديات"[٣١٦].

[٣١٦] حمدي عبد الرازق – العقيدة والبرهان في التاريخ – مكتبة وهبة – ص ١٦ وما بعدها

أمثلة على بعض الأخطاء في الترجمة من الهيروغليفية:

ينبهنا محمد عبد الرحيم مفتش الآثار بمصر العليا (الاقصر) أن نتر" neter " كلمة مصرية قديمة وهي تعني " الكائن المنتسب للعرش الإلهي"، وجمعها "نترو" Netro.
والنتر هو من مخلوقات الإله الواحد، و المصري القديم وصفه بنفس صفات الملائكة في الإسلام. فكل ملاك في الإسلام له دور معين، ملاك للرزق و ملاك للموت و ملاك للمطر وملاك للتدوين إلخ........
وفى العقيدة المصرية تعددت النترو بتعدد الأدوار والصفات، فكان هناك مثلا "نتر" للإنبات، و"نتر" للخصوبة، و"نتر" للشمس و هكذا، لكن بعد إكتشاف حجر رشيد و فك رموز الكتابة المصرية القديمة والنقش المقدس " الكتابة الهيروغليفية" سنة ١٨٢٢م، على يد العالم الفرنسي (شامبليون) و زملائه، حار شامبليون ومن معه ومن تبعهم في ترجمة لفظ (نتر)، فلم يجدوا له أي مدلول واضح في النقوش المصرية القديمة. لكنهم قاموا بأبشع فعل في التاريخ من وجهة نظري، وهو اللجوء للتخمينات، فقاموا بتفسير كلمة "نتر" عن طريق التخمين وبكل مدلول الخطأ لتساوي لفظة" God" ـــ أي إله ـــ.
وبذلك الفعل الشنيع ثبتت عنهم تلك الترجمة لتلك الكلمة، وتناقلها جميع علماء الأرض من بعدهم من دون البحث أو التحري عن دقة تفسيرها ومدلولها. فأدى ذلك لوجود انطباع أن (حورس و أنوبيس و غيرهم) آلهة عبدها أجدادنا المصريون القدماء، لكن هذا الكلام علميًا غير صحيح بالمرة.
هل يكفر المصري القديم ويشرك بالله طوال عمره وهو يعلم علم اليقين بأنه ذاهب لرب واحد بعد الموت، هل يكفر في الدنيا ويشرك بالله الواحد الأحد ويعبد آلهة متعددة ليذهب لله في الآخرة الذي سيعاقبه على كفره حتما بالخلود في النار!
هل يعقل ذلك، المصري القديم كان يقدس المخلوقات التي يتجلى فيها الله سبحانه وتعالى بصفاته وقدرته على قصد أنهم ملائكة وليسوا آلهة والعياذ بالله، كما نقدس نحن جبريل، وميكائيل، وغيرهم من ملائكة الله عز وجل، وكان يرمز لكل نتر بأحد مخلوقات الله حسب الصفة التي يتمتع بها هذا المخلوق.
فمثلا كان يقدس القطة و يعتبرها مبعوثة العناية الإلهية التي كانت تقضى على مسبب الطاعون وهم الفئران، و كان يرمز لها بالنتر (باستيت).
وكان يقدس الجعران (رمز التكاثر الذاتي) واعتبرها صفة لوحدانية الله الذى أوجد نفسه بنفسه ولم يلد ولم يولد، واعتبر الجعران رمز للنتر (خبرى)، وأن نتر يعتبر ملاك للخير يخبر الناس في اعتقاد المصري القديم وليس إله كما ادّعي شامبليون.
ونختم الجزء الأول من هذه المطوية بمقولة للصحفي الفرنسي جان لاكوتير: **"إذا كانت الحملة الفرنسية على مصر تعتبر كارثة سياسية وعسكرية لوثتها أعمال مروعة لا**

يمكن وصفها وحصرها فإن شامبليون باكتشافه لغز الخط الهيروغليفي نجح في تحويلها إلى ملحمة".

ولكن مع الكثير من التحفظات على هذه المقولة فشامبليون فك لغز الهيروغليفية بالتأويل وكل من اتصل بهذه اللغة من علماء الغرب قد أصابها بلعنة التحريف والتأويل حسب انتمائه وميوله وديانته.

يقول أحمد كمال باشا[٣١٧] في محاضرة له بمدرسة المعلمين الناصرية سنة ١٩١٤ جاء فيها:

" واعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغت الستين مهدت لي سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد..."

تم جاء في هذه المحاضرة:

ولما وقفت على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى ما فيها من القلب والابدال أمكنني الخوض في مقارنتها بالبراهين القاطعة التي تظهر لنا حقائق المعاني وتبين لنا فحوى النصوص التي وضعت. لا أفتخر بذلك ولا أبرئ نفسي من الغلط في مثل هذا المجال الواسع ولكني سلكت طريقًا أضمن وأرقى من غيره وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والابدال في بعض كلماتها، اقتداءً بالمصريين أنفسهم، حتى تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة في اللغتين"

وعلى هذا الأساس بدأ أحمد كمال في كتابة معجمه الذي استغرقت كتابته، ما يقرب من عشرين عامًا، وأخرجه في ٢٢ جزءًا، ويتضمن كل جزء أحد الحروف الهيروغليفية. وكانت طريقته في هذا المعجم أن يدون الكلمات الهيروغليفية - وقد يسجل أحيانًا النصوص التي احتوتها - ثم يذكر مرادفاتها العربية والفرنسية والقبطية والعبرية. ولنضرب مثلاً بحرف إلى (س) فقد تضمن المجلد الخاص بهذا الحرف ١٠٧٢ صفحة من القطع الكبير. حافلة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات.

وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريبًا قبل أن يظهر قاموس إرمان وجرابوه الصغير سنة ١٩٢١، كما أن المعجم المصري الكبير المعروف بقاموس برلين، الذي أخرجه المجمع العلمي البروسي جامعًا بين الكلمات المصرية والقبطية والألمانية، لم يظهر إلا في الفترة بين ١٩٢٦، ١٩٣١ أي بعد بضع سنوات من وفاة المرحوم أحمد كمال.

[٣١٧] أحمد كمال حسن أحمد . أول مؤرخ مصري يكتب في تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابة علمية سليمة، وعلى يديه ظهر جيل من كبار علماء التاريخ والآثار، وصار رائد المدرسة المصرية الحديثة في الدراسات الأثرية. ولد بالقاهرة في ٢٩ يونيو ١٨٥١م (الموافق ٢٩ شعبان عام ١٢٦٧ هـ) ، وترجع جذور والده إلى جزيرة كريت المجاورة لليونان التي كانت تابعة للتاج المصري.. وصف الأثري الرائد أحمد كمال باشا، تلميذ الأثري الألماني بروجيش باشا، بأنه أول مصري عمل في مصلحة الآثار المصرية التي كان يحتكرها الأجانب آنذاك، كما يوصف بأنه الأثري الذي قام برحلة للصعيد لحفظ مومياوات الخبيئة، وبترتيب المتحف مرتين، الأولى حين تم نقل الآثار من متحف بولاق لقصر الجيزة في نهايات القرن التاسع عشر، والثانية نقل الآثار من قصر الجيزة قبل افتتاح المتحف المصري في بدايات القرن العشرين عام ١٩٠٢م.

وتقدم أحمد كمال قبل وفاته ببضعة أشهر إلى وزارة المعارف طالبا طبع المعجم على نفقتها، فأحيل جزء منه وهو المتضمن حرف القاف» إلى مدير المطبوعات وكان إنجليزية في ذلك الوقت، فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الأثار العالم الانجليزي "فرث"، ليبدي رأيه فيه، وقد أشرك " فرث " معه في هذا الموضوع، العالم الفرنسي " لاكو " مدير مصلحة الأثار وقتذاك، وعالم الآثار الأمريكى " ريزنرة " الذي كان يدير حفائر جامعة هارفرد بمنطقة أهرام الجيزة، وقد حبذ الأمريكى طبع المعجم ورفض الفرنسي ذلك، وامتنع الانجليزيان عن إبداء الرأي، وهكذا قضي على هذا المعجم بأن يطوي في زوايا النسيان. هذه هي قصة أحمد كمال - بإيجاز. وهي جديرة بالنظر وجديرة بالاعتبار.

فماذا كان سيحدث لو نشر معجمه المقارن، والمقارب، بين المصرية والعربية يا ترى؟ ماذا كان يحدث لو أن عمله العظيم خرج إلى حيز الوجود - وحرف السين وحده تبلغ صفحاته اثنتين وسبعين وألفًا من الصفحات ؟ كيف كانت ستمضي دراسة اللغة المصرية القديمة، بل كيف سيقرأ التاريخ المصري كله وكيف كان سيكتب؟

لو أن علماء المصريات من العرب، ومن أبناء وادي النيل خاصة، اتبعوا منهج الرائد الجليل وساروا على نهجه وآمنوا بما آمن هو به. عن علم وإدراك ويقين - لتغير فعلاً وجه التاريخ الذي زيفه أعداء الأمة العربية وزوروا - بتوجه مقصود وتوجيه متعمد حقيقته، ونحن عن ذلك غافلون.

وسنفرد لهذه الحديث المثير للشجن الجزء الأخير من هذا الكتاب تحت عنوان جذور اللغة المصرية محاولين ردها إلى أصلها التي نشأت منه أو جعلها كأصل نشأت منه فروع من اللغات الأخرى.

تمثال شامبليون وتحدي سافر للحضارة المصرية



قبل أن نغادر الجزء الأول من هذا الكتاب يجب أن نمر على الصورة السابقة وما تثيره من شجون فالصورة لتمثال يصور العالم الفرنسي الشهير جون فرانسوا شامبليون- الذي قام بفك رموز اللغة الهيروغليفية- وهو يتكئ بإحدى قدميه على رأس تمثال مصري قديم مكسور يعتقد إنه لإخناتون، ويقال أن التمثال موجود في كلية "الكوليج دو فرانس Collège de France" بالحي اللاتيني بباريس، وليس في جامعة "السوربون Sorbonne" كما يعتقد الكثيرون.

التمثال يعود للنحات الفرنسي المشهور "فردريك أوجست بيرتولدي "صاحب تمثال الحرية، وانتهى بيرتولدي من صناعة التمثال المثير للجدل عام ١٨٦٣، وقد عُرض هذا التمثال للمرة الأولى في معرض تشكيلي بباريس عام ١٨٧٥، وبعدها وخلال العام ذاته وُضع في مكانه الحالي في ساحة كلية Collège de France، ويذكر أنه تم صناعة نسخة جديدة من التمثال وُضعت مؤخرًا في ساحة جامعة "جرونوبل" جنوب فرنسا.

ورغم أن التمثال غير مشهور ولم يلتفت أحد إليه من قبل على الرغم من العدد الكبير من المصريين الذين درسوا بالكلية الفرنسية أو على الأقل قاموا بزيارتها، يعتبر إساءة للحضارة المصرية، ولفت النظر له عن طريق المصادفة الفنان المصري المقيم في فرنسا هشام جاد، موسيقى ومسرحي ودارس للفنون التشكيلية، لدى مروره بجانب كوليج دو فرانس.

ولا تتوافر معلومات دقيقة بشأن هوية الملك الفرعوني صاحب الرأس المهين، حيث تباينت الآراء في هذا الصدد، ورجح البعض أن يكون الرأس المكسور والمطروح أرضًا تحت قدم شامبليون خاصاً بالملك إخناتون من الأسرة ١٨، وأهم من دعا إلى توحيد الإله، بينما ذهب آخرون إلى أن الرأس يخص الملك رمسيس الثاني أعظم ملوك الاسرة التاسعة عشر، لكن هذا الجدل لم يمنع اتفاقهم جميعًا على رفض التمثال وفكرته "الاستعلائية"، والمقصد الواضح من ورائه، وهو أن شامبليون استطاع تحطيم رؤوس الفراعنة والتفوق عليهم بعد فك طلاسم اللغة الهيروغليفية.

ويحمل التمثال عبارة منحوتة على الرأس الفرعونية ترجمتها بالعربية "**أنا من أجل مصر، ومصر من أجلي**"، وهي العبارة الشهيرة التي كان بالفعل يرددها شامبليون، من فرط هوسه وعشقه للحضارة والآثار المصرية القديمة.

وسبق أن طالبت الجالية المصرية في فرنسا بإزالة التمثال عام ٢٠١١، وانطلقت حملة وقتذاك تبناها الفنان المصري المقيم في فرنسا هشام جاد، استهدفت جمع مليون توقيع من الشعب المصري للضغط على الحكومة الفرنسية ومطالبتها بإزالة هذا التمثال، إلا أن الحملة لم تنجح في مهمتها.

ولقد بررت فرنسا الفكرة العامة بالتمثال قائلة: إن الحذاء في فرنسا لا يلقى ذات الاحتقار والمعنى المتعارف عليه في مصر فالحذاء لدى الفرنسيين دليل، والمقصود من التمثال، أن شامبليون قد تمكن بقوة من معرفة كل شيء عن حضارة قدماء المصريين.

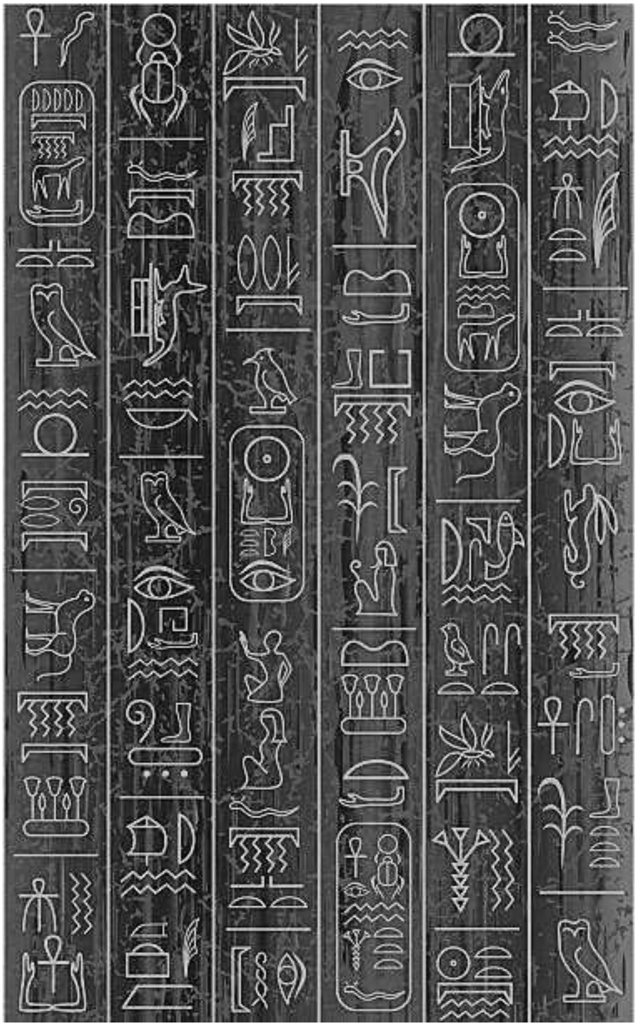
ولقد اعترضت مصر من خلال مسئولين في هيئة الآثار إلا أن فرنسا لم تعر لهذه الاعتراضات أي آذان مصغية.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

فك لغز الهيروغليفية

وأسطورة عمر الإنسان على الأرض

وعمر الحضارة المصرية القديمة





المفجع أننا جعلنا المزيف من توراتهم وتاريخهم المحرف من المسلمات لما صرنا نقرأ تاريخنا من المستشرقين الغربيين الذين اعتبروا التوراة مصدرًا أساسيًا في بحوثهم، وأسسوا وفق ما ذكرته التوراة حقائق التاريخ والجغرافيا.[٣١٨]

[٣١٨] مجلة التجديد – عدد خاص رقم ٢ – اليهود وتوراة الكهنة – ص ٢٢

مدخل:

"إن الأبحاث الجديدة التي توفرت لدينا خلال ربع قرن مضى، قد فرشت أرضية صلبة تمكننا الآن من صياغة تاريخ لإسرائيل مستقل عن البحث التوراتي. وليست الكتب والدراسات المنشورة حديثا إلا برهانًا واضحًا على أن كتابة مثل هذا التاريخ، بشكل موضوعي وطريقة وصفية، قد صارت ممكنة. فجميع هذه المؤلفات تقريبًا توضع بين أقواس معترضة الأخبار التاريخية المقتبسة من التوراة دلالة عن الشك المبدئي بمضمونها.إن مقدرتنا المتزايدة على بناء تاريخ مفصل لإسرائيل والمنطقة المحيطة بها تجعل من الضروري أكثر فاكثر ترك الاعتماد على الروايات التوراتية كمصدر لكتابة التاريخ. وعلينا أن نتخلى بشكل جذري وواع عن كل المسلمات التي فرضت علينا من قبل النص التوراتي"[٣١٩]

لم تكتمل قصة شامبليون مع مصر وحضارتها ولسانها ولكن كان هناك فصل من فصول القصة ظل خفيًا عن الكثيرين وهو الاتفاق السري الذي تم بين شامبليون من جهة والمؤسسة الدينية في أوروبا من جهة أخرى حالمًا توصل شامبليون لفك رموز الهيروغليفية وما سببه ذلك من صدمة للمؤسسة الدينية حين كشفت الآثار المصرية عن عمرها الذي تجاوز أربعة آلاف سنة فقط قبل الميلاد وتعارض ذلك بالكلية مع ما جاء في كتب العهد القديم "التوراة".

فالتوراة وتحديدًا سفر التكوين أورد نصوصًا عن أعمار الآباء الأولين بداية من آدم _عليه السلام_ وحتى إبراهيم_ عليه السلام_ والفروق الزمنية بينهم كما سنرى بالتفصيل فيما سيلي ووجدوا أن الفترة من خلق آدم ونزوله إلى الارض وحتى خلق إبراهيم في المتوسط ٢٢٠٠ سنة والفترة ما بين إبراهيم و عيسى _عليهما السلام_ هي ٢٢٠٠ سنة ليكون أقصى مدة قدرت منذ خلق الإنسان إلى رسالة عيسي هي ٥٥٨٩ سنة على أقصى تقدير.

ولكن بعد غزو نابليون بونابارت لمصر وجد العلماء المرافقون له ان لوحات البروج أعلى معبد إسنا يعود تاريخها إلي سبعة آلاف سنة تقريبًا _أي ما قبل خلق آدم_ عليه السلام _ حسب الرواية التوراتية!

من أين جاء هذا التناقض وكيف يسبق وجود الحضارة المصرية وجود أبو البشر على الأرض ودارت معركة بين العلم والكنيسة سنرويها بتفاصيلها ولكن بعد أن نوضح أولا كيف كانت التوراة – التي تم تحريفها وإعاد كتابتها الكهنة بأيديهم وفقا لمجموعة من الأساطير كانت تعج بها حضارات الشرق الاوسط _ (مصر القديمة – السومرية – البابلية – الاشورية...إلخ) وكيف أنهم اقتبسوا من هذه الحضارات لتعزيز وجودهم في هذه المنطقة بل كيف كتبوا التوراة لاصطفاء جنسهم السامي وجعلوا له الافضلية على

[٣١٩] Thomas .L. Thompson. Early History of the Israelite people, London ١٩٩٤, PP.١٦٨,١٦٩

باقي الأجناس فاصطنعوا تاريخًا لا توافقه الآثار واختلقوا ماضيًا لم يجر إلا في مخيلتهم كما سنرى.

أين توراة موسى..؟!

تحت عنوان " أين توراة موسى " بحث الفيلسوف باروخ سبينوزا[٣٢٠] بحثًا دقيقًا عن الأسفار الخمسة الحقيقية التي كتبها موسى_ عليه السلام_ والعلاقة بينها وبين الأسفار الخمسة المتداولة حاليًا التي لم يكتبها موسى إطلاقا، وإن كان الأحبار الفريسيون[٣٢١] يصرون على نسبتها إليه كذبًا وزورًا. ففي رسالة سبينوزا في اللاهوت والسياسة كتب القس إبراهيم فيليبس[٣٢٢] في ص ٣٤، ٤٤ من كتابه (الغفران): "يرى سبينوزا ـ طبقا لإشارات الأسفار الخمسة الحالية. أن موسى كتب بنفسه سفرًا يُسمى " سفر حروب الرب " يحتوي على قصة الحرب ضد عماليق:" **فقال الرب لموسى اكتب هذا تذكارًا في الكتاب وضعه في مسامع يشوع فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء "** الخروج ١٤/١٧. وهناك إشارة أخرى إلى سفر يسمى " سفر العهد " قرأه موسى أمام بني إسرائيل عندما عقدوا عهدًا مع الرب. ويرجح سبينوزا أن مضمون هذا السفر في الإصحاح ٢٠ من سفر الخروج: **"وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت فقال موسى للشعب لا تخافوا لأن الله إنما جاء لكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا، فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله...."**. وفي سفر الخروج ٧/٢٤: " وأخذ موسى كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له"، وفي تثنية ٢٥/٣: **"فيقول**

---

[٣٢٠] هو فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن ١٧. ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ في أمستردام، وتوفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧ في لاهاي. قدم مجموعة من الأعمال عن الأخلاق والدين والفلسفات الخاصة بالله والوجود الإنساني والكون وقد تعرض خلال حياته لكثير من الانتقادات والمعارضة بعد كل عمل أو فكرة كان يقدمها ضد الأفكار التقليدية والمعتقدات الدينية.

[٣٢١] الفريسيون: وأحدها فريسي، وهي كلمة آرامية تعني ذا الرأي والعلم بالأمور، والبعض يرى أنها عبرية أصلها " فروشيم "، ومعناها " المنعزلون أو المفروزون ".

ويبدو أن الفريسيين امتداد لفرقة " الربانيين "، وهي الفرقة المهتمة بأمور الشريعة. يقول السموأل بن يحيى عن الربانيين: "هم أكثر عددًا وهم شيعة الحخاميم الفقهاء المفترين على الله، الذين يزعمون أن الله كان يخاطبهم في كل مسألة بالصوت، وهذه الطائفة- أي: الربانيون- أشد اليهود عداوة لغيرهم ".

ومما يميز الفريسيين أمور عدة:

- الإيمان بسائر كتب العهد القديم مع التلمود، ويعتبرون التلمود هو الوحي الشفوي المنزل على موسى. والذي يظهر من كلام المؤرخين عن هذه الفرقة أنها لا زالت موجودة، ويمثلون أغلبية اليهود ، وهم الذين يطلق عليهم لدى المسلمين الربانيين أو التلموديين

[٣٢٢] ماجستير في اللاهوت من جامعـة برنسـتون الأمريكية .

-من كتبه (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) و(المسيح إنسان لا إله) و(الإسلام في الكتب السماوية) و(اعرف عدوك اسرائيل) و(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) و(المبشرون والمستشرقون في العالم العربي الإسلامي) و (الغفران بين المسيحية والإسلام).

خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدًا عليكم". وفي سفر يشوع ٣١/٨:"كما أمر موسى عبد الرب بني إسرائيل كما هو مكتوب في سفر توراة موسى مذبح حجارة صحيحة لم يرفع أحد عليها حديدًا وأصعدوا علي محرقات الرب وذبحوا ذبائح سلامة. وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل ".

ويجيب سبينوزا قائلاً: لما لم يكن لدينا أي سفر يحتوي على نسخة " **توراة موسى** " أو على "**عهد يشوع** " فيجب أن نعترف ضرورة بأن هذا السفر قد فقد !! ونستنتج إذا أن سفر " **توراة الله** " هذا الذي كتبه موسى لم يكن من الأسفار الخمسة الحالية بل كان سفرًا مختلفًا عنها كلية. كما يرى المؤرخ اليهودي سبينوزا – بناءً على ما جاء في الأسفار الخمسة الحالية. أن سفر " **توراة الله** " الذي كتبه موسى كان صغيرًا جدًا لأن واضع التوراة الحالية ذكر أن موسى أعطى الأحبار التوراة، كما يشير إلى ذلك سفر التثنية ٩/٣١ – ٢٤ – ٢٦ وكتب موسى هذه التوراة وسلمها لكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدًا عليكم.. ثم طلب قراءته أمام جميع الشعب الرجال والنساء والأطفال والغريب الذي في أبوابك لكي يسمعوا ويتعلموا كما في التثنية ١٠/٣١ وأمرهم موسى قائلاً: "**تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم** " وهذه دلالة كبيرة على أنه كان أقل حجمًا بكثير من الأسفار الخمسة إذ كان من الممكن قراءته كله "**بجميع كلمات التوراة** " في مجمع عام يفهمه الجميع.

ومعنى هذا أن التوراة الأصلية ليست هي هذه الأسفار الخمسة. ثم يذكر المؤرخ اليهودي ويعيد علينا نتيجة فحصه لسند التوراة فيقول: " لما كانت توجد نصوص كثيرة في الأسفار الخمسة أن يكون موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة بل على عكس يكذب العقل هذه النسبة ". ويعلق القس الدكتور فيلبس في ص ٤١ من كتابه الغفران فيقول " وهذه هي النتائج الثلاث التي استخلصها سبينوزا من كلام ابن عزرا وهي تلخص لنا قصة سند التوراة وتلخص رأي المؤرخ اليهودي سبينوزا نفسه في ذلك الوقت لأنها تشمل على:

١- أن موسى ـــ عليه السلام ـــ لم يكتب هذه الأسفار الخمسة التي يطلق عليها اليهود والنصارى أنها التوراة وينسبونها إلى موسى.

٢-أن مؤلف هذه الأسفار شخص عاش بعد موسى بزمن طويل جدًا.

٣-أن موسى عليه السلام قد كتب سفرًا مختلفًا عن هذه الأسفار الخمسة المروجة المشهورة.

ويعلل سبينوزا استنباطاته هذه على أسس نقلية علمية، فضلاً عما يجيش في خواطر الفريسيين وهم الذين دونوا العهد القديم فيقول عن نظائرهم من رجال اللاهوت: "**أما مزاعم اللاهوتيين وحذلقتهم حول أسفار الكتاب فهي غير جديرة بالقبول ذلك أننا نرى**

اللاهوتيين قد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لاستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة وتأويلها قسرًا وتبرير هذه البدع والأحكام بالسلطة الإلهية. وهم لا يكونوا أقل حرصًا وأكثر جرأة في أي موضع آخر بقدر ما يكونوا في تفسير الكتاب. كما يدعي هؤلاء الأحبار المتحذلقون أن الأخطاء الكثيرة الموجودة في الكتب المقدس أسرار إلهية أبقاها الله في الكتاب بعناية. فيؤولون النقاط والحروف والعلامات حتى المسافات البيضاء التي يتركها النّساخ بأنها أسرار إلهية.. لست أدري إن كان ذلك ناجمًا عن اختلال العقل ؟! أو نوع من تقوى العجائز المخرفين ؟! أم أنهم قالوا ذلك بدافع الغرور والخبث حتى نعتقد أنهم وحدهم الأمناء على أسرار الله ؟! ولكني أعلم أني لم أجد فيها إلا أعمالاً صبيانية "[٣٢٣]

التوراة كمصدر تاريخي:

"إن الأسفار المدعوة بالتاريخية في كتاب التوراة، قد دونت فيما بين أواخر العصر الفارسي وأوائل العصر الهيلينستي، وذلك بعكس الشائع بين الباحثين المحافظين الذين يرون أن تدوين التوراة قد ابتدأ خلال السبي الفارسي واكتمل في مطلع العصر الفارسي. فعند حديثنا عن تاريخ الدول الواردة في التوراة، يجب أن نتخطى النص التوراتي، لأن هذا النص قد دون بعد فترة طويلة جدًا من الأحداث التي يتصدى لروايتها. فتاريخ إسرائيل التوراتية والدول التي حدثت فيه فصول قصتهم هو " أخيولة أدبية" تجد دوافعها في المناخ الاجتماعي والنفسي للفترة المتأخرة التي أنتجتها."[٣٢٤]

يكشف لنا التاريخ كيف يتجرأ الإنسان على خالقه فيقوم بتحريف تعاليمه بدل أن يسترشد بها، من أجل مصالح مادية و منافع آنية، ولعل أوضح مثال على ذلك ما قام به اليهود من تشويه للتاريخ و الدين. لقد تفنن هؤلاء في التزوير، وتوارثوه جيلاً بعد جيل، وجهدوا جهدهم لأن يبقى تزويرهم وكذبهم على الله ورسله منطليًا على الناس فأضفوا على ما جنوا هالة التقديس فجعلوا تاريخهم جزءًا من دينهم وشريعتهم فبدا هذا التاريخ للكثيرين وكأنه موحى بأدق التفاصيل من الله إليهم عبر الأنبياء والرسل، فأصبح دينًا لا مجال إلا التسليم به وتصديقه وإن تعارض مع العقل والفطرة والأدلة والبراهين العلمية.
كلما تعمق الدارسون في التاريخ الإنساني اصطدموا بجبال هائلة من الأدلة والبراهين التي تثبت الكذبة الكبرى، لا بل الجريمة التي لا تضاهيها أية جريمة أخرى، جريمة العبث بالدين وتحريف آياته، حتى صار دين الله سبحانه دينا للعدوان وسلب حقوق الآخرين والاستيلاء على أراضيهم بالقوة، وصار أنبياء الله الذين اصطفاهم لهداية خلقه قتلة يدعون إلى الظلم والعدوان، (مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ

---

[٣٢٣] باروخ سبينوزا - رسالة في اللاهوت والسياسة – ص ٢٩٧-٢٩٩

[٣٢٤] G . Garbin, History and idology in Ancient Israel, London ١٩٨٨

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) (النساء:٤٦)، حرفوا التوراة وعدو على التاريخ والجغرافيا فأصبح الصغير المجهري الذي لا يكاد يلحظ من الأماكن دولاً ومدنًا وقرى عظيمة، وتحولت العشيرة إلى أمة، اصطفوا لأنفسهم الأنبياء ونسبوا أنفسهم إليهم، واستثنوا غيرهم، اختزلوا الدين في السلالة والقبيلة، وابتدعوا نظريات خاصة بهم كالسامية والعبرية، وسموا أنفسهم شعب الله المختار، فصار كل من انتمي لدينهم بعد قرون وفي أي بقعة جغرافية معزولة من الأرض جزءًا من سلالتهم، واخترعوا لهم حقوقًا مقدسة في أراضي الشعوب وجعلوها هبة من الله لهم اجتراء عليه سبحانه استخدموا أبشع الأساليب لمقاومة كل من يشكك في نظرياتهم من الباحثين و علماء الآثار والتاريخ، فكل من تعرض لهذا التاريخ المزيف تصدوا له بالقوة المفرطة كالقتل أو التشهير أو الاتهام بالكفر ومعاداة السامية. ونسأل أين نحن كمسلمين وعرب مما فعل هؤلاء؟ المفجع أننا جعلنا المزيف من توراتهم وتاريخهم المحرف من المسلمات لما صرنا نقرأ تاريخنا من المستشرقين الغربين الذين اعتبروا التوراة مصدرًا أساسيًا في بحوثهم، وأسسوا وفق ما ذكرته التوراة حقائق التاريخ والجغرافيا، ونحن كعرب ومسلمين نقلنا بضاعتهم، وصدقنا أكذوبتهم وتجرعنا سمومهم دون أن ندري، ومما نقلنا مسمياتهم المختلفة كالسامية والعبرانية والشرق الأدنى وغيرها، يقول الدكتور غوستاف لوبون[٣٢٥] **"لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة. اليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية. اليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبة المتوحشة التي ليس لها تاريخ "**[٣٢٦].

ولما كان الكتاب المقدس يتألف من العهد القديم والعهد الجديد، العهد الجديد هو الإنجيل، أما العهد التقديم فهو التوراة، وقد اختلف في عدد الكتب والأسفار التي تشكل الكتاب المقدس باختلاف المذاهب المسيحية منها واليهودية، في مقابل هذا الاختلاف يتفق الجميع على الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى ـــ عليه السلام ـــ وهي: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، وسفر التثنية. وبقدر ما أثارت هذه الأسفار الخمسة من خلاف عند الباحثين و علماء الأديان و التاريخ فقد شكلت الأساس الذي اعتمده الغريبون لمعرفة كل ما يتعلق بالحضارة العربية وتاريخها وجغرافيتها، والتي سموها بالشرق الأدنى وعلي هذه الأسفار استند المستشرقون في كتابة تاريخنا فتاهوا بين المزيف والحقيقي واختلطت عليهم القرون والسنون والمسميات فأصبح وادي النيل مصر، وغدا بنو إسرائيل العشيرة المجهرية الصغيرة أمة لها حق في الأرض المقدسة التي لم تطأها أقدامهم، وهكذا الحال مع عدد كثير من المسميات و المحزن المبكي أننا قبلنا كعرب و مسلمين مقولاتهم ونتائجهم والتي مصدرها مدونات التوراة كما علمناء

[٣٢٥] غوستاف لوبون طبيب ومؤرخ فرنسي. عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند و«باريس ١٨٨٤» و«الحضارة المصرية» و"حضارة العرب في الأندلس" و«سر تقدم الأمم» و«روح الاجتماع» الذي كان انجازه الأول.
[٣٢٦] أحمد سوسة – اليهود والعرب في التاريخ – الطبعة السادسة – ص٤٤١ – نقلا عن غوستاف لوبون – اليهود في تاريخ الحضارات الاولى

واعتبرنا بعضها مسلمات تاريخية وجغرافية، رغم ما تحويه مدونات التوراة من نصوص وقصص و نظريات تتناقض مع القرآن الكريم والفطرة الإنسانية والبراهين العلمية والمكتشفات الأثرية، رغم ذلك بقيت هذه النصوص والقصص غير قابلة للبحث والتشكيك بسبب هالة القومية التي أحيطت بها مدعومة بقوة المال والسلطان والسيف، فقد حورب وقتل وأحرق وكفر من تجرأ على ذلك[٣٢٧]، وما المائة سنة الماضية إلا استثناء لهذه القاعدة حيث ظهرت بعض الكتابات والأبحاث كنتيجة للهوة الشاسعة بين مدونات التوراة وعلم الآثار وغيرها من الأدلة، ومثال على ذلك ما أقره الكاتبان إسرائيل فرنكشتاين[٣٢٨] ونيل أشر سلبرمان[٣٢٩] في كتابهم (The Bible Unearthed) بشأن التوراة وأنها نتاج بشري خيالي "**لم يكن العالم الذي ابتدع الكتاب المقدس عالمًا أسطوريًا للمدن العظمى والأبطال القديسين بل هو مملكة واقعية حيث يناضل الناس من أجل مستقبلهم المحفوف بالمخاطر البشرية للحرب والفقر والظلم والمرض والمجاعة والجفاف. القصة التاريخية الزاخرة بالبطولات الواردة في الكتاب المقدس عن لقاء إبراهيم مع الله ورحلته إلى كنعان، إلى تحرير موسي لأبناء إسرائيل من العبودية، إلى قيام وسقوط مملكة إسرائيل و يهودا لم تكن كشف عيان للمعجزات بل نتاج لخيال بشري منق الذكاء**".

ويعتقد آخرون بأن الكتاب المقدس هو اقتباس من الشرائع و القصص السائدة في ذلك الزمان وبالذات من مدونات الحضارات المصرية القديمة والسومرية و البابلية وغيرها، ويعتقد آخرون أنه تحريف للنص الحقيقي لهذا الكتاب ليحقق أهدافًا شريرة كما يقول وول ديورانت[٣٣٠] " **الربانين و الحاخاميين أخذوا يفسرون التوراة حسب أهوائهم بالشكل الذي يرضي غرائزهم الشريرة ونزوعهم إلى الاستعلاء على بقية أجناس البشر**"، وقال ابن حزم الفيلسوف الأندلسي في كتابه (الفصل في الملل و الأهواء والنحل): "**الفصل في مناقضات ظاهرة وأكاذيب واضحة في الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة وفي سائر كتبهم**".

---

[٣٢٧] ومثالا على ذلك توماس طومسون (بالإنجليزية: Thomas L. Thompson) (و. ١٩٣٩ – م) هو عالم عقيدة، وأستاذ جامعي، وكاتب سيناريو، من الولايات المتحدة الأمريكية، ولد في ديترويت، ميشيغان. الذي أثار جدلاً عنيفًا ضده وردود فعل عنيفه انتهت إلى حرمانه من الحصول على درجة الدكتوراه في أوروبا ومنعه من نشر أعماله لفترة من الزمن وحرمانه من التدريس الجامعي لمدة عشر سنوات عاشها حبيس بيته . وذلك عندما نشرق كتابه اختلاق إسرائيل القديمة واسكات التاريخ الفلسطيني وغيرها من الكتب التي كشفت زيف نصوص التوراة المحرفة بواسطة الكهنة ولقد استفاد طومسون من هذه العزلة الإجبارية في مواصلة البحث في نفس المجالات المحرمة لكي يصل إلى نتائج علمية مذهلة .

[٣٢٨] أكاديمي وعالم آثار إسرائيلي. يعمل حاليا كأستاذ علم آثار إسرائيل في العصر البرونزي والعصر الحديدي في جامعة تل أبيب، وكرئيس مشارك في التنقيب في تل مجدو في شمال إسرائيل.

[٣٢٩] نيل آشر سيلبرمان (من مواليد ١٩ يونيو ١٩٥٠ في بوسطن ، ماساتشوستس) هو عالم آثار ومؤرخ له اهتمام خاص بعلم الآثار التوراتي . وهو مؤلف العديد من الكتب

[٣٣٠] ويليام جيمس ديورانت فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب قصة الحضارة والذي شاركته زوجته أرئيل ديورانت في تأليفه.

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: **"لقد سجل الإسرائيليون حكمة الشيوخ وأقوالهم وسلوكهم والأحداث التاريخية الهامة، وواضح أن كل ما سجلوه لم يكن مختصًا بالمسائل الدينية، إلا أنه بعد أن استقرت حياة الطائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج، وعن غير قصد، عناصر من هذه الآداب اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية، وبهذا أُعطيت هذه العناصر وقارًا خاصًا تفردت به، وتحولت بذلك إلى كتابات مقدسة. ولا شك أن الكتّاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة في حياة الطائفة الإسرائيلية في يوم من الأيام"**[٣٣١].

وهذه النظرة الملائكية التي تنظر بها دائرة المعارف الأمريكية لهذه التعاليم التي كتبها حاخامات اليهود لنا عندها وقفة لأنها تنفي عن هؤلاء الكتبة نيه تعمد تشويه التاريخ وأنهم لم يكن لهم أي أهداف من وراء هذا التحريف والاقتباس.

وساترك الرد لاثنين من المحققين اليهود أحدهما إسرائيلي وهو إسرائيل فرنكشتاين وهو دكتور في الآثار ورئيس قسم الآثار بجامعة تل أبيب والآخر هو نيل إشر سيلبرمان وهو امريكي مهتم بعلم الآثار وأصدر سلسلة كاملة عنه ولقد أشرنا إليهم سابقًا وإلى كتابهما الذي ركزا فيه على التحقيق في ما تخبرنا به نتائج وبيانات علم الآثار عن التوراة العبرية ومحتوياتها، فيبدأ كل فصل من فصوله بعرض الرواية التوراتية، ثم يعقب بذكر ما تقترحه المكتشفات الآثارية ؛ ليقارن بينها وبين الرواية التوراتية، لفصل الأسطورة عن الحقيقة التاريخية.

وكانت النتائج التي توصل إليها المؤلفان في هذا الكتاب طعنة في صميم المعتقدات اليهودية التقليدية، وتحطيمًا للرموز الدينية التقليدية لليهود؛ حيث استخدم الباحثان نتائج الأبحاث الآثارية الأخيرة لتقديم صورة جديدة بشكل مثير ومحطم لكل الأفكار المشهورة المعروفة حول إسرائيل القديمة وجيرانها.

لقد استدلا بأن الأدلة الحاسمة (أو نقص الأدلة المؤيدة) الذي تفيده الحفريات والتنقيبات الأثرية في كل من فلسطين، ومصر، والأردن، ولبنان، تقترح أن العديد من القصص الأكثر شهرة في التوراة العبرية. رحلات الآباء: إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، الخروج الجماعي من مصر، غزو بني إسرائيل بقيادة يشوع (تلميذ موسى) لأرض كنعان، الحكم الملكي المتحد لداود وفتوحاته في كنعان، وإمبراطورية سليمان الواسعة. إنما تعكس في الواقع عالم المؤلفين التالين للتوراة بشكلها النهائي، بدلاً من عكسها لحقائق تاريخية أصيلة ودقيقة.

ويمكن تلخيص الاستنتاجات التي ادعاها المؤلفان كالتالي:

١- ليس هناك دليل علمي على الوجود الحقيقي لشخصيات مثل إبراهيم، أو أي من الآباء كإسحاق، ويعقوب، ورحلاتهم من أور، إلى حاران، إلى حبرون (الخليل)، والأمر نفسه بالنسبة لشخصية موسى، وقصة الخروج الجماعي من

[٣٣١] دائر المعارف الأمريكية – طبعة ١٩٥٩ – الجزء الثالث – ص ٦١٣

مصر، والأمر نفسه بالنسبة للفترة الكاملة للقضاة، والحكم الملكي المتحد لداود وسليمان.

٢- في الحقيقة يحاول المؤلفان إثبات أنه من غير الممكن علميًا إثبات الكثير من كل ما يتعلق بإسرائيل القديمة قبل القرن السابع قبل الميلاد؛ أي حوالي عهد الملك يوشيا، الذي تمت في عهده قصة التوراة العبرية بشكل يتناسب - بنحو فريد - مع هدف تقوية الإصلاح الديني، وتحقيق الطموحات الإقليمية لدولة يهوذا تحت حكم يوشيا.

٣- لا تؤيد الأدلة الآثارية رواية الخروج الجماعي من مصر، بالشكل والأعداد والطريقة التي تذكرها الرواية التوراتية العبرية، بل حتى لا يوجد دليل علمي أكيد على وجود شخصية موسى الموصوفة في التوراة العبرية، ولا على كل قصة التجول في البرية، والعجل الذهبي، والصعود إلى سيناء. بل الأرجح - في نظرهما. أنه لم تكن هناك أصلا فترة عبودية في مصر في تاريخ شعب إسرائيل

٤- لم يقم يشوع بن نون بحملة غزوات موحدة لفتح أرض كنعان، بل العبرانيون (اليهود) الإسرائيليون، إما كانوا مهاجرين انتقلوا من مصر إلى كنعان وإما كانوا مجموعة ثقافية غامضة، أو طبقة من الناس من أهالي كنعان نفسها، ليس لها أصل، أو جدٌّ واحد تحدرت منه، ففكرة وجود عرق خاص باسم بني إسرائيل فكرة مخترعة في رأي الكاتبين، وأن العبرانيين / الإسرائيليين إنما ارتفع شأنهم في ظروف معينة بشكل تدريجي، حتى وصلوا للهيمنة على جزء من أرض فلسطين لفترة من الزمن، أما فتوحات كنعان المذكورة في أسفار التوراة، مثل سفر يشوع والقضاة..؛ فهي ليست حقيقية، بل كتبت فيما بعد؛ لتبرير فتوحات يوشيا الشمالية.

٥- داود وسليمان وُجِدا تاريخيًا، لكنهما كانا أقرب إلى رئيسي عشيرة منهما إلى ملكين بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولم يقوما بأي من الأعمال العظيمة المروية في التوراة العبرية، فلا داود فتح كنعان، ولا ما جاورها، ولم يقم بفتوحات أصلاً، بل كانت دولته. إن صح التعبير - مجموعة قرى جبلية منعزلة نائية، لا وزن لها، ولا يؤبه بها في منطقة التلال والمرتفعات الوسطى في أرض كنعان، كما أن سليمان لم يبن أي هيكل (معبد) هائل، وحتى المعبد العادي الذي بناه انهدم كليًا في الغزوات المتلاحقة ضد أورشليم (القدس)، وما تبعها من هدم وحرق محت آثاره تمامًا، لا سيما أنها اختلطت بخرائب الأبنية المتعددة التي بنيت. فيما بعد في مكانه، و خربت. أيضًا عدة مرات، وصار الكل أثرًا بعد حين.

فالأوصاف التي نجدها في التوراة العبرية للملك داود وإمبراطورية سليمان، وفتوحاتهما، وصورهما كلها مبالغات لا أساس تاريخي علمي لها. أما القصور

التي وجدت في التنقيبات الأثرية، ونُسِبَت إلى سليمان؛ فهي. في الواقع - لملوك إسرائيل الفسقة المرتدون إلى الوثنية من بيت عُمْري!

٦- لم يكن هناك دين يهودي موحد في أغلب تاريخ يهُودا / إسرائيل القديمة، بل كانت هناك في مناطقهما المختلفة، خاصة الريفية منها، آلهة أخرى عُبِدَت سوية مع يهودا.

تعليق لابد منه (تنبيه):

مما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام أن المؤلفين إنما يردان تلك القصص التوراتية نظرًا لما تحتويه من تفاصيل عددية أو تاريخية أو جغرافية أو تفاصيل في أسماء أعلام أشخاص.. إلخ، لا تتناسب مع الزمن المفترض أنها ألفت فيه، ولا مع الحقائق التاريخية التي أثبتها علم الآثار، لكن هذا لا يُتيح لهما إنكار أصل القصص من أساسها جملة وتفصيلاً، إذ قد تكون من أصل صحيح، ثم اقحمت فيها مع الزمن تلك التفاصيل. أما القرآن ؛ فإنه في روايته لتلك القصص لا يذكر أي تفاصيل جغرافية أو عددية أو تاريخية محددة أو أسماء أعلام. فليس فيه أي شيء يتناقض مع المعطيات الآثارية.

ومما لا شك فيه أننا كمسلمين لا نشكك على الإطلاق في حقيقة قصص ابراهيم وإسحاق ويعقوب و لا قصص موسى والأسباط ولا قصة الخروج والعجل والسامري ولا قصص داوود وسليمان ولا قصة عيسى عليه السلام كما يفعل الكاتبان أو غيرهم من المؤلفين والعلماء الذين ساروا على خطاهم وهم كُثر.

إذا من البديهي أننا لا نتفق مع المؤلفين في كثير من آرائهما التي تشكك في وقع القصة من عدمه ومن ناحية أخرى فان عدم العثور على أي أثر مادي على شيء أو واقعة لا يكفي وحده دليلاً على القطع بنفي وجود هذا الشيء أو تلك الواقعة وإنما ما نستخلصه من ذلك أنه ليس لدينا الدليل المادي المرئي لإثباته حاليًا.

إذا؛ فعلى القارئ عند قراءته لأي كتاب - أن يحكم عقله، ويقرأ بحذر وتنبه، ويميز دائمًا بين الدليل العلمي، والآراء، والفرضيات القابلة للنقض، أو الإثبات.

إن ما يفيدنا من رأي الكاتبين هو إظهار مدى حجية التوراة وفداحة ما أصابها من تحريف وما أضافه الكهنة على تعاليم موسى ـــ عليه السلام ـــ التي أنزلت عليه من رب العالمين.

فكيف لنا بعد كل هذا التحريف وكل هذه الصفات التي وصمت بها التوراة بعض أنبيائها أن نعتبرها مرجعًا تاريخيًا يمكننا الوثوق به؟

لعنة السامية والتقسيم الخرافي للسان والجنس البشري:

"إن مصر في الصورة العربية والإسرائيلية لتاريخها القديم ملعونة لأنها ناصبت إسرائيل العداء يومًا حسب رواية التوراة[٣٣٢]"

تروي لنا التوراة وتحديدًا سفر التكوين الإصحاح التاسع الآيات من ٢٠ الى ٢٧ قصة التفرقة العنصرية التي نادى بها نبي الله نوح ـــ عليه السلام ـــ والتي فرق فيها بين أبنائه وجعل فيها بعضهم عبيدً للبعض وخدمًا له!

"وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: "مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ". وَقَالَ: "مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ"." ـ سفر التكوين[٣٣٣] (٩: ٢٠ـ ٢٧).

والقصة كما هي واضحة من الآيات السابقة تقول: كان أن تعري نوح ـــ عليه السلام ـــ من الهواء أثناء غفوة غفاها بعد أن شرب الخمر، فرأى ابنه حام عورته فأخبر أخويه: سام ويافث ؛ فدخل سام ويافث مغمضي العينين وغطيا أبوهما. وعندما أفاق الأب دعا على حام أن يكون هو وذريته عبدًا لأخويه وذريتهما!

وتذكر التوراة أن أبناء سام هم الآشوريون وعيلام وأرفكشاد ولود وأرام. أما أبناء حام فهم الكنعانيون، والمصريون والبابليون والأوركيون والأكاديون والإثيوبيون واليمنيون وأبناء يافث هم جومر ومأجوج وماداي وياوان وتوباك وماشك وتيراس.

وظلت هذه التقسيمة بكل ما فيها من غموض هي المعترف بها كتقسيمة للبشر حتى القرن ١٩ مع محاولات تفسير أن الأوروبيين هم أبناء يافث. أما الأسيويين فلم يستطع أحد إيجاد مكان لهم في هذه التقسيمة!

هذا يعني أن العراق قسمت لتكون نصف سامية ونصف حامية وبقت الجزيرة العربية سامية. ولكن المهم أن اليهود بقوا ساميين في هذه التقسيمة. وكانت الشام ومصر واليمن ونصف العراق وإثيوبيا حاميين.

بعد تقدم العلوم الأثنية والأبحاث اللغوية في بداية القرن العشرين حدث إعادة توزيع في المنظومة التوراتية. فقد شعر بعض الباحثين أن هناك توجهات سياسية في تقسيم التوراة لإثبات مزاعم اليهود في شرعية احتلالهم للأرض من النيل إلى الفرات؛ لأنها عطية لهم من الخالق.

---

[٣٣٢] شوقي جلال ــ مترجم كتاب أثينا السوداء

[٣٣٣] أحد أسفار العهد القديم (التوراة)

ولم يقدم لنا واضعوا هذه النظريات تخريجًا لموقف المؤمنين الذين كانوا بصحبة نوح ــ عليه السلام ــ أين ذهبوا وهل قضوا نحبهم أثناء تواجدهم على السفينة؟! ولماذا لم يشيروا إليهم من قريب أو بعيد عند تقسيمهم للجنس البشري ما بين حاميين وساميين وآريين أكان المؤمنون مع نوح ــ عليه السلام ــ لا ينجبون؟ فإذا كانوا ينجبون فلما لا نضع على خريطة التقسيم ذرية هؤلاء وأين أقاموا؟

ويقول بيير روسي والواقع أنه انطلاقًا من الوثائق والمصادر والمواد التي كانت تحت تصرف العالم، يبدو من المستحيل البرهان على وجود شعوب سامية وآرية، وبالأحرى إعطاء الحدود والفروق الخاصة بينها. لم يسمع العالم بهذا المصطلح قبل القرن الثامن عشر، إلا حين ولدت هذه البدعة على يد اليهودي النمساوي "شلوتزر" عام ١٧٨١. حيث قال ليبدأ خرافة السامية: "من البحر المتوسط إلى نهر الفرات، ومن وادي الرافدين جنوبًا إلى الجزيرة العربية، سادت - كما هو معروف جيدًا - لغة واحدة، وعلى هذا: فالسوريون، والبابليون، والعبرانيون، والعرب، كانوا شعبًا واحدًا، ولقد تكلم الفينيقيون أيضًا هذه اللغة التي أسميها اللغة السامية"

ان تسمية اللغات السامية، التي أطلقها شلوتزر[٣٣٤]، جاءت بناءً على تشابه لغات تلك الأقوام وفق ما جاء في شجرة الأنساب وسفر التكوين الإصحاح العاشر في العهد القديم، من أن تلك الأقوام تنحدر من سام، وهو أحد أبناء نوح ــ عليه السلام ــ الثلاثة: سام وحام ويافث وشاعت هذه التسمية منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى الآن، رغم ما فيها من قصور في الدلالة واللبس وافتراض سلسلة من النسب لا يعلم إلا الله صدقها.

يقول المؤرخ جواد علي في كتابه " العرب قبل الإسلام " أنه لا يوجد أي دليل علمي على ما ذكره شلوترز عن هذا النسب، وأن مصطلح السامية قام على بواعث عاطفية على أساس حب الإسرائيليين أو بغضهم لمن عرفوا من الشعوب.

يقول ياسر شحاتة في كتابه إعادة التاريخ "**عندما كنت أدرس المصريات في هامبورج كنت أستعمل مصطلح قدماء السوريين أسوة بمصطلح قدماء المصريين. فدعاني البروفيسور (التن موللر) طالبًا مني عدم استعمال هذا المصطلح واستعمال المصطلحات التي اتفق عليها العالم وهو مصطلح الساميين. فلما أجبته بأن هذا المصطلح يعني اليهود. رد مستهزئًا بأن هذا تفسير رخيص للتلفزيون الجاهل، وأن الحقيقة العلمية هي أن العرب ساميون أكثر من اليهود. فطلبت منه أن يعطيني هذا الكلام كشهادة كتابية موثقة. صمت ولم يجب، وتركني أستعمل المصطلحات التي أفضلها. كان يعلم أن مثل هذه الشهادة كافية بتغيير الدستور الألماني نفسه، وهدم ما يعرف بقانون معاداة السامية بالكامل**".

[٣٣٤] عالم اللاهوت الألماني –النمساوي شلوتزر Scholzer يهودي الديانة

تاريخ بصياغة يهودية!

يلفت انتباهنا حمدي عبد الرازق في كتابه" العقيدة والبرهان" عن دور التوراة في تكوين عقيدة علماء الغرب عند ترجمتهم للنصوص المصرية القديمة فيقول: " لقد كان لمعرفة اللغة المصرية القديمة وإمكان قراءة النصوص المصرية أعظم الأثر في حصولنا على هذا التاريخ لتلك الحضارة التي أذهلت العالم أجمع وتناولت هذه النصوص كل نواحي الحياة في مصر القديمة.

ولقد كان الدور الأوروبي هو الدور الرئيس في اكتشاف المقابر والمعابد التي دفنت بفعل الزمن وكان الدور المصري حقيقة يتمثل في تقديم يد المعونة في الحفر والتنقيب وتقديم كافة المساعدات الإدارية ثم يعود ليقف في صفوف المتفرجين ينتظر ما يقدمه له الأوروبيون.

وكان لابد لهؤلاء العلماء الباحثين الأوروبيين من الرجوع إلى مصادر لها علاقه بهذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر ويكون لهذه المصادر صفة اليقين الذي يمكن الاعتماد عليه ولأن الاإجيل لم يتحدث أو يتناول مثل هذه الأحداث فإنه لم يبق غير التوراة والقرآن ولسبب ما تم تجاهل القرآن تمامًا ولم يتم الرجوع إليه واعتباره مصدر لا يصلح فهل رأي هؤلاء العلماء أن القرآن ليس من كتب الله؟ أم ماذا...؟

وهكذا لم يبق غير التوراة لتصبح مصدرًا رئيسيًا. لكن العلماء والباحثين سواء قبل البحث أو بعده وفي مقابل هذا الاهتمام بالتوراة نجد الجحود والتجاهل التام لما ورد في القرآن الكريم في شأن مصر.

وتتواتر دلالات كثيرة لتؤكد هذا الاهتمام بالتوراة فيما قيل أنه في تاريخ مصر القديم فإن الاسم الذي أطلق على أحد الآلهة التي عبدها المصريون وهو "ست"[٣٣٥]، هو ذاته اشتقاق من الرسم العبراني "شيث"، الذي ورد في التوراة كاسم الابن لحواء جعله الله العوض لهابيل، ابنها المقتول كما ورد في سفر التكوين[٣٣٦] الإصحاح الرابع[٣٣٧]. وأيضا رمسيس[٣٣٨]، وهو واحد من أشهر الملوك في تاريخ مصر القديم فإن قراءته السليمة رعمسيس، وهو ما يتفق مع الرواية التوراتية التي ذكرت بأن بنى إسرائيل قد سخرهم

---

[٣٣٥] هو إله الصحراء، والعواصف، والأجانب في الديانة المصرية القديمة. في الأساطير اللاحقة كان أيضًا إله الظلام والفوضى.

[٣٣٦] سفر التكوين، هو أول أسفار التوراة وأول أسفار التناخ، وهو جزء من التوراة العبرية، كما أنه أول أسفار العهد القديم لدى المسيحيين.

[٣٣٧] ولأن النصوص المصرية القديمة أقدم من التوراة فهنا يتبادر للذهن من اقتبس من من. هل اقتبست المصرية القديمة من الحضارة المصرية القديمة أم أن التوراة كُتبت لتوافق أحداثا في مصر القديمة؟

[٣٣٨] رمسيس الثاني يُشار إليه أيضًا باسم رمسيس الأكبر، كان الملك الثالث من حكام الأسرة التاسعة عشر. ينظر إليه على أنه الملك الأكثر شهرة والأقوى طوال عهد الإمبراطورية المصرية. سماه خلفاؤه والحكام اللاحقين له بالجد الأعظم. قاد رمسيس الثاني عدة حملات عسكرية إلى بلاد الشام وأعاد السيطرة المصرية على كنعان. يشير اليه بعض المستشرقين على أنه فرعون الاضهاد دون أسانيد او ألة كما سنناقش ذلك بالتفصيل فيما سيلي من كتب هذه السلسلة.

فرعون والمصريون لبناء مدينة تسمي رعمسيس، سفر الخروج[٣٣٩] الإصحاح الأول[٣٤٠] وقد قيل أنه في بعض المصادر المصرية قد وجد ما يدل على بناء مدينة في عهد رمسيس الثاني وسميت ب "رعمسيس"، وهذا ما اتفق تمامًا مع رواية التوراة.

وهناك أيضًا بعض النصوص التي توضح اهتمام المصري القديم بالقرابين وتقديمها للآلهة وللأموات منهم وما قيل عن هذه من إنها تحرق حتى تقبلها الآلهة. وهذا ما يتفق مع ما أوردته التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر اللاويين[٣٤١]، والذي جاء فيه أن الكاهن يقوم بعمل ذبيحة خطيئة ويحرقها قربانًا على المذبح. وكذلك ما أشاعه الأحبار اليهود من أن علامة تقبل الله تعالى للقربان يتمثل في نار بيضاء تهبط من السماء فتلتهم القربان.

وفي إحدى الوثائق – يقصد البرديات- والتي سميت " إيبوير"[٣٤٢]، جاء ما قيل أن ترجمته **"أن نهر النيل أصبح قبرًا وصار بلون الدم"**، وهذا مقتبس مما جاء في التوراة من عقاب الله لمصر وانتشار الجراد والضفادع وغير ذلك، وجاء أن **"نهر النيل تحول إلى دم"**.

هذا وإن أكثر ما اتفق فيه التاريخ المصري والتوراة هي أحكام وشرائع العقيدة فيكاد يكون الاثنان وجهين لعملة واحدة أو نهران من منبع إلى مصب واحد مع أن التوراة كتاب أنزله الله تعالى والعقيدة القديمة وثنية من نسج خيال أصحابها!

فمما وصلنا أنه كان في القدم حكيم يدعى "آمينتنوبى"، وقد خلف هذا الحكيم وصايا ومما جاء فيها:

- **لا تصاحب رجلاً عاد "   "، ولا ترغب في محادثته، الكاتب الماهر في وظيفته سيجد نفسه أهلاً للعمل في رجال البلاط.**

وفي سفر الأمثال – التوراة- جاء:

- **لا تستصحب غضوبًا ومع رجل ساخط لا تجي أرأيت رجلاً مجتهدًا في عمله أنه أمام الملوك يقف.**

وهناك ما جاء في كتاب الموتى[٣٤٣] الفصل ١٢٥ ومنه:

- **أني لم أرتكب القتل..... ولم أمر بالقتل**
- **إني لم أرتكب الزنا**

---

[٣٣٩] سفر الخروج أو كتاب الخروج هو أحد الأسفار المقدسة لدى الديانة اليهودية والمسيحية، يصنف هذا السفر كثاني أسفار العهد القديم التناخ؛ ولا يوجد خلاف حوله بين مختلف الطوائف المسيحية أو اليهودية حول قيمته المقدسة.

[٣٤٠] الإصحاح الأول في التوراة = مصطلح السورة الاولى في القران الكريم

[٣٤١] سفر اللاويين هو أحد الأسفار المقدسة في الكتاب المقدس لدى الديانة اليهودية والعهد القديم لدى المسيحية

[٣٤٢] بردية إيبوير إحدى برديات الشعر المصري القديم، المعروفة بـ معاتبة إيبوير أو حوار بين إيبوير ورب الجميع، المحفوظة في المتحف الوطني الهولندي للآثار في ليدن، بعد أن تم شراؤها من «جيوفاني أنستاسي» القنصل السويدي في مصر في عام ١٨٢٨. البردية يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

[٣٤٣] كتاب الموتى هو مجموعة من الوثائق الدينية والنصوص الجنائزية التي كانت تستخدم في مصر القديمة، لتكون دليلاً للميت في رحلته للعالم الآخر، أستخدمت من بداية العصر الحديث للدولة المصرية القديمة إلى حوالي ٥٠ قبل الميلاد.

- **أني لم أخسر مكيال الحبوب**
- **أني لم أنقص المقياس**

وهذه هي الدفاعات التي يدافع بها المتوفى عن نفسه أمام "أوزير"[٣٤٤]!
ومن نشيد إخناتون[٣٤٥] جاء هذا الجزء:

- **"يزدهر كل شيء لأجل الملك**
- **لأنك أنت الذي خلقت الأرض**
- **وأنت الذي خلقت الناس لأجل أبنك**
- **الذي ولد من صلبك**
- **ملك مصر العليا ومصر السفلي**
- **الذي يحي على الحق**
- **سيد الأرضين[٣٤٦] "إخناتون"، الذي يحيا إلى الأبد."**

وفي التوراة نجد ما قاله الله تعالى لسليمان عليه السلام:

- **وأنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا "صمويل الثاني[٣٤٧] إصحاح ١٣".**

وعن داود ورد أنه قال:

- **"وإني أخبر من جهة قضاء الرب قال لي أنت ابني أنا اليوم ولدتك اسألني فأعطيك الأمم ميراثًا وأقاصي الأرض ملكًا " المزمور الثاني.**

وهذا ليس كل شيء فإن مظاهر الاقتباس تتابع كلما توغلنا قدمًا في هذا الأمر وخاصة الوصايا والحكمة والمسألة الدينية وبالرغم من أن هؤلاء المصريين القدماء كانوا يعبدون الأوثان وفي التوراة إله واحد أحد!

وفي خضم هذا الاتفاق العجيب مع التوراة نجد تجاهلاً تامًا لما ورد في القرآن من قصتي يوسف وموسى ـــ عليهما السلام ـــ وعدم ظهور لقب "عزيز مصر"، بصفته أحد أهم الوظائف في بلاط الملك والدولة وكذلك اختفاء "يوم الزينة، أو عيد الزينة " كأحد أعياد المصري القديم وهذا الإصرار الغريب على الهيكلة الاغريقية للدولة المصرية برغم كل هذا الكم من الوصايا والمناهج التي تتفق مع التوراة.

---

[٣٤٤] إله البعث والحساب وهو رئيس محكمة الموتى عند قدماء المصريين، من آلهة التاسوع المقدس الرئيسي في الديانة المصرية القديمة.

[٣٤٥] رف أيضًا قبل العام الخامس من ملكه بـ امنحوتب الرابع. كان ملك من الأسرة الثامنة عشرة حكم مصر لمدة ١٧ عاماً وتوفي ربمًا في ١٣٣٦ ق.م أو ١٣٣٤ ق.م. يُشتهر بتخليه عن تعدد الآلهة المصرية التقليدية وإدخال عبادة جديدة تركزت على آتون، التي توصف أحيانًا بأنها ديانة توحيدية

[٣٤٦] "الأرضين" - اسم من أسماء مصر

[٣٤٧] سفر صموئيل الثاني هو عاشر أسفار التناخ في الديانة اليهودية والعهد القديم في المسيحية، يصنف السفر ضمن الأسفار التاريخية أو ضمن النبوءات القديمة، أي تلك التي تمت في مرحلة مبكرة وقريبة من حكم القضاة.

والمسالة هنا ليست في التوراة ذاتها فالتوراة كتاب أنزله الله تعالى وليس لي أو لأي إنسان أن يتعرض له بسوء أو حتى بنقد ولو بسيط وإنما نذكر هنا ما جاء في محكم التنزيل:

قال تعالى: (**وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (٨٨) لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)**) "مريم:٨٨_٩٢".

وأيضًا قوله تعالى (**وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (٣٠)**) "التوبه:٣٠"

وقوله تعالى: (**وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٤٨)**) "المائدة:٤٨"

وقوله تعالى: (**وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (٧٨)**) "آل عمران: ٧٨"

وهنا نرى أن هناك اختلافًا بين القرآن والتوراة وأمر من الله تعالى إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمؤمنين جميعًا بأن يحكموا بما أنزل الله وأن الذي يزعمونه اليهود على أنه التوراة هو ليس بالتوراة كما أنزلت ولكنهم أدخلوا عليها ما ليس فيها وحذفوا منها أجزاء أيضًا.

لذا فإن المسألة ليست في التوراة ذاتها ولكنها في اليهود الذين سيطروا تمامًا على فكر هؤلاء الذين قاموا بهذه الاستكشافات ونسجوا هذا التاريخ وألبسوه لمصر ولا سيما وأن هذه الاستكشافات تواكبت مع انتشار وظهور الفكر الصهيوني والذي أصبح ذا وجود حقيقي إبان هذه الأبحاث وجاء انتقام اليهود من مصر في العصور القديمة منذ أن أذاعوا الأكاذيب عنها ووصل بهم هذا إلى تحريف و تحرير ما أنزله الله تعالى في التوراة كما ذكر الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم، وحانت لهم فرصة ثانية ذهبية واستغلوها ليدسوا سمومهم في ماضي هذه الأمة واستغلوا أيضًا انبهار العالم بهذه الحضارة وشغفه لمعرفة كل شيء عنها في تنفيذ مخططهم الإجرامي الذي نجحوا فيه ببراعة فائقة.

وعندما ننظر إلى هذا التشابه بين التوراة وما ورد في النصوص المصرية القديمة نقول إن الاقتباس تم من التوراة إلى هذه النصوص التي وضعوها وليس العكس لعدة أسباب:

أولها: أن هذه الوصايا والأخبار تتفق مع كون أن التوراة كتاب سماوي ويختلف مع كون أن المصري القديم وثني كافر.

وثانيها: أن هذه الأخبار كانت في التوراة منذ وقت نزولها على موسى ــ عليه السلام ــ أي نحو ثلاثة آلاف عام تقريبًا وظلت هكذا وما تزال، وفجأة تظهر نفس

القيم والوصايا لتنسب إلى المصري القديم.

وثالثها: إن كان المصري القديم بمثل هذه المثل والقيم وأيضًا بنو اسرائيل فكيف ظهر العداء بينهم ولماذا فعل المصريون ببني إسرائيل ما فعلوا؟

ولعل أعجب شيء أنه لم تظهر ولو إشارة بسيطة في تاريخ مصر إلى وجود بني إسرائيل فيها مع أن دخولهم إليها لم يكن خفية أو انتقال عادي ولكن هجرة جماعية وكان أحدهم أكبر رجال الدولة يوسف ــ عليه السلام ــ عزيز مصر، وأنهم دائمًا ما كانوا قريبين من القصر والحكم حتى خروجهم والذي كان آية من كل النواحي ولو أضفنا ما حدث للمصريين جميعا بسببهم لرأينا أنه لابد أن يظهروا كثيرًا في النصوص المصرية سواءً الرسمية أو ضمن قصصهم وحكاياتهم.

وكان من الطبيعي أن يذكر بني إسرائيل كشرذمة وقلة صغيرة في التاريخ المصري من خلال الوثائق والنصوص فيأتي ذكرهم في كل شر ولن يكون بالمدح أبدًا فالعداء قائم بين الشعب وهؤلاء العبرانيين ولو أضفت إلى هذه السمعة التي اشتهروا بها في مختلف البلاد والأزمنة فهم يأكلون الربا وقدموا فتياتهم كغوانى في بلاد فارس وبلاد العرب وسائر البلاد وعدم الولاء سواء للدين أو الأرض وعدم لوفاء بالأمانات وما إلى ذلك من الصفات التي اشتهروا بها فإن المصري لن يذكر عنهم خيرًا وسيظهر من ضمن ما كتب أشياء لا يريد اليهود أن يعرفها أحد.

وعلى هذا الأساس ومن خلال هذا المنطلق لم تظهر أي إشارة إلى بني إسرائيل في المدونات المصرية القديمة ولأن الفكر الصهيوني كان قد اتخذ شكلاً في المجتمع الأوروبي ولاعتماد العلماء على اليهود والتوراة والتأثر بهذا الفكر كان لزامًا وحتمًا عدم ذكر بني إسرائيل في التاريخ المصري القديم.

وإن كنا نتفق مع حمدي عبد الرازق فيما ذهب إليه إلا أننا في مرحلة ما من هذه السلسلة سندلل أن من حرفوا التوراة هم من اقتبسوا بعض النصوص من التعاليم الدينية المصرية القديمة.

فك رموز الهيروغليفية وثورة الحضارة المصرية على المعتقدات الدينية في الغرب:

في كتابه على "هامش التاريخ المصري القديم" قام المؤرخ والحقوقي والكاتب الصحفي عبد القادر حمزة[٣٤٨] بكشف اللثام عن أول مؤامرة على التاريخ المصري قامت بها

[٣٤٨] مؤلف وكاتب صحفي مصري أحد رواد الصحافة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين تخرج عبد القادر حمزة فى مدرسة الحقوق عام ١٩٠١ وبدأ حياته الصحفية بالإسكندرية عندما أصدر جريدة الاهالي عام ١٩١٠ وساهم بمقالاته السياسية فى إشعال ومساندة ثورة ١٩١٩ وهاجم الاستعمار الانجليزي فأوقفت الجريدة عدة مرات حتى ألغي تصريحها عام ١٩٢٣. لكنه لم ييأس وفي عام ١٩٣٢ أصدر عبد القادر حمزة جريدة البلاغ بعد أن انتقل بنشاطه السياسي والصحفي إلى القاهرة. اشتهر المؤرخ عبد القادر حمزة بقوة مقاله السياسي وكان أسلوبه مركزًا وكان من علماء التاريخ المصري حيث صنف كتابًا على هامش التاريخ المصري القديم جزءان، وترجم عن الإنجليزية التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر الذي ألفه ويلفريد بلنت.

المؤسسة الدينية في أوروبا بقيادة البابا ومعاونيه وبمشاركة شامبليون في تزوير التاريخ المصري القديم فقد كتب فصلًا تحت عنوان (معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصري) قال فيه: "

قامت بين سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٨٠ معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوربا في هذه المدة الطويلة. وكان منشؤها أن الكنيسة وقسسها وقعوا في خطإٍ ألبسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة من أنكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين. وكان كثير من البحث العلمي في ذلك الوقت واقعًا في أيدي القساوسة، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهي عنده من الحقائق الثابتة التي لا يرقى الشك إليها.

وما زالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية، فأثار بهبوبه غبارًا، ثم اشتد هذا الغبار فتحول إلى معركة حامية تقف منها الكنيسة والقساوسة في جانب، وتقف الآثار المصرية في جانب آخر، إلى أن انهزمت العقيدة بعد حوالي تسعين سنة. وحينئذ أفاقت الكنيسة وأفاق قسسها فاعترفوا جميعًا بأنهم مخطئون وأن الآثار المصرية انتشلتهم من باطل كانوا فيه مخدوعين.

وموضوع هذا الخطأ أن في التوراة، أو (كتاب العهد القديم)، نصوصًا عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من **آدم** ـ إلى **نوح** ـــ عليهما السلام ـــ، وقد ذكرت التوراة في هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحدًا بعد الآخر، فكان من السهل على الذين يجمعونها أن يحددوا الزمن الذي مضى على خلق الإنسان. ونذكر هنا شيئًا من نصوص التوراة على سبيل المثال.

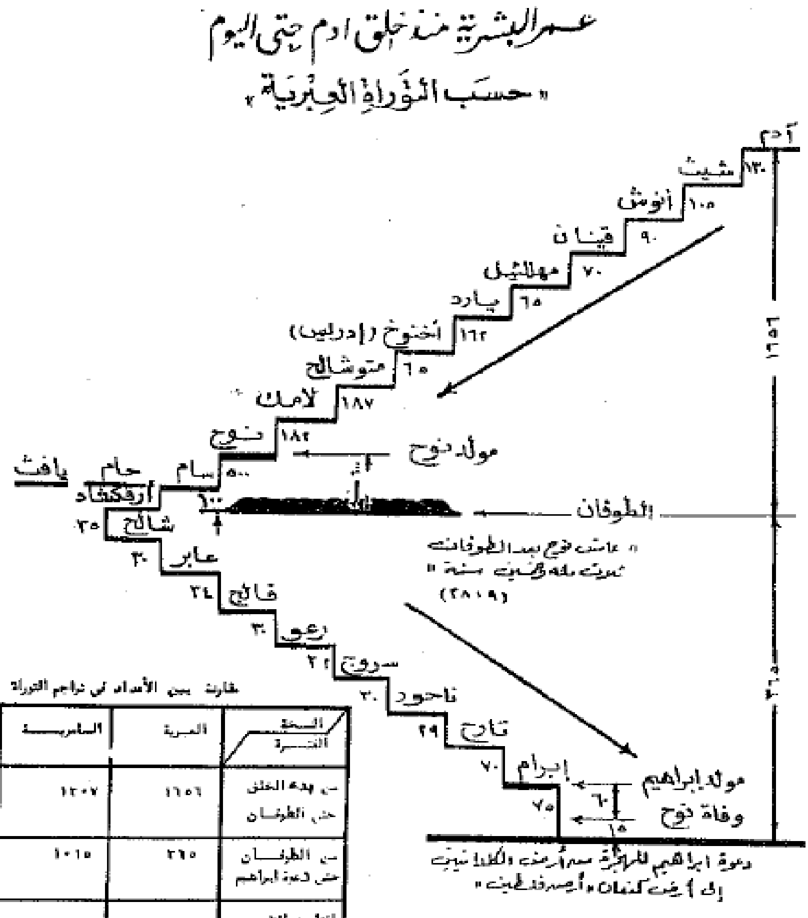
ففي « الإصحاح الخامس » من « سفر التكوين » ما نصه:

" وهذا كتاب مواليد **آدم** يوم خلق الله الإنسان على شبه الله، عمله ذكرًا وأنثى، خلقه وباركه ودعا اسمه **آدم** يوم خلق. وعاش آدم مائة وثلاثين سنة، وولد ولد على شبهه كصورته ودعا اسمه **شيثا**. وكانت أيام آدم بعدم وُلد **شيثا** ثمانمائة سنة، وولد بنون وبنات. فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة وثلاثين سنة ومات".

وتستمر النصوص على هذا المنوال حتى تصل إلى نوح ثم إلى ابراهيم. فعلى هذه النصوص استند الذين قدروا عمر الإنسان على الأرض. ثم لما كانت هذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد اختلف تبعًا لذلك تاريخ خلق الإنسان. وذلك أن هناك ثلاثة نسخ للتوراة كل واحدة منها اعتبرتها الكنيسة مقدسة: نسخة عبرية ونسخة سامرية ونسخة سبعونية. ففي الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة. وفي الثانية يبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة. وفي الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة. أما المدة من إبراهيم إلى عيسى ـــ عليهما السلام ـــ فهى ٢٢٠٠ سنة. وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الإنسان إلى رسالة عيسي هي ٥٥٨٩ سنة.

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلم بها، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة، فانتشرت في المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التي ألفها القساوسة. وهذا هو الخطأ الذي أخذ العلم المصري يصدمه منذ سنة ١٧٩٣، فثارت الكنيسة وثار معها

أنصارها في أوروبا كلها على مصر والعلم الذي يأتي منها، فتغلبوا في بدء المعركة، ولكن الصدام استمر، فكان العلم المصري ينهض يومًا ويكبو يومًا، وبلغ من حمو المعركة أن اشترك فيها أكبر العلماء من الجانبين، واشتغل بها رجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة، لا بل اشتغل بها البابا لبون الثاني عشر نفسه. وأخيرًا انتصر العلم المصري فقضى على الخطأ، واعترف بانتصاره الذين حاربوه. و الآن فلنخفي ميدان المعركة ولنتتبع أطوارها واحدًا بعد واحد.



مقارنة بين الأعداد في تراجم التوراة

النسخة / الفترة	العبرية	السامرية	الافريقية
من بدء الخلق حتى الطوفان	١٦٥٦	١٣٠٧	٢٢٦٢
من الطوفان حتى دعوة ابراهيم	٣٦٥	١٠١٥	١١١٥
التاريخ التقريبي لعمر البشرية	٦٠٢١	٦٣٢٢	٧٤٠٧

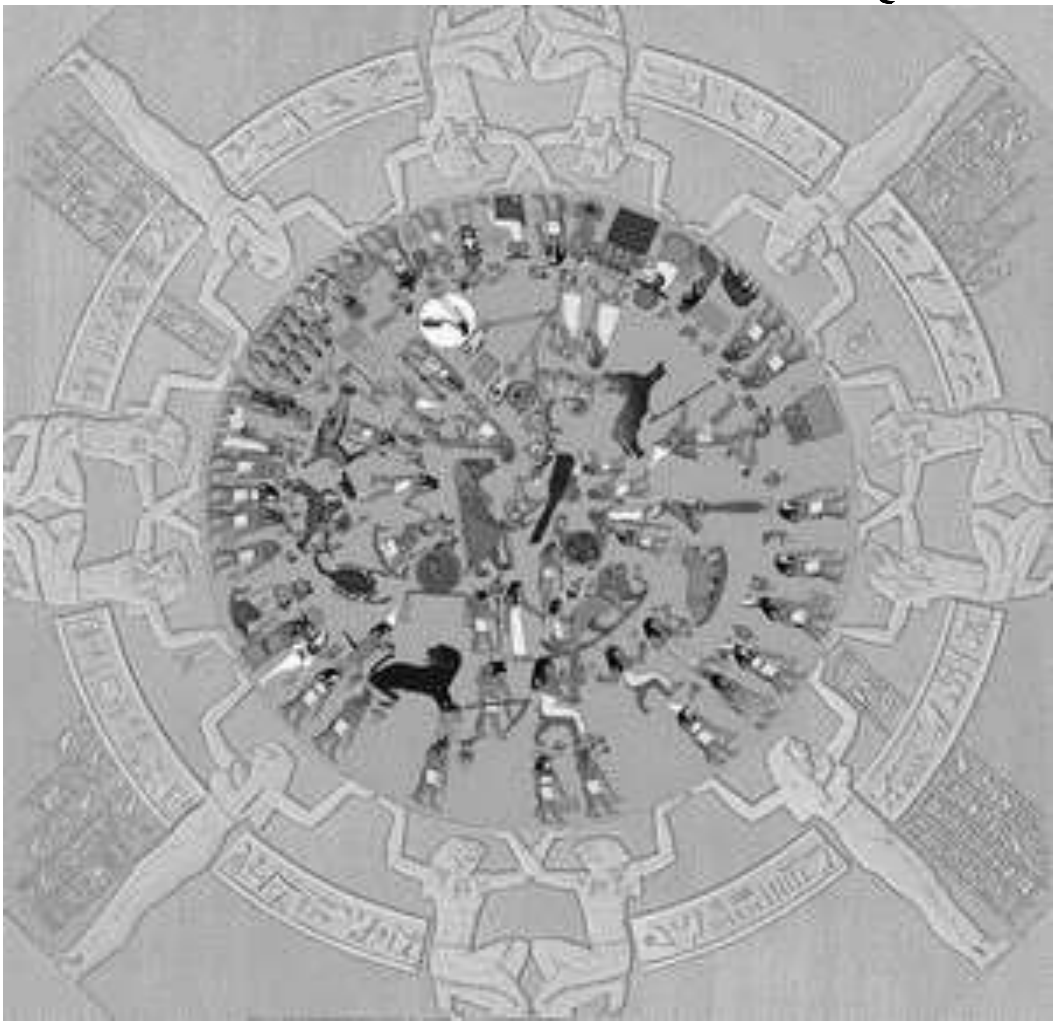
* وذلك باعتبار أن الفترة من ابراهيم حتى المسيح نحو ٢٠٠٠ سنة ومن المسيح حتى نهاية القرن العشرين نحو ٢٠٠٠ سنة

رسم توضيحي لعمر البشرية على الأرض منذ خلق آدام حتى دعوة إبراهيم ـــــ عليهما السلام ـــــ مع مقارنة هذا العمر حسب مصدر التوراة العبرية والسامرية والإفريقية[٣٤٩].

[٣٤٩] إسرائيل حرفت الأناجيل و اخترعت أسطورة السامية - أحمد عبدالوهاب – ص ٨٠

أكبر معركة لتزوير التاريخ شارك فيها شامبليون:

في سنة ١٧٩٣ كان عالم فرنسي يسمى ديپوى (**Dupuis**) قد درس البروج [٣٥٠] التي وجدت، في بعض المعابد المصرية، فألف كتابًا استنتج فيه من علامات في هذه البروج ومن حساب حسبه أولاً: أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج، وثانيًا: أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة قبل ميلاد المسيح. ثم قال: "وبما أن شعبًا من الشعوب لا يستطيع أن يخترع هذه البروج في مستهل حضارته فالحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من ١٥ ألف سنة!"



[٣٥٠] هذه البروج هي رسوم مستديرة على المباني تمثل مناطق من السماء والكواكب والبروج الفلكية .

وكان ديبوي ذا سلطان بين العلماء فدوت كلمته هذه عندهم، ورأى كل واحد منهم فيها تحديًا لنصوص التوراة والعقيدة التي قدستها الكنيسة، و لكنهم تركوها تمر كما تمر الأشياء التي تستحق الإهمال.

وبعد ذلك ببضع سنوات، أي في سنة ١٧٩٨، غزا نابليون بونابرت مصر، وزار العلماء الذين كانوا يرافقونه الصعيد فشاهدوا برجين في سقوف معبد دندرة[٣٥١] وبرجين آخرين في معبدين بالقرب من إسنا، ولاحظوا أن قواعد التقسيم في هذه البروج كلها واحدة ولكن العلامات ومناطق الكواكب مختلفة.



معبد دندرة

ففي إسنا تبتدئ البروج ببرج العذراء وفي دندرة تبتدئ ببرج الأسد، فاستنتجوا من ذلك أن الغرض هو الدلالة على الوقت الذي بنيت المعابد فيه، وأن معبدي إسنا بُنيا حينما كانت الشمس في فلك العذراء، وأن معبد دندرة بُني بينما كانت الشمس في فلك الأسد. وهذا معناه أن معبدي إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف سنة، وأن معبد دندرة يرجع إلى ٤ آلاف سنة.



دائرة بروج دندرة كما هي معروضة في متحف اللوفر بعد سرقتها من مصر

[٣٥١] هو مجمع معابد بطلمي - روماني، يقع في قرية دندرة علي بعد حوالي ٥ كم شمال غرب مدينة قنا وعلى بعد ٦٠ كم شمالاً من الأقصر. ويعتبر أحد أشهر المعابد المحفوظة في مصر التي ما زالت محتفظة برونقها.



بروج معبد دندرة تبدأ ببرج الأسد



بروج معبد إسنا تبدأ ببرج العذراء

ونشرت جريدة المونيتور (**Moniteyr**) التي كانت الحملة الفرنسية تصدرها في القاهرة هذا الخبر في عددها الصادر في ١٨من أغسطس سنة ١٨٠٠، وقالت: إن معابد إسنا ودندرة تعتبر مع ذلك من أحدث المعابد المصرية.

ووصل هذا الخبر، ووصلت جريدة المونيتور، إلى دوائر أوروبا الدينية والعلمية، فأحدثا فيها رجة، وأخذ المتسائلون يتساءلون: ماذا؟ ٤ آلاف سنة و٧ آلاف سنة !! ومعابد إسنا أحدث المعابد؟! والبلاد التي تعرف بروجًا كهذه البروج وترسمها بهذه الدقة الفلكية يجب أن تكون حضارتها قد استمرت قبل ذلك أُلوفا أخرى من السنين ؟!

فالمصريون الذين هم أهل هذه البلاد متى وجدوا؟ وكم من الزمن قطعوا حتى خرجوا من الهمجية إلى المدنية؟!

وهل يصح حينئذ قول ديبوي إن الحضارة المصرية ترجع إلى أكثر من ١٥ ألف سنة؟! وأي شيء يبقى من نصوص التوراة إذا كانت الحضارة المصرية والآثار المصرية في هذا القدم ؟!

ولكن لا، ثم لا، فان التوراة مقدسة، فهي صادقة، أما مصر واثارها والريح التي جاءت تهب من ناحيتها، فهي كلها زور وخداع.

تلك هي الضجة التي نشرت في الدوائر العلمية والدينية على إثر ذيوع الخبر عن بروج إسنا ودندرة. وحينئذ انقسم العلماء فريقين: فريقا يقول: " إن الآثار المصرية تثبت أن خلق الإنسان أقدم من الزمن الذي حددته له التوراة "، وفريقا يتمسك بالتوراة ويدافع عنها.

فمن الفريق الأول ديبوي الذي مر ذكره، وبورخارت (**Bourckhardt**) و ريمى رج (**Remi Raige**) وفورى (**Forrier**) وجولوا (**Jolloia**) وديفلبرز (**Devullers**).

أما الفريق الثاني فكانت تقوده الكنيسة وكان يتولى زعامته الأب تيستا (**Testa**) سكرتير البابا في روما ويعاونه فيسكونتي (**visconti**) والأب جريبو (**Greppo**) والقسيس هالما (**Halma**) وليترون (**Letrone**) وغيرهم.
وحميت المعركة بين هذين الفريقين من العلماء، وكانت نظرية الفريق الثاني أن البروج التي وجدت في إسنا و دندرة لا ترجع إلى أكثر من القرن الثالث قبل الميلاد وأنها لذلك لا تقدح في التوراة. وإنما نادي الفريق الثاني بهذه النظرية لأنه رأى أن التشبث بأرقام التوراة من غير الطعن في قدم البروج المصرية لا يفيد.
واستمرت المعركة على هذا المنوال ٢٥ سنة أخرج فيها كل واحد من هؤلاء العلماء عدة كتب كان موضوعها كلها البروج المصرية والحضارة المصرية.
وبينما المعركة عند هذا الحد إذا بقائل يقول: إن برج دندرة وصل إلى مرسيليا، فسرى الخبر مسرى البرق، ووقع في النفوس كما تقع الأعجوبة. وكان الخبر صحيحًا، حيث جلبه ابن أحد أعضاء مجلس النواب في فرنسا أخذته نشوة المعركة الناشبة حول البروج المصرية، فذهب بنفسه إلى دندرة واستطاع أن ينزع برجها من مكانه وأن ينقله إلى فرنسا –بكل هذه البساطة والأريحية وكأن الآثار المصرية لا مالك لها - بعد أن اتخذ جميع المعدات لصونه من أن يصاب بسوء.
فلما وصل البرج إلى مرسيليا في يناير سنة ١٨٢٢ لم تبق في أوربا كلها جريدة لم تنشر خبر وصوله، وكان الذي جلبه - وهو يسمى ليلورين - ولأصدقائه الذين ساعدوه مصلحة شخصية في أن يدقوا حول البرج طبولاً ضخمة فدقوا منها ما شاءوا وكيفما شاءوا. وكان الناس مستعدين لأن يسمعوا هذه الطبول فأقبلوا عليها وجعلوا يتمثلون حول البرج المصري، والحضارة المصرية، والعلوم المصرية، ما لا يتسع له إلا الخيال الواسع.
ولاحظ رجال الكنيسة هذا الأثر في الناس فانزعجوا، ولحظه خصومهم الذين كانوا في ميدان المعركة فتشجعوا واغتبطوا.

كيف تمت سرقة (القبة السماوية) برج دندرة ؟

القبة السماوية تلك الدائرة النجمية التي اقتبس منها العالم فكرة الأبراج، تعرضت لقصة مأساوية وفضيحة تاريخية مدوية بطلها فرنسي من هواة نهب التراث المصري اسمه سابستيان لويس سولينيه، وكان ابنا لأحد أعضاء مجلس النواب الفرنسي، قام هو ووكيله "جان باتيست لولوريان بالادعاء أن اللوحة اكتشفها الجنرال "ديزيه" أثناء الحملة الفرنسية على صعيد مصر، ومن ثم أصبحت أثرًا فرنسيًا قوميًا يجب أن يرسل إلى باريس؟[٣٥٢]

[٣٥٢] مأساة نفرتيتي واخواتها "قصة نهب وتهريب الآثار المصرية للخارج منذ لرزل وحتى يومنا هذا – دكتور قاسم زكي – مؤسسة الآمة للنشر والتوزيع طبعة ٢٠١٩ – ص ١٣٦

ونقل البرج إلى باريس، واخترق شوارعها في موكب كموكب الغازي المنتصر، وضن به أصحابه عن أن يبتذل، فلم يعرضوه للجمهور، ولم يقبلوا أن يدخل عليه إلا العظماء.
وكتب كاتب فرنسي هو كاميل لاجيي (**Camile Lagier**) يصف شغف باريس حينئذ بالبرج فقال: "إن هذا البرج الذي كان يظهر ويختفي في آن واحد صار معبود المتحدثين في الصالونات، وفي أماكن الرياضة وفي كل مكان. فما كنت تسمع غير سيدة تقول: "أرأيت البرج عزيزي؟ " أو رجل يقول لصاحبه: "ما رأيك يا أخي في البرح" أو ما يجري هذا المجري من الحديث.
وأذاعت الصحف على إثر ذلك أن الحكومة الفرنسية ألفت لجنة من ثلاثة من العلماء لفحص البرج وهل هو زائف، أو ذو قيمة علمية. ثم فحصته اللجنة فقررت أنه غير زائف. وكان أصحابه ينتظرون هذا التقرير، فلما قدم إلى الحكومة كتبوا إليها أن تشتريه منهم، ويقولون إن دولة أجنبية قدمت لهم فيه ٢٠٠ ألف فرناك فرفضوا لأنهم يؤثرون ألا يفوت بلادهم الاحتفاظ بذخيرة مثله. واشترته حكومة لويس الثامن عشر ودفعت فيه ١٥٠ ألف فرنك ـــ أي نحو ستة آلاف جنيه ـــ ووضعته في متحف اللوفر وسمحت للجمهور بأن يراه فيه.
واشتد في هذا الوقت حنق رجال الكنيسة، واشتد معه حنق المؤمنين الغيورين على نصوص التوراة فكانوا جميعًا "يلعنون الحجر الأسود الحقير" [٣٥٣] - يقصدون بذلك حجر رشد - بينما كان بعض أعضاء مجلس النواب في فرنسا يثيرون الثوائر عليه لأنه " أداة لبث الإلحاد وإنكار الدين" [٣٥٤] وهذه الكلمات كافية للدلالة على أن المعركة و صلت في هذا الدور إلى أقصى شدتها. وبعد ذلك يأتي الدور الثالث و فيه انقلب الأمر فانهزمت البروج وانتصرت الكنيسة.
بقي الأب تيستا يناضل نضالاً عنيفًا، وجعل أساس نضاله أن يدرس البروج نفسها ليهدمها. وكان العلماء الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت قد عادوا إلى فرنسا ونشروا الرسوم والصور التي جلبوها معهم لكثير من الآثار المصرية، ومنها معابد إسنا ودندرة. وكانوا قد نشروا أيضا أوصاف هذه المعابد في مؤلفهم العلمي الذي سموه (وصف مصر) (Description de l'Egypte)، فلاحظ الأب تيستا ولاحظ معه فيسكونتي أن على معابد إسنا ودندرة كتابات يونانية، فقالا إن هذه الكتابات سترشد على الأرجح إلى التاريخ الصحيح لهذه المعابد والبروج التي وجدت فيها.
وتتبع لبترون هذه الفكرة، فلاحظ أن اسمي الامبراطورين الرومانيين انطونين وادريان موجودان على معبد إسنا. و قرأ على معبد دندرة عبارة باللغة اليونانية كُتبت تكريمًا للإمبراطور تيبير ابن الإمبراطور أغسطس.
وفي هذا الوقت كان شامبوليون الشاب قد فك حروف الخط الهيروغليفي فاطلع على جميع الأوصاف والرسوم الخاصة بمعابد دندرة وإسنا، فاثبت أن جزءًا من معبد دندرة

[٣٥٣] AUTOUR DE LA PIERRE DE ROSETTE - LAGIER, CAMILLE – p ٣٠.
[٣٥٤] المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢

بني في عهد كليوباترا وابنها قيصرون، وأن جزءًا آخر منه بني في عهد الإمبراطور أغسطس. أما معبدا إسنا فأثبت أنهما بُنيا في عهد الإمبراطور كومود.

وأثبت في الوقت نفسه أن البروج حديثة وأنها صنعت في الوقت الذي بنيت فيه المعابد أي في حكم الرومانيين لمصر. وبذلك سقطت دعوى قدم البروج وانتصرت الكنيسة.

انهزمت البروج وانتصرت الكنيسة، فكان معنى هذا أن عمر الإنسان على الأرض لا يتجاوز ٣٣٨٩ سنة على أكثر تقدير قبل النبي إبراهيم، وكان المعنى أيضًا أن كل قدم تدعيه الحضارة المصرية لنفسها أبعد من هذا الحد زورًا وخداعًا. وهذه المدة التي تحددها التوراة هي المدة التي يجب أن يكون المصريون قد انتقلوا فيها من حالة الوحشية الأولى إلى حالة المدنية، ثم من حالة المدنية إلى الحضارة الراقية، فحضارتهم على هذا لا تتجاوز قرونًا تعد على الأصابع قبل النبي إبراهيم.

ولكن هذا الحساب، فيه تسامح أيضًا، لأن من المفروض أن الطوفان جاء على عهد نوح فأهلك في مصر - كما أهلك في غيرها - كل حي ودمر كل عامر[٣٥٥]، فالمدة التي بين آدم ونوح يجب إسقاطها من الحساب. وفي النسخة السبعينية من نسخ التوراة - وهي النسخة التي يزيد رقمها على رقمي النسختين الأخيرتين - أن المدة من آدم إلى نوح ٢٢٤٢ سنة، ومن نوح إلى إبراهيم ١١٤٧ سنة فقط. فهذه المدة الأخيرة هي وحدها التي يجب أن تكون قاعدة الحساب وهي التي عمرت فيها مصر بالمصريين ووصل المصريون فيها إلى الحضارة التي وجدهم عليها إبراهيم حينما جاء مصر، فالحضارة المصرية حديثة إذن، وليس لها أن تتيه على حضارات الأمم الأخرى بدعوى القدم.

هذا كان مؤدي انتصار الكنيسة على البروج المصرية. ولهذا لم يكد الانتصار يتقرر في الأذهان حتى بدأت حملة عنيفة على مصر وتاريخها، وقاد هذه الحملة الأب جيرين دى روشى **Guérin du Rochet** وكان قد ألف قبل ذلك ببضع سنين كتاباً عنوانه" التاريخ الصحيح للعصور الخرافية " هاجم فيه مصر وتاريخها وحضارتها، فأعاد طبعه وزاد عليه.

وكان الأب دي روشي من العلماء الواسعي الاطلاع البارعين في صناعة القلم، فاستطاع أن يصوغ كتابه هذا في شكل يلبس فيه الحق بالباطل. فزعم أن التاريخ المصري من أوله إلى آخره ليس إلا تخليدًا في الحوادث التي تسردها التوراة. فالملك (مينا)[٣٥٦] الذي يذكره المؤرخ المصري مانيتون[٣٥٧] ويقول: إنه أول ملك حكم مصر ليس سوى نوح. والملوك الذين يعدهم مانيتون ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين خلفاء (لمينا) ليسوا سوى أولاد

---

[٣٥٥]) يقول بعض العلماء الآن أن الطوفان لم يعم الأرض كلها ، بل اقتصر على بلاد الكلدان وأرمينيا ، ولكن هذا القول لم يكن شائعاً في الوقت الذي نشيت فيه معركة البروج

[٣٥٦] فرعون مصري قديم من عصر الأسرات المبكرة، هوية مينا موضع جدل بين علماء المصريات فالبعض ينسبه إلى الفرعون حور عحا، والبعض الآخر ينسبه إلى الفرعون نارمر. الملك مينا موحد القطرين فرعون من الأسرة المصرية الأولى مدينة طيبة (الأقصر حاليًا)، استطاع أن يوحد القطرين (المملكتين الشمال والجنوب) حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م ولقب لهذا الفضل العظيم بعدة ألقاب مثل (ملك الأرضين، صاحب التاجين، نسر الجنوب، ثعبان الشمال). يعتبر الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية.

[٣٥٧] مانيتون (Manethon) هو أبو التاريخ المصري . وكان كاهنا مصريًا من كبار العلماء ، وكان قد عاش في زمن حكم البطالسة مصر ، فطلبوا إليه أن يضع تاريخا لمصر باللغة اليونانية فوضعه وعليه اعتمد جميع المؤرخين من بعده.

نوح الثلاثة. والفرعون موريس[٣٥٨] ليس سوى مصرايم حفيد نوح. وما زال الأب دي روشي يمضي في السلسلة على هذا القياس حتى جرد مصر من تاريخها وحوله كله إلى التوراة والقصص التي فيها. وعنده أن المؤرخين: مانيتون وديودور الصقلي وهيرودوت، لم يفعلوا غير أن وضعوا التوراة أمامهم، ثم جعلوا يأخذون منها ويخترعون.

وهذا القول يظهر لنا الآن غاية في السخف، ولكنه راج في ذلك الوقت على أنه حقيقة تاريخية ودينية. واستقر في الأذهان أن كل ما وراء إبراهيم من الزمن يجب أن يؤخذ تاريخه من التوراة. فما أثبتته فهو الحق الذي وجد، وما لم تثبته فهو الباطل الذي لم يوجد.

ولكن هذا الانتصار للكنيسة لم يدم طويلاً لأن المعركة عادت تتجدد في شكل آخر. وعادت تتجدد في هذه المرة بشيء غير البروج، وعلى يد عالم هو الذي نصر الكنيسة على البروج، وهذا العالم هو شامبليون الشاب الذي تقدم أنه أثبت من كتابات على معابد دندرة وإسنا أنها هي وبروجها بنيت في عصر كليوباترا والرومانيين.

وذلك أن شامبوليون كان قد كشف الخط الهيروغليفي[٣٥٩] كما قلنا، وعرف الخطين المصريين الآخرين الديموطيقي[٣٦٠] والهيراطيقى[٣٦١]، فصار في استطاعته أن يقرا جميع الكتابات التي تركها المصريون على المعابد وفي أوراق البردى. فبدأت الكنيسة تحس قلقًا من هذه الناحية على الرغم من أنها كانت قد ارتاحت لعمل شامبوليون في هدم قدم البروج. وقد كانت على حق في هذا القلق ولكن شامبوليون كان سياسيًا بارعًا فأخذ يهدئ روعها حتى لا تحول بينه وبين بحثه العلمي. فنجح واستنامت له الكنيسة، ثم لم تفق إلا بعد أن صار كل نضال لها في المعركة لا يفيد.

---

[٣٥٨] الفرعون موريس هو الفرعون الذي زعيم المؤرخون اليونانيون والرومانيون ولا سيما المؤرخ سترابون ، أنه أنشا بحيرة موريس (بحيرة قارون) في الفيوم لتكون خزانا للنيل . ولكن الآثار دلت بعد ذلك على أن هذه البحيرة أنشئت في عهد أمنحت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة وأنه لا يوجد فرعون مصري يسمى موريس

[٣٥٩] هو أقدم الخطوط التي كتب بها المصري لغته وقد اشتُقت كلمة هيروغليفي من الكلمتين اليونانيتين "هيروس" Hieros وتعني "مقدس" و"جلوفوس" Glophos وتعني "الرسم". وبالتالي فالتعبير المركب يعني "الرسم المقدس" حيث إنها كانت تُستخدم للكتابة على جدران الأماكن المقدسة مثل المعابد والمقابر. كما أنها كانت كتابة منقوشة تتم على الأحجار بأسلوبي النقش البارز أو الغائر على الجدران الثابتة وعلى الآثار المنقولة مثل التماثيل واللوحات والصلايات. وتتكون الكتابة الهيروغليفية من مجموعة من النقوش المستمدة من الحياة اليومية فهي كتابة تصويرية، بالإضافة لوجود علامات صوتية

[٣٦٠] اشتُق اسمه من الكلمة اليونانية "ديموس" Demos والنسبة منها "ديموتيكوس" وتعني "الشعبي" وهو كما يظهر من اسمه خط المكاتبات الشعبية وهو خط مبسط من الهيراطيقي وبدأ استخدامه في القرن الثامن قبل الميلاد واستخدم بصورة كبيرة في تسجيل المعاملات المدنية مثل العقود التجارية والمراسيم الحكومية، والجدير بالذكر أنه من الصعب إرجاع كل علامة ديموطيقية وكل كلمة ديموطيقية لأصلها الهيروغليفي، فإذا كانت كل علامة هيراطيقية لها ما يساويها بالهيروغليفية، فكان من الممكن تحويل النصوص الهيراطيقية لأصولها الهيروغليفية، فلقد ابتعدت التعبيرات الديموطيقية كثيراً عن أصولها، وكان من الصعب استعادة الأصل الهيروغليفي للكلمات الديموطيقية في أغلب الأحوال

[٣٦١] اشتقت كلمة هيراطيقي من الكلمة اليونانية "هيراتيكوس" Hieratikos وتعني "كهنوتي"؛ حيث كان الكهنة هم الأكثر استخدامًا لهذا الخط في العصر اليوناني. وهو لم يظهر سوى تلبية للحاجة الملحة لخط أكثر بساطة لاستخدامه في تدوين النصوص الدينية من قبل كهنة المعابد على أوراق البردي ويعد تبسيطًا للخط الهيروغليفي.

وكان شامبوليون محتاجًا في أول أمره لرعاية ملك فرنسا لويس الثامن عشر، فسعى له الدوق دى بلاكادس حتى حصل له عليها وعلى إذن بأن يزور متحف تورينو والمتاحف الإيطالية الأخرى ليدرس مجموعات الآثار وأوراق البردي المصرية فيها. و كان الدوق من أنصار الكنيسة ومن محبي شامبوليون معًا. فلما حصل شامبوليون على الإذن بدراسة الآثار المصرية في متاحف إيطاليا اعتراه الخوف من أن يكون في هذه المتاحف ما يخالف التوراة أو الديانة المسيحية، فخلا به ورجا منه ألا ينشر شيئًا يخالفهما إذا اتفق له أن عثر على شيء مخالف. ففعل شامبوليون وأعطى على نفسه عهدًا بالذي يطلبه منه الدوق.

وهنا يقول المدافعون عن شامبوليون أنه أعطى هذا العهد لا لأنه كان ينوي الغش، بل لأنه كان يعتقد بنية حسنة أن جميع الآثار والأوراق العريقة في القدم دمرت بفعل الزمن أو بفعل المغيرين الذين أغاروا على مصر، ولكنا نحن نرى أن شامبوليون في غني عن هذا الدفاع، وأن ليس عليه من حرج في إعطائه ذلك العهد لأنه لم يؤذ به أحدًا ولم يفعل غير أن فتح به الطريق أمامه للبحث العلمي ولتبديد الخرافات من الأذهان.

وسافر شامبوليون إلى تورينو، وقرأ فيها كثيرًا من الكتابات المصرية، ولا سيما سلسلة الملوك الذين حكموا مصر. ثم انتقل إلى روما، و فيها قابله الأب تيستا الذي تقدم ذكره في معركة البروج فرحب به ترحيبًا وصفه شامبوليون نفسه في أحد كتبه فقال: "استقبلني باسطًا ذراعيه وهنأني بأن كنت مرسل الضربة الأخيرة للبروج". ثم قابل شامبوليون البابا ليون الثاني عشر، ووصف هذه المقابلة في أحد كتبه أيضا فقال: " تكرم قداسته بمقابلتي على الرغم من أنه مريض. وكان في حديثه ظاهر العطف والملاطفة. وقد قال لي بلغة فرنسية فصيحة ثلاث مرات متواليات إنني أديت بكشوفي خدمة جميلة، وكبيرة، وطيبة، للديانة ".

ويرى من هذا أن الكنيسة ورجالها كانوا سعداء حقا بأن تخلصوا من كابوس البروج المصرية. ويرى منه أيضًا أن شامبوليون نجح إلى الغاية القصوى في طمأنتهم من ناحيته.

شامبليون المصري:

وبعد هذا النجاح مع الأب تيستا ومع البابا، جعل أعيان روما يتسابقون لمعرفة شامبوليون والحديث معه عن مصر والكتابات المصرية، واقترحوا عليه إلقاء محاضرات فألقاها، وصارت للحديث عن مصر في صالونات روما ومجالسها لذة لا تعادلها لذة. وأطلق على شامبوليون لقب "المصري"، وتنافس الناس في تلقيب علماء آخرين في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا بمثل هذا اللقب فلقب العالم جومار (المصري

بمعنى الكلمة)، ولقب العالم الإنجليزي ينج (**Young**)[٣٦٢] "المصري بالتراكم" ولقب العالمي جوليونوف "المصري بالإلهام"، ولقب العالم الألماني سيفارت "المتشبه بالمصري".

وبينما شامبوليون يتمتع بكل هذا المجد المصري في روما، وبينما الكنيسة مطمئنة إليه، إذا بصيحة خطيرة ترتفع آتية من مدينة تورين. وكان هذا الصائح أمين المتحف فيها. و كانت صيحته "أن دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس التي تقوم عليها الديانة، وتدمر سلطان التوراة".

وفي الوقت نفسه برز الأب ميشيلانج لانسي في روما ينذر بأن العلم المصري الذي يعلمه شامبوليون للناس يخالف التوراة خاصة، وتعاليم الكنيسة على العموم. وكان لانسى هذا قد تعلم اللغتين العربية والعبرية، وعين أستاذًا لهما في إحدى كليات روما، فأثرت صيحته بعض التأثير. وتشجع لانسي بذلك فجعل يطبع كراسات يلعن فيها مصر وعلومها لأنها شوشت الأذهان وأوقعت أوربا في حرب فكرية كانت في غنى عنها، ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة، ووصف الطريقة التي وضعها شامبوليون لقراءة الكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق.

ولكن شامبوليون كان ماهرًا، وكان حريصًا على ألا يفقد ثقة البابا به وبالعلوم المصرية. وكان البابا لا يستطيع أن ينسى أنه هو الذي هدم البروج، فأقنعه شامبوليون بأن صيحة الأب لانسي ناشئة من حسد في نفسه لكاشف الحروف الهيروغليفية التي أدى كشفها إلى هدم البروج. وحينئذ أمر البابا بفصل الأب لانسى من منصبه، فتقدم إليه شامبوليون يطلب العفو عنه ورده إلى منصبه، فأجابه البابا إلى طلبه.

وعلى أثر ذلك كتب سفير فرنسا في روما إلى وزير خارجية الحكومة الفرنسية يصف هذا الفوز الذي فازه شامبوليون فقال: " لقد شافهني البابا بأنه يشكر لشامبليون أعماله لأنها خدمت الديانة خدمة ذات أهمية. ومن قوله لي في ذلك أن شامبوليون أسقط كبرياء تلك الفلسفة التي كانت تزعم أنها عثرت في برج دندرة على تاريخ لخلق الإنسان أقدم من تاريخ الكتب المقدسة ثم استمر السفير فقال: وقد استدعى البابا الأب سيستا وعرف منه جميع البراهين التي يثبت بها شامبوليون أولاً أن برج دندرة صنع في عهد الإمبراطور كلود والإمبراطور نيرون. وثانيًا أنه لا يوجد أي أثر مصري يمكن أن يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ عام قبل ميلاد المسيح أي قبل عصر إبراهيم، وبهذا يبقى نحو ١٨٠٠ سنة لا يمكن الوصول إلى معرفة شيء عنها إلا من الكتب المقدسة".

ومن هذا يستطيع القارئ أن يعرف كيف كانت الكنيسة ترى أن النجدة التي أنجدها بها شامبوليون لهدم البروج كانت ذات قيمة كبيرة. ويستطيع القارئ أن يعرف أيضًا أن مما

---

[٣٦٢] العالم الانجليزي ينج عالج كشف الحروف الهيروغليفية قبل شامبوليون بسنوات قليلة فنجح في أربعة حروف أو خمسة وأخفق في الباقي ، وقد قام في ذلك جدال بينه وبين شامبوليون. والإنجليز يتعصبون له . وقد احتفلوا في لندن سنة ١٩٣٢ بمرور مئة سنة على وفاته ، ووصفوه حينئذ بأنه كاشف الحروف الهيروغليفية . وهذا غير صحيح إلا في أربعة حروف أو خمسة كما تقدم.

كانت تحرص الكنيسة عليه ألا يوجد أي من الآثار المصرية يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ سنة قبل المسيح، لأن هذه هي المدة التي كانت تقدر للزمن الذي بين المسيح وإبراهيم.

شامبليون يشكك في تواريخ التوراة

ورحل شامبوليون بعد ذلك إلى مصر ليرى بعينية ما فيها من الآثار ويقرأ ما على هذه الآثار من الكتابات. وقبل أن نخوض في هذه الرحلة يحسن أن تعرف ماذا كان رأيه الداخلي في اعتقادات الكنيسة. ويكفي بيانًا لهذا أن نقول إنه لما قرأ في متحف تورين بعض الأوراق البردية، ورأى فيها سلسلة الملوك الذين حكموا مصر، وعرف من هذه السلسلة أن عدد الملوك الذين سبقوا الأسرة الثامنة عشرة يزيد على المائتين، وكتب في سنة ١٨٢٥ إلى أخيه شامبوليون فيجاك الأكبر كتابًا يقول فيه: "**... لقد قام الدليل القاطع على أن المصريين كانوا في عصور بعيدة في القدم يعدون أكثر من مائتي ملك حكموا بلادهم قبل أن تحكمها الأسرة الثامنة عشرة... فهذا هو الدستور الذي يجب تقديمه للجمهور، ولكن في قفاز ملون بلون خاص**".

فهو إذن لم يكن يقول في سريرته بقول الكنيسة، وإنما كان يصانعها حتى لا تضع العقبات في سبيله. وكان يرى أن قدم المدنية المصرية إلى أبعد مما فهمته الكنيسة من التوراة، هو الدستور الذي يجب تقديمه للجمهور، ولكن في قفاز ملون بلون خاص.

ومن ألطف ما يذكر من مصانعة شامبوليون للكنيسة أنه لما كان على وشك الرحيل إلى مصر خاف الدوق دى بلاكاس أن تؤدي رحلته هذه إلى ما ينافي عقيدة الكنيسة، فكتب إليه في ٦ من يوليه سنة ١٨٢٦ يذكره بأن خصومه مازالوا يدعون أن العلوم المصرية تهدم الديانة. قال الدوق:" **حينما أبلغني الدوق دى دودوفيل القرار الصادر بشأنك لم يخف عني المعارضة التي كان عليه أن يقاومها لكي يحصل لك على هذا القرار. فسيكون عليك أنت أن تكذب، بالأدلة المادية لا بالأقوال، ما حاول ذوو النيات السيئة أن يحيطوا به عملك من ناحية، والمبادئ السياسية التي تدين بها من ناحية أخرى**".

فرد عليه شامبوليون في ٢٥من يوليه من السنة نفسها بكتاب قال فيه: " **اسمح لي يا سيدى الدوق أن أقول لك إنني سأسارع إلى استخدام كل الوسائل التي ستعرض لي لكي أهدم ما حاول ذوو النيات السيئة أن يذيعوه لغرض لا أريد أن أبحث فيه، حول النتائج التي يؤدي إليها كشفي للحروف الهيروغليفية بإزاء الديانة، ثم حول مبادئي السياسية. فأما الحروف الهيروغليفية فأمرها تاريخي محض ولن يكون لها مساس قط بالاعتقاد الديني. وأما مبادئي السياسية فقد أرشدتني من تلقاء نفسها إلى ما يجب عليّ احترامه وتأييده، حتى من قبل أن يقوم في نفسي شعور الاعتراف بالجميل لديه فيجعل ذلك الواجب أعظم قوة وأشد تقديسًا. فسأكون دائمًا عند ما يمليه هذا الشعور بلا أدني تحفظ** "

ونعود بعد ذلك إلى رحلة شامبوليون إلى مصر[٣٦٣] ، فنقول إنه طاف فيها، وقرأ الكتابات التي على آثارها، ولا يهمنا هنا أن نعرض لطوافه هذا إلا من ناحية واحدة هي التي تمس الكنيسة وعقيدتها في عمر الإنسان[٣٦٤]. فنقول إنه لما طالت تأملاته في الآثار والكتابات التي عليها، لم يبق لديه شك في أنه أمام مئات من البراهين كل واحد منها يهدم عقيدة الكنيسة، ويثبت أن الحضارة المصرية أقدم من التاريخ الذي ترى الكنيسة أن التوراة حددته لخلق الإنسان، ولنوح، ولإبراهيم. ولكنه شاور نفسه في هل يعلن هذه الحقيقة أم يسكت عليها؟ فرأى بعد تفكير عميق أن يطوي جوانحه على ما فيها، وحينئذ كتب إلى أخيه في ٢٠من مارس سنة ١٨٢٩ يقول: " **أقول لك، فيما بيني وبينك، إنني حصلت على نتائج، هي مربكة إلى الحد الأقصى من وجوه عامة، ولهذا يجب إبقاؤها في الكتمان وهذه النتائج لم تخالف في شيء ماكنت أتوقعه وما كان يتوقعه معي " فوريي"، وقد جدت أمامي أشياء أخرى كثيرة كانت تتردد في نفسي ترددًا مبهمًا فصارت الآن عندي من الحقائق التي لا يتطرق الشك إليها** ".

لغز وفاة شامبليون:

ثم عاد شامبوليون إلى فرنسا، وكان من المنتظر أن يكتب تاريخًا لمصر فلم يكتبه، وعاجله الموت في سنة ١٨٣٢.

في السادس من مارس/آذار عام ١٨٣٢ في ساحة مقابر "بير لاشيز" في باريس، أقيمت مراسم جنازة مهيبة لأحد أهم علماء تاريخ مصر القديم، الفرنسي جان فرانسوا شامبليون.

وقبل أربع سنوات من هذا اليوم، كتب شامبليون رسالة إلى شقيقه الأكبر من مصر قال فيها: "إن كياني كله لمصر، وهي لي كل شيء"، لخّص فيها عشقًا خاصًا ومتلازمة جمعت بينه وبين مصر، في حياته عبر دراسة لغتها وتاريخها العريق، وعند موته عندما ربط البعض سبب وفاته بزيارته لها وتأثير مناخها على صحته.

---

[٣٦٣] لما جاء شامبوليون إلى مصر كان من الضروري له أن يستأذن والي مصر حينذاك محمد علي باشا الكبير في زيارة آثارها القديمة ، فسعى حتي قابله وأخذ منه الإذن الذي يريده . وقد كتب بعد ذلك إلى أخيه شامبوليون فيجاك يصف هذه المقابلة " نزلنا في الدرج الكبير للديوان ، ثم دخلنا قاعة كبيرة مملوءة بالموظفين ، ومنها أدخلنا القاعة التي كان صاحب السمو (يقصد محمد علي باشا) فيها . وكان جالسًا في إحدى زوايا القاعة ، بين نافذتين ، وفي ملابس بسيطة ، وفي يده « شبق » مطعم بالماس . وقد بدت لي قامته عادية ، وبدا لي في مجموع مظهره ما يبعث انشراحاً يدعو إلى الغرابة من عظيم مثله مشغول بأعمال عظيمة. وعيناه تتقدان ذكاء ولحيته بيضاء ، جميلة ، تغطي صدره . فبعد أن سألنا عن أحوالنا و رحب بنا ، ثم سألني عن خطتي في رحلتي فشرحتها له بإيجاز ، وطلبت الفرمانات التي لابد لي منها ، فمنحني إياها في التو ، وأعطاني اثنين من قواصيه لمرافقتي في كل مكان أذهب اليه . وبعد ذلك أمر لنا بالقهوة فشربناها ، ثم استاذنا من سموه في الانصراف، فودعنا مسلما علينا بيده ، مظهرًا لنا كثيرًا من العطف."

وطلب محمد علي باشا من شامبوليون أن يقدم له مذكرة عن تاريخ مصر القديم وعن الوسيلة التي يقترحها للمحافظة على الآثار المصرية القديمة يقدمها له .

[٣٦٤] تم تناول تفاصيل هذه الرحلة في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وفي رسالته الأخيرة مودعًا أرض مصر إلى الأبد من مدينة الإسكندرية بتاريخ ٢٨ من نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٢٩ قال: "أخيرًا سمح لي آمون العظيم بتوديع أرضه المقدسة، سأغادر مصر في الثاني أو الثالث من ديسمبر بعد أن غمرني أهلها القدامى والمعاصرون بكل جميل ومعروف... نحن جميعًا في صحة جيدة، وأشعر بمزيد من القوة لمجابهة الزوابع والعواصف التي ستعترضنا في أعالي البحار خلال هذا الشهر من الملاحة... نحن مستعدون لتحمل ما هو أعتى من الأمواج الهائجة في سبيل رؤية فرنسا من جديد".

عاد شامبليون إلى باريس، وحصل على عضوية أكاديمية النقوش و الآداب في مايو/ أيار سنة ١٨٣٠، وعُين في منصب أستاذ في "الكوليج دى فرانس" سنة ١٨٣١، لكن اعتلال صحته وتدهورها جعله لم يُلق سوى محاضرات معدودة في الكرسي الذي أنشئ خصيصًا له في دراسات تاريخ مصر القديم، ثم التقاعد مبكرًا.

كثر الجدل بشأن أسباب وفاة شامبليون، ويقول المؤرخ الفرنسي جان لاكوتور في دراسته "شامبليون حياة من نور" إن مرض "السُل الرئوي كان أهم الأسباب جميعًا، فضلاً عن هشاشة رئته المعروفة منذ فترة طويلة".

ويضيف لاكوتور: "إن محنة المناخ القاسي للغاية التي فرضت عليه في بداية عام ١٨٣٠ لدى عودته من مصر (بعد مروره من جو الإسكندرية الخانق وتعرضه لثلج محجر تولون الصحي في فرنسا في شتاء لا يمكن تصور قسوته في ذلك العام، والأكثر برودة لنصف قرن كامل) حول الوهن الصحي إلى مرض قاتل".

المؤرخ الفرنسي جان لاكوتور قال إن مرض السُل الرئوي كان أهم الأسباب التي أدت إلى وفاة شامبليون

رفض المتخصصون المعاصرون لشامبليون اعتبار حالات الإغماء التي كانت تطرحه أرضًا من حين لآخر، تشخيصا إكلينيكيا لإصابته بمرض السُل، فقد كان مريضًا بمرض السكري، فضلا عن أزمات مرض النقرس التي عصفت بالسبع سنوات الأخيرة من حياته، حسبما أشارت التقارير الطبية وقتها.

كما توجد أسباب عديدة دعت إلى الاعتقاد بأن فترة إقامته في مصر، وظروفها المناخية، وشربه من ماء النيل، وما تناوله من طعام لم تكن غريبة عن التدهور المفاجئ لصحته، وفقا للاكوتور.

وقدم الأطباء الفرنسيون، كروفيليه ودبروسيه وروبير، تشخيصًا لحالة شامبليون الصحية جاء فيه: "مرض معقد للغاية، حالة وهن بسبب مرض السكري، البقاء في الحجر الصحي، الانفعالات مع أحداث الثورة، الإرهاق المستمر والإحساس الدائم بأن الموت يقترب منه، تعد جميعها أسبابًا معنوية لها آثار كبيرة على مريض السكري، فضلاً عن التئام الجروح السيء الذي يساعد في انتشار مرض السُل الرئوي".

وأضافوا أن "تفاقُم مرض النقرس، والمحن التي واجهت شامبليون ورحلته المرهقة (إلى مصر) والأجواء السيئة داخل مقابر ملوك (الفراعنة) وشرب كميات كبيرة من ماء

النيل، كل ذلك تسبب في إصابته بمرض الكبد الذي جرى تشخصيه متأخرًا جدًا، وأوصله إلى القبر".
ظل هذا الاعتقاد شائعًا منذ وفاة شامبليون حتى طرح هوتان أشرفيان، الطبيب المتخصص في جامعة كوليدج لندن الملكية، فرضية جديدة نشرتها دورية "الفسيولوجيا العصبية السريرية" تشير إلى أن وفاة شامبليون كانت بسبب إصابته بأعراض مرض عصبي ناجم عن خلل في الخلايا العصبية الحركية، وخلايا الدماغ والحبل الشوكي.
ويقول أشرفيان، بحسب موقع "سيانس إيتافينير" الفرنسي المعني بشؤون العلوم والصحة: "موت شامبليون مبكرًا يعزى إلى إصابته بالتعب والإرهاق الشديدين بعد زيارة مصر، ما يرجح أن سبب الوفاة ناجم عن إصابته بمرض التصلب الضموري الجانبي".
ويستند أشرفيان إلى أنه خلال فترة إقامة شامبليون في مصر، لا توجد أي إشارة في المراسلات بشأن إصابته بمرض ليمفاوي أو عدوى من أي نوع، لكنه شكا بعد عودته إلى فرنسا من وهن العضلات، ثم شلل الأطراف وصعوبة في التنفس، لازمته حتى الوفاة.
أوصى شامبليون بدفنه في مقابر بير لاشيز في باريس و أقيمت بجوار قبره مسلة على الطراز المصري وبعد أن مات شامبوليون مضت فترة هدوء ظن فيها كثيرون أن الأسرار التي طواها الموت بطيه لن تعرف.

قصص منذ ٤ آلاف سنة:



ولكن اسم إيمانويل دي روجي[٣٦٥]، **(Eminanuel de Rouge)** سطع في سنة ١٨٤٦ عالمًا كبيرًا من علماء المصرولوجيا. وكانت الحقائق العلمية قد تقدمت وكانت عقيدة الجماهير في أرقام الكنيسة قد بدأت تتزعزع، فلم يتردد دى روجي في أن يذيع في سنة ١٨٦٣ ترجمة لبعض أوراق البردي التي في متحف برلين وأن يجعل بعض عنوانها "قصصًا منذ ٤ آلاف سنة". فلما ظهرت هذه الترجمة هاج قساوسة الكنيسة وجعل بعضهم يكتبون إليه يتهمونه بالمروق من الدين فرد على واحد منهم في ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٦٣ بكتاب قال فيه: **" لقد وجدت في الإنجيل أسبابًا قوية الاعتقاد بتقديس المسيح، وهي في نظري أسباب كافية، فلست أجد معها محلاً للبحث عن**

[٣٦٥] كان عضوًا في وسام جوقة الشرف ، وعضوًا في معهد فرنسا ، وأمين متحف اللوفر المصري (١٨٤٩) ، ومستشار الدولة (١٨٥٤) ، وأستاذًا للآثار المصرية في كوليج دو فرانس (١٨٦٤) . كتب عدة كتب عن مصر وتاريخها. - تقام تماثيل نصفية للفيكونت إيمانويل في متحف اللوفر ومتحف القاهرة في مصر

أسباب أخرى. ولكن العلم يستطيع أن يسلك طريقه من غير أن يمس عقيدتي المسيحية".
وكتب أيضا فقال: " **يستخدم بعضهم كتابات المصريين القدماء من غير أن يفهموها، وهم لذلك يظنون أنهم وجدوا فيها قصصًا من التوراة مشوهة تشويها مكشوفا[٣٦٦]. فالنقد السليم قد قضى منذ زمن طويل على المؤلفات التي من هذا النوع والتي قامت على أساس الرغبة في مسايرة الأوهام. وهنالك غير هؤلاء قوم لا يترددون في أن ينكروا صراحة قواعد علمنا[٣٦٧] ، ويقولوا إنه وهم أو أقل.**
وبعد أن يتخلصوا بهذه الطريقة من هذا العنصر المربك لهم يؤكدون بجرأة أنه لا يوجد في مصر أي بناء أثرى يمكن أن يكون أقدم من سنة ١٠١٢ ق م [٣٦٨]. فعلى هؤلاء نرد بالكلمة التي كتبها المصرولوجي الكبير (لي بييج رينوف) " ما أبعد الجاهل عن سبيل العذر في جهله إذا كانت الوسائل لمحو هذا الجهل في متناول يده " ثم أشار دى روجى إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام التوراة سور لا يصح تخطيه، ثم قال: " **إن مبادئنا لا تسمح لنا بأن نتهم المسيحية بأنها تتزعزع أركانها من جراء تقدم علم أيا كان ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية، مهما يكن القدم الذي تنقلنا إليه ستأخذ مكانها في السلم الحديث، بجانب العلم الذي يبحث في القوانين الخاصة بسير الكواكب وبجانب العلم الذي يبحث في كيفية تكوين طبقات الأرض، من غير أن يكون ذلك مسيئًا إلى الإيمان المسيحي".**
وبينما كانت هذه الصيحة تدوي في فرنسا كانت صيحة مثلها تدوي في إنجلترا على يد لي بيج رينوف، وكان لبسيوس قد حمل علم المصرلوجية في ألمانيا، ثم ظهر لينورمان في فرنسها في سنة ١٨٨٠ فعزز الحملة. وحينئذ لم تقو عقيدة الكنيسة على الثبات فانهارت البقية الباقية منها.

الكنيسة تعترف بخطئها:

ولما بلغ الأمر هذا الحد عادت الكنيسة إلى التوراة ترجع البصر فيها، ففكرت و وفكرت و ثم اهتدت فجأة إلى أنها أخطأت في اعتبارها تلك الأرقام التي فيها مقدسة وفي استخراجها منها الحساب الذي استخرجته، ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التي بنت الكنيسة عليها نظريتها في هذا الخطأ، فيكفي أن نذكر منها سببين:
الأول: أن كل نسخة من نسخ التوراة الثلاثة اختلفت الأرقام فيها عن الأخرى في جملتها وفي تفصيلاتها، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدسة.

[٣٦٦] لعل دى روجى يشير بذلك إلى الأب جيرين دى، روشى الذي تقدم أنه زعم أن الملك "مينا" هو نبي الله نوح ، وأن ملوك مصر الدين ذكرهم مانيتون هم أولاد نوح الثلاثة ، وأن الفرعون موريس هو مصرايم حفيد نوح .
[٣٦٧] يريد بقوله " علمنا "علم الآثار المصرية
[٣٦٨] يشير بذلك الى كاتب إجليزي كان اسمه كرنوال وكان قد وضع كتاباً في سنة ١٨٦٢ ذهب فيه هذا المذهب.

والثاني: أن التوراة حينما تقول إن فلانًا ولد فلانًا لا يكون مرادها أن الثاني ولد الأول من غير أن يكون بينهما جيل أو أجيال، بل المراد فقط أن الثاني نسل للأول بحيث قد يكون حفيدًا له أو أبعد من حفيد، وإذن يكون من الخطأِ أن تُجمع الأرقام التي في التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذي انقضى بين آدم ونوح، ثم بين نوح وإبراهيم، ثم بين ابراهيم وعيسى، ثم ليقال في النهاية أن هذا هو الزمن الذي انقضي على خلق الإنسان.

وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصري. وبه أيضا أعلنت أنها كانت على خطأِ في تحديدها السنين التي كانت تحددها لخلق الانسان. وبه أخيرًا اعترفت بهزيمتها أمام الآثار المصرية. ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوروبا كما رأيته من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠.

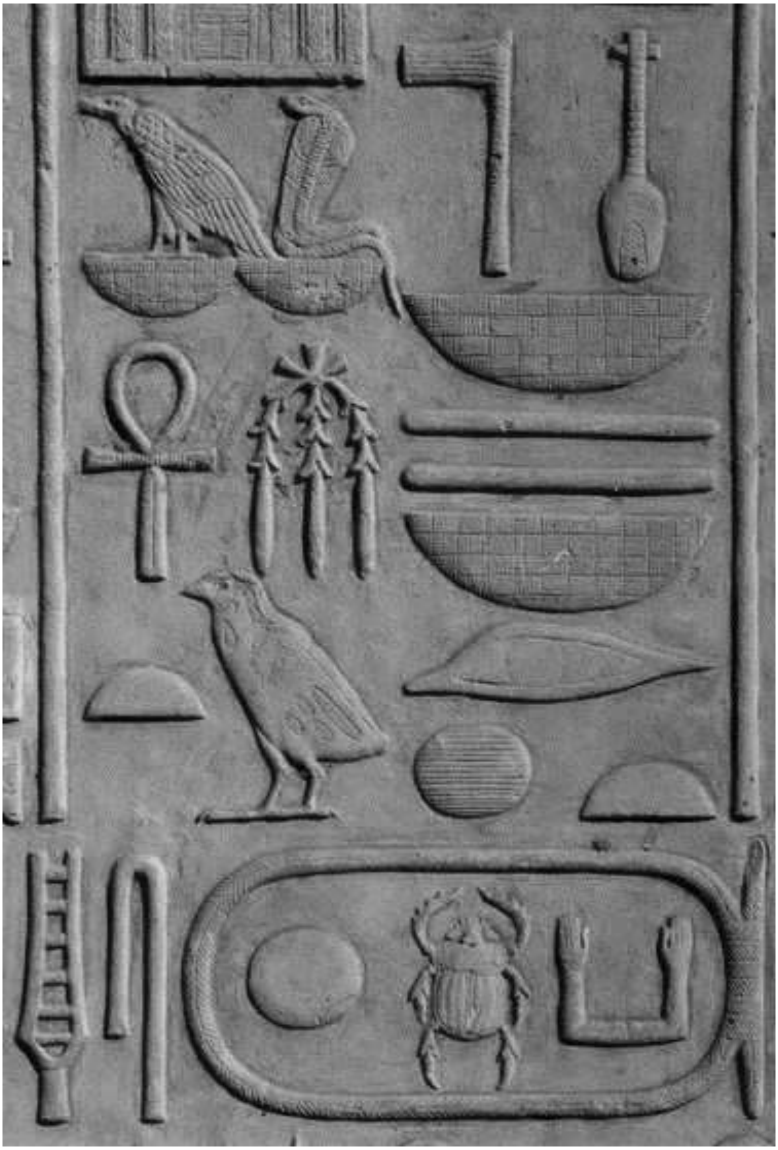
ونقول بعد ذلك، إن العلم الحديث دل على أن وجود الانسان على الأرض يرجع إلى بضع عشرات الألوف من السنين. فبعضهم يقدر هذه المدة بنحو أربعين ألف سنة، والبعض الآخر يقدرها بنحو خمسين ألف سنة، وهناك من يقدرها بأكثر"[٣٦٩].

انتهت المعركة وفاز علم الآثار المصري بكل ما فيه من حقائق غيرت وجه التاريخ قديمًا وحديثًا.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

[٣٦٩] على هامش التاريخ المصري القديم – عبد القادر حمزة – إصدارات كتاب الشعب رقم ١١ – طبعة ١٩٥٧

جذور اللغة المصرية القديمة



"أتنبأ مقدمًا أن الدهشة ستعم ذات يوم مجال البحث اللغوي لدى تبين مدى عمق الوشائج العائلية الوثيقة التي تربط اللغة المصرية بأخواتها الساميات".

هينريش بروجش
١٨٦٧

لم تتوقف المحاولات الخارجية منذ القدم وحتى لحظة قراءتك لهذا الكتاب لفصل الحضارة المصرية بكل مكوناتها عما جاورها من أمم وشعوب وخاصة عن محيطها العربي بل وامتدت هذه المحاولات ليروج لها بعض أبناء الداخل المصري.

يقول أرنست دوبلهوفر في كتابه "رموز ومعجزات" في معرض حديثه عن غموض النقوش المصرية القديمة: **"... فمصر، المركز الأقدم للحضارة، والتي ترتبط بالعرب بآلاف من الخيوط نراها تنفصل في وقت مبكر نسبيًا عن المجلس المسكوني المسيحي وعن الاتحاد الذي أقامته الإمبراطورية الرومانية. فمنذ عهد الإمبراطور الروماني الشرقي جستنيان (٥٢٧-٥٦٥) انشق المسيحيون المصريون الناطقون بالقبطية بصورة جماعية عن الكنيسة الغربية المالكية وانتقلوا إلى الاعتقاد بوحدة الجسد حيث يسيطر الاعتقاد القائل بأولوية الطبيعة اللاهوتية للمسيح أما (طبيعته الناسوتية فكانوا ينظرون إليها على أنها ظاهرية) وبذلك قطع أقوى خيط كان يربط مصر بالغرب. ولهذا ليس غريبًا أن العرب المسلمين الذين هاجموا مصر سنة ٦٣٨ م بقيادة عمرو، قائد جيوش الخليفة عمر والذين ضموها إلى دولة العرب والإسلام العالمية، قد تمكنوا دون جهد من إخضاع البلاد التي كانت الخصومات الدينية قد مزقتها وخضبت ترابها دماء الحروب الفارسية السابقة وانفصلت عن الغرب الروماني. لقد سقطت مصر (شأنها شأن سوريا وما بين النهرين) في أيدي العرب كثمرة سقطت من الشجرة، وعندما هوت بقايا مكتبة الإسكندرية ذات الشهرة أثناء فتح الإسكندرية، عاصمة الحكماء القديمة وتحولت حُطامًا، انسدل بين الشرق والغرب ستار كثيف لا يمكن اختراقه. فكل نشاط هادف إلى البحث - ولم يكن ذاك إلا نشاطًا زهيدًا، وكل محاولة للنفاذ نحو أعماق البلاد واستنساخ النقوش، كانت تصطدم بمجموعها بخطورة مواجهة الجمهور المتعصب....."**[٣٧٠]

ليست هذه النغمة جديدة في كثير من الأدبيات الأوروبية التي تحاول وضع ستار بين العرب وبين مصر وسوريا وغيرهما من الأقطار العربية وتتباكى على هاتين المقاطعتين الرومانيتين اللتين كان فتحهما في واقع الحال تحريرًا لهما من السيطرة الرومانية والفارسية، أما الخرافة التي تتهم العرب بتدمير مكتبة الإسكندرية فلم تعد قضية تصمد حتى للمناقشة.

جذور الهيروغليفية:

"واعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغت الستين مهدت لي سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب

[٣٧٠] أرنست دوبلهوفر في كتابه "رموز ومعجزات" – ص ٤٩ النسخة المعربة.

مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد"[٣٧١]- أحمد كمال باشا

"عندما كنتُ أتعلّم اللغة المصرية القديمة في جامعة القاهرة، كنت أستعين في معظم الأحايين بكتاب 'النحو المصري القديم' من تأليف جاردنر، وكنتُ أرى بوضوح أن هناك أوجه شبه كثيرة بين هذه اللغة وبين اللغة العربية، وكانت نتيجة هذا الشعور أني انتهيتُ مع نفسي إلى أن اللغة المصرية القديمة إنّما يجب عند دراستها في مصر أن تُقارَن بالعربية التي حلّت محلّها عندنا وأنْ تُقَرَّب منها ومن قواعدها". عبد المحسن بكير[٣٧٢]

مدخل:

شهد التاريخ القريب والبعيد أحداثًا بيّنة بذاتها، مثل الاعتداء على حريات الشعوب وأراضيها وثرواتها. ولكنّه شهد أيضًا أحداثَ اعتداءاتٍ مماثلة في مجالاتٍ أخرى؛ اعتداءات تظلّ خفيّة في أسبابها ونتائجها، أو لا تلفت نظرَ إلّا قلّة من الناس. من هذه الأحداث ما تتعرّض له هويّةُ لغةِ شعبٍ من الشعوب من تزوير وتلفيق يُبعدانها عن الشجرة التي تنتمي إليها، ويلحقانها بجذعٍ غريب عنها مكانًا وزمانًا، وما تتعرض له ثقافة شعب من الشعوب حين يتمّ إسقاط فترةٍ زمنية طويلة من تاريخها شهدت مساهمتها في هذا الجانب الحضاري أو ذاك.

في كلا الحالين، نحن أمام محْوٍ للهوية، سواء أكانت لغوية أو ثقافية، وطمسٍ لملامحَ سيكون له أثرٌ بالغ على كل المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، يتمثل في خسائر معنوية ومادية لا يمكن تعويضها في أغلب الأحيان. وأيُّ متابعٍ يقظٍ لأحداثٍ من هذا النوع لمدّة طويلة نسبيًا، سيكتشف كم هي مُدمِّرةٌ أنماطُ المحوِ هذه، والتي تكاد تتفوق على المحو الجغرافي لوطن، أو استبدال اسمه باسمٍ آخر. في المقابل، نجد أن التاريخ يشهد، أحيانًا، أحداثًا معاكسة تتمثّل في استعادة الهويات المفقودة ولو بعد حين، وكثيرًا ما تشهد الأحداث في هذا السياق كفاحًا وتضحيات يبذلها الشعبُ الذي أُبعد عن هويته اللغوية، أو سُلبت منه، أو أُبعد عن منجزات أسلافه الثقافية، أو يبذلها أفرادٌ منه، من أجل استعادة أزمنته المفقودة من حساب تاريخه، أو استعادة صلاتٍ لغوية له بلغته الأمّ التي محَتْها أفانينٌ من المطامع السياسية أو الاقتصادية. ويماثل هذا الكفاح، وتعادل هذه التضحيات، ما يبذله أبناء هذا الشعب في سبيل تحرير أرضهم ومواردها من قبضة من يعتدي عليها في سياق آخر.

---

[٣٧١] أحمد كمال باشا - محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين الناصرية سنة ١٩١٤

[٣٧٢] عبد المحسن بكير - قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي – ص أ (تصدير)

لغة تعود إلى أصلها المفقود

اللغة المعنيّة هنا، هي ما يُطلق عليه اللغة المصرية القديمة، المكتوبة بالأبجدية المسمّاة ـ حسب اللفظ اليوناني ـ باسم "الهيروغليفية". فهذه اللغة تعرّضت لمحو هويتها العربية حتى بات أهلُها أنفسهم يجهلون عروبتها، وأطلق عليها الباحثون الأجانب اسم "اللغة الفرعونية"، وشكّكوا زمنًا بهويّتها الحقيقية، كما شكّكوا تبعًا لذلك بعلاقات بلدٍ مثل مصر بمحيطه العربي، وخاصة بجزيرة العرب، وأمعنوا في هذا إلى درجة إشاعة القول بأن مصر تنتمي إلى أوروبا عقلاً ومصيرًا ومصلحة، ولا تنتمي إلى محيطها الطبيعي. وشاعت أمثال هذه الأقوال إلى درجة أن أصبحت فيها من المسلّمات التي لا تقبل النقاش. بالطبع، كان لمحو الهوية هذا آثار سلبية على كلّ صعيد، يمكن التعرّف عليها في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، إلا أنّنا سنقصر حديثنا هنا على الجهود التي بذلها علماء مصريون كان لهم الفضل في الكشف عن هذا المحو الذي تعرّضت له هويّة لغتهم، وعلى رأسهم رائدٌ لا يَعرف عن منجزاته وكفاحه إلا القليل من المختصين، هو أحمد كمال باشا (١٨٥١- ١٩٢٣).

اعتقد كمال في البداية أن اللغة العربية هي أصل اللغة المصرية القديمة لما بينهما من توافق في كثير من الصور[٣٧٣] لكن اكتشاف نقش محفور على جدران معبد الدير البحري بالأقصر جعله يغير فكره الأول وينقلب ١٨٠ درجة، حتى صار يعتقد بالعكس وهو أن المصرية هي أصل اللغة العربية، هذا رغم أن كلماته في نهاية حياته كانت تشير لبعض التردد في حسم موقفه، ولتفضيله الاكتفاء باعتبار أن الاثنين من أصل واحد مشترك لا يعلم بالتعيين أيهما الأصل.. أو من عرقين اشتبكت وشائجهما من ألوف السنين ثم افترقا وعادا فاتصلا بعد الفتح الإسلامي[٣٧٤]..

ويؤكد جمال حمدان ما ذهب إليه أحمد كمال إذ يقول في كتابه شخصية مصر "**فرعونية هي بالجد، لكنها عربية بالأب. غير أن كلا الأب والجد من أصل مشترك ومن جد أعلى واحد. فعلاقات القرابة والنسب متبادلة وسابقة للإسلام بل وللتاريخ، وما كان الإسلام والتعريب إلا إعادة توكيد وتكثيف وتقريب. ولهذا فان التعريب، وإن كان أهم وأخطر انقطاع في الاستمرارية المصرية، إلا انه لا يمثل ازدواجية بل ثنائية. فلا تعارض ولا استقطاب بين المصرية والعربية، وإنما هما اللحمة والسداة في نسيج قومي واحد**"[٣٧٥].

ويستطرد جمال حمدان عند الحديث عن تعريب بعض أسماء الأماكن في مصر قديمًا وحديثًا عاقدًا المقارنة بين نطقها في المصرية القديمة و القبطية و اليونانية والعربية حيث يقول: "**فمن المعروف مثلاً أن اليونانيون غيروا معظم الأسماء المصرية**

[٣٧٣] مجلة المجمع العلمي العربي – ص ٣٠٤ - ٣٠٥

[٣٧٤] المنار: الجزء ٨ مجلد ٢٤ اغسطس – ص ٦٣٧

[٣٧٥] جمال حمدان شخصية مصر – الجزء الاول – ص ٤٥

الفرعونية إما إلى أشكال محرفة على لسانهم أو إلى أسماء جديدة تمامًا بلغتهم، كما سنرى بعد قليل.

ولكن هذه وتلك جميعًا (فيما عدا القلة التي احتفظت بالجذر المصري الصميم) انقرضت وعادت الأسماء المصرية لتفرض نفسها كالأعلام المتوطنة، أما الرومان فقد استعاروا الأسماء الاغريقية دون تأثير تقريبًا، وهو ما يشير مرة أخرى إلى فارق النوع بين الاستعمارين، هذا استيطاني إلى حد بعيد وهذا عسكري بحت. من هنا فإن الأسماء الإغريقية والرومانية الباقية ضئيلة للغاية، يتركز معظمها في منطقة الإسكندرية وفي الفيوم، بينما لا أثر البتة للمؤثرات الآشورية أو الفارسية في القديم أو حتى التركية في الحديث.

وهكذا في المحصلة، تستقطب أسماء الأماكن المصرية الحية حاليًا في قطبين اثنين أساسًا: قطب سالب متنح فرعوني، وقطب موجب سائل عربى، ولقد يتم تحريف الأسماء الفرعونية إلى العربية من خلال الأشكال الاغريقية، ولكن هذا قلة معدودة، والأكثر شيوعًا هو أن يتم ذلك من خلال الأشكال القبطية التي ليست إلا صورة معدلة من الأصل الفرعوني، وبهذا تعد القبطية وحدها حلقة الوصل الحقيقية بين القطبين الأساسيين الفرعوني والعربي. ويبقى أن من خلف الواجهة العربية السائدة بين أسماء أماكننا تكمن أو تبرز القاعدة أو الأرضية الفرعونية المتنحية، والمهم في هذه الثنائية الأساسية مغزاها الواضح من حيث الاستمرارية عبر الأجيال والعصور ومن حيث قدم الحلة والاستقرار المصري. والواقع أن بعضًا من الأسماء التي تبدو لنا لأول وهلة عربية بحتة، ليست إلا تعريبًا لجذور فرعونية، مثال ذلك. قوص والقوصية، وقنا وأبو شوشة.. إلخ" [٣٧٦]".

ثم نراه يفرد جدولاً للمقارنة بين أسماء الأماكن المصرية في اللغات الأربع ليخلص لنتيجة مفادها أن اللغات المصرية القديمة: "الخط الهيروغليفي والخط القبطي" واللغة العربية يظهرون كروافد ينبعون من نفس النهر أما اليونانية فتظهر كنهر غريب لا يمت للغات الثلاث بأي صلة ولو من بعيد حيث يقول: **" فيما عدا هذه الأسماء الإقليمية العامة، فلعل من الأفضل أن نوجز تسلسل أو تتابع الاشتقاق أو التحريف في أسماء المدن في شكل جدول مركز يعطي الأصل الفرعوني فالتعديل القبطى فالتغيير الإغريقي وأخيرًا التحريف العربي، ومن هذا الجدول، الذي يجرى مرتبًا بحسب الموقع من الجنوب إلى الشمال بعامة، نستطيع أن ترى بسهولة تامة الاستمرارية الأساسية والمثيرة في الأسماء بين الماضي والحاضر ورغم كل التحريفات والتصحيفات، إلا أنه سيلاحظ أن هذه الظاهرة أوضح وأكثر حدوثًا في الجنوب وتقل كلما اتجهنا شمالاً على مستوى البلد، فهي أكثر انتشارا في جنوب الصعيد عنه في شماله، وفي الصعيد ككل عن الدلتا ككل، وفي الدلتا تكاد تقتصر على أقصى حوافها وأطرافها الجنوبية والشرقية والغربية بينما تقل في قلبها الداخلي.**

[٣٧٦] جمال حمدان شخصية مصر – الجزء الرابع – ص ٥٦٩

وفيما عدا هذا فإن من الواضح تمامًا كيف يأتي النهر الإغريقي في الجدول كرافد غريب دخيل تمامًا مثبت الصلة مقطوع النسب بما قبله وما بعده، فُرِضَ ليسقط، بينما تترابط الحلقات الثلاث: الفرعونية والقبطية والعربية في سلسلة واحدة متداعية، والاستثناء الإغريقي الوحيد يكاد يقتصر على حالة أبوتيج (أبوتيكا) في الصعيد (تعني المخزن أو المستودع)، ونقراش (نوقراطيس) إلى جانب بعض الأسماء في الفيوم، فضلاً بالطبع عن الإسكندرية نفسها وضواحيها، ومعظم هذه الحالات هي مدن جديدة من تأسيس الإغريق أنفسهم.

ثم نراه يفرد جدولاً شمل الصفحات من ٥٧١ الي ٥٧٥ ليثبت صحة نظريته وكيف أن المصرية القديمة والعربية ينبعان من منبع واحد وكيف أن اليونانية لغة غريبة عنهما وهذا ما سنعرضه في الصفحات التالية.

العربى	القبطى	الفرعونى	الاغريقى
الصعيد			
أبو سمبل		Ibsambul	
أسوان	Suan	سونه	Syene
(جزيرة) فيلة	pilakh	Pi-lak	Philae
إدفو	Atbo	Tbot	Appollonopolis M.
الكاب		Nekhab	Eileithyiaspolis
الكوم الأحمر (طينة)		Nekhen	Hierakonpolis
إسنا	Sne	Te-snet	Latopolis
أصفون (المطاعنة)		Hesfun	Asphynis
أرمنت		Per-Mont	Hermonthis
الأقصر		weset	Thebes (Diospolis M.)
قوص			Apollonopolis P.
قفط		Kebtoyew	Koptos
قنا			Kainepolis
دندرة		Enet-ntore	Tentyre
هو			Diospolis Parva
فاو	Phbow		
العرابة المدفونة		Abotu	Abydos
أبو شوشة		Per-zoz	
أبو طشت (أبو تشت)		بوتشت	
أخميم	Shmin	Khente-Min	Panopolis, Chemmis
قاو			Antaeopolis
كوم إشقاو			Aphroditespolis
أبو تيج			Apotheka
أسيوط	سيوط	Syout	Lycopolis

Cussa	Gosu		القوصية
	إخيتاتون	باويت	باويط
			تل العمارنة
		ملى نت ون	ملوى
		رودت	الروضة
Hermopolis	Kais	Shmun	الأشمونين
انتنوبوليس		إنصنا	الشيخ عبادة
		دميت	الشيخ تمى
		منعاوت	المنيا
Cymopolis		تاهناور	طهنا
	Kais		القيس
Heracleopolis M.	Henen-nesut	Hnes	إهناسيا المدينة
Aphroditopolis	Tep-yeh	Petpeh	أطفيح
Ptolemais Hormos?	Le-hone		اللاهون
Arsinoee	Phiom, Te-she		الفيوم
Moeris	Me(r) wer, Mwer		بركة قارون
Crocodilopolis, Arsinoe	Shedet		مدينة الفيوم
Psenuris			سنورس
Philadelphia			الربعيات
	Sokar		سقارة
Memphis	Men-mofer	Menfe	ميت رهينة – البدرشين
	Men-nefru-Mire		طره
Troja	T-royu, To-ro-uu		أبوصير
Busiris	Bu-usir		

شرق الدلتا

Athribis			كوم أتريب
Bubastis	Per-Baste		تل بسطة

وجمال حمدان كما أحمد كمال كلاهما لا يعتقدا فقط بوحدة اللغة التي انبثقت منها المصرية القديمة والعربية ولكن يؤصلا أيضا أن سبب ذلك هو وحدة الجنس الذي جمع بين العرب وقدماء المصريين وطرح جمال حمدان سؤالاً جاوب عليه عن عروبة مصر قديمًا حيث يقول: " **أين الحقيقة إذن في عروبة مصر ؟ أين هي من المصرية القديمة[٣٧٧] ؟ أهناك حقًا فارق بين نوع العروبة شرق السويس و غربها كما يزعم بعض الدُّعاة؟ و ثمة عدة حقائق. فإذا بدأنا من البداية، فإن أول ما يجب هنا هو أن الفرشة الجنسية الأساسية التي كانت تغطى نطاق الصحاري في العالم القديم من المحيط إلى الخليج كانت تنتمي إلى أصل واحد متوسطى، وفي العصر المطير، حين كانت الصحراء سفانا يسودها صيد الحجري القديم كانت كثافة السكان مخلخلة جدا ولكنها غطائية عالمية عميمة بصفة عامة. وفي هذا الاطار كانت الحركة والهجرة والترحل ظاهرة دائمة، ومن ثم كان الاختلاط الجنسي أساسيًا ولا محل لعزلة أو نقاوة ما.**

وكل الذي حدث بعد ذلك مع عصر الجفاف أن تجمعت كل مجموعة من هؤلاء السكان في رقعة محدودة، وبذلك تحول الغطاء العالمي إلى الأرخبيل الجزري الذي نعرف الآن، ومعنى هذا أنه حدث تقطع، في الغطاء القديم المتجانس جنسيًا إلى عدة رقع متباعدة جغرافيا ولكنها تظل متجانسة جنسيًا وهذا بالدقة مفتاح أنثروبولوجية عالمنا العربي.

فشعوب المنطقة - قبل العرب والاسلام - هم أقارب أساسًا وأصلاً انفصلوا جغرافيًا، ابتداءً من العراق إلى الشام إلى الجزيرة العربية ومن مصر إلى المغرب أو السودان، والتوطن المحلي والمؤثرات الدخيلة الموضعية والتزواج الداخلي الذي حدث بعد ذلك، لا يمكن أن ينتج أكثر من ابتعادات محلية ضئيلة لا تغير من وحدة الأصل الدموي وتجانس العرق في كثير، وإن تطورت اللغات والألسن ما بين سامى وحامي، ويظل العالم العربي أو بيت العرب الجغرافي الكبير هو دوار العرب، بمعني الأسرة الموسعة التي تضم عدة أسر نووية أو خلوية، هذه واحدة.

أما الثانية فحقيقة تاريخية تؤكد السابقة وإن كنا نغفل عنها دائمًا نحن نعرف - دينيًا وتاريخيًا - أن إسماعيل هو أبو العرب العدنانيين، لكنا نعرف أيضًا أنه ابن إبراهيم العراقي من هاجر المصرية، كما نعرف أن العرب العدنانيين هم أبناء إسماعيل من زوجة مصرية أيضا، وإذا كان لهذا أي معني أنثروبولوچى، فهل يمكن - أليس كذلك؟ - أن يكون إلا شيئا واحدة، وهو أن العرب أنصاف عراقيين - أنصاف مصريين أصلاً؟ قد يبدو هذا للوهلة الأولى تخريجًا ثوريًا، ولكنه منطق أولى للغاية، ويكفي أن النبي نفسه، الذي تزوج مارية المصرية - هو القائل عن مصر للعرب "إن لكم فيها ذمة ورحمًا"، كما أن عمرو هو القائل "أهل مصر أكرم الأعاجم كلها.. وأقربهم رحمًا

---

[٣٧٧] ننوه أنني استبدلت مفردة فراعنة التي وردت في كتاب شخصية مصر لجمال حمدان قدماء المصريين.

بالعرب عامة وبقريش خاصة"، صلة مصر بالعرب إذن صلة نسب ودم قبل أن تصبح صلة ديانة ولغة.

وكم يبدو غريبًا أن يلح من يلح على أن العرب واليهود أبناء عمومة لأن إسحاق أبو اليهود أخ غير شقيق لإسماعيل أبي العرب، بينما نتغافل عن علاقة الأبوة والبنوة بين المصريين والعرب، فضلاً عن العلاقة غير المباشرة بين المصريين والعراقيين، على نفس الأساس، هذا فضلاً عن الحقيقة العلمية الأنثروبولوجية الأخطر وهي أن اليهود ليسوا من بني إسرائيل بعد أن هؤلاء قد ذابوا وضاعوا في الشتات بالاختلاط الجنسي مع "الجوييم"، أو الأغيار والتحول إلى غير اليهودية من ناحية ودخول ملايين الأوروبيين في اليهودية من الناحية الأخرى فكان من نسلهم السواد الأعظم من يهود العالم اليوم، وتأسيسًا على هذا. أفلا يكون تعريب العراق أو مصر فيما بعد عملية زواج أقارب مباشرة، ولا يكون نوعًا من التلقيح الذاتي أو الزواج الداخلي على نطاق جغرافي عريض؟

وثمة بعد هذا حقيقة لغوية تؤكد علاقة القرابة. فالثابت المحقق الآن أن اللغة المصرية القديمة. وهي حامية تصنيفًا، كانت تشمل نسبة هامة من المؤثرات والكلمات السامية، وقد أثبت البعض اشتراك أكثر من عشرة آلاف كلمة بين المصرية القديمة والعربية حتى ليعتبرها بعض الفيلولوجيين[٣٧٨] لغة انتقالية بين الحامية والسامية، وقد كتب في هذا كثيرًا بما لا يدع مجالاً لاطناب.

ثم يأتي عامل الهجرة أخيرًا. فمن الثابت كذلك أن عرب الجزيرة لم يكفوا عن الخروج منها والتدفق على مصر أو التسلل إليها طوال التاريخ المكتوب وقبله. ومن المتفق عليه بعامة أن ما لم يسجل التاريخ أكثر مما سجل من موجات سامية قديمة إلى مصر. وكانت صحراء سيناء وأطراف الدلتا بالنسبة لهم منطقة انتقال وتأقلم إلى أن يتم اندماجهم وتشربهم، ومن العلماء من يرجع سكان الدلتا إلى أصول أسيوية دخلت عبر سيناء، بينما يقول ابن خلدون: إن صحراء مصر الشرقية وسيناء كانتا عامرتين بعرب الشمال وعلى أية حال، فلقد عرفت مصر قبل الإسلام فرعى العرب الكبيرين: القحطانيون[٣٧٩] الزراع كانوا يعبرون البحر ويستقرون في الوادي ويختلطون بسكانه والعدنانيون[٣٨٠] كانوا يجوبون الصحراء الشرقية كبدو رحل ولهذا لم يختلطوا كثيرًا بالمصريين وهم الذين حاربهم قدماء المصريين طويلاً ، ومعني ذلك بوضوح أن

---

[٣٧٨] الفيلولوجيا وهو فقه اللغة (علم دراسة اللغة من المصادر التاريخية الشفوية والمكتوبة)

[٣٧٩] قَحْطانُ فاسم علم مذكّر، يُحيل على قحطانَ جَدِّ القبائل القحطانية من عرب الجنوب أو اليمانية. وهو مُشتقٌ من القَحْط. والقَحُطُ في الأصل الشِدّة. مأخوذٌ من قولهم: شَيءٌ قَحيطٌ، أي شديد، ثم يُستعار. فالقَحطُ انحباسُ المَطرِ والجَدبُ. وقَحطان على وَزن فَعلان، أي أصابهُ القحطُ.

[٣٨٠] عَدنان اسم علم مذكّر يُحيل على عدنانَ أبي عرب الشمال، وهم القبائل العدنانية نِسبةً إليه، يقابلهم القحطانيةِ عرب الجنوب أو اليمانية نسبة إلى أبيهم قَحطان.

وعدنان هو الجد الأعلى للنبي العربي محمد ـ رسول الله ـ . أما ما بعد عدنان من أسماء يذكرها النسابون فهي من وضعهم.

واشتقاق عَدنان مِن العَدْنِ وهو الإقامة، من قولهم: عَدَنَ بالمكانِ، يعدِنُ ،عُدونًا أي أقام، فهو عادِنٌ.

تعريب مصر سبق في بدايته الفتح العربي والعصر الاسلامي، وأنه قديم في مصر مثلما كان قديمًا في السودان، وإن كان الفتح نفسه هو الخطوة الحاسمة. ولعلنا الآن، بعد هذه المؤشرات والمفاتيح، بحيث نستطيع أن تحدد حقيقة تعريب مصر، فحين التقى العرب بالمصريين وتصاهروا واختلطت دماؤهم، لم يكن ذلك في الحقيقة إلا لقاء أبناء عمومة أو أخوة في المهجر، أو هو كان لقاء أباء بأبناء أو أجداد بأحفاد، وقد يكون الأصح أن نقول إعادة لقاء – بعد أن باعدت بينهم الصحراء التي استحدثها عصر الجفاف. وإذا كانت قد تبلورت بعض ابتعادات ثانوية أو تعديلات جسيمة مكتسبة على المدى التاريخي والبعد الجغرافي، فقد جاءت الموجة العربية في مصر ـ كما في غيرها من البلاد العربية ـ أشبه بعملية "خض" أو تقليب عميق لجزئيات متماثلة أصلاً، تعيد مزجها حتى لا تنخثر أو تتحجر. والد العربي بهذا وبنتائجه يبدو ـ في معنى ـ كما لو كان عودًا إلى نمط العصر المطير، حيث نشر العرب مؤقتًا شبكة غطائية متجانسة على وجه المنطقة جميعًا، وصلت ما انقطع وأعادت تأكيد الوحدة الأولية

وانطلاقًا من هذا مرة أخرى، يمكن أن نصفي بعض المتناقضات التي تبدو على السطح في العلاقة بين المصرية القديمة والعروبة، فإذا صحت دلالة السند الديني عن الجانب المصري في أصل العرب، فقد عاد العرب بدورهم ليعطوا مصر جانبًا عربيًا في أصلها، عادوا ليعطوها أبوة جديدة، فالعلاقة الدموية إذن علاقة متبادلة على التعاقب، والتناوب وهي علاقة دائرية أكثر منها خطية، الكل فيها أب وابن على التوالي والكل فيها في النهاية مضاف ومضاف إليه أكثر منه فاعلاً ومفعولاً به.

ولكن لما كان العرب هم الأب الأخير في السلسلة، فإن القول بأن مصر فرعونية أصلاً عربية مصاهرة قد يكون منطقة جاهلياء ـ منطق ما قبل الاسلام يعنى ـ ونوعًا من الردة التاريخية تنسب الابن إلى الجد دون أبيه، أو قبل أن تنسبه إلى أبيه وإنما الأصح أن نقول إن مصر فرعونية بالجد عربية بالأب، وكل من الجد والأب من أصل جد أعلى واحد مشترك، غير أن العرب هنا، وقد غيروا ثقافة مصر، هم للدقة والتحديد "الأب الاجتماعية" في الدرجة الأولى، وليسوا "الأب البيولوچي" إلا في الدرجة الثانية حيث كانوا بالضرورة أقلية عددية جدًا بالقياس إلى المصريين.

ولهذه الأسباب نفسها يمكن أن نفهم لماذا يقال: إن العرب إذا كانوا قد عربوا مصر ثقافيًا، فان مصر قد مصرتهم جنسيًا. فأما تعريب مصر ثقافيًا فأمر لا يحتاج إلى تفسير، وأما تمصير العرب جنسيًا ـ الذي قد يبدو مناقضًا للأصل الجنسي المشترك الواحد بين الطرفين ـ فليس في الحقيقة إلا من قبيل تغليب الأغلبية العددية على الأقلية دون أن يعني فارقًا أساسيًا في الأصل والنوع بين الطرفين.

و أخيرًا، ولكن ليس آخرًا بالتأكيد، نصل من هذا كله، في الخلاصة والمحصلة، إلى الفارق العملي الواقعي والحاسم بين الفرعونية والعروبة، فالفرعونية تنتمي إلى

الماضي..... بينما العروبة حاضر ماثل واقع. الفرعونية اسم، حيث العروبة فعل أو إن كان ولابد، فإن الفرعونية فعل ماض، بينما العروبة فعل مضارع"[٣٨١].

أما محمد عزة دروزة في كتابه " **تمهيدات في سكان مصر الأقدمين والموجات العربية الجنس التي انساحت إليه"** فيذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أحمد كمال و جمال حمدان فيقول: " **ولقد جاء في كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي لـ جيمس هنري بريستيد من مشاهير علماء الآثار المصرية والتاريخ المصري وترجمة الدكتور حسن كمال أن جماعات من الليبيين والجالا والصومال والبجا كانوا يطرأون على مصر منذ أقدم الأزمنة، وإنه من المعروف أن أقوامًا ساميين من عرب آسيا طرأوا على وادي النيل وعمموا فيه لغتهم و صبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة، وأن لغتهم حافظت على ساميتها (عروبتها) بمرور الزمن بالرغم مما طرأ عليها من تغيير و تحريف باختلاط السكان، وإن تاريخ الهجرات السامية الأولى يرجع بلا مراء إلى ما قبل العصور التاريخية المعروفة، وإنه من الثابت أن هذه الهجرات قد تكررت مرارًا في العصور التالية، وأنه إذا كان من الصعب معرفة الطريق الذي سلكوه فان الأقرب للذهن أن يكونوا أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب في بداية الإسلام"**[٣٨٢].

ولقد جاء في كتاب "تاريخ السودان القديم" للدكتور كمال حسن [٣٨٣]"**أن المصريين والسودانيين من أصل واحد و أنهم جاءوا إلى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال على ما تدل عليه البحوث والاستقراءات، وقد نقل هذا المؤلف عن ديودور الصقلي أن أصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية نزلوا إلى شواطئ إثيوبيا ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر، وبسبب ذلك يقول الإثيوبيون إن مصر مستعمرة من مستعمراتنا على اعتبار أن سكانها القدماء جاءوا إليها من ناحيتهم"**.

ولقد جاء في كتاب الأثر الجليل لسكان وادي النيل لأحمد نجيب العالم الأثري " **ومن تأمل في التماثيل القديمة المصرية المحفوظة بدار التحف علم يقينًا أن هذه الأمة من الجنس الأبيض القاطن في آسيا وأن كثيرًا من أصول لغتهم مشتق من اللغة العبرانية والآرامية كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة منهما متشابهة، وخلاصة القول أن أصل المصريين من الجنس (السامي) - العربي حسب اصطلاحنا - وقد أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس وربما وجدوا فيه طائفة من الزنوج"**[٣٨٤].

ولقد قال أحمد كمال العالم الأثري المشهور في كتابه العقد الثمين: "**إن المصريين القدماء كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم بون و كانوا يعتقدون أن أصلهم**

---

[٣٨١] جمال حمدان المرجع السابق – ص ٦٣٧:٦٣٤

[٣٨٢] محمد عزة دروزة - تمهيدات في سكان مصر الأقدمين والموجات العربية الجنس التي انساحت إليه – ص ٦

[٣٨٣] كمال حسن - تاريخ السودان القديم – ص ٧٧

[٣٨٤] أحمد نجيب - الأثر الجليل السكان وادي النيل – ص ١٢ – عن محمد عزة دروزة - تمهيدات في سكان مصر الأقدمين والموجات العربية الجنس التي انساحت إليه – ص ٧:٨

منها ولقد قال المؤرخ التركي أحمد رفيق في الجزء الأول من كتابة التاريخ العام الكبير نقلاً عن مصادر ألمانية مثل تاريخ مصر القديم لأدوار ماير و مصر و حياتها في العصور القديمة لأدولف أرمان و تاريخ مصر لويدمان و تاريخ مصر في حكم الفراعنة لبورغش والتاريخ العام لشبامر و تاريخ الأمم القديمة لماكس دوفكر و أن معظم علماء تاريخ مصر يقررون أن المصريين القدماء قد جاءوا من آسيا الغربية، منهم من جاء عن طريق باب المندب من الجنوب ومنهم من جاء عن طريق برزخ السويس من الشمال، وأنه بين لغتهم واللغات السامية في مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة، ومع أنه لم يقل صراحة أنهم جاءوا من جزيرة العرب أو أنهم من الشعوب السامية فإن هذا الوصف يعني ذلك كما هو المتبادر"[٣٨٥].

ولقد قال غوستاف لوبون في كتابه الحضارة المصرية " **إن كل جذور اللغة المصرية القديمة ومعظم قاموسها يتركب من عناصر سامية حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع. والكلمات البعيدة عن الأصل السامي ترد إلي الجنس الأسود الذي طرأ على مصر"**[٣٨٦].

ولقد جاء في تاريخ مصر إلى الفتح العثماني لسفيدج الاسكندري "**أن أرجح الآراء أن مؤسسي حضارة مصر الأولى التي ترجع إلى ما قبل الأسر الملكية - أي إلى ما قبل خمسة وأربعين قرنًا أو أكثر - قوم أوبيو الأصل ؛ غير أن حضارتهم ليست هي أساس مدنية المصريين الذين تكونت منهم الأسر المختلفة والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقي. وقد ثبت أن هؤلاء قوم ساميون قدموا إلى مصر من آسيا. ولا يعلم يقينا من أين دخلوا فهناك من يقول: إنهم دخلوا من برزخ السويس وهناك من يقول إنهم جاءوا من طريق الجنوب وعلى كل حال فالمعلوم يقينا أن الذين نشأ منهم (مينا)- وهو أول من عُرف من ملوك المملكة المصرية المتحدة قبل نحو أربعين قرنًا - كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر. ومما يدل على أن أجداده من الساميين، وأن أقدم ما وصل من لغتهم يغلب فيه العنصر السامي على الإفريقي. وقد دخلوا ومعهم حضارة أرقى مما كان في مصر. وهم الذين جاءوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية"**[٣٨٧].

ولقد جاء في كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها لعطية الإبراشي ورفقاه : **أن المدنية الإنسانية العامة قد بدأت في وادي النيل. وسكان هذا الوادي وإن كانوا مزيجًا من عناصر مختلفة فالعنصر السائد فيها والذي أنتج مدنية إنسانية هو العنصر السامي أي العربي وأنه على أي تقسيم قسمت اللغات السامية فإن الحقيقة الكبرى أنها لغات جماعة بشرية كونت جنسًا بشريًا واحدًا، وهو الجنس الذي عُرف باسم الجنس السامي والذي عرفت شعوبه باسم الشعوب السامية ولغاته باسم اللغات السامية، والتي**

---

[٣٨٥] أحمد كمال - العقد الثمين – ص ٤٨:٤٥ – عن محمد عزة دروزة - تمهيدات في سكان مصر الأقدمين والموجات العربية الجنس التي انساحت إليه – ص ٨

[٣٨٦] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ٨

[٣٨٧] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ٩

تحضرت في أطراف جزيرة العرب وفيما وراء هذه الأطراف مع بقاء وحدة التفكير والخيال جامعة بينها، وقصارى القول إن الجماعة السامية هي الجماعة العربية، وإن مهدها الأول هو نجد والحجاز والعروض واليمن وما وإلى هذه البقاع، و منها كانت الهجرات الأولى إلى شمال الجزيرة و مشارق الشام والعراق ثم إلى بلاد الحبشة ومصر"[٣٨٨].

ولقد جاء في الجزء الأول من تاريخ العرب لحتي[٣٨٩] **"أن موجة من المهاجرين الساميين انساحت إلى مصر عن طريق إفريقية الشرقية حوالي سنة ٣٠٠٠ ق م وكان فيها جماعة من الحاميين فحلت بينها وامتزجت بها فتألف من هذا المزيج سكان مصر القدماء، ولقد سلك هذا في كتاب آخر له اللغة المصرية القديمة في سلك اللغات الأشورية والبابلية والآرامية والكنعانية و العبرانية والعربية القديمة والحبشية الأثيوبية وقال: إننا لو دققنا النظر فيها لوجدنا تشابها جليًا بينها يخولنا حق ردها إلى أم واحدة"** [٣٩٠].

ولقد قال جوستاف حيكى أستاذ الأثريات المصرية في كلية نيو شاتيل في كتابه تاريخ المدنية المصرية: "أن سكان مصر القدماء جاءوا اليها من جزيرة العرب قبل ستة آلاف سنة وأن الأسر الفرعونية الأولى من هؤلاء القادمين. وقال مثل هذا بروخ الألماني وهنري جونسون الإنكليزي في كتابيها تاريخ مصر أيضًا"[٣٩١].

ولقد نبه جبرائيل هانوتو في مقدمة كتابه تاريخ الجنسية المصرية على بروز مميزات العنصر السامي العربي في سحن وصور ومحنطات ملوك مصر منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري أو بتعبير أدق ملوك الدولة الأولى والأسلاف الذين انحدروا منهم الذين طرأوا على مصر من شمالها الشرقي ومن جنوبها الشرقي بالإضافة إلى قوله: **"إن الدم المصري غدا مزيجًا من عناصر سامية وافريقية وزنجية وأوروبية وسكان شواطئ البحر الأبيض. ولقد قال والس بدج مؤلف كتاب "سواء السبيل في سكان أرض النيل" الذي حققه العلماء؛":إن الذين ملكوا مصر ووضعوا شرائعها منذ البدء هم جماعات هاجروا إليها من المشرق منذ بضعة ألوف من السنين قبل التاريخ المسيحي، وليس في مشرق مصر إلا جزيرة العرب من الجنوب والشرق وسيناء المتصلة بالجزيرة من الشرق الشمالي كما لا يخفى"**[٣٩٢]

[٣٨٨] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ٩

[٣٨٩] يقصد فيليب خوري حتي مؤرخ العرب والحضارة الإسلامية اللبناني. ولد فيليب حتي في بلدة شملان التابعة لمحافظة جبل لبنان ودرس في مدرسة القرية، ثم أكمل في مدرسة سوق الغرب الأمريكية الثانوية والتحق بعدها بالجامعة الأمريكية في بيروت، وحصل منها على شهادة البكالوريوس في العلوم

[٣٩٠] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ٩

[٣٩١] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ١٠

[٣٩٢] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ١٠

ولقد قال المؤرخ الشهير ماسبرو: "**إن لعروق المصريين الأقدمين والعرب والفينيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها إلى بعض وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم**"[٣٩٣].

ولقد جاء في الجزء الأول من كتاب مصر القديمة لسليم حسن العالم الأثري المصري الكبير في نبذة أصل المصريين الممصر كانت مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامي يقال إنه نشأ من البلاد نفسها أي إفريقي الأصل وينسب إلى لوبيبي إفريقية الشمالية المسمين الآن بالبربر وإلى السكان الحاميين من إفريقية الشمالية الشرقية الصوماليين، ثم دخل على هذا الشعب تغيّرات عن طريق الهجرة، وكانت أهم العناصر الجديدة التي دخلت البلاد عن هذا الطريق من أصل آسيوي لهم مميزات خاصة تختلف اختلافًا بيِّنًا عن الشعب الأصلي، وقد اختلطوا شيئًا فشيئًا بالسكان الأصليين واندمجوا فيهم، ويخمن أن المهاجرين الفاتحين جاءوا إلى مصر من شبه جزيرة العرب ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة قفط[٣٩٤] أو عن طريق أعالي وادي النيل أو عن طريق فلسطين فسيناء فشرقي الدلتا ؛ وقد أدخلوا معهم مدنية أرقى من مدنية الجنس الحامي الأصلي الذي لم يكن يعرف إلا الآلات والأواني الحجرية، كما أدخلوا معهم معرفة المعادن وبخاصة النحاس وأدخلوا كذلك عبادتهم للأموات وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية. ويخمن أنهم أتوا إلى البلاد تدريجًا من غير عنف فتوصلوا إلى الاستيلاء عليها بنجاح. وأهم الوثائق التي بقيت من عهدهم أو عثر عليها ألواح اردوازية منقوشة على أشكال مختلفة لم يتيسر حلها، وهي التركة الوحيدة لدينا لهذا الفتح الطويل الذي كانت نهايته على ما يظهر اتحاد كل البلاد من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط تحت صولجان ملك واحد اتفقت كل المصادر التاريخية على أنه الملك مينا. ولقد غدا الاندماج بين المهاجرين الجدد والسكان الأصليين عظيمًا منذ العصر التاريخي حتى أنه أصبح من الصعوبة بمكان معرفة الفوارق بينها بشيء من الدقة[٣٩٥].

ولقد جاء في كتاب مصر والحياة المصرية في العصور القديمة[٣٩٦] **أن سكان مصر قبل التاريخ خليط من شعوب مختلفة. ويمكن إرجاع اللغة المصرية القديمة إلى مجموعة من اللغات اشتقت من السامية (البابلية والأشورية والعبرية والعربية) والإفريقية الشرقية والإفريقية الشمالية بعد أن امتزج بعضها ببعض، واستنادًا إلى تشابه الحوادث في العصر التاريخي من الجائز أن تكون أجناس البدو الذين عاشوا في البلاد المتاخمة وفي بلاد العرب قد انحدروا إلى وادي النيل الخصيب ثم فرضوا لغتهم على السكان المستقرين هناك على اختلاف أجناسهم وسرعان ما تميزت اللغة وتميزت سمة وسحنة سكان مصر فصارت لغتهم متميزة و رومتهم متميزة.**

---

[٣٩٣] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ١٠

[٣٩٤] مدينة بصعيد مصر بمحافظة قنا ستكون مسرحًا لأحداث كثيرة فيما سيلي من أجزاء هذه السلسة.

[٣٩٥] محمد عزة دروزة – المرجع السابق ص ١٠

[٣٩٦] تأليف أودولف ارمان و هرمان رانكن – تعريب عبدالمنعم أبو بكر و محرم كمال – ص ٢٢/٢١

ولقد قال جرجي زيدان في كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام: إن الساميين (العرب في اصطلاحنا) قد نزحوا إلى مصر من عهد قديم جدًا وأن الاكتشافات الأثرية الأخيرة تدل على أن العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها، وأن مما يستدل به على ذلك اسم " فبتاح" [٣٩٧]، السامي الذي هو أقدم آلهة المصريين.
وننبه على أن الأقوال التي أوردناها تدور في نطاق موضوع طروء الجماعات أو الموجات السامية – العربية الجنس على حسب اصطلاحنا.. قبل التاريخ المصري الوثيق وقبل اتحاد مصر في مملكة واحدة وقيام الأسر الحاكمة على رأسها واحدة بعد أخرى الذي كان في الألف الرابع قبل الميلاد في تقدير بعض المؤرخين وفي الألف الخامس في تقدير بعض آخر.
أما طروء جماعات أو موجات سامية ـ عربية الجنس ـ بعد ذلك فليس موضع شك أو خلاف. وقد سجل التاريخ المصري الوثيق في مدوناته ونقوشه القديمة محاولات عديدة ومستمرة لتسرب هذه الجماعات من الشمال والجنوب الى مصر واهتمام ملوك مصر لصدها وتحصينهم الحدود الشمالية والجنوبية بسبيل ذلك ونجاح بعض هذه المحاولات أكثر من مرة في التسرب والاستقرار في مصر السّفلى والعليا.
كانت كل الاقتباسات السابقة دليلاً على الأصل المشترك للجنس المصري القديم والجنس العربي كما تعد دليلاً على الأصل المشترك الذي يجمع بين لغة المصري القديم ولغة العرب الأقدمين ولكن كان ذلك من حيث التاريخ والمؤرخين فما الذي يجمع بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية وما الدليل على ذلك؟

أحمد كمال والمحاولات الأولى للتقريب بين العربية والهيروغليفية:

يقول الدكتور لؤي محمود سعيد في بحثه الذي عنونه باسم " أحمد باشا كمال ومنهجه الرائد في التقريب بين العربية والهيروغليفية: **"........ كما شهدت البلاد زعماء وطنيين أمثال أحمد عرابي وعبدالله النديم ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم كثيرين.. كما شهدت تلك المرحلة أيضًا قيام أول مجلس نيابي مصري عام ١٨٦٦.. ومع تزايد الديون تزايد التدخل الأجنبي والهيمنة على مقدرات البلاد.. كل ذلك في وجود أسرة حاكمة ضعيفة لا حول لها ولا قوة تميل للحكومات والزعماء الشعبيين تارة وتتحالف مع المحتل الإنجليزي في أغلب الأحيان.. في كل هذه الأجواء المفعمة بالحماسة الوطنية نشأ وتبلور فكر أحمد كمال الأثري، وتكونت اتجاهاته الوطنية التي ما ظهرت كثيرًا في كتاباته الممتلئة حسرة على زوال المجد التليد**

---

[٣٩٧] هو من أقدم المعبودات المصرية القديمة ،حيث إن بتاح يرجع الى عصر مبكر من بداية الأسرات - اعتبره المصري القديم هو أنه رب الخلق أجمعين وكان رب للكتاب والفنانين والحرفيين ومركز عبادته مدينة (مين- نفر) أى منفيس (منف)، وكان يطلق عليها ميزان القطر المزدوج - وهو أحد حماة الملكية المصرية القديمة ويمثل "بتاح" رأس ثالوث "منف" (بتاح، سخمت، نفرتو)

والمفعمة بالحماس واستثارة الهمم لاستعادة أمجاد الماضي الغابر... فكانت دعوته لسبر أغوار الماضي ما هي في الحقيقة سوى دعوة لرفض الواقع والتحريض على تغييره بتأكيد الثقة بالنفس وبث روح الجد والاجتهاد في نفوس أهل وطنه لمناطحة المحتل.. ليس سياسيًا أو عسكريًا، لكن ثقافيًا وفكريًا بأخذ ناصية العلم والمعرفة.. وهو المنهج الذي طبقه على نفسه شخصيًا، وبرع فيه لأبعد الحدود بصورة أذهلت أقرانه الأوروبيين أنفسهم.. حتى لاقي ما لاقاه.. سواء على يد ثلة من الأوروبيين، أو كذلك على يد المصريين أنفسهم من بني جلدته.. فلم يفت كل ذلك في عضده، ومضى يتلقى الإحباطات و المعاكسات الواحدة تلو الأخرى دون أن تلين عريكته أو تنحني هامته بل زاد كل ذلك من مثابرته وجلده ووطنيته وحبه لبلده وأهلها وحرصه على آثارها وعلى تأصيل فكرة التواصل الحضاري الثقافي بين مصر وجيرانها من خلال التأكيد على الهوية المشتركة التي تجمع بين تلك الحضارات القديمة والتي تتجسد أساسًا في القواسم اللغوية بينها.. فكانت هذه القضية هي محور جهده العلمي والفكري طيلة نصف قرن من الزمان......"[٣٩٨]

ثم يحدثنا دكتور لؤي عن الطريق الذي شقه أحمد كمال في مجال التعليم وفي المجال الوظيفي حتى يصل إلى مرحلة تعنت المسئولين عن الآثار المصرية في حينه وكانوا كلهم من الأجانب (فرنسيين و انجليز والمان وامريكان) فيستطرد قائلاً: " **كانت سياسة الفرنسي أوجست مارييت (١٨١٨ - ١٨٨١) أول مدير لمديرية الآثار التاريخية تعتمد في الأساس على إقصاء أي جنسية غير فرنسية عن المناصب الأثرية الرسمية لضمان استمرار احتكارها، وكذلك لضمان تبعية آثار مصر جميعها له شخصيا، لذلك رفض بشدة في البداية فكرة تعيين أي مصري في منصب رسمي، ذلك لأن خطورة المصريين - رغم حداثة عهدهم بهذا المجال - أكبر وأشد لأنها ببساطة آثارهم.. والتي قد يطالبون بدافع وطني يوما ما بتولي أمرها برمته.**

وبرغم بعض التقدير الجزئي لكمال وهمته و حماسه الواضح على يد بعض المسئولين أمثال ماسبرو، إلا أنه كان أحيانًا عداءً سافرًا من البعض تجسد في موقف "دي مورجان " (تولى من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٧) منه.. والذي عمد وهو مدير المتحف إلى تجاهل كمال الأمين المساعد الوطني، وبقي نحو سنة كاملة لا يخاطبه بكلمة واحدة ! بل وسعى جاهدًا للتخلص منه!! لكن لا تشير المصادر المتاحة إلى سر هذا العداء.. هل هي الغيرة من ذلك المصري المجتهد الذي وصل لقمة نشاطه العلمي والبحثي في التنقيب والنشر؟ أم العداء لمنهجه المتفرد في التقريب ما بين الحضارة المصرية القديمة وحضارات المنطقة العربية.. لا شيء مؤكد؟

وبرغم معاناة أحمد كمال الشديدة من التحيز ضده كمصري وخاصة من الفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على مقاليد الآثار في مصر، فهو لم ينكر أبدًا مع ذلك فضلهم ولا مجهوداتهم في إرساء دعائم علم المصريات حيث يقول: "لا ننكر أنهم بهذا

[٣٩٨] الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة -مجموعة باحثين -تقديم د.علي فهمي خشيم – ص ٨٧ وما بعدها

الاجتهاد عانوا مشاق كثيرة في اللغة المصرية مما يثبت لهم الفضل الأكبر عند أهل العلم لكونهم أول باحث في اكتشاف غوامض اللغة المصرية وإظهارها من عالم الخفاء إلى عالم الوجود".

لهذا حرص الأثريون الأوروبيون المعاصرون له على الاستشهاد أحيانًا بآرائه العلمية وخاصة تلك التي تربط بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة العربية.. فقد عرف عنه بلاغته ودقة تحليله لتلك العلاقات اللغوية بين العربية والهيروغليفية والتي يصعب عليهم التوصل إليها.. فها هو مثلاً "واليس بدج" يورد رأي كمال في الربط اللغوي بين بعض آلهة وأصنام الجزيرة العربية القديمة مثل: "مناة" و "العزى" وغيرهما.. وبين الآلهة المصرية القديمة مثل "منيت "، و "واجيت"[٣٩٩] أو "وازيت".

وللأسف كان على كمال أن يواجه أيضا تحديات حتى من أبناء جلدته من المصريين مما ضاعف من معاناته.. يلخص "ريد"[٤٠٠] قصة كفاحه طيلة حياته سواءً في مواجهة الأجانب أو بعض المصريين بقوله: "لقد كافح أحمد كمال بلا كلل من أجل أن يؤسس علما للمصريات مصري الهوية ومن أجل إقناع أهل بلاده بأهميته ". فمثلاً يقول المويلحي في كتابه (حديث عيسى بن هشام) - الذي صدر عام ١٩٠٥ - مهاجمًا الآثار المصرية ومتبرئًا من الانتماء إليها بل ومستهزئًا بمعرفة كمال بالهيروغليفية دون أن يذكره صراحة: «ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدًا واحدًا لما استفادوا منها شيئًا، ولا أفادوك عنها شيئًا، ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين، ولن تجد بين عشرة ملايين اليوم سوى شخصًا واحدًا يفقه لغة الهيروغليف ـــ أعني لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون ـــ ، مع كثرة الخبيرين بها من الأمم الغربية، والله أعلم بمقدار علمه بها".

ويشير الأيوبي[٤٠١] لهذه النظرة المتعالية للآثار المصرية من قبل العامة والتحول التدريجي عنها بقوله: "فقد نظر العامة لهذه الآثار نظرة الإكبار والإجلال والتعظيم تأثرا بنظر الأجانب لها بالطبع، وتحولهم شيئا فشيئا عن شعور الاحتقار الذي كان متأصلاً في قلوبهم لأهل تلك العصور التي يدعونها "كفرية".

لكن يقف رغم كل هذا أشخاص شوامخ قدروا للآثار والتراث حق قدرهما وأدركوا أهمية درسها وحمايتها من أجل صالح الوطن.. ويأتي على رأسهم جميعا الشيخ رفاعة

---

[٣٩٩] الآلهة "واجيت" عبد المصريون القدماء الإلهة وادجيت باعتبارها إلهة الكوبرا في العصور القديمة. غالبًا ما تصورها الرموز على أنها كوبرا ملفوفة حول جذع بردية. عرف العالم اليوناني الإلهة باسم أوتو أو بوتو

[٤٠٠] بقصد دونالد مالكولم ريد أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، الذى تخصص منذ ما يزيد عن ربع القرن في تاريخ الثقافة العربية الحديثة، وبدأه بكتاب عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر ١٩٧٥)، و ثنى بكتاب عن "المحامين والسياسة في العالم العربى ١٨٨٠ -١٩٦٠ " (نشر عام ١٩٨١)(، وكان كتابه الثالث عن "جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة" (نشر عام ١٩٩٠) وهو صاحب كتاب فراعنة من؟ الذي ترجمه **رءوف عباس** أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة، له مؤلفات عديدة في تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

[٤٠١] يقصد إلياس الأيوبي وكتابه تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا - ط١ - مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٢٣ – ص ٢٣٦،٢٣٧

رافع الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) وعلي باشا مبارك (١٨٢٤ – ١٨٩٣).. يقول "ريد" عنهما: " كان مبارك كالطهطاوي.. فقد آمن كلاهما بأن مصر القديمة هي مهد حضارة العالم قديمًا وحديثًا وأن الاعتزاز بها عنصر أساسي في تدعيم النهضة الوطنية الحديثة للبلاد ".

ومع ذلك فقد أثر فكر ودعوة كمال بلا شك في قطاع لا يستهان به من فئة المتعلمين والمثقفين.. فها هو عميد الأدب العربي طه حسين مثلا يتحدث عن بداياته الفكرية الأولى وكيف أنه "بُهتَ" حين سمع لأول مرة أسماء "رمسيس" و"إخناتون" من الأستاذ أحمد كمال فَي غرفة من غرف الجامعة المصرية وهو يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ويحاول أن يشرح لطلابه مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية ومنها اللغة العربية.

أما رأي أ. د. عبدالعزيز صالح[٤٠٢] في كمال وفكره في بحثه الذي ألقاه في إحدى الندوات بعد مرور خمسين عامًا لتكريم أحمد كمال فقد جاء متضمنًا بعض التقدير والاستحسان، لكنه عدد في نفس الوقت ما أسماه "هنات"، وقع فيها:

إن كمال "لم يجد تناقضًا بين دعوة المصرية التي تحمس لها ودعوة العروبة التي تحمس لها أقرانه أمثال محمد عبده وغيره، وهو ما دفعه لإبراز الطابع السامي في المصرية القديمة وخاصة العربية فنجح حينًا واشتط حينًا"!

ولم يوضح لنا أستاذنا الدكتور عبدالعزيز صالح ما الشطط الذي وقع فيه أحمد كمال ولم يكتب مقالاً أو كتابًا لينتقد وينقض ما ذهب إليه أحمد كمال ولكنه اكتفى بذكر شطط أحمد كمال في إحدى الندوات.

من ناحية أخرى فقد حرص كمال على أن يستخدم منهجه الخاص في الدفاع عن القرآن الكريم، فانطلاقا من النتيجة التي خلص إليها باعتبار أن اللغة المصرية هي أصل اللغة العربية، فند كمال الادعاء باحتواء القرآن على ألفاظ أعجمية.. فتناول الكلمات التي أوردها الشيخ حمزة فتح الله في كتابه الصادر عام ١٩٠٢ باعتبارها أعجمية وأثبت أنها كلمات مصرية قديمة أي عربية - باعتبار أنهما شيء واحد - وبالتالي فهي ليست

---

[٤٠٢] رائد علم المصريات، الذى منح علم المصريات ملامح قومية بصورة كبيرة فقد كانت شجاعته تكمن في أن مؤلفاته التي حملت آراءً جديدة بل وفيرة كتبت بلغة عربية رصينة، ولم يقلد غيره في الكتابة بلغة أجنبية ثم ترجمة ما يكتب إلى العربية، أو يكتب بلغة اجنبية ويتجاهل حق المصريين فى معرفة تاريخهم الوطني. - أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم، ورئيس قسم الآثار المصرية وعميد كلية الآثار سابقًا بجامعة القاهرة.
- أعير للتدريس ببعض الجامعات العربية.
- رئيس شعبة البرديات المصرية القديمة بمركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس.
- عضوا في المجلس الأعلى للثقافة شعبة التاريخ والآثار
-وعضو شعب التعليم الجامعي والعلوم الإنسانية والتراث الحضاري والآثاري بالمجالس القومية المتخصصة؛ وحصل أيضًا علي العديد من الجوائز والأوسمة نذكر منها.
كما قام بعمل العديد من الحفريات الأثرية نذكر منها حفرياته في مدينة أون وهليوبولويس وتونة الجبل ومنطقة الجيزة وعنيبا.

أعجمية.. ورغم غرابة هذا المنهج في تناول مصطلحات القرآن الكريم فلم نسمع لليوم عمن نقده أو ناقشه سواء سلبًا أو إيجابًا.. وهو جدير بذلك.

ولأنه لا شك في وجود علاقة جدلية بين المثقف عموما وما يحمله من أفكار وهموم وبين الثقافة والأفكار السائدة في مجتمعه. لهذا كان من الطبيعي أن يتأثر فكر ومنهج كمال بالمفاهيم السلبية السائدة في عصره عن الآثار المصرية أو بتعبير إلياس الأيوبي: تلك الهاوية التي حفرتها العقائد بين عقلية (المصريين) وعقلية أجدادهم البعيدين".. وهو ما صعب من مهمة كمال من ناحية، وكان له على ما يبدو دافع قوي للتقريب بين العقليتين والثقافتين.. القديمة الفرعونية والمعاصرة العربية الإسلامية.

لكن يجب في نفس الوقت ألا نأخذ على أحمد كمال تماديه في تأصيل تلك العلاقة للدرجة التي أسماها د. عبدالعزيز صالح " شططًا " في التحيز للفكرة.. فرغم أن فرنسا مثلاً كانت تربة أخصب في تقبل وتقدير تلك الحضارة و الوثنية، إلا أن التيار الديني المتزمت هناك، والذي كانت أفكاره لا تزال متأثرة بآراء العصور الوسطى الظلامية كان لا زال يتعرض بالتجريح والهجوم العنيف للحضارة المصرية القديمة والوثنية !! لهذا فقد عمد ماريت نفسه إلى الترويج لفكرة ووحدانية الديانة المصرية بهدف كسب الرأي العام في فرنسا وفي مصر أيضًا.. وهو أيضًا ما فعله الطهطاوي وحتى الألماني بروجس نفسه - حيث رأى أن بعض صفات آمون وبتاح تتطابق مع أسماء الله الحسنى في الإسلام !

ولنا هنا وقفة ما دمنا نتحدث عن تصحيح التاريخ الخرافي للحضارة المصرية القديمة وسأعود بك عزيزي القارئ الي صفحة ١٨٣ من هذا الكتاب وتحت عنوان " **أمثلة على بعض الأخطاء في الترجمة من الهيروغليفية**" وكيف أن محمد عبد الرحيم مفتش الآثار بمصر العليا (الاقصر) قد ضح لنا "أن "نتر" neter كلمة مصرية قديمة وهي تعني **"الكائن المنتسب للعرش الإلهي"، وجمعها "نترو" Netro. والنتر هو من مخلوقات الإله الواحد، و المصري القديم وصفه بنفس صفات الملائكة في الإسلام. فكل ملاك في الإسلام له دور معين، ملاك للرزق و ملاك للموت و ملاك للمطر وملاك للتدوين إلخ........**

وفى العقيدة المصرية تعددت النترو بتعدد الأدوار والصفات، فكان هناك مثلا "نتر" للإنبات، و" نتر" للخصوبة، و"نتر" للشمس و هكذا، لكن بعد إكتشاف "حجر رشيد" و فك رموز الكتابة المصرية القديمة والنقش المقدس "الكتابة الهيروغليفية" سنة ١٨٢٢م، على يد العالم الفرنسي (شامبليون) و زملاؤه، حار شامبليون ومن معه ومن تبعهم في ترجمة لفظ (نتر)، فلم يجدوا له أي مدلول واضح في النقوش المصرية القديمة. لكنهم قاموا بأبشع فعل في التاريخ من وجهة نظري، وهو "اللجوء للتخمينات"، فقاموا بتفسير كلمة "نتر" عن طريق التخمين وبكل مدلول الخطأ لتساوي لفظة "God" ــ أي إله ــ.

وبذلك الفعل الشنيع ثبتت عنهم تلك الترجمة لتلك الكلمة، وتناقلها جميع علماء الأرض من بعدهم من دون البحث أو التحري عن دقة تفسيرها ومدلولها. فأدى ذلك لوجود انطباع أن (حورس و أنوبيس و غيرهم) آلهة عبدها أجدادنا المصريون القدماء، لكن هذا الكلام علميا غير صحيح بالمرة".

أليس فيما سبق تأكيدًا لما ذهب إليه أحمد كمال وما حاول ماريت وبروجش والطهطاوي أن يبشروا العالم به؟" أن الحضارة المصرية ليست حضارة وثنية في المطلق".

ونعود لبحث أستاذنا الدكتور لؤي محمود سعيد عن محاولات التقريب التي قام بها العالم الجليل أحمد كمال ما بين اللغة المصرية القديمة وبين الهيروغليفية.

اعتقد كمال في البداية أن اللغة العربية هي أصل اللغة المصرية القديمة لما بينهما من توافق في كثير من الصور.. لكن اكتشاف نقش محفور على جدران معبد الدير البحري بالأقصر جعله يغير فكره الأول وينقلب ١٨٠ درجة، حتى صار يعتقد بالعكس وهو أن المصرية هي أصل اللغة العربية، هذا رغم أن كلماته في نهاية حياته كانت تشير لبعض التردد في حسم موقفه، ولتفضيله الاكتفاء باعتبار أن الاثنين من أصل واحد مشترك لا يعلم بالتعيين أيهما الأصل.. أو من عرقين اشتبكت وشائجهما من ألوف السنين ثم افترقا وعادا فاتصلا بعد الفتح الإسلامي. ولنترك كمال يتحدث عن نفسه في هذه الجزئية الهامة وهو يشير أيضا لمنهجه في تنفيذ قاموسه فيقول:"لا يزال أصل اللغة العربية مجهولا أي ليس في كتبها ما يدل على المرجع الذي ترجع إليه الفاظها، وقد وفقني الله إلى تمهيد السبيل المؤدي إلى ذلك أي إلى إرجاع كل كلمة إلى أصلها وإلى تدوين قاموس اللغة تدوينًا مؤسسًا على أصول ثابتة تظهر اللغة بمظاهرها الحقيقية. والذي حملني على ذلك ما ظهر من نقوش قديمة محفورة على جدران معبد الدير البحري في طيبة الغربية وإزاء (لقصر)، (أي: مدينة الأقصر) من الغرب بناء على مقالة للمعلم نافيل نشرها في Recueil de Travaux تدل على أن المصريين القدماء أرادوا تخليد ذكرى أصلهم فأثبتوه بالحفر على آثارهم قائلين أن أجدادهم يدعون الإعناء (جمع عنو) أي أنهم أقوام من قبائل شتى اجتمعوا في وادي النيل وأسسوا فيه مدنا كثيرة منها مدينة عين شمس ويقال لها بالمصرية "العين البحرية" ومنها العين الجنوبية وهي أرمنت ومنها عين التي سميت بعد دندرة".

ثم يواصل كمال سرده لنظريته فيؤكد "**أن هذه القبائل بعد أن كثرت تحرك بعضها (إعناء الحنو أو اللوبيون) غربا إلى بلاد القيروان وتونس والجزائر وسكنوا فيها، وبعضها (إعناء المنتو) هاجر لبلاد الصومال واجتاز البحر الأحمر إلى بلاد العرب وانتشر ممتدًا إلى فلسطين. أما البعض الآخر (إعناء الكنوز) فهاجر جنوبًا وهم أهل النوبة..." وأخيرًا يشير إلى "أن هذه الهجرات أدت إلى أن يبث المصريون فيها لغتهم مدة من الدهر فكانت هي لغة البلاد التي تتكلم إلى الآن بالعربية.. ثم يصل كمال للنتيجة النهائية ويقول: واللغة المصرية أي لغة قبائل الإعناء التي سكنت مصر وما جاورها**

من الأقاليم هي أصل اللغة العربية بلا مراء بنص النقوش المذكورة" وقد ترددت هذه النظرية في محاضرات و كتابات كمال المختلفة وظل يتبناها حتى وفاته.
وبدون أن نعلق على هذه النظرية التي شكلت العمود الفقري لكتابات ودراسات كمال، نحب أن نشير إلى أن مجمل الدراسات الأثرية الحديثة في الوطن العربي تشير إلى وجود قواسم مشتركة حضارية مختلفة بين حضارات المنطقة العربية، تؤكد على الأقل بوجود أصل قديم مشترك يسبقها جميعًا، أسماه البعض "الأسرة السامية - الحامية" اعتمادًا على المصطلحات التوراتية.. بينما أطلق عليه د. علي فهمي خشيم: الأصل العروبي المشترك (العروبيات)، أو حتى العربيات، كما أسماها د. محمد بهجت قبيسي وهي نتيجة تتفق مع رؤية كمال في مجملها لكنها تختلف معها في صعوبة تحديد مكانيا وزمانيا) مصدر هذا الأصل المشترك، والذي يصعب أن ينتسب لحضارة بعينها دون جيرانها.
استخدام أحمد كمال الأثري المحنك كل المادة الأثرية المتاحة بهدف التدليل على وجهة نظره.. فبالإضافة للتقارب اللغوي الذي أسهب في الاستدلال به، فقد كتب مثلاً مقالين بالعربية وبالفرنسية تحت نفس العنوان: "أصنام العرب وأصلها المصري".. قارب فيه بين آلهة العرب مثل "مناة، والعزى واللات"، وغيرها مع المعبودات المصرية " منيت، و وازيت أو واجيت " وغيرهما. كما كتب مقالاً مطولاً بالفرنسية في مجلة المعهد العلمي من أربعين صفحة عن أسماء ملوك مصر التي وردت في المخطوطات العربية مع التعليق عليها والبحث عن أصلها.
فتسببت هذه المقالة في أن يصب الأثري الفرنسي نائب مدير مصلحة الأثار جورج دارسي جام غضبه على رأس كمال و آرائه وتوجهاته جميعها، معبرًا عن موقف الأوروبيين عمومًا من المنحني الذي أخذته كتابات كمال.. فكال له النقد اللاذع والتقريع والاتهامات لدرجة أنه أخرجه من زمرة الأثريين المحترفين العالمين ببواطن المصريات... وهو ما اعتبره "ريد" تجسيدًا "للسياق الإمبريالي" المناوئ لأي فكر يحمل رؤية وطنية مستقلة، خاصة أن هذا الاتهام يأتي من الرجل الثاني في مصلحة الآثار وقتها، وكما يبدو أيضًا أنه قد استغل القضية لتصفية حسابات قديمة بينهما.
فقد اعتبر دارسي صراحة أن كمال "يرتكب خطيئة كبرى بإعطاء العلامات الهيروغليفية مكافئا من الحروف العربية، وتغيير ترتيبها حسب الحاجة، (أي القلب والإبدال الذي تتميز به العربية والذي اعتمده كمال للتقريب مع الكلمات المصرية)..
واتهم كمال بأنه يتجاهل السياق التاريخي للكلمات الهيروغليفية، كما أنه يبالغ في إبراز التأثير السامي بما فيهم العرب على مصر القديمة ! لكن كمال المقاتل العنيد لم يستسلم.. وانبرى يدافع عن آرائه وعن القائمة الطويلة التي أوردها من الكلمات العربية والمشتقة من المصرية ثم أكد في وضوح أن المصرية هي اللغة الأم للعربية وبالتالي للعبرية.. فكانت هذه المنازلة علمية المظهر، تمثل على ما يبدو تعبيرًا لما

يضمره الأوروبيون تجاهه، والذي سيتبلور في الموقف العدائي السافر من قاموسه فيما بعد.
اهتم كمال كثيرا بالمخطوطات العربية وبالاطلاع على كتابات المؤرخين العرب بشأن الآثار المصرية.. وحاول التقريب بين ما جاء فيها وما يقول به صحيح علم المصريات.
ومثال ذلك اسم "الريان بن الوليد"، فرعون مصر الذي كان في أيام يوسف الصديق كما تقول المصادر العربية.. فقد قرأ كمال اسمه في آثار تل بسطة "نراوس" فخالفه بعض الأثريين ووافقه آخرون، وقد استشهد في استدلاله بخطط المقريزي التي تقول إن اسم "الريان" في لفظ القبط هو "نرواس".
فكانت الكتابات الأثرية عند كمال وسيلته لتأكيد الانتماء للهوية العربية عن طريق ربطها بالمصرية القديمة وتذويب الفوارق بينهما.
يقول أحمد كمال في محاضرة ألقاها عام ١٩١٤ في مدرسة المعلمين الناصرية ملخصًا منهجه العلمي وتمرده على الأسلوب الأوروبي في التعامل مع الحضارة المصرية القديمة ولغتها: **" واعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغت الستين مهدت لي سبل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد وهو لغة الإعناء إن لم تكونا لغة واحدة افترقنا بما دخلهما من القلب والإبدال كما حصل في كل اللغات القديمة وكنت قبل الآن أدرس اللغة المصرية على الأسلوب الذي تلقيته من أستاذي هنري باشا بركش في مدرسة خاصة على نفقة الحكومة ولبثت مقتفيا منهاجه كغيري من الأثريين إلى قبل الآن بثماني سنوات.. وفي أثناء ذلك كنت أرى للألفاظ العربية مثيلاً في اللغة المصرية القديمة وكنت أدونها شيئا فشيئا حتى كثرت.**
ويمكننا أن نستشف روح هذا المنهج التمردي من كلمات كمال نفسه، والتي يعترف فيها في نفس الوقت بفضل الأوروبيين فيقول:**" ولا ننكر أن الغربيين الذين اجتهدوا في حل رموز هذه اللغة القديمة (الهيروغليفية) منذ ١٢٠ سنة ذللوا مصاعبها بمقابلة ألفاظها بالقبطية أو بالعبرية أو بالعربية أو بالآرامية أو بسياق الكلام.. إلخ، وفرضوا لها ألفاظا متضاربة، فالألمانيون اتخذوا لهم طريقة في القراءة تخالف الطريقة الفرنسية وكلاهما وضع اللفظ على قدر الاستطاعة مع علمهم أن حقيقة اللفظ واللهجة القومية لا تزال مجهولة.. ولم ترق في نظري كلتا الطريقتين لذلك اتخذت لقاموسي الذي أنجزت منه إلى الآن ثلاثة عشر مجلدًا طريقة سهلة وهي تحليل الكلمة إلى أجزائها.."**
ويضيف كمال موضحًا منهجه: **"ولا ننكر أنهم (الأجانب) بهذا الاجتهاد عانوا مشاق كثيرة في اللغة مما يثبت لهم الفضل الأكبر عند أهل العلم لكونهم كانوا أول باحث في اكتشاف غوامض اللغة المصرية وإظهارها من عالم الخفاء إلى عالم الوجود.. إلا أني لما وقفت على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى ما فيهما من القلب والإبدال أمكنني الخوض في مقارنتها بالبراهين القاطعة التي تظهر لنا حقائق المعاني وتبين**

لنا فحوى النصوص التي وضعت. لا أفتخر بذلك ولا أبرئ نفسي من الغلط في مثل هذا المجال الواسع، لكني سلكت طريقا أضمن وأرقى من غيره وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والإبدال في بعض كلماتها اقتداء بالمصريين أنفسهم حتى تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة في اللغتين".

ويكشف كمال في بحث آخر على سبيل المثال عن مفهوم «القلب والإبدال » الذي يقصده، حيث يضرب مثلا بكلمات "ذبر" و "زبر" و"سفر" في اللغة العربية وجميعها بمعنى: "الكتاب".. وهي كما يعتقد كمال كلمة مصرية وتقرأ "سبر" والسين تقلب ذالا و زايا والباء فاء ويعلل ذلك بسبب تعدد القبائل ولهجاتها حيث تشمل اللغة المصرية - باعتبارها أصل العربية - ألفاظًا مختلفة اللهجة باختلاف القبائل[٤٠٣].

البذور الأولى

"بدأ كمال في التصدي لموضوع مثير وغريب على عقول المصريين في القرن التاسع عشر وهو "اللغة المصرية القديمة" أو "اللغة البربائية" (نسبة للبرابي أي المعابد كما كانت تسمى وقتها)، وذلك عندما أصدر أول كتاب علمي عن آثار وحضارة مصر القديمة عام ١٨٨٣ وهو العقد الثمين، وألحق به جزءًا عن اللغة المصرية القديمة ثم أتبعه بعدها بثلاث سنوات بكتاب كامل أسماه "الفرائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية" باعتباره أول كتاب متكامل باللغة العربية يشرح ويبسط قواعد الهيروغليفية، مستخدما منهجه الرائد في الاعتماد على قواعد اللغة العربية لشرح اللغة المصرية القديمة مسترشدًا بنصوص وجداول عديدة.. والمثير أنه في مقدمة الكتاب يقول أنه قد وضعه "إجابة لما أمره به جاستون ماسبرو مدير الآثار التاريخية والأنتيكخانة[٤٠٤] المصرية".

ولكن المدهش حقًا أن هذا الكتاب قد طواه النسيان تمامًا وغاب عن الأذهان حتى صار الشائع لدى جل الأثريين المصريين أن كتاب قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي للدكتور عبدالمحسن بكير والذي صدرت طبعته الأولى في عام ١٩٥٤ هو أول كتاب عن الهيروغليفية يصدر بالعربية.. وهو نفس ما اعتقده د. بكير ذاته على ما يبدو بناءً على ما ذكره في مقدمة كتابه.. وهو أمر جد محزن أن ينسى الجميع كتاب كمال الذي سبق بكير بحوالي سبعين عامًا !! وكأنما قدر لهذا المنهج في التقريب بين المصرية القديمة والعربية أن يبدأ من الصفر مرة أخرى"[٤٠٥].

"أما كتاب الفرائد البهية، هذا فقد تضمن البذور الأولى لفكر صاحبه في التقريب بين

---

[٤٠٣] الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة -مجموعة باحثين -تقديم د.علي فهمي خشيم – ص ٨٧ وما بعدها

[٤٠٤] دار الآثار القديمة - المتحف

[٤٠٥] الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة -مجموعة باحثين -تقديم د.علي فهمي خشيم – ص ١٠١ وما بعدها

الهيروغليفية والعربية.. فهو من ناحية قد حرص على أمر غير مسبوق وهو إيراد القيم الصوتية Transliteration للعلامات الهيروغليفية بحروف عربية بدون أي استخدام لحروف أو كلمات أجنبية في كافة أرجاء الكتاب، وقد وضح سبب منهجه هذا في المقدمة التي يقول فيها: «ولما كانت هذه الأجروميات المتعلقة بالهيروغليفية) باللغة الأوروباوية ومرتبة بتراتيبهم الأجنبية أحببت أن أعمل أجرومية باللغة العربية ليسهل لأبناء وطني تناولها ويخف على ألسنتهم في هذه اللغة تداولها. ومن ذلك يبدو ميله المتمرد المبكر نحو انتحال منهج مغاير يعتمد الفكر والثقافة العربية... وهو المنهج الذي نما وتبلور مع الزمن.

اعتمد كمال في هذا الكتاب على شرح مبسط لقواعد اللغة المصرية القديمة بصورة حرص فيها على المقابلة بين قواعد تلك اللغة مع مثيلاتها في اللغة العربية مع إعطاء الأمثلة والنماذج التوضيحية.. فقام بشرح أنواع الأسماء وأدوات التعريف وأسماء الإشارة والضمائر والصفات والتفضيل والفاعل والمفعول والفعل بأنواعه واسم الفاعل واسم المفعول والصدر وحروف الجر.. وغيرها.

وقد حرص كمال عند شرح معاني الكلمات المصرية أن يعربها روحا ونصا إن أمكن.. فمثلا ترجم كلمة "باك بتاح" ""b٣k pth الهيروغليفية التي تعني: خادم أو عبدالإله بتاح إلى (عبد الفتاح).. وهكذا، وذلك بهدف ألا يستشعر القارئ العربي أي غربة عند دراسته للهيروغليفية.

والأهم أنه قد أورد في نهاية كتابه بعد مجموعة كبيرة من الجداول والمقارنات بين الهيروغليفية والقبطي والعربي وغيرهما.. أورد قاموسًا للمفردات الهيروغليفية وما يقابلها بالقبطية والعربية.. فكان بمثابة نواة لقاموسه الضخم الذي سيكرس له بعد ذلك ما يقرب من ثلث عمره"[٤٠٦].

القاموس الأزمة

اهتم الأوروبيون منذ أواسط القرن التاسع عشر على الأقل بدراسة علاقة اللغة المصرية القديمة بما يسمى اللغات السامية و من أمثال "بنسي" و"بروجش"[٤٠٧] و "أرمان[٤٠٨]" وغيرهم.. بل إن بعض الآراء ترجع الاهتمام بعلاقات اللغات السامية ببعضها إلى مطلع القرن العاشر الميلادي. بل ووصل نصيب الأصل السامي في بناء اللغات المصرية القديمة إلى ٨٠ ٪ على الأقل من مفرداتها في بعض التقديرات. لكن عموما انحصر

[٤٠٦] الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة -مجموعة باحثين -تقديم د. علي فهمي خشيم – ص ١٠٣ وما بعدها

[٤٠٧] هاينريش كارل بروجش كان عالم مصريات ألماني. عمل مع أوغست مارييت في أعمال التنقيب في ممفيس. تولى نظارة مدرسة اللسان المصري القديم في القاهرة، وأنتج العديد من الأعمال القيمة وكان رائدًا في فك رموز الديموطيقية، وهو الخط المبسط في العصور المصرية المتأخرة.

[٤٠٨] يوهان بيتر أدولف إيرمان هو عالم مصريات ومعجمي ألماني، يُعرف بكونه مؤسس مدرسة برلين للمصريات.

الجدل الدائر فيما بين أصحاب المدارس المختلفة في تحديد مدى تأثر، اللغة المصرية القديمة إما باللغات السامية وإما باللغات الحامية المحيطة بها وحشد كل منهم قدر ما يستطيع من الأسانيد لترجيح وجهة نظره.
لكن لم يقل غالبية هؤلاء باحتمال أن تكون السمات المشتركة بين اللغة المصرية ولغات الحضارات المحيطة بها سببها وجود أصل مشترك لهم جميعا قبل أن تستقل كل منطقة بحضارتها وتبلور شخصية ما للغتها وثقافتها.. فكان أحمد كمال من أوائل من افترضوا ذلك الأصل المشترك وسعوا لتأكيده.. فكانت رؤيته صادمة للجميع.. فلم يتقبلوها بل وناصبوها العداء باعتباره مصريًا عربيًا.
إذن فإن علاقة المصرية القديمة باللغة العربية باعتبارها إحدى ما يعرف باللغات السامية لم تكن من ابتداع كمال.. لكنه التقط الفكرة وطورها وعمقها وعمد إلى توطيد العلاقة بينهما.. بل واستغل امتلاكه الفائق لناصية اللغة العربية لفهم واستكناه معاني ما استعصى من الكلمات المصرية القديمة.
يتفق إسكندر المعلوف صديق كمال مع ابنه د. حسن في تحديد حجم قاموس كمال (الذي لم ينشر وظل مخطوطًا لمدة ثمانين عامًا) باثنين وعشرين جزءًا، لكن يذكر المعلوف أن تنفيذه استغرق نحو ربع قرن، بينما يذكر نجله د. حسن أنه استغرق ٢١ عامًا فقط.. وعمومًا فإذا سلمنا بأن كمال قد انتهى منه قبيل وفاته عام ١٩٢٣ فهذا يعطينا تاريخًا تقريبًا يرجع للسنوات الأولى من القرن العشرين كنقطة بدء في تنفيذ القاموس.. أي أن كمال قد أنفق حوالي ثلث عمره في إعداد هذا القاموس يصل حجم جزء حرف الشين مثلا إلى ٣٦٨ صفحة وحرفي اللام والراء (معا في جزء واحد) إلى ٣١٨ صفحة، بينما يصل حجم جزء حرف السين إلى ١٠٧٢ صفحة حافلة جميعها بالمعلومات والمقارنات والملاحظات.. وجميعهم في حجم القطع الكبير.
يعتمد كمال في هذا القاموس على إيراد الكلمة الهيروغليفية و مترادفاتها المختلفة وما يقابلها من الكلمات العربية المطابقة لها معنى ولفظًا - معتمدًا نظرية الإبدال والقلب السابق شرحها - مع ترجمة وشرح لكل كلمة بالفرنسية، هذا مع إيراده أحيانا الكلمات المكافئة بالقبطية والعبرية والحبشية والآرامية.. إلخ... لهذا يعتبره المعلوف "كتاب لغة وتاريخ وآثار وعلم اشتقاق وفلسفة لغة ". لكن رغم هذا فإن المنهج الذي اتبعه فيه كمال قد أخذ عليه البعض - مثل دارسى كما رأينا - لأنه يحلل بنية الكلمات الهيروغليفية وتراكيبها مع عدم الالتفات كثيرا إلى سياقها الذي وردت خلاله في النصوص المصرية مثلما يفعل قاموس برلين مثلاً الذي صدر بعده بعدة سنوات، لكن مع ذلك يلتمس د. منير مجلي لكمال العذر لأنه بمفرده قد أتى عملاً جبارًا أنفق فيه جهدًا طائلاً وسنين طوالاً.. عكس قاموس برلين الذي اجتمع على تنفيذه علماء العالم.. ومع هذا فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الداعي دائمًا أن نجعل قاموس برلين أو غيره معيارًا للحكم على قاموس كمال؟ وكيف يمكن توجيه نقد لعمل لم يظهر للنور وقتها بعد (لم يطبع منه للآن سوى

جزء واحد حتى صدور كتابي هذا للنور) خاصة أنه أثار بالفعل حفيظة بعض الأوروبيين؟
يشير حسن كمال إلى أن مقارنة اللغة المصرية القديمة بالعربية موجودة في بعض معاجم الهيروغليفية وخاصة معاجم الألمان.. لكن جهل هؤلاء الأثريين باللغة العربية - على حد قوله - قد أعاق كثيًرا من إجراء تلك المقارنات بشكل موسع. ومن البديهي أن شخصًا مثل أحمد كمال يلم بالعربية والهيروغليفية كان أجدر من غيره بتطبيق تلك المقارنات.
لكن من ناحية أخرى يعتبر د. منير مجلي أن أهمية طبع هذا القاموس قد تراجعت، خاصة بعد ظهور قاموس برلين للنور.. لكن أهميته الأساسية من وجهة نظره هي في التدليل على علاقة الهيروغليفية بالساميات، لكن مجلي يرفض في نفس الوقت فكرة عرض مادته على الأثريين، لأن هذا العمل سيتطلب أن يشارك في تنفيذه كل أثريي مصر وسيستغرق منهم سنين طوالاً.. لهذا فهو يفضل أن يتم طبعه تصويرًا وليس جمعًا وصفًا.
يقول كمال قبيل إتمام قاموسه متخيلاً أن حلمه على وشك التحقيق: إني أوشكت أن أتم القاموس وأقضي الغرض الذي وضعته نصب عينيّ.. لكنه لم يكن يعلم ما ينتظره. حيث بدأت فصول هذه القصة المحزنة قبيل وفاة أحمد كمال، وبعد أن أنفق حوالي ثلث عمره ليتم حلم حياته الأكبر حيث إن وزارة المعارف قد فكرت في طبع القاموس الهيروغليفي - عربي - فرنساوي بعد أن عجز المؤلف عن طبعه !! وعينت لذلك مبلغ ٤٠٠٠ جنيه مصري لولا وفاة المؤلف التي حالت دون ذلك.. لكن يبدو أن الأمور قد اتخذت منحنى آخر تمامًا.. فقد أحالت الوزارة أحد أجزائه المتضمن حرف القاف إلى مدير المطبوعات الإنجليزي، والذي أحاله بدوره إلى أحد أبناء جلدته وهو كبير الأمناء بمصلحة الآثار العالم الإنجليزي "فيرث"، لإبداء الرأي.. فأشرك الأخير معه العالم الفرنسي "لاكو"، مدير المصلحة وقتها، وعالم الآثار الأمريكي "رايزنر"، مدير بعثة حفائر جامعة هارفارد، بمنطقة أهرام الجيزة.. فجاءت ردود أفعالهم متباينة وتنم عن توجهات ومصالح بلادهم السياسية ذات الطابع الاستعماري وليس العلمي على الإطلاق.. فقد امتنع الإنجليزيان عن إبداء الرأي تفاديًا لأية حزازيات سياسية لأنهما بالطبع يمثلان سلطة الاحتلال في مصر. لكن المسيو "لاكو"، كان أكثر وضوحًا ورفض صراحة الموافقة على طبعه.. متعللاً بأن القاموس يحتاج إلى تغيير كثير، كما أن لغته الفرنسية تحتاج البعض الضبط – علمًا بأن أحمد كمال كان المترجم الشخصي لماريت وماسبرو لسنين طويلة وكتب عشرات المقالات بالفرنسية!!
وأخيرًا جاء رأي الأمريكي «رايزنر»، والذي لم تكن لبلاده وقتها أي مطامع أو توازنات سياسية في مصر، أكثر إيجابية.. فقد ذكر لأحمد كمال قبل وفاته أن المستر فيرث قد عرض عليه مجلد حرف القاف للنظر فيه فمدحه ووافق على طبعه، وأكد أن مثل هذه المقارنة اللغوية التي اتبعها كمال مفيدة.. وهي وإن لم تكن تامة في كل الكلمات إلا أن

هذا النقصان - في رأي رايزنر - لا يمنع مطلقًا من طبع الكتاب وترك التصحيح للأجيال القادمة.
وأخيرًا فقد تجددت المفاوضات بعد أن قدم أحفاد كمال طلبًا رسميًا لمسئولي الآثار لطبع القاموس.. كما قام الورثة بالفعل بتقديم الأجزاء التي في حوزتهم للمتحف.. لكن للأسف الشديد لم يطبع منه سوى جزء واحد فقط.
يوضح الجزء الأول الصادر من مخطوط كمال كافة تلك الملامح من منهجه الفكري.. لكن للأسف بدون مقدمة توضح ذلك، وأول ما يلفت النظر أن الكلمات الهيروغليفية الواردة فيه وجميعها تتعلق بعلامة الألف المصرية (طائر العقاب) قد ترجمت وشرحت أساسًا باللغة الفرنسية.. ذلك رغم ذكر الكلمات العربية المقابلة لها في كثير من الأحيان - وهو أمر منطقي يمكن فهمه باعتبار أن المستهدف الرئيسي من هذا العمل الموسوعي هم بالطبع الأثريون الأوروبيون وليس القارئ العربي الغير متخصص.
اعتمد كمال أساسًا في محاولة تفسير وتقريب الكلمات الهيروغليفية للعربية كما ذكرنا على ما يعرف بـ "القلب والإبدال"، و ذلك اقتداء بقدماء المصريين أنفسهم - على حد قول كمال.
وقد صدر كمال الجزء الأول من قاموسه بنماذج لهذا القلب في العربية، مثل أن تنقلب "الهمزة" "واوا" فتتحول كلمة "أكد" إلى "وكد" بنفس المعنى، أو كلمة "كأس" أو "كاس" والتي هي مصرية أيضا تقلب "الألف" "واوا" و"السين" "زايا" فتصبح "كوز" بالعامية.. وهكذا.. وبالتالي فكمال يعتمد التحليل البنائي للكلمات منهجًا له في فهمها.
وبذلك يفتح كمال بابًا واسعًا كان موصدًا تمامًا قبله ليتسع أمامنا عالم رحب من المقارنات الممتعة التي تفرد كمال في أغلبها، والتي أعطت بعدا أعمق للغة المصرية أوضحت مدى "التواصل" العقلي والنفسي للمصري القديم مع حضارات الوطن العربي، وأن العلاقة بينهما ليست مجرد "تأثيرات" متبادلة بل وشائج عميقة وعقل مبدع واحد[٤٠٩].

أُهملت أعمال أحمد كمال باشا ولم يُنشَر منها إلا جزء:

صحيحٌ أن ما قدّمه هذا الرائد ــ الذي تفوّق في الدراسات الآثارية المصرية، لغة وحضارة، وقرأ نقوشها الهيروغليفية قراءةَ خبير عالم ومعنيّ قبْلَ غيره بهذا الشأن ــ تمثّل في عدّة كتب ومحاضرات وتعاليم بثّها خلال عمله في التنقيب عن الآثار وتولّيه أمانة "متحف القاهرة"، إلّا أنّ أعظم منجزاته كان اكتشافه عروبةَ لغة مصر القديمة عبر قراءة نقوشها، وإصداره لمعجم "الفرائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية" (١٨٨٥)، الذي وضع فيه ــ لأوّل مرة في تاريخ تأليف معاجم هذه اللغة ــ الكلمات العربية المقابلة للكلمات المصرية القديمة، وعكوفه بعد ذلك طوال عشرين عامًا على

[٤٠٩] الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة -مجموعة باحثين -تقديم د.علي فهمي خشيم – ص ١٠٤ وما بعدها.

وضع قاموس لهذه اللغة مكوّن من ٢٢ جزءاً. ولعلّ ما حدث لهذا القاموس يُمكن أن يلخّص الكفاح المرير الذي كان على هذا العالِم خوضه انتصارًا لما تكشَّف له، ووجد معارضة شرسة من قِبل الموظفين الأجانب (فرنسيين وبريطانيين) الذين كانوا يحتكرون العمل في مضمار عِلم ما يُدعى المصريات، أي كل ما يتعلق بمصر القديمة وآثارها، تدريسًا وإشرافًا على المتاحف والتنقيبات والمطبوعات.

قبل وفاته بوقت قليل، تقدّم أحمد كمال باشا إلى وزارة المعارف لطباعة القاموس، فأحالته إلى مدير المطبوعات البريطاني، فأحاله هذا من جانبه إلى بريطاني آخر يشغل منصب كبير أمناء مصلحة الآثار ليبدي رأيه، وأشرك هذا معه اثنين، أحدهما فرنسي والآخر أميركي. وجاء رأي هؤلاء برفض نشر القاموس، باستثناء الأميركي الذي لم يجد سببًا لعدم نشره.

ولم تهتمّ الوزارة بنشره، وتمّ إهمال عمل على جانب كبير من الأهمية كان نشرُه ليدحض نظريّات الاستشراق والتغريب التي محت هوية مصر العربية، وأبعدت أصل المصريين عن كل ما يمتّ إلى العروبة بِصِلة. عملٌ كان ليكشف عن عروبة مصر على امتداد تاريخها الطويل. طوى النسيان هذا القاموس وصاحبَه لمدّة تقارب ثلاثة أرباع القرن، إلى أن أُتيح لجزء واحد منه أن يرى النور عام ٢٠٠٢، بل ولم يعد أحدٌ، حتى في مصر، يتذكّر أن هذا العالم الآثاري أصدر أوّل معجم للمصرية القديمة (الفرائد البهية...).

وبالعودة إلى صاحب هذا الاكتشاف، الذي يكاد يكون مجهولاً في الأوساط الثقافية العربية، نجد أنّه عرض تجربته في التعرّف على الصِلة بين اللغتين، وفي استعادة الهوية الحقيقية للُغة مصر القديمة، في عدّة مناسبات، كان أكثرها وضوحًا في محاضرة له ألقاها في "مدرسة المعلمين الناصرية"، ونشرت مقاطعَ مهمّة منها مجلّةُ "المقتطف" في العدد رقم ٣، بتاريخ ١ آذار/ مارس ١٩١٤.

جاء في هذه المحاضرة قوله: "اعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة ـ منذ كنتُ في الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغتُ الستين ـ مهّدت لي سُبُل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد، ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد وهو لغة 'الأعناء'، إن لم تكونا لغة واحدة افترقتا بما دخلهما من القلب والإبدال كما حصل في كل اللغات القديمة. وكنتُ قبل الآن أدرس اللغة المصرية على الأسلوب الذي تلقيته من أستاذي هنري باشا بُرُكش في مدرسة خاصة على نفقة الحكومة، ولبثتُ مقتفيًا منهاجه كغيري من الأثريين إلى قبل الآن بثماني سنوات. وفي أثناء ذلك كنتُ أرى للألفاظ العربية مثيلاً في اللغة المصرية القديمة، وكنتُ أدوّنها شيئًا فشيئًا حتى كثرت. وأخيراً اطّلعتُ على مقالة أدرجها المعلّم نافيل، الأثري، في المجلّة المسمّاة Recueil des Travaux، أبان فيها، بناءً على النص المنقوش في الدير البحري من زمن الدولة الثامنة عشرة، أن المصريين الأوَل اشتهروا باسم الأعناء (ومعناه، في العربية، أقوامٌ من قبائل شتّى) ولم يذكر النصّ من أين جاءوا، ولكنّ المدن

التي أسّسوها باسمهم هذا في ما فوق طيبة من الجنوب إلى ما بعد منف، تدلّنا على أنهم استعمروا تلك الجهة في بدايتهم ثم كثروا وانتشروا".

لو نُشرت أعماله في وقتها لدحضت نظريّات الاستشراق

ثم يصف المُحاضِر ـ بناءً على النص المنقوش ـ الجهات التي هاجرت إليها فرقٌ من هذه القبائل واستوطنتها. ففريقٌ هاجر إلى جهة القيروان وتونس والجزائر، وفريق ذهب إلى أواسط أفريقيا، وثالث إلى بلاد الصومال ومنها عبر البحر الأحمر إلى بلاد العرب، وانتشر فيها وسار من هناك إلى جنوب فلسطين. ويستنتج أن الأعناء "سكنوا تلك الجهات الشاسعة... وبثّوا فيها لغتهم فصارت لغةً أصليّة للبلاد".

ويتحدّث بعد ذلك عن طريقتين اتّبعهما الغربيون في حلّ رموز هذه اللغة القديمة، منذ ١٢٠ سنة، فيقول إنّهم "ذلّلوا مصاعبها بمقابلة ألفاظها بالقبطية أو بالعبرية أو بالعربية أو بالآرامية أو بسياق الكلام... وفرضوا ألفاظًا متضاربة، فالألمان استخدموا طريقة في القراءة تخالف الطريقة الفرنسية، وكلاهما وضع اللفظ على قدر الاستطاعة، مع علمهم أن حقيقة اللفظ واللّهجة القومية لا تزال مجهولة. ولم ترُقْ في نظري كلتا الطريقتين، لذلك اتّخذتُ لقاموسي، الذي أنجزتُ منه إلى الآن ثلاثة عشر مجلدًا، طريقة سهلة وهي تحليل الكلمة إلى أجزائها". ويضيف: "إلّا أنني لمّا وقفتُ على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى ما فيهما من القلب والإبدال، أمكنني الخوض في مقارنتهما بالبراهين القاطعة التي تُظهر لنا حقائق المعاني وتبيّن لنا فحوى النصوص التي وُضعت. لا أفتخر بذلك ولا أبرّئ نفسي من الغلط في مثل هذا المجال الواسع، لكنني سلكتُ طريقًا أضمَنَ وأرقى من غيره، وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والإبدال في بعض كلماتها اقتداءً بالمصريين أنفسهم، حتى تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة في اللغتين".

ثم نجد هذا العالم الأثري يواصل بعد سنوات، في مقالة أخرى له في "المقتطف" (العدد رقم ٢٣، أيلول/ سبتمبر ١٩٢١) تطبيق منهجه الذي أوصله إلى اكتشاف الهوية العربية للمصرية القديمة، سواء كانت اللغتان من أصل واحد أو أن إحداهما أصل الأخرى، فيخالف مخالفة كلّيّة ـ تحت عنوان "في براءة القرآن الشريف عن بعض الألفاظ الأعجمية" ـ ما درج على قوله مفسِّرون مِن أنّ في القرآن الشريف كلماتٍ غير عربية، وأيضًا استنادًا إلى ما تكشّف له.

القلب والإبدال يكشفان عن معانٍ مشتركة بين اللغتين:

يقول: "اللغة المصرية، أي لغة قبائل الأعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم، هي أصل اللغة العربية بلا مِراء، بنصّ النقوش المذكورة آنفًا (نقوش الدير البحري)، وقد نزل القرآن الشريف بهذه اللغة العربية ونصَّ على ذلك نصًّا صريحًا في آيات كثيرة". ثم يبدأ بتحليل الكلمات الواردة في القرآن، والتي جمعها الشيخ حمزة فتح الله وقال إنها أعجمية وطبَعها بأمر "نظارة المعارف العمومية" عام ١٩٠٢، فيخالف قول هذا الشيخ، مبيّنًا "أنها عربية لورودها في اللغة المصرية القديمة التي هي أصل العربية". ويُظهر بالتحليل أن كلمات مثل "أكواب" و"أباريق" و"سرى" و"هيت" و"رسّ" "وقط" و"يم" وغيرها، هي كلمات عربية، إمّا وردت في "القاموس المحيط" أو ورد جذرٌ لها واشتقاق منها، أو اكتشفت في النقوش المصرية التي هي الأصل. وفي كلا الحالين جزمَ بأنْ لا حظَّ لهذه الكلمات من العجمة.

الأكاديمي عبدالمحسن بكير يعيد اكتشافات أحمد كمال باشا:

كل هذا الذي ذكرناه ـ من استعادة هوية اللغة المصرية القديمة، وتأليف معاجم لهذه اللغة تضع مقابلاً عربيًا لكلماتها، بدل المقابل الأجنبي كما جرت العادة، منذ أواخر القرن التاسع عشر ـ طواه النسيان والإهمال، ولم يبدأ الحديث عن الهوية المستعادة إلّا بعد نحو نصف قرن، مع الأكاديمي عبد المحسن بكير وإصداره لكتابه "قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي" (١٩٥٤). ولكنْ حتّى هذا الباحث الكبير لم يأتِ على ذكر الرائد أحمد كمال باشا ومعجم "الفرائد البهية..." أو "القاموس" واكتشافه للهوية العربية للغة المصرية القديمة، إذ نجده يروي "اكتشافه" في مقدّمة كتابه الآنف الذكر بهذه الكلمات: "عندما كنتُ أتعلّم اللغة المصرية القديمة في جامعة القاهرة، كنت أستعين في معظم الأحايين بكتاب 'النحو المصري القديم' من تأليف غاردنر، وكنتُ أرى بوضوح أن هناك أوجه شبه كثيرة بين هذه اللغة وبين اللغة العربية، وكانت نتيجة هذا الشعور أني انتهيتُ مع نفسي إلى أن اللغة المصرية القديمة إنّما يجب عند دراستها في مصر أن تُقارَن بالعربية التي حلّت محلّها عندنا وأنْ تُقَرَّب منها ومن قواعدها".

بعد ذلك نجده يعدّد أهم الأشياء التي تتفق فيها اللغتان، فيؤكّد ـ من دون أن يقصد ـ صحّة ما توصل إليه أحمد كمال باشا قبل أكثر من نصف قرن تقريبًا، وهي على النحو التالي:

١- توقّف بنية الكلمة على الحروف الساكنة فحسب.
٢- بعض اللواحق الصرفية واحدة في اللغتين.
٣- الضمائر المتّصلة: كاف الخطاب للمفرد ونون التكلّم للجمع.
٤- حرف التاء للدلالة على التأنيث.
٥- وجود صيغة المثنى في كلتا اللغتين.

٦- التشابه بين كثير من الألفاظ واشتقاقاتها.
٧- تقدم الفعل على فاعله في تركيب الجملة الفعلية.[٤١٠]

يقول علي فهمي خشيم في مقدمة كتابه آلهة مصر الفرعونية في جزئه الأول ص ١٠:" **زرت الأستاذ بكير في بيته بالقاهرة في شهر يناير ١٩٩٦م. وهو في شيخوخته ومرضه. وقد أكد في حديثه عن الصلة بين المصرية والعربية وكرر مرارًا أن هناك دوافع استعمارية مريبة وجهت الدراسات المصرية وجهة تبعدها عن العربية وأخواتها قال إنه أحس هذا من أستاذه جاردنر Gardiner وسواه. قال أيضًا إنه يتمنى لو تفرغ علماء العرب المتخصصون في المصريات لدراسة العلاقة بين اللغتين وسوف يندهشون حين يدركون عمق هذه العلاقة ومتانتها وإنه حزين لأنه لم يجد الوقت ولا العافية ليقوم هو شخصيًا بمثل هذا العمل المهم."**

ثم يستطرد على فهمي خشيم مؤكدًا حديث عبدالمحسن بكير عن وجود مؤامرة ما حيث يقول: **" وقد تكون هناك دراسات تفصيلية تنشر في الدوريات والمطبوعات المتخصصة بأقلام بعض العلماء العرب في مجال المقارنة بين المصرية والعربية، في مختلف المجالات، بيد أنها لم تتبلور بعد في تيار واضح مدعم بالحجة والبرهان. فهي دراسات تقدم على استحياء وبتردد كبير. وقد يكون مثيرًا للاستغراب ومبعثًا للدهشة أن أذكر أن عددًا وفيرة ممن قابلت من المهتمين بالمصريات في القاهرة، وأساتذة آخرين، كانوا "يحذرونني" من خطر السير في خط المقاربة بين المصرية والعربية. كانوا صادقين في تحذيرهم، يخشون شيئًا من مصدر ما قد يؤدي إلى أذى عظيم، بل أذى شخصي بالغ، وضربوا أمثلة لما يقولون.**
فما مصدر هذا الخطر يا ترى؟ أإلى هذا الحد وصل الأمر؟ ومن صاحب المصلحة فيه؟ في ظني أن الإجابة تُترك للقارئ الحصيف."

محاولات التقريب بين المصرية القديمة والعربية:[٤١١]

يتبين الراصد لتاريخ المقارنة اللغوية بين المصرية القديمة والعربية وغيرها من لغات محيطها العربي القديمة عدة سمات لعل أهمها:

أولاً: أن غالبية المشتغلين بهذا المجال خلال تاريخه الحديث الذي يمتد نحو قرنين من الزمان هم من الأوروبيين. وهي سمة لها ما يبررها في كون علم الآثار في العصر الحديث بما يشمله من إحياء ودراسة للغات الحضارات القديمة علما أوروبي النشأة والتطور، وكان تأسيس أقسام ومراكز ومعاهد وجمعيات ومتاحف

٤١٠ محمد الأسعد - أحمد كمال باشا.. في قرابة العربية والمصرية القديمة – مقال بموقع العربي الجديد بتاريخ ٢٠ ابريل ٢٠٢١ https://www.alaraby.co.uk/
٤١١ هذه الفقرة بالكامل عن كتاب الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة -مجموعة باحثين -تقديم د. علي فهمي خشيم - عن ورقة بحثية قدمها د. أشرف محمد فتحي وعنونها" محاولات التقريب بين المصرية القديمة والعربية" من ص ١٢٩: ص ١٤٤

لدراسة الحضارة المصرية وغيرها من الحضارات القديمة للوطن العربي في كبريات الجامعات والعواصم الأوروبية منذ وقت مبكر مدعاة لتراكم متواصل لخبرات نرى ثمارها فيما تزخر به مكتباتها من آلاف المجلدات، للغة المصرية القديمة فيها نصيب وافر. و كان لكل جهة من هذه الجهات - رغم اهتمامها جميعًا بمجمل الحضارة المصرية - ما تميزت به من اهتمام خاص بجانب معين من جوانب هذه الحضارة. وقد نبغ الباحثون الألمان بالذات في جانبها اللغوي على الرغم من أن الخطوات الأولى في هذا المجال قد قام بها غيرهم. فكان باحثون أمثال أدولف إرمان[٤١٢] و كورت زيته[٤١٣] بما نشروا وحققوا من عدد هائل من النصوص وبما وضعوا من أجروميات[٤١٤] وصنفوا من معاجم القواعد التي بها يقرأ ويفهم المتخصصون منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن اللغة المصرية القديمة من حيث الأصوات والدلالات ومن حيث النحو والصرف في سياق تاريخي يشمل كافة مراحل هذه اللغة بدءًا من بواكير الكتابة وانتهاء بالقبطية. بل إن أهم من نبغوا في وصف وتقعيد اللغة المصرية من غير الألمان - مثل آلان جاردنر[٤١٥] - قد تعلموا في مدرستهم. لهذا كان من الطبيعي أن يكون الألمان هم الأغلبية بين واضعي الدراسات اللغوية المقارنة والمقاربة بين المصرية وغيرها من لغات محيطها العربي القديمة بما فيها العربية، لكن هذه الدراسات مع ذلك تصد معظم الباحثين العرب المهتمين بهذه اللغات عن الانتفاع بها بما كتبت به من ألمانية لا يتقنها إلا أقلهم.

ثانيا: إن معرفة هؤلاء الأجانب باللغة المصرية القديمة في إطارها الحضاري لا تكافئها معرفة مماثلة بما يقارنونها به من لغات وعلى رأسها العربية. لذلك لا نستغرب إذا وجدنا أن المجلدات الخمسة الرئيسية لمعجم برلين، أكبر وأهم معاجم اللغة المصرية، لا تضم سوى نحو ستين من المفردات العربية ونحو ثلاثة أضعافها من المفردات العبرية. وهذان الرقمان الهزيلان لا يدلان بأي حال على الصلة الحقيقية للغتين بالمصرية. كما أن التفوق العددي للعبرية هنا ليس له من دلالة سوى أن معرفة واضعي المعجم بهذه اللغة لا أقول أفضل، بل هي في أحسن تقدير أقل ضحالة من معرفتهم بالعربية نظرًا لخلفياتهم الدينية والثقافية. وهو ما ينطبق بشكل عام على كثير مما سبق أو لحق هذا المعجم من دراسات مقارنة قام بها باحثون غربيون. لهذا فإن السمة الغالبة على هذه الدراسات هو

---

[٤١٢] يوهان بيتر أدولف إيرمان هو عالم مصريات ومعجمي ألماني، يُعرف بكونه مؤسس مدرسة برلين للمصريات.

[٤١٣] كورت هاينريش زيته عالم مصريات وفقيه لغة ألماني من برلين. كان تلميذًا لأدولف إيرمان. جمع زيته نصوص كثيرة من مصر أثناء زياراته لها،

[٤١٤] هي القواعد النحوية أما معنى كلمة " أجرومية" فنسبة إلى ابن آجروم وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصِّنْهاجي النحوي المشهور بابن آجُرُّوم بفتح الهمزة الممدودة وضم الجيم والراء المشددة وآجُرُّوم معناها بلغة البربر الفقير الصوفي.

[٤١٥] سير ألان جاردنر ، كان عالم مصريات وعالم لغوي، وفقيه لغوي، وباحث مستقل. ويعتبر واحدًا من أبرز علماء المصريات في بدايات وحتى منتصف القرن العشرين.

القصر فتنشر عادة في صورة مقالات ضمن دوريات متخصصة، وعدد منها يقوم على فرز ما قام به سابقوه دونما إضافة مقارنات جديدة. ورغم ما حققه ويحققه هذا من فائدة لا يستهان بها تتمثل في وضع مقاييس نقدية - صوتية ودلالية - يمكن من خلالها الحكم على مدى صحة أمثال هذه المقارنات، إلا أنها بما تؤدي إليه من حذف واستبعاد مما هو قليل في الأصل بدون إضافة تعويضية أسهمت في وضع هذه الدراسات في فلك عدد محدود من المقارنات لا تمثل في حقيقتها سوى عينة مما يمكن مقارنته بالمصرية من مفردات عربية وغير عربية، وهي بذلك أبعد ما تكون عن الشمول. وهو ما ينطبق كذلك إلى حد كبير على المقارنات النحوية التي تتناثر في الأجروميات الموضوعة للغة المصرية. وهكذا كان من الطبيعي أن يحس أول عربي مصري يتخصص في علم الآثار المصرية ويعمل في حقله - خاصة إذا كانت له همة وقدرة الرائد أحمد كمال - إنه مؤهل للقيام بواجبه في سد الفراغ الذي لم يكن قادرا على سده آنذاك سواه، لا لدرايته الكبيرة بتخصصه، فهذا أمر يمكن أن يساويه أو يبزه فيه أقرانه من المتخصصين الأوروبيين، بل لأنه يجمع إلى هذا التخصص عروبته التي مكنته من أن يرى في النصوص المصرية ما لم يكن هؤلاء بقادرين على رؤيته من صلة وثيقة بين المصرية والعربية. وقد دفعته نشوة هذه الرؤية إلى الإقدام على مشروعه الكبير المتمثل في جوهره في محاولة جبارة لمضاهاة كامل المعجم المصري بكامل المعجم العربي، مع إيراد ما تيسر من نظائر في العبرية وغيرها. ولا شك أن حصيلة المشروع المتمثلة في اثنين وعشرين مجلدًا تضم آلاف الصفحات شكلت ولا تزال إنجازًا فريدًا في مجال مقارنة المصرية بالعربية على الأقل.

ثالثا: على الجانب الآخر،، فإن المشتغلين باللغة العربية، من مؤسسات وأفراد، في الوطن العربي - بما في ذلك مصر - وفي غيره لم يولوا هذا المجال لزمن طويل ما هو جدير به من اهتمام. فتصدر المعاجم العربية وهي تكاد تخلو من أي إشارات مقارنة إلى المصرية أو غيرها من الروافد اللغوية القديمة. بل وقد تنسب بعض المفردات العربية التي توصف بالدخيلة إلى أصول عبرية أو فارسية دونما أخذ في الاعتبار أنها تظهر في النصوص المصرية أو الأكادية منذ أكثر من أربعة آلاف عام. ولعل أوضح مثال لهذا "المعجم الكبير" الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي لم يشارك مشاركة فعالة في وضع المادة المقارنة لما صدر منه حتى الآن متخصصون في اللغة والحضارة المصرية رغم أن منهم أساتذة أجلاء كانوا أعضاءً في المجمع عند صدور المعجم. وهو ما تنص عليه مقدمة جزئه الأول الذي استغرق إعداده المتأني أعوامًا بل عقودًا حين تذكر أن المعجم "يراجعه متخصصون لهم قدم راسخة في اللغة العربية وعلومها، وفي اللغات السامية والفارسية والتركية، ذلك أنه ينبغي أن يعبر المعجم الحديث عن عصور اللغة

جميعها». لم يعد مستغربًا بعد هذا أن يذكر القاموس لكلمة مثل "تابوت" نظائر حبشية، وعبرية وغيرها دونما إشارة لظهورها الاقدم في نصوص الدولة المصرية القديمة.

وعلينا هنا أن نؤكد مرة أخرى أن إضافة أصول و نظائر من لغاتنا القديمة، ومنها المصرية، إلى معاجمنا العربية، ليس بها أدني مساس بمكانتها سواء من المنظور الدين أو القومي، كما أنه ليس تعظيمًا لكمية الكلمات المهجورة التي تحفل بها تلك المعاجم، بل هي بالتأكيد. إضافة كيفية هامة حيث تزداد اللغة العربية بها عمقا واتساعا، خاصة أنها لم تعرف الكتابة. إلا في وقت متأخر نسبيًا بحيث لا يتجاوز المكتوب نصف تاريخ اللغتين المصرية والأكدية مثلا، وبالتالي فإن ما يوجد من أصولها في هذه اللغات فيه مضاعفة لعمقها التاريخي وكشف عن جذور لها غير منظورة لم يكن ليتحقق بغير هذا الطريق. ومن هنا يمكن أن تصل إلى إدراك أوسع وفهم أعمق للقوانين التي تحكم لغتنا، بل وأن نصحح الكثير من الأخطاء التي تحفل بها معاجمنا، قديمها وحديثها على حد سواء، في نسب بعض المفردات إلى جذور هي منها براء. مثل نسب "ميناء" إلى "ونى"، باعتبار الميم مكانية. مع أن الجذر الثلاثي المصري "مني" يفيد معنى "رسا" الفعلي وكذلك المجازي أي "المنية".

في المقابل نرى المشتغلين باللغات الإفريقية من بربرية وتشادية وغيرها يهتمون باللغة المصرية اهتمامًا كبيرًا يظهر فيما تحفل به دراساتهم من مقارنات بين ألفاظها وألفاظ هذه اللغات التي كان حظ معظمها من التدوين يكاد يكون معدومًا للأسف.

رابعا: إن القول بأن القبطية هي آخر مراحل اللغة المصرية، فلا يستخدمونها في مقارناتهم. هذا مع أنها لغة الفاتحين العرب حينما غطت أقطار الوطن العربي بالكامل لم تجتث لغات هذه الأقطار بل اختلطت بها وتفاعلت معها. ولما كانت العربية تتحد في أصولها مع هذه اللغات واستمر تواصلها معها في علاقات أخذ وعطاء لفترات طويلة، فإن هذا الاختلاط وهذا التفاعل أنتج مع مرور الزمن لهجات هي عربية لكنها تحتفظ بغير قليل من سماتها الصوتية والدلالية والتركيبية السابقة على الفتح، حتى مع افتقارها للتدوين والدراسة. وهكذا نرى اليوم العامية المصرية وهي لا تزال تحتفظ بأصوات وألفاظ بل وجمل كاملة تعود إلى مراحل أقدم من القبطية في تاريخ اللغة المصرية. هذه العناصر الباقية تعطينا فرصة للتعامل الحي مع اللغة فنعرف من خلاله بعض ما لا نستطيع معرفته من النصوص المكتوبة في عدة جوانب أهمها الجانب الصوتي وتطوره، خاصة مع اعتماد الكتابة المصرية غالبا للصوامت دون الصوائت. هذه المعرفة يمكن أن تثري أيضًا المقارنات مع العربية في هذا الجانب على الأقل، وخارج مصر أيضًا في بعض أقطار المشرق والمغرب العربيين، احتفظت العاميات بمفردات ذات نظائر مصرية قديمة، منها ما له نظير في لغاتها الأقدم ومنها ما ليس له. من هذه المفردات ما بطل استعماله في مصر منذ زمن غير منظور، لكنه بقي مستعملاً حتى الآن

خارجها. ينطبق هذا بالطبع على غير المصرية من لغات المنطقة القديمة. وليس من شك في أن إحصاء هذه المفردات وغيرها من العناصر اللغوية القديمة بامتداد المنطقة العربية سيقدم رؤية أفضل لخريطة التواصل اللغوي به، بعكس ما قد يتصور البعض.

خلال القرنين الماضيين مرت محاولات المقارنة والمقاربة اللغوية بين المصرية القديمة من جهة و لغات محيطها العربي القديمة - بما فيها العربية - من جهة أخرى بثلاث مراحل على الأقل.

تتعلق أهم محددات هذه المراحل بنصيب كل منها من معرفة خصائص اللغة المصرية من خلال الاكتشافات المطّردة لمزيد من النصوص.

المرحلة الأولى: تمتد من بدايات القرن التاسع عشر إلى ثمانينيات القرن الماضي. وقد اتسمت هذه المرحلة بما تتسم به البدايات عادة من عشوائية ناتجة عن الافتقار إلى المنهج وفقدان الرؤية الشاملة وغياب المعايير اللغوية - خاصة الصوتية - الثابتة، وذلك نظرًا لأن النصوص المصرية المتاحة آنذاك لم تكن تتعدى المرحلة القبطية - في البداية - ثم الديموطيقية والمصرية المتأخرة لاحقا، وهي مادة لا تغطي الجانب الأساسي من نصوص اللغة المصرية. لذلك لا يقبل اليوم من حصيلة كتابات تلك الفترة سوى القليل.

وقد افتتحها « روسى » عام ١٨٠٨ حين أصدر عمله المعنون "مقارنة - الألفاظ المصرية"، والمكتوب باللاتينية[٤١٦] معتمدًا في الشق المصري على القبطية فقط، نظرا لأن قراءة الهيروغليفية لم تكن قد عرفت بعد.

من هذه الأعمال الرائدة يبرز اثنان ما زالا يرجع إليهما هما مصنف " بنفي"[٤١٧] المعنون "عن علاقة اللغة المصرية بالعائلة اللغوية السامية"، والصادر عام ١٨٤٤ بالألمانية[٤١٨] ومعجم "هينريش بروجش"[٤١٩] الصادر بالألمانية في سبعة مجلدات بين عامي ١٨٦٧ و ١٨٨٢ بعنوان "المعجم الهيروغليفي – الديموطيقي"[٤٢٠] وقد ضمنه "بروجش" عددًا كبيًرا من المقارنات بين المفردات والجذور المصرية والسامية. وبنظرة ثاقبة أورد في مقدمة هذا العمل المؤرخة بعام ١٨٦٧ الملاحظة التالية:

"أتنبأ مقدما أن الدهشة ستعم ذات يوم مجال البحث اللغوي لدى تبين مدى عمق الوشائج العائلية الوثيقة التي تربط اللغة المصرية بأخواتها الساميات".

---

[٤١٦] ROSSI, Etymologiae Aegyptiacae (Stern, Koptische Grammatik, Einl. S.٤, Anm).

[٤١٧] ثيودور بينفي عالمًا لغويًا ألمانيًا وباحثًا في اللغة السنسكريتية. شكلت أعماله ، وخاصة قاموس اللغة السنسكريتية-الإنجليزية ، مساهمة كبيرة في دراسات اللغة السنسكريتية. Theodor Benfey

[٤١٨] The Benefey, Über das Verhältniss der Ägyptishen Sprache zum semitischen Sprachstamm, ١٨٤٤.

[٤١٩] هاينريش كارل بروجش كان عالم مصريات ألماني. عمل مع أوغست مارييت في أعمال التنقيب في ممفيس. تولى نظارة مدرسة اللسان المصري القديم في القاهرة، وأنتج العديد من الأعمال القيمة وكان رائدًا في فك رموز الديموطيقية، وهو الخط المبسط في العصور المصرية المتأخرة.Heinrich Karl Brugsch

[٤٢٠] H. Brugsch, Hieroglyphisch-demotischen Wörterbuch, ١٨٦٧-١٨٨٢.

وهي النبوءة التي عمل بعد ذلك على تحقيقها تلميذه أحمد كمال. ولكثرة ما جاء به "بروجش" من مقارنات ومقاربات كان لا بد لعمله في ذلك الوقت المبكر من أن تشوبه بعض العيوب التي لم يكن من الممكن تجنبها آنذاك. فحصيلته اللغوية كغيره آنذاك كانت مستمدة أساسًا من نصوص متأخرة قليلة الأهمية نسبيًا، وهي أغلب ما كان متاحًا آنذاك، كما سبقت الإشارة. فكانت تنقصه المادة القيمة المتمثلة لا في نصوص الأهرام بحسب، بل وفي الجانب الأكبر من نصوص أدب الدولة الوسطى الكلاسيكي المعبر عن أزهى فترات نضج اللغة المصرية. كذلك فإن الكثير من قراءات العلامات الصوتية آنذاك قد تم تجاوزه (مع هذا فإن "بروجش" على عكس الاعتقاد السائد – قد أدرك أن الكتابة الهيروغليفية – كالعربية – تكاد تقتصر على الصوامت).

وعلى أي حال يبقى جانب لا بأس به من عمل "بروجش" قابلاً للإفادة منه حتى الآن. كذلك تجدر الإشارة إلى "راينيش"[٤٢١] الذي ضمن أعماله عن اللغات الكوشية، خاصة في معجمه البيرليني، بالألمانية[٤٢٢]طائفة من المقابلات بين الجذور العربية والمصرية. وهي مقابلات لم تسترع في هذه الكتابات وأمثالها إلا أقل انتباه حيث كان الاهتمام باللغات الأفريقية لا يزال في أضيق الحدود. هذا مع أن مناظرات مهمة مثل مناظرة الجذر المصري **snb** بالجذر العربي "سلم" قد ظهرت لأول مرة بها. وقد استقى "راينيش" معظم مادته المصرية من "بروجش" الذي كانت مصادره النصية المتاحة على الدرجة السالفة الذكر من المحدودية. لذلك فبجانب أمثال هذه اللقى الطيبة يظهر الكثير مما يتضح خطؤه الآن.

في هذه الأثناء عمل أحمد كمال على تغطية المشترك النحوي بين المصرية والعربية في كتابه التعليمي "الفرائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية".

قرب نهاية هذه المرحلة بدأت أبحاث "أدولف إرمان" و" كورت زيته" في إلقاء ضوء غير مسبوق على بنية وتطور اللغة المصرية مما حفز على الانطلاق نحو مرحلة صار البحث اللغوي المقارن فيها، على حد تعبير " فرانز كاليس"، أفضل من مجرد متاهة مظلمة.

المرحلة الثانية: في عام ١٨٩٢ أقدم "إرمان"[٤٢٣]، في دراسة بالألمانية بعنوان "علاقة المصرية باللغات السامية"[٤٢٤]على معالجة علاقة المصرية باللغات الشرقية / السامية في ضوء مجمل نتائج الدراسات الحديثة آنذاك.

في الشق النحوي من الدراسة قام "إرمان"، برسم الخطوط العريضة للمشترك النحوي والذي أسهم هو نفسه بالقدر الأكبر في مجهود استقصائه آنذاك والذي أكد لديه سامية أو

---

[٤٢١] عالم المصريات النمساوي ليو رينيش

[٤٢٢] L. Reinisch, Wörterbuch der Bilin - Sprache, Wien .١٨٨٧

[٤٢٣] يوهان بيتر أدولف إيرمان (٣١ أكتوبر ١٨٥٤- ٢٦ يونيو ١٩٣٧) (بالألمانية: Johann Peter Adolf Erman) هو عالم مصريات ومعجمي ألماني، يُعرف بكونه مؤسس مدرسة برلين للمصريات.

[٤٢٤] A. Erman.Das Verhältniss des Ägyptischen zu den Semitischen Sprachen, in ZDMG ٤٦ (١٨٩٢), ٩٣-١٢٩.

فلنقل مشرقية اللغة المصرية، وكما هو معروف فإن "إرمان" و كان يعتبر المصرية لغة سامية صرفة، وإن كانت رغم الأصل المشترك قد انفردت كلغة مستقلة منذ زمن مبكر.
أما في الشق اللفظي فكان عليه أن يبدأ أولاً بعمل حصر ومراجعة نقدية منهجية لأهم المقاربات اللفظية المصرية - السامية التي اقترحها سابقوه. لكنه هنا لم يوفق إلى استخلاص نتائج قاطعة كتلك التي استخلصها من الجانب النحوي نظرًا للقصور المعرفي بالشخصية الصوتية الحقيقية للمفردات المصرية في ذلك الوقت مما جعل الكثير من المقاربات اللفظية قائمًا على غير أساس سوى مجرد التخمين.
لذلك فبعد أن كانت قائمة المفردات التي جمعها "إرمان" تضم نحو ٢٠٠ كلمة استبعد عددا كبيرا منها، بعضه باعتباره بعيد الاحتمال وبعضه الآخر باعتباره مُستعارًا من هذا الجانب أو ذاك للجانب الآخر بحيث لم يبق له هذا الفرز.

"سوي ما لا يزيد على خمسين من المقاربات شبه المؤكدة
وخمس وسبعين من المقاربات نصف المؤكدة"

هكذا كانت هذه أول محاولة علمية جادة للتنظيم والتقييم النقدي لحصيلة القرن التاسع عشر من دراسات في هذا المجال مما دعا لوصفها بعد ذلك بالتأسيسية. وكانت بذلك فاتحة لمرحلة جديدة دامت نحو نصف القرن حتى وصلت إلى مداها في أربعينيات القرن العشرين.
لتلافي ما سبق من أوجه القصور تميزت هذه المرحلة الثانية بتطور إيجابي في منهج علم تأصيل ومناظرة الألفاظ التطبيقي بوجه عام تمثل في بحث مقنن عن التقابلات الصوتية / الفونولوجية[٤٢٥] وفي موقف نقدي قائم على هذا الأساس من المقاربات المقترحة قبل ذلك ومن اقتراح المزيد منها مع إدراك الحاجة لاستخدام أقدم الشواهد اللغوية المصرية ومع معالجة أكثر حذرًا للمادة الديموطيقية والقبطية المتأخرة. في هذه المرحلة اتخذت أولى الخطوات الجادة نحو مناظرة المصرية لفظيا بمجموعات اللغات الأفريقية من بربرية و كوشية وتشادية.
خلال هذه المرحلة المزدهرة التي شهدت نشر وترجمة عدد من أهم النصوص كما شهدت إصدار معجم برلين، أدق وأكبر معاجم اللغة المصرية المنشورة حتى الآن، حظي هذا المجال باهتمام متزايد وغير مسبوق لا من جانب المتخصصين في الحضارة المصرية والمشرقية فقط، بل كذلك من جانب المتخصصين في اللغات الإفريقية، وقد نشر هؤلاء وأولئك العديد من المقاربات القيمة في صورة قوائم مفردات تفاوتت طولاً

---

٤٢٥ النُّطقيَّات أو علم تجويد الأصوات أو الفونولوجيا (بالإنجليزية: Phonology) أو علم الأصوات اللغوية أو التصريف الصوتي أو الصوت الكلامي هو فرع من اللغويات يهتم بتنظيم الأصوات في اللغات.

وقصرًا. منهم هومل، واشترن، وماكس مولر، و كاليس، و إمبر، وزيته وكوهن، وغيرهم.
يطلق بعض الباحثين على هذا الجمع اسم المدرسة القديمة، مع ملاحظة أنه إذا كان عدد كبير من المقاربات التي اقترحها هؤلاء غير مقبول بمعايير اليوم، فإن عددًا أكبر قد صمد لاختبار الزمن.
قرب نهاية المرحلة الثانية وصل العمل الدؤوب لعدد من هؤلاء الباحثين إلى ذروته حيث شهدت ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي إصدارهم لعدد من الكتب تعد أهم ما صدر حتى ذلك الحين مثل "دراسات مصرية – سامية" (١٩٣٠) بالإنجليزية، لـ"إمبر"، و"أسس مناظرة الألفاظ المصرية – السامية" (١٩٣٦) بالألمانية، لـ"كاليس" و"التطور الصوتي للمصرية" (١٩٤٥) بالفرنسية، ل "فرجوت" و"بحث مقارن للألفاظ والأصوات الحامية – السامية" (١٩٤٧) بالفرنسية، لـ"كوهن"[٤٢٦].
تتشابه هذه الأعمال في مادتها الأساسية حيث تتعامل جميعها مع ذات الكتلة من المقاربات مع المصرية أسقط الزمن بعضها وأبقى على أكثرها. ومن بين هذه الكتب يكتسب عمل "كاليس" تفرده على أساس كمي حيث يضم نحو الألف من المقاربات المذكورة، معظمها (نحو ثمانمائة وخمسين) مع ألفاظ عربية. كما يكتسب عمل "كوهن" أهمية خاصة لكونه فيما يعتقد - من زاوية الدراسات الأفرو آسيوية المقارنة - أول من وضع المقاييس الصوتية المحددة للمقارنة بين المصرية ومحيطها الأفرو آسيوي، ومع حلول الأربعينيات تضاءل نشاط معظم هؤلاء في هذا المجال حتى توقف تماما.
في الإطار الزمني لبداية هذه المرحلة يقع العمل الكبير لأحمد كمال ممثلاً في معجمه الذي أنجز معظمه في العقدين الأولين من القرن العشرين، ليتمه قبيل وفاته، وقد شكل ويشكل عدم طباعته ونشره حتى الآن خسارة مستمرة ومتعددة الأوجه ليس أقلها أن حرمان أجيال متعاقبة من الباحثين على مدى أكثر من ثمانين عامًا من الاطلاع عليها والاستفادة منه قد أدت بمن يريد السير في نفس الطريق إلى البدء من نقطة الصفر مرة أخرى. كما أن حجبه قد ظلم أحمد كمال مرتين، مرة بإهدار مراحل حياته العلمية ومرة ثانية بحرمانه من أن يقيم عمله بين إهمال معاصريه وتركه للتقادم حيث تتزايد قيمته التاريخية على حساب قيمته العلمية. لكن حتى لو كان هذا التقادم قد أصاب بعض التفاصيل فإنه لم يصب مجمل العمل. بتعبير آخر يظل معجم أحمد كمال محتفظا بجدته طالما لم يصدر عمل آخر حتى الآن يؤدي عنه الوظيفة التي وضع من أجلها باعتباره " قاموس هيروغليفي – عربي"، كما سماه هو نفسه على الأرجح.
المرحلة الثالثة: بدأت بين خمسينيات وستينيات القرن الماضي ولا زالت مستمرة إلى الآن. وهي مرحلة تتميز على نحو خاص بطفرة نوعية في الاهتمام بالتاريخ اللغوي

---

[٤٢٦] A. Ember, Egypto -Semitic Studies, Leipzig ١٩٣٠. F. Calice, Grundlagen der Ägyptisch-semitischen Wortvergleichung, Wien ١٩٣٦. J. Vergote, Phonetique Historique de l'Egyptien, Paris ١٩٤٥. M. Cohen, Essai Comparatif sur le Vocabulair et la Phonetique du Chamito Semitique, Paris ١٩٤٧.

المقارن للغات المجموعة الأفريقية. لذلك فقد تزايدت أعمال المتخصصين في هذه اللغات في مجال مقارنة اللغة المصرية القديمة بها وباللغة العربية ضمن غيرها من اللغات المشرقية، في المقابل صارت مشاركة متخصصي اللغة المصرية أميل للقلة.
من هؤلاء "فيسيشل"، الذي قام بتأكيد وتطوير المقاييس الصوتية للمقارنة التي وضعها سابقوه فضلاً عما نشره من أبحاث أصيلة من مقاربات مصرية – عربية ومصرية – بربرية وبين المتخصصين في الدراسات اللغوية الأفرو آسيوية المقارنة في النصف الثاني من القرن العشرين يبرز "روسلر"، بما حققه من إضافات هامة في مجال المقارنة باللغة المصرية على وجه الخصوص وفي مجال علم الأصوات التاريخي بشكل عام.
وقد نشرت أهم دراساته عام ١٩٧١ بالألمانية بعنوان "المصرية كلغة سامية"[٤٢٧] قام فيها بمحاولة إعادة كتابة عدة فصول من تاريخ اللغة المصرية من حيث طبيعة استخدام الصوامت بها وذلك اعتمادًا على مقارنات معجمية مستفيضة مع لغات محيطها خاصة العربية. وقد حفزت أفكار "روسلر" الجديدة والمبتكرة الجيل الجديد من دارسي الحضارة المصرية في العقدين الماضيين (خاصة في ألمانيا والنمسا وسويسرا) على متابعة ما بدأه والبناء عليه في معالجة مشكلات المقارنة الصوتية[٤٢٨].
وجدير بالذكر هنا أن الدراسات المتخصصة في اللغات الأفرو آسيوية في روسيا وغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق قد أحرزت تقدمًا كبيرًا منذ الستينيات حيث نجح القائمون عليها - خاصة "دياكونوف" وزملاؤه من الباحثين الروس - في إضافة العديد من المقاربات المصرية – الأفروآسيوية تأسيسًا على تقاليد المدرسة القديمة (المرحلة الثانية) في فهم التطور الصوتي للغة المصرية. ولعل أهم المشاريع في هذا المجال وأكثرها طموحًا في الفترة الأخيرة هو إنشاء ما يسمى "كتالوج المفردات المصرية ونظائرها"، في المجر عام ١٩٩٤ والمؤلف من بطاقات تحمل الكلمات المصرية المعروفة منسوبة إلى جذورها وفق ورودها في المعاجم الأساسية للغة المصرية بحيث تكون لكل كلمة بطاقتها / بطاقاتها التي تحمل كذلك كل الملاحظات والمقارنات والمقاربات التي ذكرت بخصوصها في دراسات المراحل الثلاث سالفة الذكر مع وضع قائمة بكل المفردات الأفروآسيوية التي يمكن أن تكون لها علاقة بها، يشرف على هذا المشروع ويقوم بالدور الأكبر – وربما الوحيد - فيه الإيجبتولوچي المجري " جابور تاكاتش". وقد صدر عنه بالفعل خلال الخمس سنوات الأخيرة مجلدان مما أسماه المعجم الاشتقاقي / التأصيلي للغة المصرية[٤٢٩] وقد وضح الهدف من المعجم المذكور في مقدمته بأنه "إثراء المعجم الأفرو آسيوي المقارن وزيادة معرفتنا بالشخصية الأفرو أسيوية للغة المصرية". ولعل من أهم ميزاته أنه يستعرض

[٤٢٧] O. Rössler, Das Ägyptische als Semitische Sprache, in F. Altheim & R. Stiehl, Berlin ١٩٧١.
[٤٢٨] راجع : Th. Schneider, Beiträge zur Sogenannten "Neuren Komparatistik", in Lingua Aegyptia ٥ (١٩٩٧), ١٨٩ ff.
[٤٢٩] G. Takacs, Etymological Dictionary of Egyptian I-, Leiden ١٩٩٩.

لكل لفظ مصري كافة نظائره التي سبق اقتراحها دون استبعاد شيء منها مع مناقشة كل منها من وجهات نظر المدارس المختلفة مما يوفر على الباحث الكثير من الوقت والجهد، ورغم أنه قد أورد عددًا من المقاربات مع العربية إلا أن توجهه الأساسي أفريقي.
وقد صدر قبله، عام ١٩٩٤ معجم مقارن ذو توجه مشرقي بعنوان " الكلمات السامية في النصوص المصرية من عصر الدولة الحديثة وعصر الانتقال الثالث "، بالإنجليزية ل " چيمس هوخ"[٤٣٠] يرصد الكلمات التي يرى أن اللغة المصرية قد استوعبتها خلال العصرين المذكورين، بما في ذلك نحو أربعمائة وخمسين كلمة عربية. لكن معايير اختياره لهذه الكلمات ولتحديد أصولها تعرضت لنقد شديد.
وفي مجال المقارنات النحوية يمكن الإشارة هنا إلى دراستين للمقارنة بين الفعل والجملة الفعلية في المصرية والعربية وأخواتها المشرقيات، كتب الأولى بالإنجليزية عام ١٩٥٤ متخصص في الساميات هو "ثاكر"[٤٣١] وكتب الثانية بالألمانية عام ١٩٨٦ متخصص في اللغة المصرية هو "لوبربينو"[٤٣٢] وقد شهدت بداية هذه المرحلة - الثالثة - مجهودات الدكتور أحمد بدوي في هذا المجال والتي كان أهم ثمارها معجمه الذي وضعه بالاشتراك مع "هرمان كيس" بالعربية والألمانية معا أسماه "المعجم الصغير في مفردات اللغة المصرية القديمة، وقد بدأ العمل فيه منذ عام ١٩٥٢ ونشر بالقاهرة عام ١٩٥٨. وهو لا يختلف عن معجم كمال في الحجم فقط، والذي يدل عليه اسمه حيث لا يتجاوز عدد صفحاته الثلاثمائة من القطع الكبير، بل وفي الغرض الأساسي منه أيضًا فهو في الأساس موجه للطلاب الذين يجدون صعوبة في فهم معاجم اللغة المصرية الموضوعة بالألمانية.
أي أنه في جوهره معجم المعاني وليس للنظائر العربية. ومع هذا فإن صفحاته تحمل المئات من هذه النظائر التي أفرد بدوي لأهمها بعد ذلك بحثًا بعنوان "اللغة المصرية القديمة وصلتها باللغات السامية" ألقاه في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦١ وتم نشره بكتاب المؤتمر في نفس العام. ويتضح من هذا البحث أن بدوي لم يكن يشارك كمال يقينه بوجود أصل واحد لشعوب ولغات المنطقة. فرغم تأكيده على أن البحوث قد أثبتت وجود قرابة وثيقة بين تلك اللغات "هي أوثق من القرابة بين اللغات الهندية الأوروبية، إلا أن هذا - من وجهة نظره - لا يدل بحال من الأحوال على أن المتكلمين بتلك اللغات ينبغي أن يكونوا من أصل واحد، لكنه على أي حال لا يقول بانتفاء هذا الأصل من الناحية اللغوية، بل هو يدعو إلى بحث هذا الموضوع على نحو علمي وموضوعي قائلاً:

[٤٣٠] J. Hoch, Semitic Words in Egyptian Texts of the New Kingdom and Third Intermediare Period Princeton ١٩٩٤.
[٤٣١] T. W. Thacker, The Relationship of the Semitic and Egyptian Verbal system, Oxford ١٩٥٤.
[٤٣٢] A. Loprieno, Das Verbalsystem im Ägyptischen und im Semitischen, Wiesbaden ١٩٨٦.

"وفي رأيي أن النظر في القرابة بين اللغات السامية واللغة المصرية قد يصدق إذا وفق المجمع إلى إنشاء مدرسة عربية خالصة، تضم صفوة المتخصصين في اللغات السامية بعامة واللغة المصرية بخاصة".

بينما كان أحمد بدوي يعد معجمه الصغير كان عبدالمحسن بكير يعد كتابة التعليمي "قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي" المنشور في القاهرة عام ١٩٥٤. وقد ضمنه العديد من السمات النحوية والصرفية المشتركة بين المصرية والعربية متابعًا ما بدأه أحمد كمال في كتابه "الفرائد البهية"، وإن لم يكن بالضرورة قد اطلع عليه. وإضافة بكير هنا تتمثل فيما استفاده من التراكم المعرفي باللغة المصرية عبر نحو ثمانين عاما تفصل بين الكتابين، خاصة وأن عمل بكير ينصب على العصر الكلاسي للغة المصرية الذي لم تكن معظم نصوصه قد عرفت بعد إبان المرحلة الأولى التي وضع فيها أحمد كمال كتابه، وقد تابع بكير هذا التوجه لاحقا في كتابه "ملاحظات حول قواعد اللغة المصرية في عصرها المتأخر من مدخل سامي" الصادر بالإنجليزية عام ١٩٨٣[٤٣٣].

كذلك ساهم الدكتور عبدالعزيز صالح مساهمة قيمة في هذا المجال بما أورده من ملاحظات حول صلة المصرية بالعربية وغيرها في مبحثه اللغوي الذي ضمنه الجزء الأول من كتابه "حضارة مصر القديمة وآثارها" (١٩٦٤) حيث يقول "لم يتأت ما بين اللغة المصرية وأخواتها من تقارب نتيجة لعامل واحد، وإنما يرجح أنه ترتب على عوامل متشابكة كثيرة. ففضلاً عن وحدة الجنس البعيدة بين مصر وجيرانها وعامل الاختلاط الجنسي المتقطع بينهما، توفرت فرص الاتصال الثقافي والتشابك اللغوي بينهما عن طرق عدة. وهو يتبع ذلك بعرض موجز لأهم ملامح المشترك اللفظي والنحوي بين المصرية وجيرانها في الشرق والغرب في إطارها التاريخي. ثم هناك أيضا البحث الذي تقدم به المؤتمر باحثي الآثار المصرية عام ١٩٧٦ بعنوان " ملاحظات حول القيم الصوتية البعض الحروف المصرية "[٤٣٤] حيث عمل الاستفادة من التقارب الصوتي بين العربية المنطوقة - فصحى وعامية - والمصرية غير المنطوقة في التعرف على الدلالات الصوتية الفعلية الحروف وعلامات اللغة المصرية، كما دعا إليها.

أما كتاب اللغة المصرية القديمة، للدكتور عبدالحليم نور الدين الصادر في القاهرة أواخر العقد الماضي فيعد الحلقة الثالثة في سلسلة الأجروميات التي وضعها مصريون بلغة ومنهج عربيين.

وقد تزايد اهتمام الأجيال التالية من الآثاريين المصريين بصلة المصرية بالعربية، وهو ما يتجلى في تخصص عدد منهم في هذا المجال بما يعدون من أطروحات الماجستير

٤٣٣ A. M. Bakir, Notes on Late Egyptian Grammar: A Semitic Approach, Warminster ١٩٨٣.

٤٣٤ A. Saleh, Notes on the Phonetic Values of Some Egyptian Letters, in ICE, Cairo ١٩٧٦.

والدكتوراه مثل أطروحة الدكتورة زينب محروس بعنوان: "المفردات في اللغة المصرية القديمة حتى نهاية الدولة الحديثة: دراسة في الإبدال مقارنة باللغة العربية" والتي نوقشت بجامعة القاهرة عام ١٩٩٤. كما يتجلى في عديد الأبحاث التي تقدم سنويا إلى ملتقى جمعية الآثاريين العرب، فضلا عن تلك التي تنشر في حوليات المجلس الأعلى للآثار وفي مجلة كلية الآثار، وغيرها.

أما الدكتور علي فهمي خشيم فقد بذل جهدًا مشكورًا في محاولة رصد وإظهار مدى عمق واتساع العلاقة الأصيلة بين المصرية والعربية، لا كمحض مبحث علمي، بل كقضية هوية في الأساس، وقد أثمر هذا الجهد عددًا كبيرًا من المقاربات المقترحة تخللت كتاباته في هذا الصدد وعلى رأسها كتابه الضخم "الهة مصر العربية" محققًا بذلك نتيجتين هامتين:

الأولى: أنه قد تجاوز دائرة القارئ المتخصص إلى دائرة أوسع تشمل جمهرة المثقفين العرب.

الثانية: أنه وغيره من الباحثين العرب من ذوي المكانة، مثل الدكتور/ بهجت قبيسي، قد أكسبوا الاهتمام به بعدًا قوميًا هو في أمس الحاجة إليه.

وختاما فإن المتأمل لما تم إنجازه في هذا المجال عبر تاريخه الطويل يجد أنه على كثرته قليل من كثير علينا استكماله. وذلك لن يتأتى إلا بتوحيد جهود الباحثين العرب - كل في تخصصه - لإنتاج معجم عربي شامل لكل ما سبق من مقاربات مع كافة لغات العرب القديمة. على أن يصحب هذا ترجمات عربية - دون وسيط من لغات أجنبية - الأهم ما أنتجته هذه اللغات من نصوص. وهو ما سيؤدي إلى فهم أوسع للروح المشتركة لهذه اللغات وحضاراتها.

نماذج للمفردات المشتركة بين المصرية القديمة واللغات المجاورة ومنها العربية:

واذا كان د. اشرف محمد فتحي أوضح لنا بالتفصيل في الصفحات السابقة محاولات التقريب بين المصرية القديمة والعربية نجد د. عبدالعزيز صالح في كتابه "**حضارة مصر القديمة وآثارها – الجزء الأول**" وبعد أن عدّد أسباب التقارب بين اللغة المصرية القديمة ولغات جيرانها الشرقيين حيث يقول: " **لم يتأت ما بين اللغة المصرية وأخواتها من تقارب نتيجة لعامل واحد بالضرورة، و إنما يرجح أنه ترتب على عوامل متشابكة كثيرة. ففضلاً عن وحدة الجنس البعيدة بين مصر وجيرانها، وعامل الاختلاط الجنسي المتقطع بينهما، توفرت فرص الاتصال الثقافي والتشابك اللغوي بين أهليهما عن طريق الأخذ والعطاء في مجالات التجارة، والأخذ والعطاء في مراسلات الود بين الحكام، وخلال فترات المد السياسي من جانب على جانب آخر (وكان من جانب**

المصريين في أغلب الأحوال)، ثم عن طريق شيوع لهجات. الرقيق والعمال وأسرى الحروب الذين استقروا في مصر وأنجبوا فيها.

ولن تستهدف الصفحات التالية مناقشة لغوية خالصة ولا مناقشة جنسية خالصة بقدر ما تستهدف أمرين، وهما:

١- توضيح موضع مصر القديمة بالنسبة إلى جيرانها.

٢- توضيح موضع مجتمعنا الحالي بالنسبة إليها.

وفي ضوء هذين الهدفين وضوء ما أسلفناه عن تعدد وسائل التقارب بين مصر و بين جيرانها، نجد أن الصبغة السامية ظلت أكثر وضوحا في المفردات المصرية القديمة خلال ثلاث مراحل أساسية طويلة، وهي:

مرحلة التكوين الثقافي التي سبقت العصور التاريخية واستمرت خلال الألف الرابع ق.م، وكان جزء كبير من أهل مصر خلالها من نفس جنس أصحاب اللغة السامية الغربية، وظهرت ألفاظ هذه" نراه يفرد لنا نماذج من هذا التقارب المرحلة في نصوص الدولة القديمة خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م، بعد أن اعتاد أصحابها على الكتابة وأتقنوها.

ومرحلة بدأت منذ أواخر الألف الثالث ق.م، وسبقت عصور الدولة الوسطى ثم استمرت خلادا، واستقبلت مصر إبانها جماعات متفرقة من الرعاة والتجار والمهاجرين ومن عمال المناجم والأرقاء الأمور بين (الساميين)، واتسعت صلاتها بلاد الشام حتى أصبحت لغتها مفهومة عند بعض أهل لبنان.

ومرحلة ثالثة سبقت بداية الدولة الحديثة، منذ القرن الثامن عشر ق.م، واستمرت خلالها، واندفعت إلى مصر في أوائلها جماعات سامية عدة تحت ضغط هجرات آرية شمالية، ثم مدت مصر نفوذها السياسي والحضاري على نواحي الشام و أطراف العراق منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ق.م، وتهيأت لها فرص التوسع في الأخذ والعطاء مع البابليين والأشوريين والكنعانيين والأراميين و العبرانيين الأهليين ومن إليهم من الأقوام الذين ظهروا على مسرح السياسة في الشرق الأدنى القديم.

وفضلا على ما تضمنته نصوص هذه المراحل الثلاث، شاعت في العبارات المصرية الدارجة مفردات سامية كثيرة، يصعب تحديد أزمنتها، وتجاهلتها المتون الأدبية الرسمية عصورًا طويلة حتى سجلتها الكتابة القبطية منذ القرون الميلادية الأولى.

وليس من شك في أن مقارنة المفردات المصرية بالمفردات السامية ينبغي أن يبدأ بما كان بينها و بين اللهجات السامية الغربية العتيقة التي عاصرتها منذ عصورها الأولى، وانتشرت في الشام والمناطق الغربية من شبه الجزيرة العربية، لولا أن أصحاب هذه النواحي لم يسجلوا لغتهم بالكتابة إلا في مراحلها المتطورة منذ أواخر الألف الثاني ق.م، أي في عصور متأخرة كثيرًا عن بداية ظهور نصوصها المكتوبة القديمة، ولكن على الرغم من ذلك، ولحسن الحظ، تضمنت اللغة المصرية مفردات سامية غير قليلة

عاشت حتى عصور اللغة السامية الكلاسيكية وعاصرت مفردات المعاجم، واستمر بعضها حتى عصرنا الحافر، مع تغييرات طفيفة لا تكاد تحس في حروفها وحركتها، وهي تغييرات لم توجد بينها و بين المفردات المصرية فحسب، بل وجدت أمثالها كذلك بين مفردات أهل الشام وأهل العراق وأهل شبه الجزيرة العربية، ووجدت بين مفردات فروعهم الداخلية الصغيرة أيضا. "[٤٣٥]

ثم يستعرض لنا دكتور عبد العزيز صالح صور لبعض النماذج لهذا التقارب فيقول: "ففي التعبير عن أعضاء جسم الإنسان، عبر المصريون في نصوص الدولة القديمة، عن العين بلفظ " **عين** " - وعن كلمة **شفة** بلفظ **سبة** (وكانت السين تختلط بالشين في أغلب اللهجات السامية القديمة، كما اختلطت الباء بالفاء في اللغات القديمة كلها)- وعبروا عن **الإصبع** بلفظ **صباع** (حرفيًا: **صبع** وكانت حروف الحركة لا تكتب في أغلب اللغات السامية القديمة)- وعبروا عن لفظ **قلب** ولفظ **لب** بكلمة **أب** - وذكروا **اللسان** بلفظ **نس**(وكانوا لا يكتبون حرف اللام ويستعيضون عنه في الكتابة بحرف النون أحيانًا أو بحرف النون والراء، ثم كتبوه بحرفه الأصلي في عصورهم القبطية، فأصبحت كلمة **نس** تكتب **لس**).

وعبروا عن **الرجل "القدم"** بلفظ **رد**، واستخدم العرب هذا اللفظ فقالوا: ما أدري أين **ردى** بمعنى ما أدرى أين ذهب أو مشى، وقالوا **ردت** الجارية أي مشت على **رجل** ورفعت أخرى.

وذكر أهل العصر نفسه، عصر الدولة القديمة، أفعال: **حسب** – **وخب** - **وختم** - **وخت** - **وشد** - **وتم** - **وتمم**- **ونجر**- **ونعى** – و **حبس** بمعنى **ألبس**، بألفاظها العربية العادية. وقالوا **بصج** بمعنى **بصق** و**بتر** بمعنى **بصر** - و**بت** بمعنى بـ**ص**- و **خع** بمعنى **شع** - و**حتم** بمعنى **حطم** - و **بتخ** بمعنى **بطح** - و**نسب** بمعنى **لسب** أي **ذاق** و**استطعم** – **وجبجب** بمعنى **كبكب** أي **طرح أرضًا** – **ويقى** بمعنى **رقى** – **وساب** بمعنى **أنساب**، مع تحوير طفيف في كل فعل منها.

وقالوا **حكن** و**حنك** بمعنى **مدح** و **قدم قربانًا** وقالها اليمنيون القدماء بنفس المعنى - وقالوا **خوى** بمعنى **حمى** و **حفظ**، ولا زال أهل نجد في شبه الجزيرة العربية يطلقون لفظ **خَوى** على **الحارس الخاص** حتى الآن. وعبروا عن حرق الفخار بلفظ **قرر** وعبر عنه الأكاديون و العبرانيون باللفظ نفسه. وقالوا **شمع** بمعني **غني** و **أطرب**، واستعملها العرب بنفس المعني.

وفي أسماء الأحياء، عبر أهل الدولة القديمة عن كلمة **طفل** بلفظ **تفن** (أو **طفن** مع إحلال النون محل اللام) - وعن **الرفيق** بلفظ **سنو** أي **صنو**- وعن **العدو** بلفظ **سبي** - وعبروا عن ألفاظ **ذئب** و **عنزة** و **تمساح** و **جاح** بصور قريبة من صورها الحالة فكتبوها بكلمات: **سئب** و **عنخة** و **چنج** و **مساح** و **(إمساح)** - وذكروا الأسد بلفظ **رو**، وذكره الأكاديون القدماء باسم **أرو**، وسماه بعض أهل الحبشة الساميين **أرى** – وذكروا **اللبؤة**

---

[٤٣٥] د. عبدالعزيز صالح في كتابه "حضارة مصر القديمة واثارها – الجزء الأول" – ص ١٥،١٦

باسم **رو أبو**، و حين استخدموا اللام في خطهم القبطي كتبوها **لبوى**. وقالوا عن **جلد الحيوان مسقا و مسكا** وقيل عنه في العربية **مسك** وفي الأكادية **ماشكو** وفي الآرامية **ماشكا**- وربطوا بين هيئة الصقر و بين لفظ **حور**، وهو لفظ لازال يطلق على نوع من البواشق والصقور في جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها. وقالوا عن القطيع الصغير إدر وذكره أهل التوراة القدامى في لغتهم السامية باسم **غدر** و **عذر**- ويحتمل أنهم عبروا عن كلمة **وحي** بلفظ **حو** (وإن كانوا قد خصوا به الملوك).

وفي أسماء السوائل والنباتات والأشياء والمعنويات والصفات، عبر المصريون في نصوص الدولة القديمة عن **الماء** بلفظ **مو**، وعبر عنه الأكاديون القدماء بلفظ **مو** أيضا، وقال عنه الأراميون **مايا** و **ماؤ**، وقال عنه العبرانيون **مايم**، وقال عنه اليمنيون القدماء **مو، وماي** أو شيئا من هذا القبيل.

وعبر المصريون عن **الموت** بلفظه الحالي. وقالوا **منمة** أو **منامة** بمعنى **سرير** و **مرقد المتوفي** - وعبروا عن **المعية** بلفظ **مع**.

وقالوا **ورس** بمعنى **مسند الرأس** الذي توضع الوسادة فوقه، وقال عنه البابليون **ورشا** وعبروا عن **الفأس** الذي استخدموه في عصورهم الأولى استخدام المحراث بلفظ **مر**، وروت المعاجم أن **المر** عند العرب هو **المسحاة** أو **مقبضها**، وهو من **المحراث**، ويعمل به في **الطين** - وذكر المصريون **الخضر** و **البقول** باسم **سمو** وقال عنها الأكاديون **شمو**- وعبروا عنه صفة الصغر بكلمة **شرى** وعبر الأكاديون عنها بكلمة **شرو وشارو** - وعبروا عن **الطين** باسم **سين** وسماه الأراميون بعدهم بقرون طويلة **سين** أيضًا أو **سيان**.

وعبروا عن **القمح** بلفظه الحالي - واستخدموا كلمة **قد** بمعنى **هيئة** – واحتفظوا بكلمات سامية أخرى كثيرة مع تحوير طفيف في كل كلمة منها، فعبروا من كلمة **أثل** بلفظ **أسر**- وعن كلامة **ثمرة** بلفظ **برة**، وهي في الفينيقية **بر** وفي العبرية **پرى** - وعبروا عن كلمة **زمن** بلفظ **سمن** - وعن كلمة **مرض** بلفظ **مرت**، وعن كلمة **واحة** بلفظ **وحاة** - وعن كلمة **يمنة** لفظ **إمنة** - وعن عدد ست لفظ سس - وعن عدد **ثمان** بلفظ **خمن** أو **خمنو**- وعن كلمة **باكر** أو **بكرة** بلفظ **بكا** و **(باك)** - وعن كلمة **مرقاة** بلفظ **ماقة** أو **مافة** - وعبروا عن صفة **دافئ** أو **ساخن** بلفظ **سرف**، وعبر الأكاديون عنها بلفظ **شربو**، وعبر العبرانيون عنها بلفظ **سرب** - وعبروا عن **الحب والثمر** بكلمة **نبر**، وعبر الأكاديون والآراميون بالكلمة نفسها عن فكرة **النسل** و **الإنتاج**.

وأضافت نصوص الدولة الوسطى (منذ أواخر القرن الحادي والعشرين ق. م) ثروة سامية جديدة من الأسماء والصفات والأفعال: في أعضاء الجسم عبر أهلها عن **الأذن** بكلمة **ادن**، وكان الآراميون يقولونها **أودنا**. وفي أسماء الحيوانات ذكروا **القرد** بلفظ **قند**. وفي أسماء الأشياء والمعنويات والصفات، عبروا عن كلمة **لون** بلفظ - وعن كلمة **حمض** بلفظ **حمت** و**(حمز و حماة)** - وعن كلمة **دقيق** أو **دقاق** بلفظ **دقو** -- وعن كلمة **همهمة** بلفظها الحالي.

وذكرو في نصوصهم أفعال: **وهى** - **ووهن** - **وهوى** - **وفدق** (بمعنى **فتق** أو **فدغ**) بألفاظها الحالية. وقالوا **وجى** بمعني **وصي** – و **خسى** بمعنى **خسئ** – و **قاع** بمعنى **ناء** – و **عن** بمعنى **طاب** – و **فج** بمعنى **فك** - و **جمح** بمعنى **لمح** – و **قمد** بمعني **كمد** و**خدب** بمعنى **قتل**، وقيل في العربية **خدبه** بالسيف أي **ضربه فقطعه و الحدب الضرب** بالسيف يقطع اللحم دون العظم - وقالوا **آب** بمعنى **لاب** أي **ظمئ**، و **اللزب** في اللغة العربية هو **العطش**.

وأتت نصوص الدولة الحديثة بمزيد من الأسماء والأفعال السامية: وأضاف أصحابها في أسماء أعضاء جسم الإنسان كلمة جديدة، فعبروا عن كلمة **كف** بلفظ **كب**.

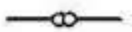
وذكروا من الأسماء والصفات كلمات: **يم** و**بركة** – و**مركبة** و**عجلة** – و**منحة** و**بركة** (بمعنى **عطية**) – و**مغارة** و**مخاضة** – و**سيف** و **حربة** و **رمح** و**زعقة** – **و زيت** و**زيتون** و**رمان** - بصور تقرب من صورها الحالية، فكتبوها بألفاظ **يم** و **بركة**- و**مركبة** و**عجرة** – و **منحة** و **بركا** - و **مجارة** و **مشادة** (أو **مشدة**) – و**سيفة** و **حرب** و**مرح** و**زعقة**.

وتصرفوا بعض الشيء في ألفاظ أخرى فعبروا عن كلمة **صبي** بلفظ **سفي** - وعن **الضفدع** بلفظ **قرر** او **قرور** (**وهر** في اللغة العربية **قرة** وفي العبرية **قرقور**) - وذكر كلمة **فخ** بالفظ **يخ** - وكلمة **تابوت** بلفظ **دابرت** - وكلمة **كعكة** بلفظ **عككة** - **وكالة طبل** بلفظ **تبن** أو **طين** مع إحلال **النون** محل اللام في الكتابة، وكلمة **لهب** بلفظ **رهب** - وكلمة **جص** بلفظ **قص**. وقالو في أفعالهم **زعق** - **عشق** - **حزن** - **نقم**، بألفاظها الحالية.

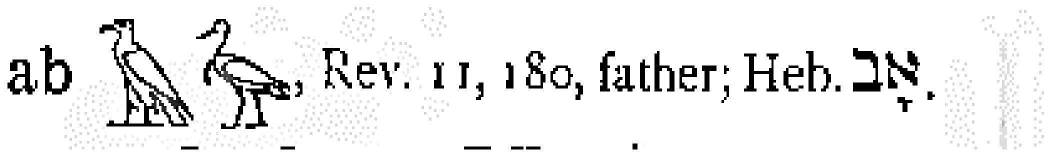
وليس من سبيل للأسف إلى معرفة مدى فضل المصريين في نحت هذه الألفاظ السامية، ولكن يرجع من ناحية أخرى، أن أهل التوراة استعاروا منهم أسماء ومفردات وأفعالاً وضموها إلى حصيلتهم السامية، فأخذوا عنهم اسم **موسى** بمعنى **الوليد** - و **بانحسى** بمعنى **النوبي** (و نطقوه **ننحاس**).

ومرة أخرى، لم يؤد التقارب بين اللغة المصرية وبين جاراتها في الشرق والغرب والجنوب إلى ضياع شخصيتها اللفظية إطلاقًا، ولم تكن المفردات التي أسلفتاها غير قلة قليلة من كثرة كثيرة من مفردات ابتدعها المصريون بوحي بينهم وبما يتناسب مطالب حضارتهم ويتفق مع أذواقهم وتخيلاتهم، فهم و إن شاركوا إخوانهم السياميين في التعبير عن العين بلفظ عين على سبيل المثال، إلا أنهم ابتدعوا للعين ستة أسماء أخرى فضلاً عن عدد من الصفات، و إذا شاركوهم في التعبير عن الأذن بكلمة أدن، إلا أنهم ابتدعوا لها خمسة أسماء سواها لم يشاركهم فيها جيرانهم. وإذا شاركوهم في التعبير عن الطفولة بلفظ طفن (طفل)، إلا أنهم عبروا عنها من ناحيتهم بما لا يقل عن عشرين لفظة أخرى. وظل ذلك شأنهم في التعبير عن كل ما أحاط بهم وعاشوا فيه ووصفوه، فعبروا عن السماء بنحو أربعين اسمًا وصفة، وعبروا عن العرش بنحو ثمانية عشر اسمًا وصفة، وعبروا عن حركات المشي في الذهاب والإياب بنحو أربعين فعلاً، وعبروا عن حالات الفرح والاستمتاع بنحو أربعين فعلاً أيضًا، وهلم جرا..."[٤٣٦].

[٤٣٦] د. عبدالعزيز صالح في كتابه "حضارة مصر القديمة واثارها – الجزء الاول" – ص ١٢ : ٣١

"من المؤسف أن ينزلق بعض العلماء العرب إلى تبني أفكار الفرنجة المُضَلَّلة، أو المضلِّلة، دون تمحيص، حتى لنجد أستاذاً جليلاً كالدكتور عبدالعزيز صالح، يقول بعد أن عقد مقارنات ممتازة بين اللغة المصرية ولغات جيرانها بين فيها الصلات والوشائج: "وانفردت اللغة المصرية من ناحيتها بخصائص وقواعد ميزتها عن لغات جيرانها، وكان من ذلك على سبيل المثال أنها تضمنت بين حروفها المكتوبة حرف (پ) لم تتضمنه أبجدية جيرانها، وتضمنت شكلين لحرف السين بينها فارق تعبيري لا يكاد يحس، ولم تشاركها هذه الظاهرة فيها أذكر غير حروف المسند القديمة التي تضمنت بدورها شكلين لحرف السين لا يختلفان كثيرا في نطقها- وهو ينقل هذا الرأي عن Driver في كتابه Semitic writing والمعروف أن "درايفر" من أشد غلاة علماء اليهود تعصبا وكتابه المذكور بالذات يعتبر نموذجًا للتشويه المتعمد والدعاية للعبرية - وهذا قول باطل من أساسه؛ فإن البابلية - بلهجاتها الأكادية والأشورية، قديمها ومتوسطها وحديثها - مليئة نصوصها بالباء المهموسة "ب" ونظرة واحدة إلى بعض مراجعها تبين هذا الواقع، كذلك الأمر في الكنعانية (نصوص رأش الشمرا - مثلاً). وينسى الأستاذ الجليل أن نصوص العربية (العدنانية) كتبت في مرحلة متأخرة سقطت فيها هذه الباء المهموسة وأبدلت فاء أو باء مفردة ويظل المعنى قريباً لقرب مخرج الصوت (قارن: باء، فاء = رجع، عاد = المصرية "ب "أو pa). أما مسألة وجود شكلين لحرف السين بفارق تعبيري لا يكاد يحس فإن وجود الشيء ذاته في حروف المسند اليمنية القديمة دليل على مرحلة تطورية مشتركة. ونضيف أن الأمر ذاته ملاحظ في الأبجدية الكنعانية (التي تسمى: الأوغاريتية) كما بينه أنيس فريحة في كتابه (ملاحم وأساطير من أوغاري) و "غوردن" (Gordon ; Ug. Handbook). إلى جانب أن العلماء اتفقوا على قراءة الرمز الهيروغليفي  سينا أما السين الثانية  التي يشير إليها فقد قرأها بعضهم صادًا وقرأها آخرون زايًا، ولعلها أحد هذين الصوتين اللذين لم يدرجها بعض العلماء الآخرين في "الأبجدية" المصرية."[٤٣٧].

وإذا طالعنا قاموس واليس بيدج سنجد تحت حرف الألف مثلاً:


ab [hieroglyphs], Rev. 11, 180, father; Heb. אָב.

[٤٣٧] على فهمي خشيم – آلهة مصر العربية – الجزء الأول – ص ١٤٣:١٤٤

كلمة أب الهيروغليفية وقد ترجمها واليس بيدج في قاموسه ص ٥ إلى father ومعناها بالتأكيد أب بالعربية. أب بالمصرية القديمة وبالخط الهيروغليفي تعني أب بالعربية والغريب أن بيدج استدل على معنى الكلمة من اللغة العبرية بينما في القبطية التي يزعم البعض أنها امتداد للسان المصري القديم فهي:



وحاولت كثيرًا أن أربط بين المفردتين القبطية والمصرية القديمة وأقوم بالقلب والإبدال ولكني فشلت في إيجاد أي جذر مشترك بين المفردتين ولكن من العجيب أن يتطابق الجذران العربي والمصري القديم.

وسأحيل القارئ إلي كتاب آلهة مصر العربية لعله يجد غايته في الجذور المشتركة بين العربية والمصرية القديمة وكذلك إلى كتب أحمد كمال العالم المصري.

وللحديث بقية....

الخاتمة

سأنقل لكم ما قال به الدكتور لؤي محمود سعيد، مدير قسم الدراسات القبطية بمكتبة الإسكندرية: " **أرى أن اللغة لها أبعاد سياسية. حيث إن قضية اللغة في الأساس هي قضية هوية، ونحن لا نناقش قضية أثرية تاريخية أو علمية بحتة. إذ أن مناقشة قضية اللغة موضوع يشغل المصريين منذ القرن التاسع عشر، وعلى مدار التاريخ حدث هبوط وصعود، والعديد من الخلافات والنقاشات حول هذه القضية هل نحن فراعنة أم عرب؟ وهل ننتمي إلى الحضارة الفرعونية القديمة أم للحضارة العربية؟".**

أولاً: يجب أن نفرق بين اللغة المكتوبة أو المنطوقة. ومن ناحية الخط المكتوب فنحن نتحدث عن الخط الهيروغليفي والخط الديموطيقي وهكذا، لكن اللغة المصرية القديمة واحدة، على سبيل المثال اللغة العربية هي لغة لكن قد تكتب بالنسخ أو الرقعة وهكذا فجميعها خطوط لكن اللغة واحدة.

هناك شيء هام يجب على الجميع معرفته وهو أن المصريين لم يغيروا لغتهم إلا مرة واحدة في التاريخ وهو الانتقال من المصرية القديمة إلى العربية، في حين غيروا عقيدتهم مرتين على مر التاريخ من المصرية القديمة إلى المسيحية، ومن المسيحية إلى الإسلامية. ويعود ذلك إلى أن من خصائص الثقافة المصرية التراكمية، حيث تختلف الحضارة المصرية عن غيرها، فالحضارات الأخرى تأتي وتزيل ما قبلها، لكن مصر ليست كذلك. حيث إن حضارتها تراكمية، على شكل طبقات، ليس من ناحية

العادات والتقاليد فقط، بل من حيث اللغة أيضًا، وهذا ما ينعكس على لغتنا العامية التي نتحدث بها.
عود أقدم نصوص العامية المصرية التي نتحدث بها إلى القرن الحادي عشر الميلادي. إذ نشأت وتبلورت في فترة مبكرة جدًا، وبالطبع تم إضافة بعض المفردات والمصطلحات إليها من لغات أخرى تباعًا، لذا نحن أمام ظاهرة ثقافية بالأساس، مرتبطة بالشخصية المصرية وتجسد العامية المصرية تركيبتها الخاصة بها."
وحول مصر القبطية قبل دخول الإسلام وبعد دخول الإسلام يقول الدكتور لؤي: "**دعونا نتكلم عن مصر بعد دخول الإسلام، حيث امتازت بالامتزاج بين ما هو وافد "اللغة العربية" وبين ما هو موروث "اللغة المصرية القديمة". وقد جسدت العامية المصرية هذا الامتزاج، وأنتجت كائنًا جديدًا بخصائص جديدة ليست عربية خالصة، أو مصرية قديمة قبطية خالصة أيضًا. لذا يمكننا القول أن العامية عربية مقبطة أو قبطية مُعربة."**
من هذا المزيج في اللغة العربية الفصحى تستخدم كلمات الإشارة، مثل: اللاتي والذي والذين وغيرها. أما في العامية المصرية تم اختصارهم جميعًا في كلمة "إلي"،الراجل إلي، الست إلي، الناس إلي، الجماعة إلي. وذلك لأنه لا توجد في اللغة القبطية سوى أداة صلة واحدة. وعندما دخلت اللغة العربية، أخضع المصري اللغة الوافدة إلى عقليته القبطية، وأنتج أداة جديدة واحدة تتفق مع ثقافته القبطية، وجاءت تلك الأداة الجديدة مكونة من ثلاثة أحرف "الألف واللام والياء" وهم الأحرف العربية التي تشترك فيها كلمات الإشارة.
وهذا ببساطة ما تختص به العامية المصرية، مثل استخدام "دي، ده، بدل هذا وهذه، ودكر بدل ذكر، واتنين بدل اثنين وهكذا". حيث إن أحرف مثل الذال والثاء لا توجد في اللغة القبطية.
هناك بعض الجمل على سبيل المثال كاملة مثل "خد أديله الكتاب ده" فهو اسم فعل قبطي اسمه دي. ودخل في العامية المصرية بنفس نطقه، وليس له علاقة باللغة العربية. وهناك اختلاف أيضًا في القواعد، مثل "يا تأكل يا تشرب". حيث إن "يا" في اللغة العربية هي أداة نداء، لكنها في اللغة القبطية أداة تخيير، ليست لها علاقة باللغة العربية.
هناك إشكالية كبرى ليست في مصر بل في جميع دول العالم العربي، وهي وجود لهجات محلية عامية تختلف عن اللغة العربية الفصحى، وجميع العاميات في تلك الدول هي خليط ما بين لغتهم الأم القديمة الموروثة مثل الكنعانية والسومرية والعدنانية والبابلية، وغيرها من لغات، وبين اللغة العربية الفصحى.
لقد حدث مزج بين الثقافة العربية الوافدة بلغتها وبين الثقافة الموروثة، وأنتجت تلك العاميات، لكن بدأ المثقفين والشعراء والأدباء ينظرون لتلك العاميات بشيء من الاحتقار، والتقليل من قدر كُتابها. وأرى أن من أعاد الوئام ما بين تلك العاميات واللغة

العربية الفصحى، هو مجمع اللغة العربية في ليبيا بطرابلس، الذي أنشأه المرحوم الدكتور علي فهمي خشيم.
ويعد هو المجمع الوحيد في العالم العربي الذي يعترف بتلك العاميات المختلفة. لأنه أدرك جيدًا أن تلك العاميات ليست تشويهًا للغة العربية الفصحى، لكنها تأصيل لثقافات وحضارات كانت موجودة واستمرت حتى اليوم. وبذلك أزال هذا العداء بين العاميات والفصحى، لكن في مصر عندما تدخل مجمع اللغة العربية وتتحدث بالعامية المصرية تعامل كأنك ارتكبت خطيئة كبرى.
أن اللغة لا دين لها ولا عقيدة. وأن اللغة العربية لم يبتكرها القرآن الكريم، بل أن أقدم نصوص اللغة العربية كانت على جدران كنائس حران في سوريا، وكانت هناك قبائل عربية أصيلة تسبق ظهور الإسلام. وأن اللغة العربية اكتسبت قدسيتها فقط لارتباطها بالعقيدة والدين الإسلامي. ونفس الشيء حدث في القبطية. فقد ظهرت اللغة القبطية في مصر قبل دخول المسيحية، لكن عندما ترجم الكتاب المقدس من اليونانية والعبرية إلى القبطية، اكتسبت القبطية قداسة لدى المسيحيين المصريين، لكن لا يوجد لغة مقدسة في العالم أجمع، وبالمناسبة يمثل المسلمين الذين يتحدثون العربية أقلية في العالم.
"ليس من المنطق إصباغ قداسة على لغة ما". هكذا قال سعيد، مضيفًا أنه الأهم من ذلك أن القرآن الكريم تضمن العديد من الألفاظ والمصطلحات غير العربية، ولم يجد غضاضة في استخدام تلك المصطلحات من اللغات القديمة الأخرى قبل ظهور العربية، ولا يجب التشدد في ذلك.
وعن العلاقة بين اللغة والهوية يقول دكتور لؤي: يتكرر هذا السؤال كثيرًا خلال محاضراتي في الأديرة والكنائس المصرية. ويكون أول ما يتم توجيهه لي من الأقباط على سبيل المثال "مصر بلدنا نحن، وأن المسلمين محتلين ودخلاء". وأن المسلمين عرب من شبه الجزيرة العربية وأن المسيحيين هم المصريين الأصليين. ويتحدث هذا النوع من الناس بحدة غريبة وغير مبررة. وهذا الكلام سمعته للأسف من أساقفة كبار. حيث قال الأنبا بيشوي -في أحد لقاءاته-: "نرحب بالمسلمين كما رحبنا بهم منذ ١٤٠٠ سنة. وهو ما يكشف أن لدى الكثير من الأقباط قناعات أن المسلمين والمسيحيين عرقين وثقافتين مختلفتين داخل مصر، وبالتالي فإن المسيحيين هم أهل البلد وأن المسلمين دخلاء".
هذا الكلام عار تمامًا من الصحة أو الحقيقة. فعندما دخل عمرو ابن العاص مصر دخل معه ١٥ ألف مقاتل، ومصر وقتها على أقل تقدير كان تعدادها ٦ ملايين نسمة. وببساطة لو كان هؤلاء الجنود قرروا أن يستقروا في مصر وهو ما حدث بالفعل، وتزوجوا من مصريات. حدث هنا ذوبان بعد إنجاب أطفال فقد تعرب هذا الجيل ثقافيًا، وتمصروا جنسيًا وعرقيًا.

"لا يوجد مصري مسلم ليس له جد مسيحي". وتلك هي الحقيقة التي يراها الكثير صادمة، فلدينا جميعا تلك الدماء الواحدة، والجين والعرق المصري سرى في دماء الجميع. نحن عرب بالثقافة وليس العرق، واللغة هي "عربية مقبطة أو قبطية معربة".

أن أحمد باشا كمال أول أثري مصري في القرن التاسع عشر، الذي كتب قاموس عام ١٩٢٥م ويتكون من واحد وعشرون جزءًا. وهو القاموس الأهم الآن في العالم لدراسة المصريات، الذي ضم الكثير من الكلمات المصرية القديمة وما يقابلها باللغة القبطية واليونانية والعربية. وأثبت فيه أن هناك علاقة وثيقة بين المصرية القديمة واللغة العربية.

وأنا أرى أنه لا يوجد شئ اسمه نحن عرب أم فراعنة. فقد لخص جمال حمدان هذا الأمر ببساطة وعبقرية بسيطة. حيث قال: "مصر من أب عربي، وجد فرعوني، والاثنين لهما أصل واحد مشترك".

الشعوب القديمة لم تكن تعلم أن هناك لغات، بل كانوا يعلمون أن لديهم تنويعات مختلفة للغة واحدة، وكان التحول من لسان للسان يتم بسهولة، لأن الأصول والجذور واحدة. والدليل على ذلك عندما تزوج الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ـــ من ماريا القبطية وذهبت للجزيرة العربية، لم تحتاج لمترجم، وتكلمت العربية بسهولة وبساطة. وهناك سنوحي المصري الذي ذهب لمنطقة الشام. فقد تحدث لغتهم أيضًا بسهولة. حيث كان التحول من لهجة إلى لهجة سهل.

أرى أن لعبة اللغة والحضارات هي لعبة سياسية للغرب واستعمار في المقام الأول. الهدف منها إبعاد الدول عن بعض. وأن تظل كل دولة تفتخر بحضارتها وتغذى النزعة الشعوبية لديها. وبالطبع لا يمكن أن تتوحد تلك الدول بعد ذلك. ويرى الغرب أن اللغة العربية ترتبط بالحضارة الإسلامية التي لديهم تحفظ عنها. فهناك خلط بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية، لذا أرى أنه لا تعارض أو تناقض ما بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية. ولا يجب الخجل من عاميتنا المصرية.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مراجع الكتاب

أولا المراجع باللغة العربية

١- أبو عثمان النابلسي الشافعي - تاريخ الفيوم وبلاده – (الطبعة الاولى ، المطبعة الاهلية ، القاهرة ، ١٨٩٨ م)
٢- دونالد مالكولم ريد – من الفراعنة - ترجمة: رءوف عباس - نسخة اليكترونية.
٣- جان لاكتوير – شامبليون حياة من نور
٤- عبدالعزيز صالح - حضارة مصر القديمة - الجزء الاول
٥- حسين فهمي حماد – موسوعة الاثار التاريخية
٦- علي فهمي خشيم - العرب والهيروغليفية
٧- الموسوعة الشاملة للحضارة المصرية – جى راشيه
٨- مراد كامل - من ديوقلديانوس الى دخول العرب - تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الثاني
٩- سليم حسن – موسعة مصر القديمة – الجزء ١ – ٢ - ١٥
١٠- افتكار البنداري السيد – نكبة توطين الهكسوس النكبة المصرية ج١
١١- رافت عبد الحميد – الدولة والكنيسة – الجزء الاول
١٢- الدكتور باسم سمير الشرقاوي - تاريخ مصر القديم من الإسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص
١٣- ادوارد جيبون - (اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) – الجزء الثاني
١٤- برنارد لويس-"قصة تدمير العرب لمكتبة الاسكندرية: تشريح الاسطورة - ترجمة: عمر جاسم عن كتاب:
What Happened to the Ancient Library of Alexandria? Edited by Mostafa El-Abbadi and Omnia Mounir Fathallah, With a Preface by Ismail Serageldin. LEIDEN • BOSTON
١٥- محمد حسين الشيخ - التاريخ ليس أنيقاً كالأساطير: فهل حقّاً دمّر صلاح الدين أكثر من مليون كتاب للفاطميين؟
١٦- جوستاف لوبون – حضارة العرب
١٧- اسكندر صيفي - - المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية
١٨- نعيم فرج - موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم – دار الفكر
١٩- اودلف ارمان - ديانة مصر القديمة
٢٠- محمود درويش –صور من حضارة مصر القديمة – طبعة ١٩٥٤
٢١- محمد عبد الفتاح السيد - المصريون والمسيحية حتى الفتح العربي

٢٢- مراد كامل حضارة مصر في العصر القبطي – دار العالم العربي القاهرة
٢٣- سمير فوزي جرجس - موسوعة تراث القبط الجزء الاول - طباعة دار القديس يوحنا الحبيب للطباعة والنشر
٢٤- مجدي عياد يوسف - مدخل الى اللغة القبطية واليونانية
٢٥- سليم سليمان -- مختصر تاريخ الأمة القبطية في عصر الوثنية والمسيحية – المطبعة المصرية الاهلية بالقاهرة طبعة ١٩١٤
٢٦- انطوان ذكري – مفتاح اللغة المصرية القديمة –الطبعة الاولي ١٩٩٧ مكتبة مدبولي
٢٧- عبد الحليم نور الدين – اللغة المصرية القديمة
٢٨- لويجي لوقا كافيللي – الجينات والشعوب واللغات
٢٩- ارنست دوبلهوفر – رموز ومعجزات - ترجمة ودراسة / عماد حاتم – دار علاء الدين للطباعة والنشر – ط ٢٠٠٧
٣٠- أحمد عاشور، صبحي السيد عاشور - الوطن الام دراسة في الثقافة المصرية
٣١- جمال الدين الشرقاوي – لغز اللغة القبطية – دراسة تأصليه تاريخية
٣٢- عاطف هلال - التاريخ السياسي والديني للغة القبطية
٣٣- حمدي عبد الرازق - العقيدة والبرهان في التاريخ
٣٤- انس احمد الشامي لحياة الثقافية الادبية في سورية في العصر الروماني - بحث لنيل درجة الماجستير في تاريخ الشرق القديم
٣٥- انا رويز - روح مصر القديمة
٣٦-ا عبده صموئيل فارس في كتابه "إسهامات الأقباط في الحضارة الإنسانية - لقاهرة: نشره بواسطة صفصفاه
٣٧- محمد السيد محمد عبد الغني - لمحات من تاريخ مصر تحت الحكم الروماني
٣٨- سلامة موسى - مجلة الكاتب المصري – يوليو ١٩٤٧ – مقال بعنوان: فلسفة للحياة وديانة للضمير
٣٩- سليمان عبد الرحمن محمد الذييب - الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية
٤٠- وافي علي عبد الواحد - اللغة والمجتمع
٤١- جمال حمدان، - "شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان" – المجلد الرابع
٤٢- جاك تاجر - "اقباط ومسلمون"
٤٣- د/ حسين مؤنس تاريخ مصر من الفتح الاسلامي الى ان دخلها الفاطميون ضمن موسوعة تاريخ الحضارة المصرية المجلد الثاني العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي
٤٤- سير ارنست الفرد – والس بيدج – حجر رشيد وكشف اسرار اللغة المصرية القديمة

٤٥- مراد كامل - القبط في ركب الحضارة العالمية
٤٦- احمد مختار عمر تاريخ اللغة العربية في مصر
٤٧- بيتر فرانس - اغتصاب مصر
٤٨- شحاتة اسماعيل - قراءات في حجر رشيد
٤٩- ابراهيم ابراهيم عناني – حجر رشيد وعلم المصريات (دراسة في اللغة المصرية القديمة ورموزها)
٥٠- محمود أحمد درويش - موسوعة رشيد "الجزء الأول": التاريخ والإستحكامات الحربية
٥١- ياسر شحاتة – اعادة كتابة التاريخ
٥٢- سير ألان جاردنر – مصر الفراعنة
٥٣- جيمس هنري بريستد - فجر الضمير
٥٤- فرانسوا دوماس – الهة مصر
٥٥- د. عبد العزيز صالح – التربية والتعليم في مصر القديمة
٥٦- د. حسين فوزى – سندباد مصري
٥٧- نديم اليسار – ليسوا الهة
٥٨- والس بيدج – الهة المصريين
٥٩- احمد بدوي – تاريخ التربية والتعليم
٦٠- فرانسوا دوماس – الهة مصر
٦١- مجلة التجديد – عدد خاص رقم ٢ – اليهود وتوراة الكهنة
٦٢- باروخ سبينوزا - رسالة في اللاهوت والسياسة
٦٣- احمد سوسة – اليهود والعرب في التاريخ – الطبعة السادسة
٦٤- دائر المعارف الأمريكية – طبعة ١٩٥٩ – الجزء الثالث
٦٥- اسرائيل حرفت الاناجيل و اخترعت اسطورة السامية - احمد عبدالوهاب
٦٦- على هامش التاريخ المصري القديم – عبد القادر حمزة – اصدارات كتاب الشعب رقم ١١ – طبعة ١٩٥٧
٦٧- عبد المحسن بكير - قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي
٦٨- مجلة المجمع العلمي العربي
٦٩- المنار: الجزء ٨ مجلد ٢٤ اغسطس
٧٠- محمد عزة دروزة - تمهيدات في سكان مصر الأقدمين والموجات العربية الجنس التي انساحت إليه
٧١- كمال حسن - تاريخ السودان القديم
٧٢- أحمد كمال - العقد الثمين
٧٣- اودولف ارمان و هرمان رانكن- مصر والحياة المصرية في العصور القديمة – تعريب عبدالمنعم ابو بكر و محرم كمال

٧٤- الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة -مجموعة باحثين -تقديم د.علي فهمي خشيم

ثانيا المراجع باللغات الاجنبية

٧٥- ROSSI, Etymologiae Aegyptiacae (Stern, Koptische Grammatik, Einl. S. ٤, Anm).,

٧٦- The Benefey, Über das Verhältniss der Ägyptishen Sprache zum semitischen Sprachstamm, ١٨٤٤.

٧٧- H. Brugsch, Hieroglyphisch-demotischen Wörterbuch, ١٨٦٧-١٨٨٢.

٧٨- L. Reinisch, Wörterbuch der Bilin - Sprache, Wien ١٨٨٧.

٧٩- A. Erman.Das Verhältniss des Ägyptischen zu den Semitischen Sprachen, in ZDMG ٤٦ (١٨٩٢), ٩٣-١٢٩.

٨٠- A. Ember, Egypto -Semitic Studies, Leipzig ١٩٣٠. F. Calice, Grundlagen der Ägyptisch-semitischen Wortvergleichung, Wien ١٩٣٦. J. Vergote, Phonetique Historique de l'Egyptien, Paris ١٩٤٥. M. Cohen, Essai Comparatif sur le Vocabulair et la Phonetique du Chamito Semitique, Paris ١٩٤٧.

٨١- O. Rössler, Das Ägyptische als Semitische Sprache, in F. Altheim & R. Stiehl, Berlin ١٩٧١.

٨٢- Th. Schneider, Beiträge zur Sogenannten "Neuren Komparatistik", in Lingua Aegyptia ٥ (١٩٩٧), ١٨٩ ff.

٨٣- G. Takacs, Etymological Dictionary of Egyptian I-, Leiden ١٩٩٩.

٨٤- J. Hoch, Semitic Words in Egyptian Texts of the New Kingdom and Third Intermediare Period Princeton ١٩٩٤.

٨٥- T. W. Thacker, The Relationship of the Semitic and Egyptian Verbal system, Oxford ١٩٥٤.

٨٦- A. Loprieno, Das Verbalsystem im Ägyptischen und im Semitischen, Wiesbaden ١٩٨٦.

٨٧- A. M. Bakir, Notes on Late Egyptian Grammar: A Semitic Approach, Warminster ١٩٨٣.

٨٨- A. Saleh, Notes on the Phonetic Values of Some Egyptian Letters, in ICE, Cairo ١٩٧٦.

٨٩- The Egyptian book of the dead - Wallis Budge P: ٦

٩٠- Mythologie égyptienne - Sir Peter Le Page Renouf P: ٢١٥

٩١- Thomas .L. Thompson. Early History of the Israelite people, London ١٩٩٤, PP. ١٦٨,١٦٩

٩٢- G . Garbin, History and idology in Ancient Israel, London ١٩٨٨

٩٣- Edward Hincks -Catalogue of the Egyptian Manuscripts in the Library of Trinity College P. ٢٦

٩٤- Frederick George Walker - The Journal of Egyptian Archaeology، المجلد ٢ – ١٣٦p -Hojn Leitch - Miscellaneous Works of the Late Thomas Young, M.D., F.R.S., &c ...، المجلد ٣ – ٤٦٢p

ثالثا المقالات

٩٥- الباحث: أشرف السيد الشربيني – مدونة التاريخ
http://histoc-ar.blogspot.com

٩٦- ماجد كامل مقال بعنوان القديس العظيم الانبا شنودة وديره الأثري بأخميم.
https://coptic-treasures.com/article/%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٢%D٨%AF%D٩%٩%D٨%A٨%B٣-%D٩%٨٤%D٩%٨B%D٨%B٩%D٨%D٩%A٩%٨٥-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٧%D٩%٨٦%D٨%A٨%D٨%A٧-%D٨%B٤%D٩%٨٦%D٩%٨٨%D٨%D٨%AF%A٩-%D٩%٨٨%D٨%AF٩%D٨%A٨%B١%D٩%٨٧-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٣%D٨%AB/

٩٧- د/ طه عبد العليم - كيف انقطعت صلة المصريين بتاريخ مصر – بوابة الاهرام الالكترونية -
https://www.ahram.org.eg/Archive/١٨٤/٢٠١٠/٦/١/١٠/٢٢٩١٣.aspx

٩٨- https://www.worldhistory.org/

- الهيروغليفية المصرية - Priscila Scovilleبواسطة Priscila Scoville،
ترجم بواسطة Norah Suhluli - نشرت في ٠٢ July٢٠١٥
٩٩- نصلمقال للقمص انجليوس جرجس على هذا الرابط:
https://mkalatk.com/article/١١٠٥٩٥-
%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٩%D٨%B٥%D٨%B١-
%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٢%D٨%A٨%D٨%B٧%D٩%٨٩-
-٢١
%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٣%D٩%٨٢%D٨%A٨%D٨%A٧
%D٨%B٧%D-٩%٨٤%D٩%٨٥-
%D٩%٨D%A٨%D٨AD%٨B١%D٩%٨٢%D٩%٨٨%D٨%A٧-
%D٩%٨٥%D٩%٨٣%D٨%AA٨%A٨%D٨%A٩-
%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٥%D٨%B٣%D٩%٨٣%D٩%٨٦%
%D٨%D٨%AF%٨B١%D٩%٨D%A٨%A٩
١٠٠- أ. د. زينب عبد العزيز - مقال بعنوان (حرق مكتبة الإسكندرية القديمة: تعقيب على القمص أنجيلوس جرجس)
http://www.saaid.net/daeyat/zainab/٢٣٦.htm
١٠١- قصة تدمير العرب لمكتبة الاسكندرية : تشريح الاسطورة . برنارد لويس
https://omarjasim.org/٢٠١٣/٠٩/١٣D%/٩%٨٢%D٨%B٥%D٨%A٩
%D-٨%D%AA٨%D%AF٩%٨٥%D٩%D٨%A٨%B١-
%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٩%D٨%B١%D٨%A٨-
%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٩%٨٣%D٨%AA٨%A٨%D٨%A٩-
%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٧%D٨%B٣%D٩%٨٣%D٩%٨٦%D
%٨D%AF%٨B١%D٩%٨D%A٨%A٩-
%D٨%AA٨%B٤%D٨%B١/
١٠٢- محمد الأسعد - أحمد كمال باشا.. في قرابة العربية والمصرية القديمة – مقال بموقع العربي الجديد بتاريخ ٢٠ ابريل ٢٠٢١
https://www.alaraby.co.uk/

فهرس المحتويات

1

سلسلة التاريخ الخرافي

الحضارة المصرية

كان الغَربُ يُطلقـون عليها (لغة العصافيـر)، وكان الغَربُ في بداية تَحضُّره يراها طَلاسـم سـحرية أو نقوشًـا لتَزيين الجُدران والمَعابـد والمِسَلّات. كيـف ابتكـر قدمـاء المصرييـن هـذه الكتابـة؟ وكيـف اسـتمرّت لأربعـة آلاف عامٍ؟ ثم فجـأة اندثرت ولم يَعُدْ يتَحَدث بها حتى أهلُها لتتحول إلى رموزٍ أسطُورية! كيـف اسـتبدلوها بلغـة المحتـل اليونانـي، بعـد إضافـة بعض حروف الديموطيقية لها؟

كيف سقطت هذه وتلك أمام العربية دون مقاومة؟!

وكيف بُعِثَت للحياةِ من جديد؟!



معتز فطين زغلول

ليسانس حقوق جامعة القاهرة

مدير شئون قانونية شركة جيت ارو للسياحة والنقل

مدير الموارد البشرية شركة ممنون للسياحة النيلية

دار حروف منثورة للنشر والتوزيع

01005139572

01113006296

https://horofpdf.wixsite.com/ebook

حروف منثورة للنشر والتوزيع

heruf_mansoura_publishing

herufmansoura